أمل بركات

ثلاثية الجسر

وفي القلب أمنية

رواية

الجسر الأول (وفي القلب أمنية)

.....

ثلاثة جسور ، لكل منها قصة مكتملة ومنتهية ورغم أنها منفصلة إلا أن الحب جمعها لتتمكن الأرواح من العبور بسلام من خلالها إلى الحنايا...

أسميتها بالجسر لأنها ستقرب بين القلوب من خلال جسر الحب الذي بنيته خصيصًا لكل من ضاعت هويّة قلبه مع قسوة الأيام وظنّ أنه سيعيش للأبد في التيه , لكن معي ستعلم أنك كنت مخطئًا لأن القلوب تتقلب بين يدي الرحمن .

قد تكون خدشت الحياة بقسوتها قلبك لكنك ستتعافى وستتمكن من المواصلة لتستقر على الجسر المؤدي لسعادتك لتصل منه إلى من تحب و تتشبث بقلبه و لسان حالك يصك عهدًا بعدم الفراق حتى وإن تفرقت الأجساد فالروح لا تفنى .

.....

.

الرواية، القصائد و الغلاف : أمل بركات

مراجعة لغوية: فاطمة محمد، آية شمس

.....

قد تظنينه عنيدًا، لكنك مخطئة!

فالعند سياج أحاط به هشاشة طبعتها الأيام على روحه....

أمل بركات

الإهداء

.....

إليكَ أنت آدم!

المقدمة

بنيتُ على قلبى جسرًا يمر بين حناياك

لعل روحي تتسلل لتبحث عنّي هناك

أنا تلك الأمنية التي دومًا تهواك

أنا الكون برمته حين تزدان دنياك

فيهديك قلبا بِكرًا سكناه يداك

على أمل أن تأويه تحت سماك

ليسمع لحن أشواقٍ تغنت به شفتاك

لم أعهد الحب قبلك, فهلا جدت بهواك ؟

ألا ياسيدى تشعر بقلبٍ يهفو لرؤياك ؟

أما آن أن تلحظ حبًا يسري بدماك ؟

قلبًا ينبض اسمك به الرب حباك ؟

ألا تخشى رحيل فؤاد بات يحلم بلقياك ؟

وإن رحل ..... فلن تلقاه أبدًا عيناك

فلن أمضي في دربٍ لم تطأه قدماك

ومهما كنت كريمة لن أطيق استنزاف

يبعثر من كرامتي و يكسرني بجفاك

الفصل الأول

(العودة للأوراق)

.....

قد يكون المرض النفسي أعظم وأشد خطورة من نظيره العضوي ومع ذلك لا سبيل للذهاب لطبيب يهتم, هل نفقد الأمل في الشفاء حينها؟ أم نصنع طبيبنا الخاص من خلال قلم وعدة أوراق ؟

.....

في الواحد والعشرين من شهر يوليو القادم سأتمم ثلاث سنوات لمكوثي في ذلك القفص الذهبي المزعوم وقد انتصف بي العقد الثالث ....

منّ الله عليّ بأجمل ريم, لم تكمل عامها الثاني بعد, هي أجمل ما تراه عيني في هذا الكون وأعذب ما تحياه روحي، فلولاها لما تناسيت ما يضيرني...

ولكن خلال فترة زواجي وددت زيارة الطبيب النفسي , نعم وبكل صراحة, أنا أحتاجه وبشدة

لايُشترط التجول في الشوارع بجنون لأضمن ارتياد العيادة النفسية , ولكن ثقافة مجتمعنا للأسف هي من صورت لنا ذلك , وكأن الذي يود الذهاب للعيادة النفسية سيلحق العار بنفسه وذويه

وسيأخذ لقب المجنون...

أصعب شيء في الدنيا أن يتألم المرء نفسيًا ويسيطر عليه الهم والحزن

ولا سيما إن كان السبب متعلقًا بالقلب والهوى ..

أنا تلك الضعيفة التي أحبت شخصًا يرى أنه في عالم ليس به سواه ...

بل أنا المغيبة لأنني لم أرّ الطريق الذي لابد أن أتبعه وخدعتني عيناه التي أذوب عشقا في ليلهما.

كتبت آخر عبارة رغمًا عنها وكأن القلم تحرك وحده لينقش تلك الكلمات ...

صاحت : ماهذا الذي كتبته؟

شخبطت على الجملة بعصبية وهي تردد: و مالذي أخذته منهما لأظل رهن عشقهما؟ أنا مغفلة .

ظننت صمته الدائم في فترة الخطبة بسبب التزامه لأنني غريبة عنه

أو ربما لأن الزواج كان تقليديًا, أو كما يسمونه زواج "صالونات"

والأكثر غرابة هو قصر فترة الخطبة, الفترة التي لابد أن يتعرف كل طرف على الآخر عن كَثَب وبدون تزييف , ولكن ستبقى هذه الفترة تلك الفترة الرومانسية هي فترة الكذب الكبرى بين كل زوجين .

لم أكن أعلم بذلك حتى وقعت في الفخ نفسه...

لقد عاشرت شخصًا في مرحلتين , مرحلة الخطبة ومرحلة الرباط المقدس..

خلال تلك المرحلتين لاحظت فروقًا شتّى , ربما أنا حساسة بشكل مفرط

أو ربما لا أملك حدسًا قويًا للحكم على الأشخاص , لكن ماذا عساي أن أفعل؟

ولا سيّما أنني خجولة ولم أكون علاقات اجتماعية تمدني بالخبرة اللازمة ..

فقد أحكم والداي غلق الباب عليّ وأخي لخوفهما الزائد علينا

جدير بالذكر أيضا حسن ظني بالناس الذي يضع غشاوة على عينيّ

ولا يمكّنني من رؤية حقيقة من أمامي , ياله من عيب...

لقد حرصا أبواي على تنشئتي أنا و أخي تنشئة سويّة صحيحة بفضل الله...

كثير من الآباء يربون أبنائهم للوصول إلي مناصب مرموقة لكنهم نسوا أهم شيء وأعظم مطلب وهو بناء إنسان سوي نقي... لا أعلم هل الأهل فقط المسؤل الرئيسي عن ذلك أم ثقافة المجتمع؟ ثقافة المجتمع الذكوري التي جعلت كلمة رجل ميزة لصاحبها والعكس صحيح للمرأة ...

وياترى لم لم أعلم تلك الثقافة قبل زواجي؟ هل لجهلٍ بي؟ أم لأنني كنت الأميرة

المتّوجة في بيت أبي والمستشارة لأي قضية تعتري الأسرة باعتباري الابنة الكبرى؟ هل مكانتي في أسرتي أمر مبالغ فيه؟ أم هي مكانة طبيعية ؟ أم أنني حساسة للدرجة التي أثقلت كاهلي وأتعبتني من التفكير ؟؟ سألت نفسي كثيرًا , لأنني أعتقد أن كل ذلك سبب معاناتي .

استفاقت من تلك الفضفضة الحارة مع مفكرتها التي عادت لتدوين ما يعتريها بها مؤخرًا كما كانت تفعل أيام دراستها الجامعية بعد انقطاع دام لثلاث سنوات، على جرس الجوال , إنها سحر صديقتها الحميمة التي لطالما استأنست برفقتها منذ ارتياد الجامعة وحتى زواج كل منهما لم يفرقهما الزواج والإنجاب بل زاد ارتباطهما ببعض لتبادل الخبرات الحياتية و استعادة الذكريات الجميلة حتى الفترة التي تقضيها سحر رفقة زوجها فى الكويت تتواصلان عبر الإنترنت رغم أنه لم يكن كاللقاء وجه لوجه لكنه يروي الاشتياق حتى وإن كان بالنذر اليسير .

حدثت نفسها حينما رأت اسم سحر قائلة : وجود صديقتي فى حياتي نعمة أسأل الله أن يديمها ولا يحرمني إيّاها... كيف حالك, توأمتي ؟

ابتسمت سحر و كأنها رأت وجه صديقتها من خلف الشاشة أم أن نبرة صوت أمنية كشفت عن قسماتها ؟ فردت : بخير يا نور عيني , سنتقابل غدًا إن شاء الله ولكن بالنادي لذلك هاتفتك..

- ولماذا لايكون عند والدتي أو حتى والدتك ؟؟

قالت سحر وهي تتذكر طفلها النائم : وددت أن يتنزه محمد كما أن ريم ستسعد بذلك..

تذكرت أمنية تلك النائمة في فراشها , قالت : معك حق , لها فترة طويلة لم تتنزه ...

- إذن , سنتقابل الساعة الخامسة مساءً بإذن الله...

- بإذن الله يا عزيزتي, فأنا أحتاج للخروج أكثر منهما ..

شعرت سحر بذبذبات حزينة تتخلل صوت رفيقتها فقالت : كلما حادثتك , يزداد قلقى عليكِ , ماذا ألمّ بكِ ؟؟

-لاشيء حبيبتي , ربما مسؤلية ريم أتعبتني قليلا ..

لم تود الضغط عليها , فتابعت : يالها من مسؤلية كبيرة , فمهمة الأم هي أصعب المهمات على الإطلاق

ـ نعم , نعم...لكنها تستحق حفظهما الله ورزقنا برهما ..

قالت سحر وهي تحاول تدليل أمنية : آمين , وحفظكِ يا أُمنيتي الجميلة .

تتابعت ضحكات أمنية حتى ضحكت سحر ثم صمتتا ...

تعجبت سحر من كل ذلك الضحك , حتى أنها ظنت صديقتها تتابع شيء ما على التلفاز أثناء المكالمة

جعلها تضحك هكذا فقالت لها: أضحكيني معك يا أُمنية ..

شعرت أمنية بالندم لفعلتها , لم يكن هناك شيء يستدعي الضحك , فقالت: أعتذر منك يا سحر , أنا أضحك على ذلك الدلال الذي أحصل عليه بمناداتك لي أمنيتي الجميلة , و نور عيني لكم أحب ذلك , أنا محظوظة لكونك بجانبي , ثم تابعت متسائلة :من سينعتني بكل ذلك الدلال غيرك أنتِ يارفيقتي ؟

شعرت سحر بالألم الذي تسلل لها من كلمات أمنية فقالت : إذا, أنتِ لست بخير.

حاولت أمنية التملص من أي تحقيق , فسألتها متصنعة اللامبالاة : لماذا تقولين ذلك؟؟

ـ اممم, لن يجدي الهاتف نفعا, مقابلتنا ستكون الدواء وسط الخضرة والزهور وبرفقة طفلينا ولاتنسى تناول المثلجات والشوكلاتة وبعدها فنجان القهوة , أراك يوم الجمعة يا حبيبتي...

كانت لكلمات سحر وقعًا طيبًا على نفس أمنية , تناثرت على أثرها طاقة التفاؤل إلى نفسها فقالت مبتسمة : بإذن الله غاليتي , في رعاية الله وأمنه ...

حدثت نفسها قائلة : أشتاق للجمعة القادمة من الآن , مكالمتها مدتني بالطاقة الإيجابية اللازمة لأكمل باقي يومي بسلام ..

أغلقت الهاتف وعادت إلى مفكرتها , قبل النزول لحماتها برفقة صغيرتها التي مازالت نائمة فلا زال الوقت مبكرًا..

فقد اعتبرت تلك المفكرة طبيبها النفسي الذي تحكي له بمكنونات قلبها ، استأنفت كتابتها فى السنة النهائية من الجامعة حتى تجاوزت الكتابة منتصفها بعدة ورقات ، نسيتها داخل درج المكتب حتى باتت جزءًا منه ، وهاهي عادت لها منذ أيام حينما تذكرت اقتراب موعد ذكرى زواجها الثالثة ، نادتها المفكرة عندما كانت تنظف المكتب فقررت تدوين ما تشعر به كما كانت تفعل من قبل ....

أخذت تقلب الصفحات بأصابعها حتى استقرت على هذه..

أنا أُمنية لست اسمًا فقط بل لطالما كنت أُمنية أُمي وأبي ابنتهما الكبرى التي حظيت باهتمام بالغ ويصغرني أخي الوحيد مازن الذي تفرق بيني وبينه خمس سنوات ورغم ذلك أتعلم منه فن التعامل الراقي وخاصة أنه يتميز باللباقة وخفة الظل فيحبه كل من يتحدث معه ، لا أعلم كيف تعلم كل ذلك رغم أننا تربينا سويا لكننا مختلفين لكل منا منهجه بالحياة ربما اكتسب كل منا ماينا سبه من المجتمع الذي لم يسعنا رؤيته عن كَثَب ... ها أنا بالسنة النهائية في الجامعة بكلية الهندسة ....

تلك الفتاة الجميلة بشهادة من حولي ومتفوقة في دراستي فبالرغم من صعوبة دراستي إلا أنني لم أتوان في الاهتمام بنفسي ومظهري ولاسيّما أنني ترعرعت في كنف أسرة ميسورة الحال تقريبًا وأنا بمثابة طفلتهم المدللة ..

لن أقول أنني الحلم المُنتظر لأي شاب , لكنني تلك الفتاة الحالمة التي تسعى لتطوير ذاتها بالقراءة والثقافة اللازمة لخوض أي تجربة بأعلى نسب نجاح ممكنة ... ساعدني في ذلك مكتبة أبي العظيمة التي تحوي القديم والمعاصر من الكتب .... لطالما اعتبرت الزواج أعظم تجربة محاطة بأسس مقدسة لتعمير الكون حاولت الاجتهاد في الدراسة قدر المستطاع كي أكون عند حسن ظن نفسي بي وقبل ذلك أبي وأمي من وازنا بين الحب والحياة الكريمة ...

زفرت بضيق وهي تقرأ وتمتمت قائلة : هه ، وماذا أصبحت الآن ؟

عادت لسطورها

.....

تختلف روعة الصباح باختلاف ما يلاقيه كل منا حالما يستيقظ , لكن ماذا عمّن رهن صباحه برؤية من يحب ؟ وكأنه بذلك يستمد الطاقة من الخفقات التي يهتف بها قلبه باسم محبوبه ...

بمجرد انتهائها من مهاتفة صديقتها , اتجهت للمرآة تعدل هندامها وتضع مساحيقها بعناية حتى أصبحت راضية عن هيئتها التي تضج أنوثة , عادت للهاتف مسحت عليه لتهاتف زوجها بمكالمة فيديو , الذي ما إن رآها حتى أطلق صفيرًا ثم أرسل لها قبلاته عبر دائرة الكاميرا

ظننتك ستوقظيني يا سحر , لكنك تأخرتِ اليوم .... قالها وهو ينظر لنفسه عبر المرآة ليتأكد من تناسق هندامه قبل الذهاب لعمله..

غضنت جبينها وهي تبتسم لتقول : أنا آسفة .. حبيبي , كنت أتحدث مع صديقتي .

ـ لا عليكِ حبيبتي ، لو لم أكن متقيدًا بالعمل لواصلت الحديث معك طوال اليوم...

ـ أحبك , حسن

لم تطل ثرثرتهما فقد كان على عجالة من أمره من أجل الذهاب لعمله... أغلقت هاتفها وعقلها شارد بحبيبها , تحاول نفض أي أفكار سلبية تعترض نبضاتها, جال بفكرها أعراض مفاجئة تقتحم حياة والدتها لا تعلم كنهها .. هل أصابها مكروه ؟ انقبض قلبها لمجرد التخيل , وتشعر بالخوف من اللجوء لطبيب حتى لا يتضاعف ألمها إن علمت أن هناك شيء أصابها ...

تذكرت صوت أمنية , فشعرت بالحزن عليها , فقد بدت كوردة انطفأ بريقها... لكنها لا زالت على عهدها بها ولن تتركها حتى تتخلص من كل ما آلمها لتسترجع بريقها من جديد...

قامت بترتيب المنزل قبل أن يستيقظ صغيرها , لتستعد بعد إفاقته للذهاب لوالدتها لمشاركتها الإفطار ومجالستها طوال اليوم كما تفعل في المعتاد خلال تواجدها بمصر ...

.....

للذكريات طعم مختلف , متعة أثيرة تتوهج النفس على إثرها لا سيّما إن كانت مميزة , لكن كيف سيكون الحال إن تم تدوينها بين دفتي مفكرة ؟

استقامت متجهة نحو غرفة ريم حيث كانت واقفة على أطراف أصابعها مستندة على حافة السرير تحاول الوصول إلى تلك الأجراس المتدلية من أعلاه ربما تصدر أصواتًا فتأتي أمها ، وها قد نجحت بالفعل...

دلفت أمنية إلى الغرفة و هتفت قائلة : صباح الخير يا ريمي .

هللت ريم لدى رؤيتها أمها التي حملتها وانطلقت بها إلى دورة المياه لغسل وجهها وتغيير حفاضتها. ..

عندما خرجت من دورة المياه نظرت إلى الساعة فوجدتها تجاوزت الثامنة بنصف الساعة ، حمدت الله أن وقت الإفطار لم يفتها وإلا سمعت ما تكره من حماتها، نظرت لريم قائلة : سأكمل فقط ما كنت أقرأ و أعدك بألا أتأخر ، هرعت إلى المكتب ثم جلست على كرسيه وعلى حجرها ريم، و فتحت المفكرة حيث كان القلم...

لقد تربيت بين أحضان أسرة غالية , لكنها لاتلقي لاجتماعيات الحياة بالاً للأسف , أخشى أنني أعاني الانطوائية , رغم كم الثقافة التي حصل عليها والداي إلا أنهما يعشقان العزلة والبعد عن الناس , فكل منهما ينتمي لعائلة عريقة لكن لايجتمعان في مناسباتها كثيرًا ..

حتى أنا و أخي مازن كنا كالفاكهة النادرة التي يبحث عنها أي فرد من أفراد العائلة عند أي تجمع أو مناسبة بل إنني كنت أفضل البقاء في المنزل عن الذهاب لمثل تلك المناسبات في بعض الأحيان .

مازن كان عكسي تماما , لطالما أحب الاجتماع بالناس رغم حداثة سنه , دائما يبهرني بأسلوبه الرائع ولطفه الزائد مع كل الناس وبالأخص فتيات العائلة , وكان ينتقد أمي وأبي على العزلة التي فرضاها علينا

كانت حجة أبي و أمي للرد على أخي : نحن أدرى بمصلحتك , ونعلم الأفضل لك ولأختك , فمشاكل الاجتماعيات لاحصر لها وقسوة الحياة فرضت علينا ذلك ...

كل تلك الكلمات هى الراعي الرسمي للرد على أخي إذا طلب منهما الذهاب لأي حفلة أو عزيمة كل هذا لايعنى أن أبواي قد فاتتهما الواجبات الاجتماعية , بل كانا يذهبان في اليوم التالي للحفل للتهنئة وتقديم الهدايا المنتقاه بعناية ...

لقد أغنى أبي أمي عن طلب العمل رغم قسوة الحياة في بداية مشوارهما وضيق العيش , حيث أن أمي حاصلة على بكالوريوس تربية وتخصصت في اللغة الإنجليزية ومن المؤكد أن مجالها مطلوب في العمل , حتى أن جدتي كانت تندهش من عدم إقدام أمي على أي من مسابقات التربية والتعليم وتلح عليها دائما أن تتقدم بطلب عمل بأي مدرسة حكومية حتى تتمتع بمرتب ثابت ومعاش حال وصولها عمر الستين وتقول : يا ابنتي قدمي لوظيفة ميري ... لكن تلك الرغدة الجميلة التي مازالت محتفظة برونقها وجمالها رغم توالي الأيام عليها , كانت تقول : يا أمي لست في حاجة لأي وظيفة لأن وظيفتي هى ملكة داخل بيتي , فكيف لملكة أن تطلب وظيفة خارج مملكتها , هل سمعت بذلك يوما؟؟

لم يكن هذا هو النقد الوحيد من جدتي , بل كانت أيضًا تشفق على والدتي من قلة اجتماعها بالعائلة في الحفلات وتخشى عليها من العزلة, لكن أمي لم تكن تشعر بذلك مطلقًا, بل كانت تخبرها أنها تعيش برفقة أغلى أصدقائها, وأقربهم لقلبها , نعم وكيف لا؟

أبى العصامي جمال لم يكن لأمي مجرد زوج فقط , بل كان صديقًا حميمًا , أغناها عن التجمع النسوي الذي لاريب أنه مفضل لأي امرأة على هذا الكوكب .

جال بخاطرها حوارها مع سحر عن فتى الأحلام , لتعود بالذاكرة حيث كانتا بالحرم الجامعي في الحديقة قبل موعد المحاضرة ...

ماهى صفات فتى أحلامك يا أمنية ؟؟ .. سألتها سحر .

اعتدلت أمنية في جلستها استعدادًا للرد عليها بحكمة : أُريده مثل أبي... قطعًا وبدون تفكير , فأنا أتمنى صديقًا يسمعني كما يفعل أبي واسأله عما يعتريني وأطلب منه النصيحة فيرشدني بلا تردد , و أشكو مما يزعجني فيحتويني ويريح قلبي , يراني أجمل نساء الدنيا كما يفعل أبي مع أمي .

تنهدت سحر مطرقة رأسها, وقالت : من أين لك بمثيل أبيك؟؟ ستتعبين لامحالة , أسأل الله أن يرزقك .

رفعت أمنية كفيها قائلة : آمين أنا و أنت ياسحر , ثم بادرتها سائلة : وماذا عنك حبيبتي في مواصفات فتى أحلامك ؟

ردت سحروقد ضيّقت عينيها وكأنها مازالت تفكر, صمتت للحظات ثم قالت بشجن : أريده يعوضني فقد أبي , وأن يكون رجلاً ثريًا , وهناك توافق فكري بيننا , فالمال أصبح من أولويات الحياة يا أمنية , وأظنك تتفقين معي في ذلك , أليس كذلك ؟

أومأت أمنية برأسها علامة الإيجاب قائلة : نعم أتفق معك ولكن أحيانًا يذلل الحب الكثير من الصعاب المادية ولا سيّما إن كان الرجل طموحًا وفى مقتبل حياته كما كان أبي , فهو رجل عصامي بنى نفسه بنفسه وكافح فى صغره .... لم تكن حياة أمي الآن كما كانت في الماضي في بداية زواجها , لقد تحملا صعابًا شتى حتى وصلا لرغد العيش ومانحن عليه الآن , الحمد لله , أسأل الله أن يبارك لنا فيما رزقنا .

صمتت سحر ونظرت لي نظرة اعتراض بعبوس ثم قالت : تحملت والدتك ذلك وكافحت مع أبيك ,لكنكِ لم تفعلي ذلك , فقد عاصرت طيب العيش وكبرت في ظل الثراء ولم تكافحي مع أمك في القليل .. كذلك أنا , لا أحدثك باعتباري بعيدة عما ذكرتِ , بل أنا مثلك تمامًا , لذلك عندما أخبرتك أن الثراء ...صفة من صفات زوجي المستقبلي كان ذلك بناء على حياة لن أستطيع تحمل غيرها و...

قاطعتها أمنية قائلة : لقد حان وقت المحاضرة يارفيقتي , أخذنا الحديث وكدنا ننساها.

أغلقت المفكرة على عجالة بعدما تلاشت تلك الذكرى اللطيفة من مخيلتها قبل أن تقوم بوضع القلم بين الصفحات ليسهل عودتها إليها بعد ذلك ,همّت بوضعها داخل درج المكتب فقفزت أمامها مجموعة من الصور القديمة الخاصة بحفل تخرج آدم , رأتهم من قبل لكنها لا تمل

رؤيتهم أبدًا, أخذتهم تطالعهم بشغف لتتمتم و قد أرخت جفنيها في جذل : أوسم الواقفين... ما الذي سيحدث إن جعلت حياتنا كتابًا مغلقًا بمنأى عن والدتك ؟

أشارت ريم على الصور وهي تقول : أبي .

ابتسمت لها أمنية قائلة : أليس وسيمًا؟ تابعت بعبوس : لكن مزاجه متقلب ياريم ولم أعد أفهمه ، أغمضت عينيها وهي تتذكر لطفه الليلة الماضية ...

كانت ترتب الصالة بعد نوم ريم , لم تشعر به وهو يمشي حثيثًا نحوها عائدًا من المكتب فقد كانت مولياه ظهرها, لكنه فاجأها ليحاوط خصرها فقفزت فزعة ثم استسلمت للضحك بعدها وكذا هو ليقول بصوته الأجش : كلما فاجأتك ترتعدين وكأنك تعيشين وحدك .

قطبت جبينها ثم استدارت قائلة : قلبي لا يتحمل ظهورك فجأة يا آدم.

ـ لماذا؟

نظرت لعينيه حتى ذابت كليا فلم تقو على الرد... فتابع بصوت هامس: ألن تردي؟

تملصت من حصاره متحججة : سأعد لك العشاء... قالتها وفرّت قبل أن تسمع رده...

شيعها بنظراته وهو يتمتم : لن تتغيري أبدًا .

رنّ جواله برسالة التقطه ثم شعشعت ابتسامته مع قراءة تلك السطور الأنيقة , اتجه على إثرها للشرفة بخطواته الرزينة ...

بعد انتهائها من العشاء نادته لكنه كان منشغلًا بهاتفه للدرجة التي صمّت أذنه , فاتجهت نحو الشرفة وما إن رآها حتى ارتبك و أغلق الهاتف..

ـ هل هناك شيء؟

ـ لا... لا شيء!

ـ ألن تتعشى؟

ـ بلى؛ اذهبي وسآتِ خلفك .

على إثر تلك الذكرى , نهشها الفضول لمعرفة سر ارتباكه حالما رآها.. ضغطت زر التوقف بعقلها حتى لا تسترسل بالخواطر السيئة , لا سيّما أن مزاجه هذه الأيام رائقًا بعض الشيء

على غير العادة .

قاطع حديث عقلها صوت حماتها القادم من الأسفل لتبلغها أن وقت الإفطار قد حان , التقطت ريم على عجالة وهبطت الدرج ملبية النداء.

.....

الفصل الثاني

(لا تقرأي)

.....

بين دفتي مفكرة

أحيا في سطورٍ متألقة

تروي حنيني لأيامٍ خالية

عشتها بين قلوبٍ متآلفة

بعشقها أمضي في حياتي مسترسلة

و بذكرها أبقى دومًا باسمة

و مع ذلك ستبقى سطور مفكرة

برفقتها أنسى لحظاتي المؤلمة

مع نفوس للقسوة باتت مدمنة

ظنتني ضعيفة لأنني صامتة

ومع ذلك سأتمسك به مطبقة

لأنه أبلغ رد أمام الوجوه الغاضبة

هكذا تربيت , لا أعلم إن كنت مخطئة ؟

ولن أتغير فكينونتي عهدتني دومًا هادئة

رغم أنني أتوق لذلك

لكنني أخشى ضياع هويّتي الرائقة

.....

واقفة مستندة على سور الشرفة الموجودة في بيت أبيها، ترتدي فستانًا فاتحًا وقبعة مزينة بالورود وشعرها الكستنائي منسدل بتموج خلف ظهرها، كانت تلك هيئتها عندما كانت صغيرة تنتظر والدها حال عودته من العمل لكن منظرها يوحي أنها امرأة وليست طفلة، وقفتها توحي أنها تنتظر شيئا ما، بعيدا عن حيز الوالد....

تبخر الحلم للمرة الثالثة!....

فتحت عينيها ترى فضاء الغرفة، حينها أدركت أنه أضغاث أحلام، لكن لم يتكرر؟، قامت متثاقلة حتى وصلت للمرآة، تحسست شعرها بيديها، غضنت جبينها متسائلة: لا أعلم كيف اغمق لونه حتى صار مائلاً للسواد؟ لقد كان كستنائياً عندما كنت طفلة،تنهدت متابعة: لو أن لي أمنية! لتمنيت أن أعود طفلة....

تذكرت القبعة و الفستان الذين حظيت بهما خلال أحد المصايف، ومن فرط سعادتها وتعلقها بهما صارا زيها الرسمي لاستقبال والدها حال عودته.....

.....

الصمت هو أبلغ رد لمن يحاول استنفاد طاقتك للوصول إلى أقصى درجات الانفعال وسيّظل هو الحل الأقوى و الأكثر حكمة...

جلست برفقة حماتها زينب على المائدة لتناول الفطور , وقد استقرت ريم على ساقها ليتسنى لها إطعامها .

اتجهت زينب نحو البيض المقلي وما إن تناولته حتى عقدت جبينها وهي مازالت تلوكه قائلة : ألم أقل لكِ مسبقًا ألا تسرفي في استخدام الزبد , ألا تعلمين رطل الزبد حاليًا كم صار ثمنه ؟

ـ رطل؟! سألتها أمنية متعجبة .

لوت زينب شفتيها وقد فهمت ماترمي إليه أمنية : نعم رطل , فأنا أتعامل مع امرأة ريفية عادت من عصر الفراعنة لتوها عبر آلة الزمن .

ضحكت أمنية على ذلك التشبيه الفكاهي الذي سمعته للتو لكن سرعان ما توقفت لأن زينب لم يعجبها ذلك ففضّلت الصمت لكن زينب قطعت ذلك الصمت , قائلة :
ـ أعجبتك المزحة ؟ ليتك تأخذين ما طلبته منك بعين الاعتبار ...

ـ سأصنعه بالزيت بعد ذلك ...

ـ لكننى أحبه بالزبد , تابعت وهي تشير بيدها ناحية الطبق : القليل فقط سيفى بالغرض كما أنه صحي حتى لا نسمن ...

نظرت أمنية لتلك الترهلات المتدلية من جلباب زينب وتمتمت قائلة : صحي ... لا نسمن !.... ثم قالت :حاضر , سأنتبه المرة القادمة .... أرادت أن تريح نفسها عناء الجدل العقيم ...

مطت زينب شفتيها قائلة : هه , أفلح إن صدق ....لم تود أمنية التعليق على ماسمعته فتصنعت اللا مبالاة و انشغلت بإطعام صغيرتها ...

.....

بعد الانتهاء من الفطور , تركت أمنية ريم مع جدتها التي أدارت التلفاز على إحدى قنوات الأطفال بينما اتجهت للمطبخ لجلي الأطباق و عمل الشاي...

دُق جرس الباب الحديدي , خرجت أمنية من المطبخ لتعلم هويّة القادم , فأشارت لها زينب لتبقى مكانها حتى يتسنى لها رؤيته عبر زجاج النافذة العاكس المطل على المدخل بحيث تتمكن من رؤية من بالخارج دون أن يعلم بوجودها .....

ما إن رأت من دق الجرس حتى تأففت وعقدت جبينها قائلة :
ـ أم بركة , ماذا تريد هذه المرة ؟

اقتربت منها أمنية و سألتها باهتمام : من هذه ؟ وماذا تريد ؟

ـ امرأة فقيرة تخدم بالبيوت و تقبل الصدقات , أعطيتها مالًا منذ مدة لكنها لا تكفّ عن إلحاحها بشأن مساعدتي في الأشغال المنزلية , ابتلتنا بها جارتنا رغم عدم اجتماعي بها كثيرًا , قلّبت كفيها قائلة : لكن ماذا أقول فى هؤلاء المتطفلين ؟ لم أرها غير مرتين ومع ذلك تصر على إزعاجي .

قلبت أمنية ذراعيها وهي تسألها :
ـ لمِا رفضت مساعدتها طالما أنكِ في جميع الأحوال تعطينها المال ؟

رفعت زينب أحد حاجبيها قائلة : عندما تموت نساء البيت , ثم أشارت على ريم قائلة : ألا يكفينا أنهن ازددن واحدة ... انقبض قلب أمنية لما سمعته ، فقطبت حاجبيها واحتضنت ريم بقوة لترد: أسأل الله أن يبارك لي فيها ولا يحرمني منها....

لم يكف الجرس عن الرنين , أخرجت زينب حافظة نقودها , والتقطت منها القليل من الجنيهات أعطتها أمنية و قالت : أعطيها إياها حتى نرتاح من ذلك الإزعاج ...

نظرت أمنية للنقود وهي مصدومة وحدثت نفسها قائلة : إنها لا تكفي لشراء علبة عصير , ومازالت تأتي وتلح عليكِ لتساعدك , أي جنون هذا ، ظلّت واقفة مكانها لأنها شعرت بالحرج من ضآلة المبلغ , لكن زينب هتفت بها : هيا , أسرعي ، هل سنظل محاصرين بهذا الإزعاج ؟

انطلقت نحو الباب الحديدي وفتحته لتجد امرأة في نهاية العقد الخامس لكن تجاعيد وجهها أعطتها عمرًا أكبر , دثرت جسدها النحيف بثياب رثّة و غطّت رأسها بوشاح متهالك و كأنها تستخدمها في تنظيف البيوت التي تعمل بها , رقّت أمنية لحالها كثيرًا و شعرت بصغر حجمها بتلك الجنيهات التي في قبضتها .. ابتسمت قائلة : أهلا وسهلاً بكِ خالتي .

ابتسمت لها أم بركة ثم مدت يدها التي غطّى عظمها الجلد المتجعد و المكتسي بالبقع من أثر الكفاح و الشقاء , قالت : وجهك يشع طيبة يا ابنتي , حفظك الله وأحبابك...

ـ شكرًا لكِ خالتي , قالت أمنية وتمنت لو استطاعت دعوتها للدخول من أجل ضيافتها لكن تخشى حماتها .

تنحنحت المرأة ثم بادرتها سائلة : ألا تودين المساعدة في الأعمال المنزلية ؟

غضّنت أمنية جبينها وقالت : شكرًا يا خالتي , تم تعييني هنا لتلك المهمة .

ابتسمت أم بركة ثم قالت في محاولة يائسة لعرض إمكاناتها : لا تنظري لنحافتي تلك , أنا ما زلت في العقد الخامس ولدي القدرة على تنظيف قصر كبير وحدي.

التفتت إلى بيت الجيران وأشارت نحوه متابعة : أنا آتي إليهم كل فترة من أجل التنظيف , لذا فكرت في المرور عليكم لعلكم تحتاجون المساعدة ..

حاولت أمنية التبسم لكن الخزي يحاصرها , هزّت رأسها لموافقة المرأة على ما تقول ثم قالت مازحة : أصدقك يا خالة لأنني نحيفة مثلك , فنحافتنا سر قوتنا لكنهم لا يعلمون .

ضحكت أم بركة من مزحة أمنية ثم قالت : كلامك جميل يا ابنتي , تابعت وهي تشير بسبابتها نحوها مكملة: هل ستصدقينني إن قلت أنني أحببتك ؟

أومأت أمنية برأسها علامة الإيجاب قائلة : أصدقك , لأن رسول قلبك بعث برسالتك لقلبي لذا أنا أيضا أحببتك و ... قاطعها صوت زينب وهي تصيح :
ـ يااااا رييييييم , هيا أسرعي .

ازدردت ريقها ثم مدت يدها و أمسكت بكف المرأة وضعت به المال وأغلقته بين راحتيها قائلة : هذه من أمي زينب , لكنني أود أن أعلم مكانك لآتي لزيارتك فقد صرتِ صديقتي من الآن .

لمعت عينا المرأة و ترقرقت ببعض العبرات من أثر فرحتها بما قالته أمنية حتى أنها وضعت النقود في جيب جلبابها دون أن تراه وقالت : حقًا يا ابنتي ؟

أخذت تصف لأمنية بيتها الذي يقع في إحدى الغرف بقبو إحدى العمائر على بعد شارعين من هنا .

دخلت لتجد زينب ممددة ساقيها على الأريكة , رمقتها بعينيها ثم قالت : ماذا كنتِ تفعلين كل هذا الوقت ؟

تلجلجت أمنية و أخذت تفرك كفيها قائلة : اااا ألم تخبريني أنها لحوحة , لقد ألحت علي لتنظيف البيت لكنني رفضت وقلت أنا موجودة لتلك المهمة .

أشارت زينب بيدها نحو المطبخ قائلة : هيا , هلمّي لإعداد الشاي , فقد سئمت الانتظار .

انتهت من إعداد الشاي لتدخل دوامة اختيار صنف مناسب للغداء , ويالها من حيرة تحاصر أي ربة منزل.. اقتربت من حماتها التي كانت ترشف من كوب الشاي و الأبخرة مازالت تتصاعد منه , قالت : ماذا تودين أن أطبخ على الغداء ؟

.....

أن يحمل الشخص بعضا من اسمه ... مجرد كلمات قد تصيب مع البعض وتخطئ مع البعض الآخر لتؤكد أن النفوس لن تتأثر بمعنى الأسماء ولكن مايحركها هو القلوب ...

بإحدى العمائر الحديثة البعيدة عن بيت العائلة الذي خرجت منه نور بعدما كرهت التواجد رفقة حماة جسدها يأبى الشفاء ، وسلفة تراها متملقة رغم أنها لم ترزق بالولد... لذا ضغطت على زوجها للمكوث بعيدًا عنهم لكن بالقرب من أمها مما سهل زيارتها بين الفينة والأخرى .

كانت نور تتثائب عندما وجدته يدندن بأغنية رومانسية وهو يصفف شعره أمام المرآة , نهضت جالسة على الفراش ثم قالت وهي تفرك عينيها من أثر النعاس :لا يزال الوقت مبكرا للخروج , محمود .

ـ إنه درس خاص يا نور... تابع وهو ينظر لعينيها عبر المرآة : لأحد تلاميذ الدور الثاني .

ـ ألا يحق لنا كمدرسين أن ننعم بأجازة هادئة ؟ قالتها ممتعضة , فقد انتهوا للتو من امتحانات المرحلة الابتدائية بمراقباتها وتصحيح أوراقها الذي استنفذ طاقتهما الفترة الماضية ليستأنفوا إجازة مؤقتة حتى وإن كانوا سيذهبون للمدارس خلالها بين الفينة والأخرى كروتين صيفي تحت شعار الأجازة للطلاب وليست للمدرسين ...

ـ بلى حبيبتي ... تنحنح مواصلاً : تعلمين أن الحياة باتت صعبة ولا سبيل لتحسين الوضع غير الدروس الخاصة .

ـهل تناولت الفطور ؟

ـ نعم ... قالها وهو ينثر عطره مغمضًا عينيه .

زفرت بغضب قائلة : من يراك يظنك تستعد لحفل وليس درس .

استدار لها ثم ابتسم ليقول مشاكسا إياها : هل تغارين عليّ ؟

عوجت فمها مستاءة من طريقته الودودة لتغيير الموضوع ولم ترد , فتقدم نحوها ثم طبع على جبينها قبلة , جعلت ملامحها تلين قليلاً , همس قرب أذنها :
ـ ألا يفترض أن يكون لكِ من اسمك نصيب ؟

رفعت رأسها اتجاهه , قطبت حاجبيها متسائلة : ماذا تقصد؟

لوّح بكفيه وقد تسلل التوتر لجوارحه ليرد : لم أقصد شيئًا... كل ما طلبته أن يشع وجهك بنور ابتسامتك يا حبيبتي.. قالها وغادر قبل أن تتشاجر معه كعادتها...

شيعته بنظراتها الحانقة , وعقلها يثرثر حول اهتمامه المبهم سببه هذه الأيام , أخذت تسحق أسنانها وهي تتمتم :
ـ يا ويلك يا محمود إن نظرت لغيري؛ سأقتلك دون أن يعلم أحد.

.....

إلى متى ستظل رهن اعتقال عينيه ؟ أهو حب ؟ أم تعلق ؟

انتهى يومها بعدما تعلقت النجوم في أستار السماء , استسلمت ريم للنوم وخرج آدم لقضاء وقت ممتع مع رفاقه بالمقهى بينما ظلّت زينب محدقة بالتلفاز فهي شغوفة بذلك المسلسل الهندي المدبلج , حملت أمنية ابنتها و صعدت للأعلى لتمددها على فراشها الصغير .

اتجهت لدورة المياة لتزيل عنها هموم اليوم بحمام دافئ , شعرت بعده بالراحة ... لم يدق بابها النوم , فسارت بها قدماها نحو غرفة المكتب, استقرت على كرسيه وفتحت الدرج .. أمسكت المفكرة ثم مرّت بين صفحاتها حتى وصلت لتلك ...

مرت الامتحانات بسلام, وبدأت العطلة ومنذ ذلك الحين يروادني شعورٌ ما نحو أمي؛ أشعر أنها تُخفي عني أمرًا , فأنا أفهمها من عينيها , انتظرت حلول المساء لنتسامر سويا .

دخلت أمي و جلست إلى جواري وابتسامتها الرقيقة تعلو ثغرها لتستأنف معي الحديث عن الذين قرعوا بابي للزواج , وقد كان أيمن ابن عمتي من ضمنهم لكن أبي لا يحبذ زيجة الأقارب , لقد تقدم لي السنة الماضية عقب زفاف ابنة عمي ... ورغم أنه إنسان طيب و خلوق إلا أنني لم أنظر له يومًا نظرة شريك الحياة ولم يدق قلبي أبدًا عند رؤيته ... لن يتعدى حدود أخ أكبر .

تغيرت دفة الحديث لذلك المهندس الذي تقدم لي خلال فترة امتحاناتي النهائية وقد أعطاه أبي موعدًا بعدما سأل عنه و أشاد الناس بأخلاقه لاسيّما أنه من بيت محافظ أحكم أبواه إغلاق أبوابه جيدًا...

اسمه آدم جابر سبقني في دراسة الهندسة بثلاث سنوات... تكبره أختان , إحداهما بأربع سنوات تعمل مدرسة لغة عربية و الأخرى بسنتين تعمل صيدلانية وكل منهما تزوجت و أنجبت .

لم أشعر بالسعادة بعد كلام أمي لا سيّما أنني كنت أطمح للعمل بالجامعة , و أخشى أن يعرقل الزواج طموحي ... حاولت أمي طمأنتي بخصوص ذلك , من خلال مناقشة لطيفة تفضي للخضوع لأوامرها بالنهاية بحجة أنها تريد الاطمئنان علي ... لطالما اعتدت على ذلك لكن أظن أن هذا الأمر لن ينجح مع قرار مصيري كالذي أنا بصدده..

نحت المفكرة جانبا والذكريات تموج بمخيلتها , تمتمت : هل كنت مخطئة عندما وافقت عليه أم ماذا؟ لكنني ... تابعت بتهدج : ارتحت له ... بل ... أحببته ، أسرني ليل عينيه...

طافت بمخيلتها ذكرى شراء فستان لقاء الخاطب عندما كانت تتجول بين المتاجر رفقة والدتها لاختيار فستان , حتى وجدته أخيرًا بعدما تعبت قدماها وكذا والدتها من التنقل عبر المحال لكنها شعرت أنه صُمّم لأجلها وقد وافقتها والدتها الرأي .. وما إن عادت للمنزل حيث كان والدها بانتظارهما , ارتدت ما اشترته وذهبت إليه فضمّها إليه وهو يقول : بنيتي ستكون أجمل عروس .

تضرجت وجنتاها بالحمرة القانية , فتابع جمال : كل جميل وراقٍ ينادي لصاحبه .

اتسعت حدقتا أمنية لاسيّما أن كلمات والدها لمستها بشيء ما , قالت : كيف عرفت أنه ناداني يا أبي ؟

ابتسم جمال ابتسامته الودودة ليضيف : كل شيء في الدنيا قُدر بقدر الله , حبيبتي... النصيب دائمًا ينادي صاحبه ليس حتى لو كان فستانًا, ليس مرتبطًاً بالزواج فقط بل إنه متعلق بكل شاردة و واردة للإنسان حتى العافية والمرض لكل إنسان منهما نصيب .. عافاكِ الله وحفظكِ ورعاكِ.

تنهدت على إثر تلك الذكرى لتهمس :
ـ أحبك أبي ، وأحب حكمتك التي تصل لقلبي قبل عقلي .

عادت للمفكرة , قلّبت صفحاتها حتى استقرت على تلك ..

استيقظت صباح اليوم وأنا أشعر براحة نفسية لا أعلم هل هى من علامات الاستخارة أم لأن الجميع أُعجبوا به بالفعل ؟؟ فوصلت إلي طاقة إيجابية من آرائهم ؟

بعد يومين تفاجأ أبي باتصال من المهندس آدم يطلب إليه المجيء برفقة والدته و أختيه لرؤيتي .. كانت الأمور تجري بسرعة أكثر مما ينبغي و لا أعلم السبب , لكنني اكتفيت برؤية ردود أفعال من حولي فاطمأننت , باستثناء مازن الذي شعر بالحزن لأن ارتباطي أول الخيط المؤدي للرحيل وهو متعلق بي بعض الشيء ... لم يكن يشاركني الرأي في أي أمر متعلق بآدم , كان يتهرب من أسئلتي حول رأيه ويتحجج بأنه لايعرفه ليحكم عليه لكن لسان حال عينيه يقول : لا توافقي ؛ لازالت الفرص الأفضل بانتظارك ....

لعله كان محقا؟ قالتها وهي تتذكر تلك الأيام الخالية ...

حانت اللحظة الحاسمة لرؤية عائلته الكبيرة , والدته امرأة كلاسيكية لطيفة لكنها متعلقة به كثيرًا... هل أنا توهمت ذلك أم هي حقيقة ؟ كلما تحدثت معي قالت :

ـ آدم لا يخفي عنّي شيئا...

أيعقل أن تكون تلك الجملة هي مبادرتك للتعرف على خاطبة ولدك الوحيد ؟ وعندما سألت والدتي , طمأنتني كالعادة وقالت : تعلقها به طبيعي لا سيما أنه ولدها الوحيد , أنا مثلها ولا ألومها .

نأتي لأخته الكبرى التي أخافتني كثيرًا , شابة ممتلئة وجهها غير مريح , كانت ترمقني بنظرات لم أفهم معناها من رأسي لأخمص قدمي , حتى سلامها كان به من الجفاف ما يقتل الصبّار بالصحاري المقفرة , وعلى النقيض تماما حال الصغرى التي ارتحت لها كثيرًا, ملامحها هادئة جميلة تسلب لُبّ من يراها كانت بها من البشاشة مايذيب الجليد.

تحدثت مع النساء بكل أريحية بغض النظر عن طريقة أخته الكبرى في الكلام معي , كنت سأنهي العلاقة بسببها قبل أن تبدأ لكنني فجأة حدت ببصري تجاه الرجال لأجده يطالعني بنهم.

يا إلهي! تلاقت عينانا فغمرني بشيء لم أعلم كنهه لكنّه وخز قلبي.. توترت كثيرًا وارتجفت أوصالي لأنني لم أعهد ذاك الشعور قط , طالت نظراتنا وفاهانا مبتسمان حتى أفاقتني والدته وهي تسألني عما أنوي فعله بعدما أنهيت دراستي .

كانت أخته الفظة ستجعلني أنهي كل شيء لكن عيناه أعادتني إليه مجددًا , لقد حدث معي ماحدث في أول مقابلة , فقد سُرقت نفسي مني وبت تلك الليلة أفكر فيه وكيف كان ينظر لي وكأنه يحاول قول شيء لا أعلمه... وكأنه... رآني من قبل ، لكنني لم أره في حياتي قبل هذه الفترة .

لطالما تمتعت بفهم لغة العيون , إلا عينيه فقد غرقت في بحرهما ولم أتمكن من فهم مايحاول قوله , لكنني أحببتهما و .... أود رؤيتهما مجددًا.

أغلقت المفكرة وخبأتها في الدرج عندما سمعت دوران المفتاح في الباب , نظرت للساعة التي تجاوزت منتصف الليل بربع الساعة .

ـ السلام عليكم ... قالها آدم بعد أن أغلق الباب .

ردت عليه وهى تهم بإغلاق ضوء غرفة المكتب :
ـ وعليكم السلام و رحمة الله و بركاته .

وقف أمامها مباشرة يتفحصها ثم سألها :
ـ ماذا كنتِ تفعلين بالمكتب ؟

ـ كنت أقرأ كتابًا.

لم تود إخباره عن مفكرتها لا سيّما أنه لا يهتم بالقراءة و لا يحبها .

لوى شفتيه قائلاً : ستفسد عقلك وتبعدك عن الواقع .

أشارت بيدها قائلة : هذا تمامًا ما أريد .

اقترب منها وهمس بشيء أقرب للتهديد : وأنا أنصحك ألا تفعلي.

عقدت جبينها متسائلة : لماذا؟

تنفس بعمق ثم رد : اجعليني وابنتك شغلك الشاغل .

لم تقتنع بما قاله فسألته متعجبة :
ـ هل تخشى تعلقي بالقراءة ؟! أم تخشى ثقافتي التي يمكن أن تقودني للتمرد ؟

جذبها من ذراعها بقوة قائلاً : أنا رجل لا أخشى شيئا , هل فقدتِ عقلك؟

سحبت ذراعها من قبضته ومسحت عليه ثم قالت :
ـ لم أفقده بعد , لكن أريد تفسيرًا لمِا تطلب.

ضحك بسخرية وهو يقول : تفسير ؟ ألم أقل لكِ ستفسد عقلك , اتجه نحو الأريكة وجلس عليها ثم تابع : عندما يأمر الزوج زوجته , ليس عليها إلا الطاعة... صمتت أمنية على إثر ذلك مرغمة .

أشار لها أن تقترب , وعندما فعلت, جذبها إليه ثم ضمّها بقوة وقد شعر برغبته في احتوائها لتتناسى طريقته الفظة التي جُبل عليها منذ الصغر ولم يتمكن بعد من تجاوزها رغم أن روحه ترنو للتغيير ويتمنى أن تكون أمنيته السبب في ذلك. حاولت مقاومته قائلة : ابتعد آدم .

زادت قوة أسره ليناغشها : و إن لم أفعل؟

ظلت تحرك ذراعيها متملصة من قبضته لكن أنّى لها ذلك وحجمه يفوق حجمها. بالنهاية لم تجد بدًّا من الاستسلام... طال عناقه لها داخل صمتهما المطبق وكأنه بذلك يعتذر عن أي شيء ضايقها منه.

فجأة هدرت أنفاسها و أخذ صدرها يعلو ويهبط من أثر دفئه الذي تطمح دومًا للحصول عليه، وها هو احتواها حتى نسيت ما لاقته مع والدته بالنهار , تماسكت وسيطرت على مقلتيها

حتى لا تبكي لكنها لم تتمكن فعل ذلك مع أنفاسها.

كل شيء كان أقرب للمثالية غير أن صمتهما طال , ولم تود هي قطعه وكذا هو الذي كان منتشيًا بحصاره لها كما أنه يعاني عدم قدرته على ترتيب الكلام المعسول.

انتظرته يتكلم , يغازل أو حتى يخبرها عن حبه لها لكنه لم يفعل كعادته مذ تزوجها... فقررت الابتعاد قليلاً لتقول بهدوء : سأعد لك العشاء .

نظر لعينيها قائلاً : حسنًا, لكن عليكِ أولاً أن تبتسمي .

حادت بعينيها بعيدًا ولم ترد , كانت تهمس لعقلها :
ـ آه لو تعلم ماتفعله بي نظراتك تلك يا آدم .

أمسك ذقنها بيده ليكون وجهها في مواجهته ثم قال: ابتسمي .

شعرت بسخافة طلبه مع طريقته الآمرة تلك ومع ذلك استسلمت لنوبة ضحك جعلته هو الآخر يضحك.

طبع على خدها قُبلة ثم همس قرب أذنها بصوته الأجش : أريدك دوما مطيعة.

قامت من مكانها متجهة إلى المطبخ بدون تعليق , فشيعها بنظراته وهو يتمتم :
ـ رقيقة بلمحة باردة ، متى ستتخلين عن ذاك البرود ؟

التقط هاتفه وتذكر تلك التي قامت بدعوة الشركة لوليمتها منذ مدة على إثر تعيينها , وقد علم اليوم أن يوم ميلادها قد اقترب , لا يعرف بما سيهاديها ؟ فأخذ يبحث على الشبكة العنكبوتية بالهدايا المناسبة للنساء ... حتى يتخلص من رد تلك الوليمة التي مذ دُعي لها يشعر أنه مدين بردها .

وجد مواضيع ومنشورات تعرض صورًا للهدايا المناسبة للنساء .. صور لقلادات , خواتم , أساور و مستحضرات تجميل ... تمتم قائلاً :
ـ يا للتفاهة ... الحمد لله الذي رزقني بامرأة عاقلة لا تتطلب مثل تلك السخافات .

الفصل الثالث

(أحببتك)

.....

أحببتك حتى حار الحب في وصفي

و دعوتك لتشاطرني ما سيبقى من عمري

ملكت القلب و صار الهوى طوع أمري

و سكنت بين أضلعك بالعشق أحتمي

يطوقني الحنين حتى لا تجافيني

ذكرى رأيتك فيها كما الحلم

خاطبت عينيّ تسألها القرب منّي

و فتحت أبواب قلبك و دعوتني

أن ادخلي بسلام و لتهنئي

ومن حينها , من نهر حبك أرتوي

و ادعو الله يحفظك و ألا فيك اكتوي

.....

أي قدر ذاك الذي يجمع قلبين تعاهدا على العشق ما حييا؟ ليبرهنا أن الزواج بداية المشوار وليس نهايته ...

توهجت أشعة الشمس لتعلن بداية يوم جديد وخضبت تراب الصعيد حيث تعيش دينا مع زوجها.. انتهت من تحضير الفطور , ثم ذهبت إليه حيث كان يرتب هندامه ويرش عطره أمام المرآة.

طرقت على الباب ثم فتحته وأطلت برأسها من ورائه, ابتسمت قائلة :
ـ صباح الخير يا كامل .

نظر لانعكاس صورتها في المرآة وبادلها بابتسامة ثم رد :
ـ صباحك عنبر يا حبيبتي .

تلاشت ابتسامته عندما دخلت , استدار ونظر لمنامتها ثم سأل :
ـ ألن تذهبي للعمل اليوم؟

حكّت دينا رأسها ثم قالت : نعم ؛ لن أفعل , أشعر بالإرهاق .

اقترب منها وقد تسلل القلق إلى ملامحه , تفحص وجهها الشاحب بعينيه ثم سألها:
ـ ما الخطب ؟

رفعت كفيها قائلة : لا تقلق , إرهاق العمل فقط , فأنت تعلم كيف تستنزف طاقتي شركة الأدوية .. أخذت أجازة اليوم فقط.

ـ دينا , لا تهملي صحتك ... قالها وهو يدثر عينيها بحب.

مازحته قائلة : طبيبنا سيمارس عمله في المنزل أيضا.

نظر لساعته ثم قال : ستأتي بعد قليل أم حمدي من أجل جنى؟

هزّت رأسها نافية ثم قالت :
ـ هاتفتها , لا حاجة لوجودها مع جنى , فأنا موجودة .

أحاط وجهها بين راحتيه ثم قال : هناك مايزعجك، صحيح؟

ألهذه الدرجة تحبني ؟ سألته وهي ترى الإجابة في عينيه .

ابتسم وهو عاقد جبينه ثم سألها : هل تشكين في ذلك ؟

وضعت رأسها على صدره , تنهدت قائلة: محال .

اتجها نحو المائدة , جلسا لاستئناف تناول الفطور مع حديثهما الماتع , سألها و هو يبتسم : لعلك نسيتِ؟

تابع وهو يقطع الخبز : لقاؤنا الأول كان في حفل خطبة صديقي سالم..

احمرت وجنتا دينا عندما تذكرت حفل خطبة صديقتها جميلة , كان قلبها يتراقص على ذكر ذاك الحفل البهيج الذي زينه كامل برزانته ,حيويته ولباقته , لفت انتباهها ومع ذلك لم تطلق بصرها حتى جاء إليها يود التعرف عليها , حينها شعرت بأن الدنيا تميد بها نظرت للأرض وردت عليه بصوت أقرب للهمس فلم يسمع شيئا من إزعاج الأغاني , فرفع صوته بمزاح ليخبرها أنه لا يسمعها... حينها تتابعت ضحكاتها فسرقت لبّه لتتسع عيناه وهو يطالع ذاك الوجه الرقيق الضاحك , توقفت على تلك النظرات التي ظنتها فجّة ثم قطبت جبينها واعتذرت للرحيل , لكنه استوقفها قائلاً : أنا آسف ، لكنها كانت تركته بل وتركت الحفل بكل مافيه عائدة إلى البيت بوخز في قلبها لاتريد ذكر سببه , لأنها رحلت ولا تعلم إن كانت ستراه مجددًا, حتى اتصلت بها جميلة في اليوم التالي تخبرها أنه يود خطبتها... لم تكن لتصدق حتى رأته بعد عدة أيام يجلس مع آدم في غرفة الجلوس للتحدث بالأمر وحينما دلفت إليه بعث إليها نظراته الدافئة ليخبرها أنه لم يكن يتسلى حينما طلب التعرف .. كانت دينا تتنهد وهي مغمضة عينيها على إثر تلك الذكرى ولم تقو على الكلام , لأنه لن يعطي تلك الذكرى حقها من الحب .

تابعها بعينيه التي باحت بما في قلبه , استكمل حديثه :
ـ دخلتِ قلبي بسلام منذ ذلك الحين .

تسللت بعض العبرات على وجنتي دينا من فرط سعادتها و لم تقو على الرد , فأخرج من جيبه منديلاً ورقيّا و قام منحنيّا نحوها ثم مسح وجنتيها قائلاً :
ـ لا... لا تبكِ!

ناولها كوب الماء, رشفت منه ثم قالت :
ـ لا حرمني الله منك , أنت لي الحبيب و الصديق و الزوج و الأب و الأخ وكل الحياة ...
مددت ذراعيها قائلة : تعلم , أشعر بتحسن كبير الآن .

رفع أحد حاجبيه قائلاً : تحسن ؟ إذن ما الأمر ؟

أجابته و هي تتلاشى النظر لعينيه : بصراحه حدثت مشكلة بيني و بين إحدى الزميلات بالعمل

هزّ رأسه متفهما ثم زفر بارتياح قائلاً : لذلك وجهك شاحب .

تابع وهو يأكل : الموضوع ليس إلا مكيدة , أليس كذلك؟

أومأت برأسها علامة الإيجاب ثم ردت : بلى ؛ هو كذلك .

نظر لساعته ثم مسح فمه بالمنديل , قام من مكانه واتجه إليها طبع على جبينها قبلة و ربت على ظهرها قائلاً :
ـ لابد أن أغادر الآن , وأعدك بالقدوم مبكرا ليتسنى لي متابعة موضوعك يا حبيبتي , لكن عليكِ فقط أن تنسي كل شيء طالما أنتِ هنا ويكفيكِ اللهو مع جنى فهو كفيل بمحو الألم من الذاكرة .

ضحكت وهي تنظر إلى تلك التي وقفت خلف أبيها تنصت لما يحكيه لا سيما أنه ذكر اسمها للتو , قالت وهي تشير نحوها : هاهي استيقظت على ذكر اسمه .

استدار نحوها وهي مازالت تفرك عينيها , هتف وهو يهم بحملها :
ـ صباح الخير يا جنى , قبّلها ثم تابع : ماذا تودين أن أحضر لكِ عند العودة ؟

قالت له بصوتها الناعس : ألوان مائية و لوحات بيضاء .

ـ اووه , سأفعل أيتها الرسامة العظيمة ولكن عليكِ أولًا أن تذهبي إلى دورة المياه لغسل وجهك ثم الانضمام لوالدتك على الإفطار ... قال ذلك ثم تركها وانصرف مودعًا إياهما.

غادر لكنه ترك بصمته داخل قلبها لتكمل يومها بحب , فهي الآن قادرة على أن تستمتع بيومها , تعطي , تبدع ... لقد وقفت أمام الجميع و اتبعت قلبها ولم ترضخ لكلام زينب التي عارضت انتقالها للصعيد .

كلما تذكرت ذلك قالت : لو عاد بي الزمن سأقف أمامهم كما فعلت ولن أتخلى عن كامل , من تتخلى عن زوج بنكهة أب ؟ اسأل الله أن يتقبل دعواتي لك و يبارك لنا فيك.

على ذكر ذلك أخذت جوالها لتهاتف والدتها , وخاصة أنها لم تتطمئن عليها منذ يومين .

ردت زينب بعد رؤيتها الاسم: أخيرًا تذكرتِ أن لكِ أمًّا, ألا يكفيكِ البعد الذي فرضتيه علينا؟

تنحنحت دينا قائلة : السلام عليكِ يا أمي , أرجو المعذرة كنت مشغولة .

ـ وعليكِ السلام يا ابنتي , بلغ منك الانشغال أن تنسي أمك , قالت زينب وهي تهم بالخروج إلى الحديقة .

تنهدت دينا ثم قالت : أنا آسفة يا أمي , أرجو أن تسامحيني..

جلست زينب على الكرسي ثم ابتسمت قائلة :
ـ لا عليكِ , حبيبتي .. بادرتها سائلة : كيف حالكم؟

ـ بخير , الحمد لله.. ردت دينا ثم سألتها عن حالهم وبعد ذلك طلبت التحدث إلى أمنية , نادت زينب على أمنية , فجاءت إليها , أخذت الهاتف لتحدثها .

ابتسمت دينا قائلة : كيف حالك أيتها الجميلة ؟

ـ بخير طالما سمعت صوتك... قالت أمنية وهي تنظر لريم التي ركبت دراجتها الصغيرة لتدور بها في الحديقة .

سألتها دينا : كيف حال آدم و ريمي ؟

ـ بخير يا حبيبتي , ينقصنا فقط رؤيتكم ... أجابت أمنية ثم تابعت : لقد اشتقنا لكم , ألن تأتوا قريبا؟

ـ لا ؛ لن نأتي .. ضحكت دينا ثم استكملت : أنتم من سيأتي إلينا قريبا.

عقدت أمنية حاجبيها لأنها لم تفهم قصدها , قالت : حقًا, ولكن لم يخبرني أحد.

ـ ها أنا أخبرتك ... قالت دينا وقد تعجبت لعدم معرفة أمنية رغم أن زينب تعلم منذ مدة , تابعت :

ـ لقد اقترب موعد ذكرى مولد جنى , لذا ستشرفونا هنا بإذن الله .

ـ كل عام وهي بخير , حفظها الله لكم وبارك فيها ورزقكم برّها ... قالت أمنية ثم سألت : لماذا قررتم ذلك هذا العام ؟

ـ بصراحة وددت أن تشرفوني بزيارتنا , وخاصة أمي التي لم تطأ قدماها قِنا منذ سنوات , علّها تغير رأيها فيها و تحبها , اشتقت لوجودكم حولي رغم دعم زوجي لي و حبه الكبير الذي أغناني وعوضني عن أي فقد إلا أنني أحن لرؤيتكم التي عزّت كثيرا السنوات الأخيرة .

أومأت أمنية لموافقتها مع دينا ثم قالت : أفهمك ياحبيبتي , أعتذر لكِ بالنيابة عن الجميع لتقصيرنا معكِ , سنأتي ولن نكف عن زيارتك بإذن الله .

ـ أحبك كثيرًا يا أمنية , قالت دينا ثم أنهت المكالمة.

.....

كل إنسان يتعامل بلسان حال تربيته التي تشرّب منها كل سلوكياته حال الصغر ليخبر من يراه أنه مجرد بذرة قد يكون أحسن غرسها أبويه و ربما لا!

ـ ألا تودين بعض العصير ؟ سألت أمنية وهي برفقة زينب بالحديقة .

هزّت زينب رأسها موافقة : بلى , أى عصير غير الفراولة , تعلمين أنها تتعبني .

دلفت أمنية إلى المطبخ لإعداد عصير المانجو الطازج قبل إعداد الطعام , ثم سكبته في كوبين أحدهما لها .

ولابنتها أما الآخر لزينب ثم خرجت إلى الحديقة , في هذا الوقت رن هاتف زينب باسم نور .

استأنفت نور المكالمة بالسلام , فردت زينب : كيف حالك يا نور؟

ردت نور : بخير يا أمي .

ـ الحمد لله , ألن تأتِ اليوم ؟

ـ لا لن آتِ , قالت نور ثم سألتها وهي تضحك : أين المعتوهة التي بلانا بها آدم ؟

ضحكت زينب ثم قالت : في المطبخ .

ـ لم أعهد أحد بمثل برودها في حياتي , كان الله في عونكم عليها .

تتابعت ضحكات زينب حتى سعلت ثم قالت : ابتلاء يا ابنتي ,ليس علينا إلا الصبر .

ـ كلامك يشعرني و كأنها شامة يصعب إزالتها ... قالت نور ثم تابعت : تلك المصيبة يسهل التخلص منها بالطلاق, حينها سأجلب لأخي من هي أجمل و أفضل منها .

رفعت زينب حاجبيها غير مصدقة : لقد خططتِ لكل شيء يا نور .

ـ بالطبع يا أمي ,لقد صارت شغلي الشاغل تلك الحمقاء وها قد وضعتها في رأسي.

ضحكت زينب قائلة :
ـ جنت على نفسها زوجة أخيكِ ببلادتها تلك , لن تنجو طالما تترصدين لها .

بعد انتهاء المكالمة , دخلت زينب ومعها ريم متجهه إلى المطبخ .

وقفت زينب أمام باب المطبخ , تنظر لأمنيه قائلة : نور ترسل لكِ السلام .

التفتت لها أمنية و قالت بشيء من اللامبالاة : سلمها الله , كيف حالها؟

سألتها زينب بنوعٍ من اللوم: بخير , لم لم تحدثيها؟ أو حتى ترسلي معي سلامك لها؟

كانت أمنية مشغولة بتحضير الطعام أمام الموقد , التفتت لزينب :
ـ كنت على عجله من أمري لأنتهي من إعداد الطعام قبل مجيء آدم .

حاولت زينب أن تهدئ من حدة الموقف , قالت : نور ودينا يعدانكِ أختهما.

التفتت لها أمنية , قالت : وأنا أيضًا , أسأل الله أن يديم بيننا الحب.

فجأه صرخت ريم باكية , فركضت أمنية خارج المطبخ باتجاه الصوت القادم من الصالة , فقد سقطت ريم من أعلى إحدى الأرائك , حملتها وربتت على ظهرها حتى هدأت ثم تفحصتها فوجدت كدمة على جبهتها , صعدت إلى شقتها لتمسح الكدمة بمرهم الكدمات الخاص بالأطفال , بينما ظلت زينب بالمطبخ لإنهاء الطعام .

عندما دلفت أمنية إلى شقتها, أحضرت المرهم وأخذت منه ومسحت على جبهة ريم التي مررت يديها على وجنتي أمها تمسح بعض العبرات المتساقطة قائلة: أمي .

.....

لا شيء أصعب من عدم الإحساس بالغير و الأكثر صعوبة التفنن في صنع المكائد وكأن الدنيا مضمونة ولن تذيق الكائد من نفس الكأس ....

أنهت زينب الطعام وهي تتأفف لأن أمنية لم تأتِ مذ أن ذهبت إلى شقتها لتداوي ابنتها , أخذت تحدث نفسها : ما هذا التأخير ؟ هل تلك الكدمة الصغيرة تحتاج كل هذا الوقت ؟ تملصت من إعداد الطعام بحجة ابنتها , يالها من كسولة... فجأه قاطعها صوت آدم القادم من الخارج كان قد وصل لتوه , ألقى السلام ثم دلف إلى المطبخ حيث كانت أمه .

كان ممسكا بهاتفه ومفاتيحه و حاملا حقيبة الحاسوب المحمول على كتفه , ألقى السلام .

ـ ردت عليه وهي أمام الموقد: حمد لله على سلامتك يا حبيبي .

نظر لها آدم وعلى شفتيه البسمة : سلمكِ الله يا أمي , كيف حالك ؟

مطت زينب شفتيها بامتعاض ثم قالت : كما ترى , أُعد الطعام و أتصبب العرق .

قطب آدم جبينه : وأين أم ريم لتساعدك؟؟

أشاحت زينب بوجهها ثم قالت : صعدت مع ريم لأنها سقطت من الأريكة ولم أرها بعد ذلك

وكأن ريم كانت حجتها .

لوى آدم شفتيه ثم ذهب ناحية الدرج ينادي أمنية بأعلى صوت ويقول :
ـ يا ريم , يااااا رييييييم .

سمعت أمنية الصوت وعلمت أنه يناديها , فقد اعتاد على مناداتها باسم ريم وكأنه يعتبر اسمها عورة لايصلح مناداتها به فيعرفه الناس .

هبطت الدرج بعد أن أسلمت ريم لسريرها لتنعم بنوم هادئ , ثم لبّت النداء , فوجدته يطالعها عاقدًا جبينه و يسألها وهو ممسك بسور الدرج , وإحدى قدميه على أول درجة من السلم و الأخرى على الأرض .

نزلت أمنية حتى صارت في مواجهته : حمد لله على سلامتك .

صرخ فيها قائلا: لم لا تساعدي أمي بدلًا من مكوثك بالأعلى؟ ألا يفترض بكِ رعايتها بدلًا من إجهادها؟

نزلت أمنية درجات السلم حتى أصبحت في مواجهته , أطالت النظر لعينيه نظرات يملؤها اللوم والعتاب ثم اقتربت منه أكثر ومازالت عينيها أمام عينيه وقالت: ـ أنا لست ريم .

أشاحت بوجهها عنه وتابعت :
ـ لأخذ العلم ؛ أنا من قام بإعداد الطعام كله , صعدت منذ دقائق فقط .

رفع أحد حاجبيه قائلاً: إذن أمي تكذب؟

ـ سأذهب إليها... قالتها وانصرفت , طالعها آدم وهو يحدث نفسه : يالك من مملة .

صعد الدرج بسرعة وحالما دخل الشقة اتجه نحو غرفة ريم يطمئن عليها , وقف أمام سريرها يتفحصها بحنان ثم قرب أصابعه ناحية وجهها يتلمس تلك الكدمة البارزة على جبهتها , أحنى جذعه حتى وصل برأسه لوجهها , مرر شفتيه على الكدمة بدفء أبوي وهو يتمتم : سلامة الله عليكِ ريمي .

دلفت أمنية إلى المطبخ , وهى بلا مشاعر على وجهها اكتفت بتخبئة كل شيء داخل القلب وظلت صامتة حتى السلام نسيته فقد كان قلبها يئن على ذاك الذي لم ينصفها أو حتى يحاول الاطمئنان على ابنته حتى تشعر بغرابته وتناقض شخصيته , ابتسمت لها زينب ثم سألتها عن ريم قائلة : كيف حال ريم؟

ابتسمت لها أمنية قائلة : بخير , الحمد لله .

سألتها زينب وهي عاقدة حاجبيها : هل ترك ذلك السقوط أثرًا؟

أجابتها أمنية وهى تتفحص الموقد وماعليه لتعلم ما عليها فعله :
ـ كدمة بسيطه على جبهتها.

اتجهت زينب ناحية حوض الماء لتغسل يديها ثم قالت : الحمد لله .

استدرات أمنية لها تسأل : هل هناك شيء أفعله؟

أشارت لها زينب على البصل ثم قالت: لقد أنهيت كل شيء.

اتجهت أمنية نحو الموقد تتفقد مانضج بينما خرجت زينب من المطبخ إلى الصاله , جلست على الكرسي , وفتحت التلفاز لتتابع ما يحلو لها من الأفلام التي لا لون لها برفقة آدم الذي نزل لتوه بعد تغيير ملابسه .

بعد الانتهاء من إعداد الطعام , صفّت أمنية الأطباق على المائدة وداخلها يموج بعدة مشاعر متناقضة بين الحب والكره , الدفء والبرود... كان كل شيء يحدث برتابة داخل صدرها ولايعلم من يراها شيئًا... التفتت لهما حيث كانا جالسين على الأريكة , نادت عليهما لتناول الغداء, توقفت بعينيها عنده فقد تعلقت عيناه بها وكأنه يقول بهما شيء لكنها لا تريد فهمه , فقد كانت مستاءة من كل شيء.. عدم تصديقها بالإضافة لعدم مناداتها باسمها كما يفعل في المعتاد وكذا عدم سؤاله عن ابنته , لقد ضايقها قسوته... حادت ببصرها بعيدًا ثم اتجهت نحو الدرج لتوقظ ريم وتحضرها لمشاركتهم الغداء.

.....

أيعقل أن نتخذ من عقدتنا النفسية مرمى حيث سنصيب أهدافنا ؟ وهل سيصمد المنطق و كذا العقل أمام ماسيحدث ؟ أم سيتم تخديرهما ؟

كانت ممسكة بهاتفها جالسة على سريرها , نغزها وجع شديد أسفل بطنها يزورها كل شهر فالتقطت حبة مسكنة من الدرج ثم أخذت قارورة الماء لتبتلع الحبة ولسان حالها يردد بقنوط : لقد سئمت تلك العادة المقيتة التي باتت مؤلمة أكثر مما ينبغي, عادت للهاتف تحدق بصورته الشخصية على الفيس بوك بهيام , تتنهد متمتمة :
ـ يالوسامتك ،هنيئا لزوجتك بوجودك في حياتها .

تذكرت زوجة أبيها وماحظيت به رغم أنها زوجة ثانية وكيف تخلى عنهن والدها بعدما أنجبت له الولد لتنعم بنفوذه وماله الذي كانت هي جزءًا منه بينما لا يحظين هنا من رائحة والدها سوى لقب لا يسمن ولا يغني من جوع , فهمست لعقلها :
ـ الزواج الثاني ليس سيئا كما يزعم البعض .

لم تنتبه لمن وقفت أمامها ترمقها بنظراتها المستفهمة , لتقول : ماذا تفعلين ياشمس؟

قطبت شمس جبينها ثم أغلقت هاتفها ولم ترد فتابعت رنا : أشركيني معك أختي!

ـ يا لك من متطفلة ، ما إن قالتها شمس حتى امتقع وجه رنا .. لترد:
ـ إذن هناك خطأ ما فيما يحدث معك ؟

ـ وإن كان... تابعت شمس بنزق : ماشأنك أنتِ ؟

اتجهت رنا نحو الباب و أغلقته ثم عادت لأختها , اتخذت بجوارها مكانًا ثم قالت :
ـ لن أتركك حتى تخبريني كل شيء .

ـ لحوووحة .. صاحت بها شمس , فضحكت رنا من محاولاتها لاخفاء مايجري معها.

حاولت شمس تغيير دفة الحديث قائلة: مارأيك بالزوجة الثانية يارنا؟

ـ حقيرة , خاطفة رجال ... قالتها رنا بعصبية , وقد اتسعت عيناها بالغضب .

ـ اهدأي أختي... أشارت شمس لها أن تهدأ ثم تابعت : أنا لا أمزح , ما الضير في الأمر طالما وافق الطرفان ؟

ـ من تقصدين بالطرفين ؟ الزوجتين؟

ـ لا ؛ أقصد الزوج والزوجة الثانية .

ـ ياسلام ... تابعت رنا بانفعال : والمسكينة التي ضحت بعمرها في مقتبل حياتهما , أليس لها رأي في تلك المسرحية الهزلية ؟

تنهدت شمس بمرارة لتردف : في المعتاد لا يكن لهن رأي ، وأمي خير مثال .

زمجرت رنا وهي تهتف باسم أختها ثم واصلت :
ـ هذا لا يسوغ لأبي تركنا يا شمس , مهما فعلت أمي لا يحملنا ذنب لم نقترفه ... وفي جميع الأحوال أنا أرى أمي ضحية .

صمتت شمس هنيهة , فتابعت رنا : الرجل هو الجانب القوي في أي علاقة ولابد له من الاهتمام ببيته .. ولكن لحظة ، ماعلاقة ذلك بكِ شمس ؟

ـ لا علاقة ولا شيء ... اهدأي رنا .

حاولت رنا تغيير ما آل إليه الحوار بالحديث عن العمل لعلها تضع يدها على الخيط المؤدي لبداية حوارهما ... قالت بهدوء : كيف حالك بالعمل ؟

ـ بخير.

ـ وزملائك ؟

ـ ما بالهم؟ ردت وهي قاطبة جبينها .

تنحنحت رنا متابعة : أقصد علاقتك بهم , هل هم ودودون ؟

أومأت شمس بنعم ولم ترد , فقالت رنا : هل هناك شيء تخفينه عنّي ؟

ابتسمت شمس قائلة : التحاقك بكلية الحقوق أثر عليكِ يا أختي .

اقتربت منها رنا ثم جلست بجوارها , قائلة : إذن هناك شيء .

ـ اممم , ليس بالضبط ... فمذ دعوتهم لوليمة تعييني و الأمور تسير على ما يرام باستثناء ..

هتفت بها رنا : باستثناء ماذا ؟

ـ باستثناء أحدهم لا يعير للمودة بالًا... تابعت وهي شاردة في فضاء الغرفة : وكأنه جاء من كوكب آخر , منغلق على نفسه و لا يحب المزاح مع الجنس الآخر.

ـ إنه شخص محترم يا شمس ... واصلت وهي رافعة أحد حاجبيها : تصرفاتك و أفكارك خطأ ولا أعلم إلى الآن سبب خلعك للحجاب , أختي ؟

رفعت شمس كتفيها بلا مبالاة لتقول : يقيدني ؛ وأنا أحب الحرية .

هزّت رنا رأسها نافية لتضيف : لكنه فرض لسنا مخيرات فيه , وماتظنينه قيد هو حماية لكِ من أعين تتلصص وذنوب تتفاقم على إثر فتنة أحدهم بك .

ـ شكرًا شيختنا الفاضلة قالتها شمس بنزق .

ـ لقد تركنا موضوع المحترم و تطرقنا لموضوع حجابك الذي لانفتر أنا وأمي عن الدعاء لكِ بالعودة له في القريب العاجل .

لم ترد , فربتت رنا على كتفها تسأل : هل هو أكبر منك بكثير ؟

ـ متزوج وله طفلة ... ما إن قالتها شمس حتى امتقع وجه رنا كالمصعوقة وربطت بين أول الحوار و آخرة لكن لسانها لم يحالفها لمعرفة المزيد من أختها.

الفصل الرابع

(صمم)

.....

كل شجار شرارته كلمة... نبتت من رحم وسوسة بعثها أقرب شخص, لاسيّما إن كان غير عابئ بما سيحدث على أثرها بعدما يقوم الشيطان بالنفخ فيها لإشعال فتيل الشجار .

ـ ألا زلت حلوة ؟؟ حدثت نفسها وهي تطالع نفسها في المرآة القاطنة غرفة النوم .

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بعدة دقائق , وقفت أمام المرآة, طوقت خصرها بكفيها وهي ، تتمايل بقميصها الشفاف و شعرها الأسود المموج منسدل على ظهرها .

كان يراقبها فى صمت , اقترب منها ثم طوقها بذراعيه, احمر وجهها :
ـ اا أنت هنا؟؟ ظننتك في الشرفة .

ابتسم بخبث ثم نظر لانعكاس صورتها في المرآة , سألها : هل نامت ريم؟؟

أفلتت نفسها من قبضته ثم اتجهت نحو أحد الأدراج , فتحته والتقتطت علبة تحوي أقراصًا دوائية , أخذت قرصًا وقربته من فمها لكنه جذبها من يدها: ماهذا؟

ابتلعت القرص و أخذت قارورة ماء من على المنضده وشربت , بينما قضب

آدم حاجبيه لعدم اكتراثها بالرد عليه , فأشارت له بيدها أن يصبر .

ازدردت ريقها ثم قالت : إنها أقراص مانعة للحمل .

-لا اريدك أن تأخذيها بعد الآن!

اتجهت أمنية ناحية السرير بلا مبالاه ثم جلست على طرفه

أخفض من صوته منذرًا بخطر محدق : لم تجيبيني .

أخذت تداعب خصلات شعرها المتناثرة حول وجهها مما زاد غضبه : عندما تكبر ريم , أتعلم , أخشى نسيانها أحيانًا , لقد تذكرتها للتو ... تنهدت بارتياح .

صاح مهللاً بذراعيه : أي برود هذا؟ أقول لكِ اتركيها وتقولين عندما تكبر ريم؟!

صوب نحوها نظراته الملتهبة ثم تابع , وهو يشير نحوها :
ـ لما صمتِ ؟ ليس لديك الرد ؛ لأنك بلا ريب مذنبة .

زفرت أمنية بضيق لأنها ملّت غضبه , اتجهت نحوه و وقفت أمامه مباشرة , حاولت السيطرة على عبراتها :
ـ أردت تنظيم النسل لتنعم ريم بطفولة صافية و لأسترد عافيتي حتى أقوى على الحمل مرة أخرى , عندما طلبت منك ذلك وافقتني الرأي , ألا تذكر ؟ أشاحت بوجهها قائلة : يبدو أنك تود افتعال شجار ولا تجد السبب .

ارتفع صوته أكثر و قد احتقن وجهه :
ـ أنا أم أنتِ؟ .

كانت أمنية في حيرة من أمره , أشارت له بيديها أن يهدأ :
ـ هلا هدأت من فضلك قد يسمعنا الجيران .

قاطعها : كل ما يهمك الجيران , ترائي الناس بهذه الطيبة المزعومة، أي نفاق هذا؟

حاولت السيطرة على أعصابها , تذكرت محاضرة الدكتور أحمد عمارة عن ضبط النفس التى شاهدتها قبل زواجها عبر اليوتيوب , تنفست بعمق ثم رتبت أفكارها وقالت : ماذا تريد مني الآن يا آدم ؟

تركها وخرج إلى الصالة التقط مفاتيحه ثم غادر المكان بعدما صفق الباب خلفه محدثًا ضجيجًا بالمكان وألمًا داخل قلب أمنية التي تمددت على فراشها محتضنة وسادتها وقد تشربت دموعها الحارة.

.....

كيف يتسنى لمجلس رجولي معبق بدخان الأراجيل مناقشة قرارات من شأنها بث الاستقرار ؟
إلا إن كان كل رجل سيحتفظ برأيه معترضًا على آراء الآخرين !

استقل آدم سيارته في تلك الساعة المتأخرة , متجهًا حيث كان رفاقه يتسامرون في المقهى , حاول جاهدًا أن يبدو على مايرام لكنه لم يفلح فوجهه يفضحه دائمًا , اتجه إلى الطاولة التي يلعب عليها أصدقاؤه النرد وما إن رأوه حتى صاح سمير :
ـ هاهو آدم , سيلعب الدور القادم .

ضحك هيثم وهو يشير إلى سمير قائلا : بالطبع بعد أن تُهزم يا رفيق .

أخذ آدم كرسيه واتجه نحو حازم الذي جلس يتابعهما مكتفيًا باحتساء الشاي ومطالعة تلك الشاشة الكبيرة المعلقة على الحائط التي تبث فيلمًا من الأفلام القديمة .

التفت حازم إلى آدم وهو يقول : أهلًا بك , ظننتك لن تأتي , ماذا ستشرب ؟

آدم : أي شيء.

نادى حازم على النادل وطلب منه كوبًا من الشاى المعبق برائحة النعناع كما يحبه آدم , ثم التفت إلى آدم و ربت على كتفه : ما بك؟ شجار عائلي ؟

صمت آدم و التقط هاتفه يعبث به , ففهم حازم رغبته ثم عاد لمطالعة التلفاز بينما كان سمير يصيح لأنه على وشك إعلان هزيمته أمام هيثم .

رنّ هاتف حازم , فاستأذن للانصراف قائلاً : إنها زوجتي , سهرت برفقة والدتها وهاهي تطلبني لأقلها إلى المنزل , فأنا سائقها الخاص .

ضحك آدم ثم قال: وما الذي يجبرك على هذا؟

أخذ حازم مفاتيحه وهاتفه استعدادًا للمغادرة ثم قال: أحبها ولا أرى حياتي بدونها, من نحن بدونهن يا رجل ... قام واتجه إلى الخارج ملوحا بيده .

مسد آدم شعره غير عابئ بما قاله حازم , أخذ كوب الشاي الذي أحضره النادل وبدأ باحتسائه بينما أشار له هيثم ليشاركه النرد لكنه رفض فأغلق هيثم الصندوق وكأنه يود الحديث لذا طلب من النادل أرجيلة بنكهة التفاح بينما طلبها سمير بنكهة الخوخ أما آدم لم يعجبه التدخين حتى ولو كان ذو نكهة منعشة .

وصلت الأرجيلتين , استأنف سمير الحديث بعدما أخذ نفسًا عميقًا منها :
ـ آه من هؤلاء النساء , لا أعلم كيف أرضيها يا صديقاي؟ لا تكف عن السؤال , وبدأ يقلد لكنة زوجته : أين ستذهب ؟ لِم تأخرت ؟ من كان معك؟ متى ستأتي؟ خذ الولد إلى التمرين ... أريد هذا و ذاك و ..... سأجن منها , عاد لأرجيلته ليسحب منها نَفَسًا آخر .

التفت إليه هيثم وهو ينفث الدخان ثم قال :
ـ أرحها يا رجل ببعض الكلمات المعسولة , يسهل خداعهن صدقني, خذني مثالًا, أعيش كما أحب و كأننى حر أواعد هذه , و أهاتف تلك , أتعرف لهذه... وقبل أن تغضب زوجتي, أغازلها , أهاديها , فتنسى عما كانت ستسألني .

ابتسم آدم وقال : لكنك مخادع يا رجل , أظنها تعلم لكنها تحيك لك خطة ما .

قهقه هيثم حتى سعل من أثر الضحك و الدخان :
ـ وليكن .. ما الذى يمكنها فعله ؟ أنا لها الزوج و المصرف الذى يمدها و ولديّ بالمال وقتما شاءوا , رغم كونها ربة منزل إلا أن مظهرها يحاكى مظهر سيدة أعمال , لها خادمة و سيارة وكل ماتحلم به أي امرأه مثلها , هل بعد كل ذلك ستفكر بخطة ؟ أم تقبل يداي و قدماي على كل مافعلته لأجلها ؟؟

امتعض آدم لسماع ذلك فعلق: لم يعجبني تفكيرك أبدًا , لاشيء يسوغ لك ارتكاب الخطيئة ومواعدة النساء .

نظر له هيثم بطرف عينيه ثم قال : ادع لي يا شيخنا.. بينما صاح هاتف سمير باسم زوجته فقال : هاهي , أخبرتها أنني معكم و سأتأخر و مع ذلك تصر على إزعاجي , لن أرد .

نظر له آدم وقد عقد جبينه قائلا : لابد أن تخافك أكثر , أظنك تضعف أمامها ولا يستحسن ذلك أبدًا أمام النساء , أنا مثلًا , زوجتي تخافني ولا تقوى على التفوه بدون إذني, نحن مركز القوة أمامهنّ ولابد من السيطرة عليهن حتى لا يتمردنّ , تابع وهو يشير بيده : وإن فعلنّ لن يجدنّ إلا الضرب ...

نظر هيثم و سمير لبعضهما البعض وقد اتسعت أحداقهما و قالا : ماذا ؟

استكمل آدم حديثه وهو يضحك من ردة فعل صديقيه : كما سمعتما, يمكن اللجوء لضربهنّ حينها سيعلمنّ مدى قوتنا ولن يجرؤنّ على إزعاجنا ..

امتعض سمير لسماع ذلك فقال : ما أكرمهنّ إلا كريم يا رجل , هل ترضى ذلك لأختك ؟

أشار له آدم بسبابته قائلاً : وهل راضٍ أنت عن حياتك و أنت بهذا الضعف .

عقد سمير جبينه وقبل أن يرد , هلل هيثم بكفيه قائلاً : يكفي هذا اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية .

لم يكف الهاتف عن الرنين حتى قام سمير تاركًا المقهى بينما ظل هيثم إلى أن أتاه اتصال من إحداهنّ , قام على إثره , لم يجد آدم بُدًا من مغادرة المقهى و العودة إلى المنزل .

.....

أنا تلك المرأة التي تخشى لعنات الملائكة , تهتم بإرضاءه , تعظم قدره كزوج , أقوم بواجباتي

كما ينبغي كدمية ولست كأمنية , فأنا بشر أشعر , أتألم و أتأثر بما يحدث , كيف بقيدٍ طوال النهار يُفضى لأنوثة مفرطة , ومشاعر فيّاضة بالليل ؟ أم أن الليل منبع اللطف و الرقّة ؟ لقد اشتقت لاحترامه لي أمام الناس ووالدته بشكل خاص, اشتقت لنفسي التي لم أعد أراها في تلك المرايا و الأسطح المصقولة , كلما رأيت تلك التي تشبهني وددّت لو حطمت كل ما يلوح بصورتها أمامي , لكن خوفي من غضب آدم يمنعني من ارتكاب أي حماقة بالأثاث , حتى تلك الأمنية لا أقوي على تحقيقها.. كم أنا ضعيفة؟

تسللت بعض الطاقة السلبية التي انفرجت عنها السطور إلى خلايا أمنية , فأغلقت المفكرة وقطبت حاجبيها و كأنها تألمت لقراءة تلك الكلمات التي انتهت من كتابتها لتوها .

حتى الجوامد لها القدرة على تغيير مِزاج المرء و تحويل مساره , حسبما تقرأ تكن حالتك , و كأن المخ يخرج ذلك العمل الدرامى ليبعث مشاهدة عبر الخلايا فيؤثر إما إيجابًا أو سلبًا...

فجأه تخللت أصابعها أنامل دقيقة , حسّنت حالتها برؤيتها , رفعت كفيها لتقبيلهما , وأجلستها على حِجْرها , وهمست فى أذنها : صباحك جميل يا ريمي.

.....

ـ إلى متى ستظلين تحملينها؟ سألت زينب بينما كانت أمنية تطعم صغيرتها.

بلعت أمنية ما كانت تمضغة ثم قالت : إلى أن تتمكن من التحرك دون أن تتعثر .

تركت زينب قطعة الخبز التى قطعتها للتو ثم قالت : لكن هذا لن يجدي نفعًا, كان آدم مشغول بالتهام طعامه ولم ينطق بكلمة.

عقدت أمنية جبينها قائلة : لم أفهم قصدك؟

ـ ألم يأن لكِ أن تأتي لها بأخٍ ؟

التفتت أمنية لآدم الذي أشاح بوجهه بعيدًا عنها , ثم عادت لزينب , ابتسمت قائلة :
ـ لم أعلم أن بينكما توارد خواطر لهذه الدرجة ، حدثها عقلها قائلاً : الآن عرفتِ سبب شجاره معك ليلة البارحة .

فهمت زينب ما ترمي إليه أمنية فابتسمت وهي ترفع أحد حاجبيها :
ـ لأبعد مايمكن تخيله , آدم لا يخفى عنّي أي شيء يا أم ريم , ولا يرفض لي طلبا .

امتقع وجه أمنية من صراحة زينب لكنها حاولت إخفاء الدهشة التي كادت تعتلي قسمات

وجهها, ابتسمت قائلة : حفظكما الله لبعضكما و أدامَ حبكما.

.....

لن يلجأ للسخرية من الآخرين غير فاقد الإحساس , كيف يبعث لمن أمامه شيء هو فاقده ؟

بين جنبات الحديقة الصغيرة التف الجميع حول المنضدة لاحتساء الشاي بينما انشغلت الصغيرة باللهو بدميتها وهي جالسة على العشب .

ـ كنت أود منك ابتياع ملفوفة كبيرة لحشوها من أجل الغداء... قالتها زينب وهي تشرب الشاي .

تجهمت أمنية لبرهة ثم قالت: ولكن ... شعرت و كأن الأرض تميد بها عندما أحسّت أن نزهتها مع سحر قيد الإلغاء...

ـ ولكن ماذا؟ سألتها زينب وهي ترشف من الكوب .

ـ ولكن اليوم الجمعة وكنتُ أودّ الخروج .
ـ نور ستأتي اليوم , ولابد أن تكونى موجودة , فقد اشتاقت لريم , كما سيتسنى لها رؤية الولدين واللعب معهما, مطت شفتيها متابعة : لكم أشفق عليها من تلك الوحدة ! التفتت لآدم وربتت على كتفه قائلة : اشرب يا بُني الشاي , أظنّه برد .

قطبت أمنية حاجبيها ونظرت لريم التي تحتَجّ بها زينب لمنعها من الخروج , التقطت كوبها لتشربه , رشفت منه ثم التفتت لزينب و بنبرة هادئه قالت :
ـ لقد اشتقنا لنور أيضًا, ثم تابعت : متى ستأتى نور ؟

ضحكت زينب وكأن كلمات أمنية راقت لها :
ـ ربما تدخل علينا الآن , تعلمين أن في أيام الاجازة تأتينا باكرًا .

ابتسمت أمنية وقالت : تأتي سالمة هي ومن معها , سنلحق جلسة ماتعة إذن , وسنتغدى قبل موعد خروجي, رشفت آخر رشفة بالكوب ثم وضعته و وقفت حاملة صينية الشاى ثم أكملت : سأبدل ملابسي لأخرج إلى محل الخضروات ..

خرجت أمنية , بينما وصلت نور وزوجها و ولديها للتو , ركض عمر نحو جدته أما علي اتجه نحو ريم ليلعب معها , عانقت زينب عمر بينما وقف آدم ليسلم على محمود و نور , تركت ريم دراجتها واتّجهت لعمتها التي استوت على الكرسي المقابل لزوجها, قبلتها و فكت

شعرها لتعيد ربطه على طريقتها, أخرجت من حقيبتها كيسا صغيرًا و قدمته لريم .

نظرت ريم لجدتها و أبيها و كأنها تستأذنهما فى أخذ تلك الهدية , ابتسم آدم وقال :
ـ خذيه ياريم , ثم التفت لأخته وقال : شكرًا يا نور.

فتحت نور الكيس لريم لتفرغ محتواه من ربطات ومشابك شعر ملونة و جميلة , جربت أحد مشابك الشعر و لملمت به غرة ريم , فبدت أجمل , و كأن البراءة أحاطتها لتجعلها للطفولة عنوانًا, طالعت عمتها بعينيها العسليتين , قبلتها بين عينيها وهى تقول : آه , لكم أعشق البنات .

ابتسمت لها زينب و قالت: لِم لا تنجبي واحدة ؟

وافقها محمود وهو يومئ برأسه قائلاً :
ـ قولي لها يا أمي , سئمت من إلحاحي عليها لكنها ترفض وبشدة .

تعجب آدم فنظر له وهو يرفع أحد حاجبيه , لم يعجبه ما قاله , كيف لرجل انتظار زوجته في أمر كهذا ؟

بينما ردت نور عليهما قائلة :
ـ الحياة باتت صعبة , بالكاد تمكنا من تحمل مسؤلية الولدين , لقد زادت مصاريف مدرسة عمر و كذلك روضة علي , ضيفي عليها أقساط الشقة التي اشترياها للتو , وكذلك المتطلبات اليومية وتكاليف النزهات والمصايف , كل ذلك بفضل الدروس الخاصة التي يعيطها محمود , أفكر في عمل نفس الأمر لكنه رفض تمامًا.

ضحك آدم وقال في نفسه : أخيراً رفض أمرًا , و أبدا رأيه ، يالك من عار علينا .

رد محمود : طبعًا و سأظل أرفض , إذا انشغل كلانا لمن سيلجأ الولدان ؟

وافقته زينب : معه حق يا نور, تربية الولدين أهم و أبقى , أما بخصوص الإنجاب , الرزق على الله يا ابنتي و كل مولود يأتي برزقه .

رفعت نور كتفيها قائلة : حتى وإن كان كذلك , من يضمن لي أن المولود القادم ستكون أنثى , لعلى لن أرى غير الذكور .

مط آدم شفتيه وهو يقول فى حدود عقله : يا لحظك , إنهم عزوة, يا لي من بائس . بينما قالت زينب : وهل الذكور شر ؟ لقد رُزقتِ العزوة يا نور , إنك محظوظة بذلك وقبل أن تكمل

قاطعها صوت القادمة من الخارج : السلام عليكم... كانت أمنية قد عادت ، حاملة ما ابتاعته من خضراوات .

رد الجميع : وعليكم السلام , نظرت نور لأمها واقتربت من أذنها ثم تمتمت : ألا تخجل من نحافتها تلك ؟ من يراها يظنها خرجت لتوها من مجاعة , لعل آدم حزين من ذلك ؟ لم تنتبه لمن كان يطالع أمنية بعينيه حتى كادت تخرجا من محجريهما , ويقول في نفسه : كلما نحفت ازدادت جمالًا , ليتك تفعلى كما تفعل نور , لقد امتلئتِ مؤخرًا, آدم محظوظ بالفعل ...ساعده على عدم غضّ بصره انشغال آدم بالعبث في الهاتف وانشغال نور وزينب بالكلام .

قاطعه صوت ضحكات زينب التي همست في أذن نور :
ـ معكِ حق يا نور, ولكن انتبهي حتى لا يسمعك أخوكِ فيزداد حزنه , لكم أتمنى أن يظهر عليها أثر النعيم الذي نحياه .

دخلت أمنية إلى المطبخ لتضع ما بيديها ثم خرجت للحديقة لتسلم على نور و ولديها , ركضت ريم نحوها بينما اكتفى الولدان بالنظر إليها من مكانهما حيث كان الألعاب , حملت ريم ثم اقتربت من نور و قالت : كيف حالك يا نور ؟

ابتسمت نور بخبث و كأنها تنوى فعل شيء ما ثم قالت :
ـ بخير حال , كيف حالك أنتِ ؟ حاول محمود أن ينشغل بتصفح هاتفه , وينظر إلى أمنية بين الفينة و الأخرى.

أنزلت أمنية ريم إلى الأرض وطلبت منها مشاركة عمر و علي اللعب , ثم التفتت لنور قائلة : الحمد لله .

التقطت زينب كيس ربطات الشعر ثم قدمته لأمنية قائلة : لقد أهدته نور لريم .

أخذته أمنية و تفحصت ما بداخله ثم ابتسمت لنور و قالت :
ـ شكرًا لك يا نور , لديك ذوق راقي .

ابتسمت نور و ردت عليها :
ـ العفو يا أم ريم , كم أود أن اشترى لكِ ملابس مولود قريبًا.

التفت الجميع لأمنية مترقبين ردها , ابتسمت لنور قائلة : لكن ريم ما زالت صغيرة , ثم التفتت لآدم و زينب واستكملت وهى تضحك : ياله من مطلب شعبي .

قطبت نور حاجبيها وقالت : لم تعد ريم صغيرة , كما أنها تحتاج لوجود أخ , ثم أشارت إلى

الأطفال حيث يلعبون و واصلت : انظرى كم تستأنس برفقة ولديّ .

نظرت أمنية للأطفال ثم قالت : حفظهم الله , لكن من أدراكِ أن القادم أخ ؟ كما أنني أحتاج لاستعادة عافيتى , ألا تظنين ذلك ؟

زمّت نور شفتيها قائلة : سيكون أخ و نسميه جابر على اسم أبي , أما عافيتك فهذا بيدك , لعلك تتبعين حمية ما ؛ لأنّ البيت هنا مملوءٌ بالخير , لا يعقل أن يكون جسدك النحيل هذا ينعم بكل ذلك النعيم و لا يتأثر إلا إذا ..... صمتت

فسألتها أمنية وقد بدا عليها الضّيق ونظرت لكل الجالسين الذين اعتراهم الصمّ والبكم : إلا إذا ماذا؟

نظرت نور لمن حولها ثم أشارت بيدها لجسد أمنية و قالت : إلا إذا كنتِ مريضة ؛ حينها لابد من إخبارنا ليتسنى لكِ الذهاب إلى الطبيب .. صمتت وهى تشعر بانتصارها وتحدث نفسها : سنرى ردك أيتها البريئة , بينما شعر محمود بالغضب لما فعلته نور لكنه لم يستطع النطق , حدث نفسه وهو ينظر لأمنية قائلا :
ـ يا لكِ من مسكينة .

تألم قلب أمنية لسماع ذلك , و زاد حزنها لعدم رد آدم و كذلك والدته , قالت :
ـ أنا رشيقة يا نور ولستُ مريضة , رفعت سبابتها وهي تنظر لجسدها الممتلئ لتكمل : لعلكِ نسيتي الفرق بينهما , استدارت متجهة إلى المطبخ تاركة نور مبهوتة و الصمت هو سيد الموقف , بمجرد وصولها المطبخ أطلقت العنان لدموعها التي انهمرت بشدة من جراء جرعة السخرية الممزوجة بالتوبيخ التي نالتها من نور , لم تنصفها حماتها, ولكن كيف لها انتظار الإنصاف من حماتها و زوجها يشاهد تلك المسرحية الهزلية و لم يحرك ساكنًا, وكيف تنتظر الحكم على ابنة من أمها و أخيها , حدثت نفسها وهى تمسح دموعها : هذا جنون لا محالة ... فى النهاية أنا الغريبة لا هي .

.....

هناك من يقسو على نفسه في الحب ... لأنه أحب دون استقبال حب الطرف الآخر , وعندما استفاق على صفعة البعد , جعل قلبه رهن تلك العلاقة المفقودة .

كان يحتسي قهوته قبل الذهاب للمسجد, جلست جواره والدته ثم ابتسمت له بحنو وكأنها تود استئناف حديث ... فهم طلبها فحرك رأسه يعلمها أنه منتبه لها ومنصت , فسألته : إلى متى ؟

عقد حاجبينه مستفهما: إلى متى ماذا ؟

ربتت على كتفه بأمومية مردفة : إلى متى ستظل عازفًا عن الزواج ؟

رشف من قهوته ثم ابتسم قائلاً : إلى أن أجد ضالتي .. أضاف ممازحًا: ألهذه الدرجة مللت وجودي معك وتودين التخلص منّي, يا سيادة ؟

طرقت على كتفه وهي تضحك قائلة : بل أود رؤية أحفادي يا أيمن! تابعت محفزة إياه : مارأيك بنغم ابنة جارتنا وداد لقد كنت مع أمها البارحة ورأيتها , لقد صارت شابة جميلة .

رد أيمن بعبوس : لا تعجبني ... إنها تخفي ملامحها خلف مساحيق التجميل ... اخطبيها لأدهم طالما أعجبتك.

لوت شفتيها قائلة :
ـ أيعقل أن نخطب للصغير قبل الكبير ؟ كما أنّه لازال يدرس ياولدي .

ـ لا أريد الزواج منها أمي .

أطرقت سيادة رأسها وقد كست ملامحها الخيبة , وقالت :
ـ كنت أنوي زيارتهم مساء اليوم لإخبار والدتها .

رقّ لحالها عندما لمس حزنها , ربت على ذراعها قائلاً : أنا آسف إن ضايقتك بكلامي أمي, لكنني حقًا لا أفكر في الارتباط بالوقت الراهن .

تنهدت سيادة بألم ولم ترد , فقد شردت بذكريات خالية تَحطم فيها فؤاد ابنها على يد ابنة أخيها عندما تقدم لطلب يدها و رفضته متحججة بالدراسة لكن قلبها يحدثها أن جمال رأى اختلاف المستوى المعيشي بينهما عائقًا لذا رفض وله الحق فهي إلى الآن لا تعرف كيف طاوعت ابنها للمضي في ذلك الأمر حينها , ولم يكن من أيمن حين علم بزواج أمنية إلا الهروب بالسفر لبلد عربي للعمل فيها رغم اعتراض خاله على ترك شركته , وقد عاد منذ شهرين عندما وجد أن الهروب لا جدوى منه ولن يغير ماحدث , ليستعيد منصبه كمحاسب في شركة جمال .

منذ تلك اللحظة قاطع الزواج وكأنه رهنّ قلبه بأمنية ... تسللت دمعة أبية عبر مقلتها لتغوص في ذكرياتها أكثر مع ولدها الكبير الذي تحمل مسؤلية تفوق احتماله بعد موت أبيه منذ الصغر ليكون ابن , أخ و أب ... وعندما دق الحبّ بابه وقف ضيق ذات يده بينه وبين من أحبها قلبه .. تمتمت لعقلها : لماذا يبخل القدر عليّ بفرحتي به ؟

كان يطالعها بألم , لا يعلم ما تفكر به لكن مؤكد أنه محزن بسبب تلك الدمعات التي تقفز واحدة تلو الأخرى , مرر أصابعه على وجهها بحنو يمسحها ولم يرد فقد انعقد لسانه فلم يتمكن من التخفيف عنها .

التفتت له , هدأت حالتها قليلاً وهي تطالعه بأمومية , حاول تغيير الموضوع قائلاً : ـ مارأيك نخرج هذا المساء ؟

ـ إلى أين ؟

ـ حيث تريدين... تابع مبتسما: مجرد نزهة مسائية .

ـ أليس لديك موعد هذا المساء ؟

ـ بلى , لدي ... لكن لا يهم .

ـ مع من ؟ ... سألته وهي تنظر لعينيه .

ـ مع خالي جمال .

ضيّقت عينيها سائلة : ألم تكن معه في الشركة بالأمس؟

ـ بلى ؛ ولكنّه يحتاجني لمناقشة بعض الأمور المالية المتعلقة بمشروعه القادم... تابع محفزًا إياها للتنزه : بإمكاني الاعتذار له وسأذهب إليه في وقت لاحق .

حركت سيادة سبابتها نافية لتقول : بل اذهب إليه بني... واترك أمر النزهة لوقتٍ لاحق ...

.....

عندما يطبق الصمت إحكامه علينا فلا نقوى على الرد, ستلجأ حينها العيون للتكلم من أجل البوح ....

دخلت زينب عليها المطبخ لتجدها منهمكة في تحضير الطعام , سألتها:
ـ هل تحتاجين مساعدة؟

حاولت أمنية جاهدة السيطرة على ملامحها لئلا يبدو عليها الضيق , لقد ظلت قرابة الساعتين في المطبخ ولم يسأل عنها أحد , تذكرتها زينب للتو, صنعت ابتسامة ثم رفعت رأسها لتنظر لزينب ولم ترد.

ازدردت زينب ريقها ثم قالت :
ـ سيؤذن للجمعة بعد نصف ساعة , هل قمتِ بكيّ جِلباب آدم و سرواله؟

فهمت أمنية سبب مجيء زينب لها , التفتت لها قائلة : سأذهب الآن لكي ملابس آدم ثم أعود للملفوف لاحقًا... خرجت من المطبخ تاركة زينب التي مازالت واقفة تطالع أمنية في حيرة من أمرها , هل كلام نور لم يؤثر فيها لهذه الدرجة , سألت نفسها حتى غابت عنها أمنية ثم استكملت في ثقة : وماذا عساها أن تفعل , لا و لن تقوى على شيء , ستظل تحت طوعي و أمري , اتجهت نحو الثلاجة , أخذت الفاكهة الموجودة على أحد رفوفها لأجل الموجودين بالحديقة...

.....

فرشت الجلباب على طاولة الكي , واستأنفت مهمتها بينما كان آدم يغتسل لصلاة الجمعة , لم تود التفكير بأي شيء حتى لا يتسبب شرودها في حرق لذلك الجلباب القيّم و سينجم عنه كارثة حقيقية , أن تكون آلة خير من سماع إهانة .

أنجزت المهمة و علقت الجلباب و السروال و استدارت لتخرج من الغرفة لكنها تسمرت مكانها حين وجدت من يقف خلفها مباشرة , لم تشعر بدخولة و كأنه اتخذ من الهواء حيزًا ليصبح جزءًا منه ... ظل صامتًا وهي كذلك , يظنون ذلك لكن عيونهم تحدثت بالكثير , تعاتبه ويتهرب بل ويبرر... كيف لا , ومن يحامي لهم , أمه , أخته و نفسه... قاطعت حديث عينيهما قائلة : سأنزل , هل تريد منّى شيئاً آخر ؟

ارتبك و كأنها طرقت على أوتار قلبه بنظراتها لكنه لم يشأ أن يبين ذلك فرد عليها :لا... لا شيء .

نزلت وتركته يخطو نحو جلبابه ليرتديه لكنه مشوش الفكر , شاردًا , يفكر فيها محدثًا نفسه : لعلها حزينة مما قيل لها... لكنني لا أجيد الكلام لأخفف عنها... ستتعود على كل ذلك مع مرور الأيام .. وكأنه أراد أن يخمد صوتًا ضعيفًا قد تردد من ضميره .

فجأة أصدر الجوال طنين رسالة , اتجه آدم نحوه ثم اتسعت ابتسامته على إثر قراءة سطور تلك الشمس الأنيقة ، نحاه جانبًا بلا رد ثم انطلق بخطوات ثابته نحو المسجد .

وفي القلب أمنية

الفصل الخامس

(اللقاء المنتظر)

.....

سألت الصدق حبًا

فأهداني صديقة

تلم شتات قلبي

وتبقى لي رفيقة

على العهد اتفقنا

لإكمال المسيرة

فيبقى الود فينا

وفيًا ما حيينا

أشاطرها أنيني

تشاطرني حنينًا

فتمحو كل همي

و تمسح دمع روحي

فأغدو بها قوية

و لن أبقى وحيدة

تؤازرني وتحكي

أنّي بعينيها فريدة

تسللت أعماقي

فأدركت الحقيقة

في الله تحابينا

و على الخير سنبقى

تجمعنا الصداقة

بنكهة خير إخوة

و أرسل كل سطرٍ

إلى أختي الحبيبة

.....

لا شيء يضاهي عاطفة سخية بقلب رجل عرف كيف يحركها ليصيب بها معشوقته! لكن هل هذا كل شيء ؟ أم أن هناك ذكرى دفعته للسخاء؟

كانت تجلس أمام المرآة تضع اللّمسات الأخيرة لمكياجها الهادئ الذي اعتادت على رسمه , بينما كان يقف بجوارها يطالعها بعينيه الصغيرتين , ابتسمت وهي تنظر له عبر المرآة ثم قالت :

ـ هل أخرتك يا محمد ؟

أومأ بنعم فضحكت على ردة فعله الطفولية ثم استطردت :

ـ مع من ستلعب اليوم؟ فتابعت لأنه لم يتمكن من الكلام بعد , فقد تجاوز العام بثلاثة أشهر :

ـ مع ريم سنتنزه اليوم , قاطعها رنين الهاتف , اتجهت نحو الهاتف لترد بصوتها الرقيق الذى يسلب لُب من يسمعه عبر الهاتف : حبيبي ! سلام الله عليك.

وافتها ضحكته التي تنم عن سعادته لسماع صوتها : أهلاً حبيبتي , كيف حالكما ؟

ابتسمت قائلة :

ـ بخير لكن ينقصنا وجودك .

ـ لكم افتقدتك .

قالها وقد وصلت صداها عبر ذبذبات الجوال .

ضحكت من فرط سعادتها بكلامه فمازحته قائلة :

ـ إلى أي درجة ؟

زفر حسن بحب قائلاً :

ـ لا توجد درجات ؛ لأنني أحبك حبًا ليس له حدود .

وضعت يدها على فمها وهي تتَغنّج بضحكاتها ولم تقوّ على الرد , فسألها بلطف :
ـ ماذا تفعلين ؟

ـ أجهز نفسي للذهاب مع محمد إلى الحديقة للقاء أمنية , تنهدت متابعة : وماذا عنك يا حياتي؟

ـ أنتظر النادل ليحضر لي الغداء , لذا هاتفتك لأفتح شهيتي بصوتك الجميل للطعام .

تتابعت ضحكاتها وهي تقول :
ـ رفقاً بي حسن , فأنا لن أتحمل المزيد من الغزل .

صمت هُنَيْهة ثم عاد إليها قائلاً :
ـ بل أنتِ من عليه أن يرفق بي .

ـ يالك من محتال , لقد سلبت قلبي و عقلي و تطلب الرفق .

ضحك من قولها ثم بادرها ممازحًا :
ـ بل أنا المسكين , الذي يرنو لهواكِ .

ـ وها أنتَ تربعت على عرش قلبي ... قالتها و الأنفاس تخرج في وتيرة رومانسية هادئة ثمّ أنهت المكالمة .

أغلقت الهاتف بعد أن قبّلته ثم جالت بنظرها في أنحاء الغرفة تبحث عن صغيرها الذي لا حسّ له , حينها علمت أنّه يفعل كارثة جديدة من كوارثه , كان في الصالة يعبث بحقيبتها و قد أفرغ محتوياتها على الأرض و سكب بعض مستحضرات التجميل خاصتها .

هرعت إليه وهي تصرخ :
ـ لاااااااااااااااا!

نظفت ما فعله ثم بدلت ملابسه و رتبت حقيبتها من جديد ونظرت إليه وهي عاقدة جبينها قائلة : لا تعبث بها مجددًا و إلا غضبت منكَ .... وضع كفيه الصغيرين على عينيه ليعبر عن غضبه من أمه التي نهرته فجذبته إليها واحتضنته وهي تربت على ظهره وتقول :
ـ أنا أحبك يا محمد ... ثم قبّلته واستكملت :
ـ من سيخرج معى الآن ؟
فرفع يده وهو يضحك متناسيًا تمامًا ماحدث منذ قليل .

ارتدت نظارتها الشمسية , التقطت حقيبة يدها ثمّ حملت محمد متّجهة إلى الخارج لتستقل

سيارة أجرة للمكان حيث سيكون موعدها مع أمنية .

.....

هناك من تنعم بأخت لكنها ترنو للصديقة , وأخرى خُلقت وحيدة حتى وجدت رفيقة تشبهها , وثالثة حظيت بالاثنتين في حياتها .... لكن ماذا عمن وجدت ضالتها في كيان واحد اسمه صديقة بنكهة أخت ؟ أليست محظوظة ؟

وصلت أمنية إلى الحديقة ومعها ريم , جالت ببصرها في المكان ولم تلحظ وجود سحر , هاتفتها لتعلم أين جلست , و ما إن اتصلت بها حتى علمت أنها مازالت بالطريق , فدخلت متجهة إلى إحدى الطاولات القريبة من مدخل الحديقة ليتسنى لسحر رؤيتها .

دقائق ووصلت سحر , مسحت بعينيها المكان حتى رأت من تلوح لها , اتجهت من فورها إليها , ألقت التّحية فقامت لها أمنية تسلم عليها وتعانقها ثم جلس الجميع حول الطاولة , نظرت سحر لريم و محمد والحماسة على وجهيهما وقالت :

ـ من يريد المثلجات؟

رفع الطفلان كفيهما والبهجة تطُل من عينيهما بينما ابتسمت أمنية وهي صامتة تراقب ردود أفعالهما البريئة , سألتها سحر :

ـ كيف تفضل ريم مثلجاتها يا أمنيتي ؟

فضحكت أمنية قائلة :

ـ مثلي تمامًا, تفضّلها بالشوكولاتة .

التفتت سحر تبحث عن نادل , وجدت أحدهم فلوّحت له منادية , اتجه نحوها فطلبت منه المثلجات .

حاولت كلتاهما تذويب مثلجات الطفلين ليسهل تناولها وكانت كل منهما تأكل مايحلو من حصتها أمسكت ريم كأسها الصغير تغرس ملعقتها الصغيرة فتخرجها غارقة بالشوكولاتة , لم يفلح محمد فى عمل ذلك فساعدته والدته , كانت أمنية تأكل مثلجاتها بنهم و كأّنّها تتذكر معها أيام باتت طيّ الذكريات , تابعتها سحر بعينيها ولم تشأ إفساد تلك اللحظة عليها , انتظرت حتى انتهى الجميع وتمّت مهمة تنظيف فم الصغيرين بالمناديل الورقية بنجاح , أشارت عليها أن تتجها لمكان مملوءٌ بالكرات البلاستيكية خاص بالأطفال دون الثلاث سنوات , أخذا الطفلين حيث سيلعبا ثم وقفتا خلف الحائط الزجاجي يراقبانهما .

التفتت سحر لأمنية وقد اعتلى القلق قسماتها :
ـ ما بكِ يا أمنية ؟

لم تود أمنية أن تلتقي عينيهما مجددًا حتى لا ينكشف أمرها , ظلّت تراقب الطفلين قائلة :
ـ أنا بخير اطمئني .

ربتت سحر على ظهرها قائلة :
ـ ألهذه الدرجة أصبحت غريبة عنكِ؟

التفتت لصديقتها ثم تنهدت قائلة :
ـ لكلٍ منّا مشاكله , لِما أُحملكِ ما لا تطيقين ؟

بادرتها سحر وعلى محياها العتاب :
ـ حتى و إن كان بوحك سيسعدني ؟

عقدت أمنية جبينها ثم سألتها :
ـ يسعدك؟! كيف ذلك ؟

وضعت سحر راحتها على كتف أمنية قائلة :
ـ لأنّنى سأفكر معك فى حلها وحينها لن تتألمي , ألا تعلمين أن ألمك يؤلمني ؟

زفرت أمنية بضيق و عادت بنظرها إلى الطفلين قائلة :
ـ أخشى أنكِ لن تستطيعين حلّها ؟ مشكلتي أكبر مما تتخيلين .

تأففت سحر من إصرار أمنية من عدم البوح , فقالت :
ـ هاتِ ما عندك أولاً , ثم اتركى الحل للنهاية .

ترددت أمنية بعض الشيء , هي صديقتها ولم تعهدها مفشيّة للأسرار , لكنها تود جعل ما بينها وبين آدم طيّ الكتمان , لكنها تذكرت زينب و نور , فحدثت نفسها قائلة :
ـ لقد فعلها قبلي , لِم التردد إذن ؟ التفتت لسحر قائلة :
ـ أنا أُدون كل ما يحدث معي داخل مفكرتي, لكنني تركتها بالمنزل , ثم تابعت ضاحكة :
ـ لم أكن أعلم أنني سأحتاجها داخل المنزل و خارجه.

طالعتها سحر بنظرات إعجاب قائلة :
ـت أعجبتني الفكرة ، لقد فعلتِ الأمر نفسه أيام الجامعة , ألا تذكرين ؟

ـ بلى أذكر , وسأصدمك بقولي أنني لازلت أكتب في مفكرتي القديمة ، أجابتها أمنية فقطبت سحر جبينها في عدم تصديق لما سمعته وسألتها :
ـ القديمة ؟

هزّت أمنية رأسها وقالت :
ـ نعم , لقد عدت لتدوين يومياتي فيها , لا تزال محتفظة بالكثير من الورق .

ابتسمت قائلة :
ـ مبارك عودتك للكتابة غاليتي .... تنحنحت سائلة: هل تسمحين لي بالإطلاع عليها؟

ضحكت أمنية وشعرت بالحماسة التي انتابتها من كلام سحر , فقالت :
ـ بالطبع , سأحضرها معي المرة القادمة ، ضحكت و كأنها تذكرت أمراً ثم قالت : ـ آدم لا يريدني أتعلق بأي سطور .

ـ ماذا؟
سألتها سحر في محاولة لاستيعاب ما سمعته للتو .

ابتسمت أمنية لردة فعل سحر ثم قالت :
ـ كلما رآني في غرفة المكتب , غضب و أمرني ألا أطالع الكتب , لو علمتِ السبب سيزداد تعجبك ، استكملت :
ـ يقول إنها ستفسد عقلي و أنّ عليّ أن أجعله و ريم شغلي الشاغل .

زفرت سحر بضيق قائلة :
ـ أود ألا أصدمك بما سأقوله ، معظم الرجال لا يحبذون التعلق بالمرأة المثقفة لأنهم يخشون رؤية ضآلتهم أمامها، تابعت وهي تشير نحوها :
ـ زوجك يريد أن يكون محور حياتك .

وضعت أمنية كفها على رأسها قائلة :
ـ هو أم أمه ؟ أم نور ؟ لا أعلم من تزوجت بالضبط ... وضعت يديها على صدرها قائلة :
ـ لمن سأكون أنا محور حياة ؟ رغم كوني لا أحبذ توحيد محاور الحياة و لا أجدها فكرة صائبة , لأن الدنيا لن تقف على شخص أو أمر , لكنني أود أن أجرب كوني محور حياة شخص .

ـ ابدأي أنتِ يا أمنية و اجعليه كذلك .

قالتها سحر وهي تربت على كتفها ، رفعت أمنية أحد حاجبيها قائلة :
ـ وهل تظنين أنّ والدته ستتركني أفعل ذلك ؟ هزّت رأسها نافية ثم تابعت :
ـ لا تريد أن يتعلق بأحد غيرها ، أحياناً أشعر و كأنه تزوجني عليها.

لم يلحظا من خرج لتوهما من غرفة الألعاب بالقرب من أميهما , صرخت أمنية عندما عادت ببصرها نحو مكان الألعاب وقالت بصوت عالي :
ـ الطفلين !! أين هما يا سحر ؟؟؟ يا ويحي ، قبل أن تركض نحو الداخل جذبتها سحر من ذراعها وهي تضحك قائلة :
ـ انظري للأسفل , لقد خرجا لتوهما .

تنفست الصعداء و زفرت بارتياحٍ لدى رؤيتها ريم , جثت على ركبتيها , فقد خارت قواها من أثر الصدمة تحسّست وجه ريم ثم ضمّتها لصدرها قائلة :
ـ لا تبتعدي عن عيني أرجوكِ , ثمّ ذرفت بعض الدمعات قائلة :
ـ لو تعلمي كم أُكابد الويلات من أجلك ؟؟ آه لو تعلمي ! كانت سحر تطالعها وهي حاملة ولدها على ذراعها , بدا عليها التأثر من رد فعل أمنية , حدثت نفسها قائلة : ـ لستِ على ما يرام يا عزيزتى , فرج الله كربكِ .

وقفت أمنية وحملت ريم متجهة إلى الطاولة رفقة سحر وطفلها , عاد الجميع أدراجهم متجمعين حول الطاولة , صاحت سحر قائلة :
ـ من يريد كعكة الشوكولاتة المخملية ؟

ضحك الطفلين وصفقا بيديهما بينما قالت أمنية معترضة :
ـ يكفي المثلجات يا سحر , هل هضمناها لنأتي بغيرها ؟

أشارت سحر بإصبعها علامة لا ثم بادرتها ممازحة :
ـ إذا كنتِ أنتِ من تقول ذلك , فماذا أقول أنا ؟؟

ابتسمت أمنية قائلة :
ـ لم أود إحراجكِ بذلك , لكنكِ امتلأت كثيرًا...

عدّلت سحر هندامها قائلة :
ـ تقصدين أن لدىّ منحنيات مثيرة , لست ممتلئة يا عزيزتى بل أنا مثيرة .

تتابعت ضحكات أمنية وارتفع صوتها فوضعت يدها على فمها , فاستكملت سحر قائلة :

ـ لم أعهد امرأة تحتفظ بجمالها حال نحافتها غيركِ يا أمنية , ثم أخفضت صوتها وكأنها تهمس قائلة :
ـ لكن للزوج متطلبات أخرى , لن تجدي رجل يستمتع بالمرأة النحيلة , إن أردتِ نصيحتي لابد أن تزيدي وزنك .

حكّت أمنية رأسها قائلة :
ـ لا أحب السمنة مطلقًا.

طرقت سحر بيدها على الطاوله قائلة :
ـ تعيدينها ثانيةً !

رفعت أمنية كفيها وهى تضحك قائلة :
ـ أنا أسفة , لم أقصد صدقيني ، وعلى ذكر النحافة و السمنة تذكرت ماحدث اليوم فأخبرت سحر عمّا حدث بينها وبين نور .

هتفت سحر قائلة :
ـ كيف تجرؤ على معاملتك بهذه الطريقة ؟ ليتني أراها لأوسعها ضربًا.

ضحكت أمنية من ردة فعل سحر ثم قالت :
ـ علاقتنا بالناس تحتاج إلى جسور , تجدينّ منها القوي و منها المحطم , وهناك آخر ضعيف يتداعى للسقوط , وبعض الناس لا تحبذ أبدًا صنع الجسور فتترك العلاقة رهن حالتها المزاجية كحال نور ، وهؤلاء هم الأسوأ على الإطلاق. استكملت و على ثغرها البسمة :
ـ تعلمين! نور تحسدني على سلامي النفسي و تربيتي السويّة .

ـ مِن أين علمتِ ذلك ؟ سألتها سحر .

ـ من عينيها التي تفضحها دائمًا ، عطت ريم هاتفها لتعبث به فقد بدأت تشعر بالتذمر فقد تأخر النادل عن إحضار الكعكات , ثم تابعت :
ـ أنا أُشفق عليها لأنها تشعر بالنقص و تفتقد لثقة النفس .

كانت سحر تهدهد طفلها , تنهدت ثم سألتها مستنكرة :
ـ لا أعلم كيف لم ينبهر آدم بكلماتك ؟ كيف لم يلاحظ اختلافك ؟ أنتِ فريدة لا نظير لكِ ، سامحه الله .

وصل النادل ومعه كعكات مخملية لرباعتهم و فنجاني قهوة , وزعهم على الطاولة وغادر ،

ابتسمت أمنية ثم قالت :

ـ عينيكِ هي من جعلتني فريدة ، على ذكر الاختلاف... لطالما تعجبت من دينا أخت آدم الوسطى , غريبة في هذه العائلة ... زال تعجبي بعد معرفتي بجسرها مع زوجها الذي تمكن من إصلاح ما أفسدته بيئتها و أكسبها سلامًا داخليًا.

ـ لا أظن ذلك .

قالتها سحر وهي تأكل من الكعكة , فاتسعت حدقتا أمنية و سألت :

ـ ماذا ؟

ـ الطبع لا يتغير ... استكملت سحر وهي تطعم صغيرها : أي أن دينا طبعها جميل و قلبها نقي بالفطرة ..

زفرت أمنية بضيق وهي تنظر لريم التي تلتهم كعكتها ثم قالت :

ـ قلبي يحدثني أن آدم لا يشبه والدته لكنّه ضحية تربية خاطئة ولم يخرج من براثنها ليكتشف الخطأ.

.....

كثيرة هي تلك اللحظات الحلوة ... أثمنها هي تلك التي تتسلل بين التجمع العائلي الحميم , لكن هل هذا يعني أنها لن تتكدر ؟

ـ لمن هذه اللعبة ؟

قالها مازن وهو يلوح بهديته لريم .

ركضت ريم نحوه فجثا على ركبتيه وعانقها ثمّ قام بأخذ صور لهما على الهاتف , تابعتهما أمنية و السعادة تطل من عينيها بينما أعدت والدتها المائدة لتأكل لكنها رفضت فأقسمت عليها و هي ترفع سبابتها :

ـ أقسم لكِ , ألا أدخل بيتك إن لم تأكلي الطعام.

أشارت أمنية لها بيديها أن تهدأ ثم قالت :

ـ لقد تغديت في منزلي , و أكلت في النادي مع سحر , أشارت على بطنها قائلة :

ـ من أين لى بمكان فى معدتي لهذا الطعام ؟

عقدت رغدة جبينها قائلة :

ـ من يراكِ لن يحزر أنكِ أكلتِ أبدًا... ألا يخجل زوجكِ من نحافتك تلك ؟ قاطعها مازن و

جمال بقولهما :
ـ لا يجدر بكِ قول هذا.

حزنت من قولها كثيرًا فأشاحت بوجهها ناحية التلفاز ولم تعلق...اقتربت رغدة وجلست إلى جوارها ثم ربتت على ظهرها قائلة :
ـ أعتذر منكِ يا حبيبتي , لكنني أتألم بشدة لِما آل إليه حالكِ , كلما رأيت بنات العائلة في أي مكان , تحسّرت على حالكِ , ماذا بكِ ؟ أخبريني بكل ما يضركِ و تأكدي أنني و أبيك سندعمك.

حدثت أمنية نفسها قائلة :
ـ أين كلامكِ هذا يوم خطبتي عندما طلبت منكِ التفكير لأنني خائفة أن يقتل الزواج طموحي ومع ذلك أجبرتني على الموافقة ... هه , سامحكِ الله يا أمي لقد ضاع مفعول النزهة في غمضة عين ...التفتت لها قائلة :
ـ أنا بخير لكن مسؤلية ريم أرهقتني قليلاً .

أشارت للطعام قائلة :
ـ هيا ابدأي , وإلا خاصمتكِ ثم نادت على ريم التي كانت برفقة خالها تلعب بدميتها.

.....

الزواج للفتاة قد يكون لها مجرد تجربة لكنه بالنسبة للأم حاجة مُلحة وضرورة حتمية للاطمئنان عليها , ومع كل ذلك لن يحدث إلا بموافقة الأولى !

كانت تأخذ لنفسها عدة صور بعدما صففت شعرها لتحميل أفضلها على صفحتها الشخصية الفيسبوكية , فجأة ولَجَت أختها رنا وعقدت حاجبيها لرؤيتها وهي تلتقط الصور .

ـ ارحمي نفسكِ! تابعت رنا وقد مطت شفتيها :
ـ ستموتين من جرعة تصوير زائدة.

انفجرت شمس ضاحكة فسقط هاتفها على الفراش , فواصلت رنا :
ـ لا أعلم سر حبكِ لتصوير نفسكِ هكذا ، ألا تخشينّ أن يأخذها أحد الرجال ويرفقها بصور مشينة كما يحدث هذه الأيام ؟!

ـ تؤتؤ؛ فأنا أحب الشهرة ، ما إن قالتها شمس حتى قذفتها رنا بوسادة قائلة :
ـ عيبٌ عليكِ .. أين الحياء يا فتاة ؟

ـ ذهب مع الريح ، قالتها شمس وهي تراقص حاجبيها بمشاكسة ثم تنهدت متابعة : ـ لكم أحب هذا الفيلم .

ـ شمس ! زمجرت بها رنا وقد احمر وجهها , تابعت بحنق :
ـ كفي عن هذا!

قاطعهما دخول والدتهما , فصمتا وقد التفتا إليها , فجلست على الكرسي المجاور للسرير وكأنها تود فتح موضوع ما , قالت :
ـ هناك موضوع يخصّك شمس .

ـ وماهو سعاد ؟ ردت شمس بعدما اعتدلت في جلستها .

ماج الغضب في نفس سعاد لأنها دومًا تتشاجر معها على منادتها لها باسمها كما فعلت الأن , قطبت جبينها ونظرت لشمس مستاءة , فهمت رنا ما يحدث فقالت لأختها :
ـ ألا يمكنك قول أمي بدلاً من منادتها باسمها؟

رفعت شمس أحد حاجبيها وهي تطالع أختها بغيظ ولم ترد , حينها فضّلت سعاد المضي قدمًا فيما جاءت لأجله , قالت :
ـ لقد أتت جارتنا أم أحمد تسألني عنك لأجل خطبتك لابنها .

ـ ماذا ؟
قالتها شمس ثم دخلت في نوبة ضحك هستيري , فنظرت سعاد لها ثم التفتت لرنا تسأل :
ـ هل هناك شيء يستدعي الضحك هكذا ؟

توقفت شمس عن الضحك ثم قالت :
ـ أنا أضحك لأن لم يعد أحد يتزوج بهذه الطريقة هذه الأيام .

ـ وما بالها هذه الطريقة ؟ سألتاها رنا وسعاد في نفس واحد .

ـ تقليدية , قديمة ، ولاتروق لي..تابعت شمس وهي تعبث بإحدى خصلات شعرها : ـ زواجي لن يكون إلا بعد قصة حب غير اعتيادية.

ـ لكنك لم تجلسي مع أحمد لتحكمي عليه ... قالتها سعاد وهي تنظر لعينيها ،

حركت شمس رأسها معترضة ثم قالت بنزق :
ـ لكنني أعرفه جيدًا , أولسنا جيرانًا .

ـ وما باله يا شمس ؟ تابعت رنا مستفهمة : إنه شاب محترم وملتزم .

ـ هذا ماتظنونه، واصلت شمس وقد عوجت فمها معترضة : لو كان ملتزمًا لما اختارني زوجة ... جال بخاطرها ذاكَ الأحمد الذي لا يهوى غير التلصص عليها من الشرفة و النافذة المطلة على غرفتها لتهمس لعقلها :
ـ قال ملتزم قال !

تابعت سعاد لائمة :
ـ إلى متى ستظلين هكذا ؟ العمر يجري يا ابنتي ، ولابد من الإطمئنان عليكِ وكل يوم يأتيكِ خاطب ولا زلتِ ترفضين .

قامت شمس من مكانها قائلة :
ـ وسأظل هكذا حتى يدق قلبي باسم أحدهم ... غادرت الغرفة لتحسم أمر ذلك الجدل بالهروب.

.....

هناك من يرتاح عندما يتسلل أقرب الناس إليه لأعماقه مفتشًا عما يضيره علّه يخفف عنه , وهناك من يتضاعف ألمه على إثر بعثرة الهموم ....

اتجهت للشرفة حيث كان مازن يحتسي قهوته وهو يتابع المارة , وقفت جواره ثم تنحنحت سائلة :
ـ فيمَ تفكر أيها الأنيق؟

ابتسم قائلاً:
ـ في اللاشيء , التفت لها مازحًا كيف حالكِ مع سيد القوم و قائدهم؟

تتابعت ضحكاتها حتى ارتفع صوتها , انتظرت لتهدأ ثم قالت :
ـ أحاول التعايش معه بسلام .

غضن جبينه وقال مطرقا رأسه :
ـ إلى متى؟ استكمل وهو ينظر لعينيها: تظنين أنني لا أعلم , لكن حالكِ وشى بكل شيء .

حاولت أمنية تغيير ما آل إليه الموضوع , فقالت:
ـ هلا أسديت لي معروفًا؟

ـ طبعًا يا حبيبتي , طلباتك أوامر سهلة التنفيذ... قالها وهو يترقب ما ستطلب..

انشرح صدر أمنية وتهلل وجهها لكلمات أخيها فقالت :
ـ كنت أود الذهاب لمكانٍ ما بعد يومين لكن لن أعلم حماتي و آدم بكنهه, لأنني سأخرج لشراء خضروات وفاكهة للبيت لذا سأمر عليه في طريقي وددت أن ترافقني , هل وقتكَ يسمح؟

ضيّق مازن عينيه و حك رأسه ليتذكر مواعيده بعد يومين ثم قال :
ـ لا بأس , سأكون بالقرب منكم في هذا اليوم .

ـ حقًا! سألته أمنية ثم تابعت : أين ستكون ؟

ربت على كتفها وابتسم قائلاً:
ـ سأخبركِ حينها و ستخبريني بموعدكِ أيتها الجميلة , نظر لساعة يده ثم قال :
ـ و الآن عليّ أن أذهب للقاء أحدهم , هل تودين منّي شيئا آخر؟

أشارت بلا وقالت :
ـ لا شيء , حفظكَ الله أخي الغالي , تنمياتي لك بأمسية ممتعة .

.....

هناك ذكريات نبقيها بمنأى عن حياتنا حرصًا على هدوء حياتنا, لكن ماذا إن قذف القدر بإحداها رغمًا عنّا؟ هل سيسعنا حينها الاعتراض ؟ أم سنظل نراقب كل مايحدث في صمت ؟

دُق جرس الباب , اتجهت نحوه و ما إن فتحته حتى تسمرت مكانها , التقت عيناهما لكنها سرعان ما غضت بصرها لدى رؤيته وشعرت بتوتر بالغ ... بتر صمتها بالسلام ثم قال :
ـ كيف حالكِ يا أمنية ؟ حدث نفسه قائلاً : لازلتِ حيية كما عهدتك وجميلة أيضًا.

ـ الحمد لله , تركته ونادت أبيها ليستقبله , دعاه لدخول غرفة الجلوس بينما اتجهت نحو غرفتها جلست وقد طوقت ساقيها بذراعيها ، لحقت بها رغدة , وقفت أمامها ثم قالت :
ـ هل هكذا نرحب بالضيوف ؟

سألتها باقتضاب :
ـ ماذا عليّ أن أفعل ؟ لِم لم تخبريني بأنه سيأتي؟
ـ لم أكن على علم بمجيئه سوى اليوم , هاتف أبيك بعد العصر, أراد رؤيته لاستشارته ببعض الأمور الخاصة بالشركة .. تابعت رغدة وقد رفعت أحد حاجبيها : ما الذي قلب حالكِ هكذا ؟

ـ لا شيء يا أمي ... نظرت حولها ولم تجد ريم فسألتها : أين ريم ؟

أشارت رغدة نحو الخارج قائلة :
ـ لعلها ذهبت ترحب بخالها أيمن , تتمتع بذوق و تعرف أدب الضيافة .

ردت بامتعاض و قد رفعت يديها :
ـ كفى أمي , أرجوكِ , سألحق بها ... قامت من مكانها متجهة نحو غرفة الجلوس .

دلفت الغرفة فوجدت أيمن واضعًا ريم على ساقه , حينما رآها لمعت عيناه وابتسم قائلاً:
ـ تشبهكِ كثيرًا يا أمنية , حفظها الله لكِ.

جلست على الأريكة القريبة من جمال ثم قالت :
ـ شكرًا لك , العقبى لك يا أيمن ..

تنهد و ما زالت عيناه معلقة بها ثم قال :
ـ ما أريدها عزّ نظيرها ... قاطعه جمال قائلاً :
ـ الفتيات الصالحات كُثر يا بني لكن عليك الاجتهاد في البحث .

أومأت رغدة بنعم و أضافت :
ـ هنا يأتي دور سيادة , عليها أن ترشح لك من فتيات جيرانها .

وافقهما أيمن قائلاً :
ـ هذا ماتفعله بالضبط , لكنني لن أفعل .

نظر جمال و رغدة لبعضهما ثم سألاه : لماذا ؟

نظر لريم ثم قال : لم يحن الوقت بعد .

شعرت أمنية وكأن الأرض تهتز تحتها و توشك على السقوط في هوةٍ لا نهاية لها. حدثها عقلها قائلاً : أبشركِ أنكِ في مأزق كبير يا عزيزتي لن يتركِ هذا الأيمن و شأنكِ .

.....

لكل منا نصيبه من التناقض , لكن ماذا عمن وظف تناقضه بحرفية لتحسين صورته أمام الناس؟ أوليس هذا أجمل مايفعله به التناقض ؟

عندما شارفت الساعه على الحادية عشرة مساءً هاتفها آدم ليعلمها بمجيئه, لكن دعاه جمال ليصعد , تواثبت دقات قلبها حين علمت ذلك فما زال أيمن جالسًا... حينما رأته رغدة نسيت ما قالته منذ قليل عنه , تبالغ في ضيافته , حتى لو انتقدته لكنها في النهاية تحبه , همست في أذن

أمنية قائلة :
ـ يبدو أنه مسالم, لا أظنه يفتعل شجارًا أبدًا , ثم ابتسمت قائلة : سيماهم على وجوههم .

أومأت أمنية بنعم وقد رسمت بسمتها المصطنعة ثم حدثت نفسها قائلة:
ـ آهٍ من تلك المظاهر الخدّاعة , ليتك تفصح عن حقيقتك كما تفعل معي.

ركضت ريم نحو أبيها بينما وقف أيمن ليصافحه ولم يتمكن من إخفاء حقده الدفين تجاهه لدرجة أن آدم شعر بذلك فحدث نفسه : ما بال هذا الأحمق ينظر لي هكذا؟ لكنه قال :
ـ أهلا بك يا أيمن .

قال أيمن : أهلًا بمهندسنا العظيم , كيف حالك ؟

ـ بخير .. رد عليه آدم باقتضاب ثم تابع : لم أرك منذ مدة كبيرة .

هزّ أيمن رأسه موافقاً ثم قال :
ـ نعم لقد سافرت بعد زواجكما و عدت منذ شهرين للعمل مع خالي .

أشار جمال نحو أيمن قائلاً :
ـ لطالما طلبت منه العمل بالشركة لأنه محاسب ماهر لكنه فضّل السفر , وهاهو قد عاد أخيرًا.

لم تشعر أمنية بما فعلته بشفتها السفلى من أثر قضمها لفرط توترها إلا عندما سال الدم منها , فدخلت إلى دورة المياه , في هذه الأثناء استأذن أيمن للرحيل , هبط الدرج مسرعًا وكأنه سهم مشتعل حتى وصل سيارته , ما إن دخلها حتى ضرب المقود بقوته وصرخ قائلاً :
ـ ما الذي ميّز هذا الوغد عنّي يا أمنية ؟ تابع بأسى : لأنه مهندس تركتني ؟! أنا من أحببكِ بصدق وها أنتِ كافئتني بتجرع ويلات بعدك .

التفت جمال لآدم سائلاً :
ـ ما رأيك أن تترك ريم هنا لبضعة أيام ؟ وافقته رغدة و أومأت برأسها قائلة : ـ سنستأنس كثيرًا بوجودها معنا ... نرجو أن توافق .

كان آدم يشرب عصير الفراولة , وضع الكأس على المنضدة , نظر لهما و ابتسم قائلاً : ليس عندي مشكلة في أن تبقى , فلكما حق عليها كما لنا , لكن جنى ابنة أختى ستحتفل بعيد مولدها بعد أيام, وقد هاتفتني دينا لتؤكد عليّ تواجدنا في هذا اليوم , طلب منهما : هل بإمكانها أن تمكث في وقت لاحق؟

ربت جمال على كتفه وقد شعر بمدى الأدب و التربية الحسنة التي ينم عليها كلامه , وقال :

بالطبع يا ولدي , هذا بيتكم .. تابع مهنئًا إياه : كل عام و جنى بخير , والعقبى لريم فقد اقتربت ذكرى ميلادها ....

كانت رغدة تطالع آدم و طريقة حديثه التي سلبت لبّها فهمست في أذن أمنية :
ـ كلما سمعته , تأكدت من تربيته الصالحة و رُقِيّه في التعامل , هو دعوتنا الصالحة لكِ يا حبيبتي ، نظرت لها أمنية و لم تعلق .

قامت متجهة إلى الداخل لترتب هندامها وكذلك ريم التي تحاول جاهدة التصدي للنعاس , بينما ظل جمال و آدم يتحدثان , و انشغلت رغدة بتقديم الحلوى ثم دلفت إلى المطبخ لتعد الشاي.

.....

يأتي وقت النوم معلناً انتهاء اليوم بحلوه ومرّه ومع ذلك لابد من ظهور ما يثير الريبة وكأن ما يحدث مجرد تحدي مع الصبر ...

غادرنا مودعين أبي و أمي , وصلنا البيت لنجد حماتي مازالت متيقظة , عندما رأت آدم حاملاً ريم , لوت شفتيها قائلة :
ـ حمداً لله على سلامتكم .

ـ أجبناها : سلمكِ الله .

التقطت ريم من آدم ثم أعطتني إياها و نظراتها تنهرني , قالت : حمل الأطفال مهمة النساء , لا تجعلي ولدي يفعلها مجددًا .

أخذت ريم ولم أرد بكلمة واحدة , ثم صعدت إلى شقتي و أنا أحدث نفسي : لم يكن هذا اليوم الأفضل على الإطلاق رغم نزهتنا , كلما اتجهت لمكان حاصرتنى السلبية و كأنها أبرمت عقدًا سريًا لحراستي , تنهدت متابعة : هه , الحمد لله على كل حال .

تثائبت أمنية و شعرت أنها تعبت من الكتابة , وضعت القلم داخل الدفتر و نظرت لساعة الحائط فوجدتها تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل بنصف ساعة .

وضعت الدفتر داخل أحد الأدراج لكنها ما إن فتحته حتى وجدت علبة مربعة مخملية حمراء كما الهدية لم تكن موجودة قبل الآن , نظرت لها قائلة :
ـ لن أرهق عقلي بشأنك , يكفيني ماحدث معي اليوم ثم اتجهت للسرير لتغيب عن هذا العالم , علّها تجد ما يسرها في عالم الأحلام ....

الفصل السادس

(عناق)

.....

ضُمّني إليك .. ولا تسأل

عمّا ألمّ بي ...

أحتاج عناقك .. فلا تبخل

ألم تشتاق لي ؟

الوجد صار يحاصرني ..

أخشى أن يفتك بي ...

.....

لا تخشي , لا ... لن يفعل

بعناقي تحصني ..

أشتقت لنبضكِ .. صدقيني

و لقلبي أنصتي ...

لم أهوى أبدًا الكلم

حتى بوحتِ لي ...

لكنكِ مثلي أخطأتِ

بصمتكِ المضني

تركتِ الحياة كما الدمية

بالبرود تدثرتي ...

.....

بل أنتَ عنّي من ابتعد

فصرتُ هنا وحدي

كفريسة بت أنا سهلة

لوحوش تنهشني ...

.....

يكفي عتاب .. أرجوكِ

لا تطيلي عذابي ...

ها قد مددت ذراعيّ ...

فاستسلمي لعناقي ...

.....

مهما أوصدنا أبواب القلب على الهموم ظنًا منّا أنها بذلك لن تخرج , سيظهر بصيص أملٍ من أبسط الأشياء , محطمًا كل الأغلال فلا يسع الهموم حينها غير الخروج ...

- عدنا معكم أعزائي المشاهدين بعد الفاصل في هذه الأمسية الماتعة مع الأخصائية النفسية للعلاقات الزوجية والأسرية أُبنى الهادي , نرحب مجددًا بضيفتنا الكريمة التي أنارت برنامج (حياتنا تحت المجهر).

- شكرًا لكِ على استضافتكِ الرائعة , شرفت بوجودي معكم .

- أهلًا وسهلًا بكِ , تحدثنا في الجزء الأول من الحلقة عن المشاكل التي تحاصر أي زوجة تمكث مع أهل زوجها وكيفية التغلب عليها وكيف تتمكن المرأة من صنع خطوط عريضة لحياتها مع أقارب الزوج أتمنى أن يستفدنّ منها المتابعات .

نظرت لبنى للكاميرة وكأنها تخاطب المشاهدين وقالت :
ـ أود حقًا أن يستفدنّ وليعلمنّ أنهنّ قويات وقادرات على التصدي لأي عقبة , وإياكنّ ثم إياكنّ انتظار من يَرد لكِ حقك , أنتِ من عليه فعل ذلك .

كانت أمنية تطالع برنامجها المحبب بشغفٍ وكأن الأخصائية تحدثها هي , ودّت لو تشكر القدر الذي أهداها تلك الساعة التي تمتعت فيها بالهدوء بعد أن أسلمت ريم لفراشها , لقد حرصت على متابعته بسبب كم المعلومات الحياتية التي تتلقاها منه حتى و إن كانت في الحقيقة لا تعمل بها لكن هذه المرة تشعر أنها بحاجة لفعل شيء ما على إثر تلك الحلقة الدسمة ... وهاهي تتابع بكل جوارحها , تومئ مع كل جملة تتفوه بها الأخصائية , وتتوقف مع سكناتها , تهتز وتشيح بيديها مع كل نصيحة .

قالت وكأنها تتحدث إلى التلفاز :
ـ أعدك بأن أفعل ولن أجعل أحد يأتيني به , لأنه في النهاية حقي ... فجأة فُتح باب الشقة , جاء آدم ألقى السلام , التفت لها , فلاحظ حماستها وانشغالها بمتابعة التلفاز فسألها :
ـ ماذا تتابعين ؟

ردت باقتضاب وهي تطالع البرنامج وكأنها لاتريد إفساد متعة المتابعة بسؤاله :
ـ مجرد برنامج ... فهم رغبتها فجلس على الأريكة و انشغل بجواله .

رتبت المذيعة مجموعة الأوراق المصفوفة بين راحتيها ثم تابعت : أما الآن فحان وقت الإجابة على رسائل المتابعين , لقد وافتنا عدة رسائل عبر صفحة البرنامج على موقع فيس بوك حينما أعلنا عن هذه الحلقة منذ يومين , معنا رسالة تكرر مضمونها كثيرًا , نصّت على الآتي : " تزوجت عن حب وعشت أسعد لحظات حياتي قبل الزواج لكن تغير الأمر الآن و أخشى أن حبنا كان مجرد وهم" .

تنحنحت لبنى ثم قالت وهي تبتسم للمذيعة : أمّا بخصوص السؤال فهو سؤال جميل و سأرد عليه بكل حيادية , كل بنت تحلم بالارتباط بشخص يحبها بصدق , أومأت المذيعة موافقة , فتابعت لبنى : لذلك ستجدين أغلب الفتيات ينجذبنّ أكثر للزواج عن حب لأنها تعيش لحظات جميلة خلاله حتى لو لن تكتمل هذه العلاقة , لكن هل هذا يعنى أن هذا ضمان للفتاة من عدم

حدوث مشكلات بعد الزواج ؟ أشارت المذيعة بلا وقالت : بالطبع لا .

أردفت لبنى قائلة : وهذا هو سبب مشكلات الفتيات و طلاقهنّ , عدم المسؤلية لإدراك أن الحياة بها توازن بين السعادة والحزن , توالي الأيام كفيل بتغيير الأحوال , لذا أقول لصاحبة السؤال : عليكِ أن تعلمي أن الزواج مسؤلية كبيرة لابد من الإحاطة بكل جوانبها لتتمكني من تحملها , الزواج ليس حبًا فقط , بل احترام , مودة , اهتمام , صبر على أي شدة تقابلكما ، قربي من زوجك وأعلمي مايكابده حينها ستعلمين أن حبكما لم يتغير ولم يكن وهمًا كما تظنين .

انخرطت أمنية في البكاء مع نهاية جملة لبنى , شهقت وهي تتابع التفاز ثم قالت وسط نشيجها :

ـ هنيئًا لها جربت الحب , لم تتجرع ويلات زواج الصالونات مثلي .

ـ لم يحدث هذا .

قالها آدم وهو ينظر لوجهها الذي تبلّل من دموعها وأخذت تمسحه بكفيها كما الطفلة , رق لحالها لكنّه عاد لهاتفه مجدداً.

انتظرت أمنية حتى استطاعت الكلام ثم سألته :

ـ ماذا تقصد ؟

أطبق الصمت إحكامه على آدم و كأنّه يخشى البوح بما مضى , لا يريد أن يضعف أمامها , أعادت عليه السؤال مرة أخرى :

ـ ما كان قصدك ؟

ـ للللم ..... تثاقلت الكلمات على لسانه فاستكمل :

ـ لم يكن زواج صالونات كما تظنين ... مازال يطالع هاتفه و كأنه لا يود أن تلتقي عيناهما .

مسحت دموعها التي لا تريد التوقف ، ثمّ

ـ أغلقت التلفاز و سألت : هل تتحدث عن زواجنا ؟

شعرت بالضجر من كبحه للكلام , فأعادت عليه السؤال .

أومأ برأسه موافقًا ولم يرد , فتأفّفت و خبأت وجهها خلف يديها لتكمل وصلة البكاء , صرخت بالآهات فأشفق على حالها و كأنها طرقت على قلبه ليستفيق .

ـ كنت أراكِ حين ذهابي لعملي .... صمتَ هنيهة ثم تابع : وأنتِ في طريقك للجامعة , فسألت عنكِ ...تلعثم لأنه لم يحب أن يكون في مثل ذلك الموضع ... سكن صوت بكائها حتى تتأكد مما تسمع .

حك رأسه واستكمل :
ـ لللل.... لقد أخذ منيّ هذا الأمر وقتًا ..... حتى أصل إليكِ.
أزالت يديها عن وجهها فبدت عينيها متورمتين , فغرت فاها ولم تسطتع النطق .. فضحك آدم من ردة فعلها .

جلست بجواره وسألته :
ـ هل كنت تحت مراقبتك ؟ تابعت وهي غير مصدقة : لماذا لم تخبرني قبل الآن ؟؟

ـ امم , ليس بالضبط , ولم أخبرك لأنكِ لم تسأليني ... قالها وهو يطالع قسماتها التي تشي عن صدمتها ثم أكمل : لا أحب كثرة الكلام .

أشاحت أمنية بوجهها قائلة :
ـ من يرى حالنا , لن يحزر أبدًا أنك أُعجبت بي , لقد صارت بيننا فجوة أشارت له قائلة : أنت من صنعها .

زفر آدم مستنكرًا :
ـ وحدي , أين أنتِ من ذلك ؟ , قلب كفيه متابعًا : أنا أشعر و كأنّني تزوجت دُمية , نظر لعينيها ثم قال : ألا تشعرين أنكِ تعانين بعض البرود ؟ منذ زواجنا لم أرّ في عينيكِ الحماسة , استكمل سائلاً : أين اهتمامكِ بي ؟ لقد صار هدوئك قاتل ..

التقطت منديلاً ورقيًا من على المنضدة لتمسح أنفها ثم قالت بصوت مبحوح :
ـ عن أيّ حماسة تتحدث ونور و والدتك تعاملاني بهذه الطريقة ؟ ترى ما يفعلانه ولا تتكلم وأنا مستسلمة لأنني لن أقوى على الشجار ولم أفعله طوال حياتي لقد صدمتموني بأفعالكم...
تابعت و هي غاضبة :
ـ أين احترامك لي أمامهم ... حتى اسمي لقد نسيته .. لِما لا تناديني به ؟ .. وضعت كفيها على صدرها , تابعت :
ـ أنا بشر أريد العناق عندما أحزن , أحتاج لأن تربت على كتفي عندما أتعب ... لقد وصلت لدرجة أنني هنا حتى لا يشمّت بي أحد .... لم يرد فاستكملت : لقد اشتقت لنفسي التي محوتها برفقة عائلتك , أخشى أنني لن أقوى على الصمود طويلًا .

صمتا هنيهه , فسألها :
ـ هل انتهيتِ ؟ أشاحت بوجهها و عادت لنحيبها , عندما سمع نهنهاتها جذبها إليه و عانقها بقوة , اندست في أحضانه وصدرها يعلوو يهبط من أثر البكاء .

تسلل الألم إلى قلبه بعدما سمع ما قالته , لأول مرة يتصارحا منذ ثلاث سنوات , لم يكن يعترف بأهمية الكلام , لطالما ظنّه وسيلة النساء لقضاء أوقاتهن فقط .

.....

يحتاج الإنسان لفكرة , شخص , كتاب أو أي شيء ملهم لشحذ همته على الدوام ... لكن ماذا عمن أهداها القدر كلمات خرجت عبر التلفاز و أخرى انبثقت لها من كتاب لتخبرها أن قد حان وقت التحرك ؟

استيقظت باكرًا من أجل ترتيب شقتها قبل النزول لحماتها , حمدت الله أن ريم مازالت نائمة , استأنفت حملة التنظيف بدايةً من غرفة المكتب , أخذت تمسح الأتربة عن المكتبة بقطعة قماش خصصتها لتلك المهمة , وأثناء عملها حركت أحد الكتب فسقط قبل أن تعيده مكانه , انفرجت صفحاته , همّت بالتقاطه ثم نظرت للصفحة وقرأت ما كُتب فيها ....

(إن عجزت أن تكوني سيدة تفكيرك , فأنتِ في ورطة كبيرة لن تخرجي منها أبدًا)

تسمرت أمام الصفحة , في مواجهة تلك الجملة التي تم تلوينها بالتحديد , لم ترى باقي ما كُتب في الصفحة ... أثار ذلك السطر شجونها لتتذكر ماحدث معها البارحة وكيف بكت وكأنها لم تبك من قبل , شعرت بمزيج من الحزن على حالها و الرغبة في الانتقام لتأخذ بثأرها ممن ظلموها , رتب عقلها ما قالته أخصائية العلاقات الزوجية و الأسرية أمس , لدرجة أنه قام بصف نصائحها واحدة تلو الأخرى وهي تقوم بعدهم على أصابعها لتستأنف العمل بهم بداية من اليوم .

أغلقت الكتاب لترى عنوانه , لأنها لم تكن قرأت كل الكتب التي حصلت عليها قبل زواجها ومع انشغالها باتوا جزءًا من زينة المكتبة ليكتمل ديكور الغرفة , نسيت أمرهم تماماً

(طعام ... صلاة .... حب) ..... امرأة تبحث عن كل شيء ....اليزابيث جيلبرت

حكت رأسها في محاولة لتذكر من أين حصلت عليه ؟ ومتى ؟ ثم قالت محدثة نفسها :
تذكرت , عندما أهدتني إياه سحر بعدما قرأته ونحن في السنة الثالثة من الجامعة , كنت أهوى اقتناء الكتب .. تنهدت قائلة :

ـ يالها من أيام , أطرقت رأسها و تابعت بأسى : أمّا الآن فأنا ربة منزل برتبة خادمة .

أخذت الكتاب و وضعته داخل الدرج الكبير ليتسنى لها قراءته حال فراغها لكنها لم تجد تلك العلبة الصغيرة التي رأتها تسكن ذلك الدرج من قبل .. تذكرت يوم ميلاد جنى فخمّنت أن آدم جلبها من أجلها .

استيقظت ريم , رغم محاولات أمنية المضنية لمنع الضجيج التي بائت كلها بالفشل , نادت وهي تفرك عينيها من أثر النعاس :
ـ أمي ... ثم وقفت و تشبثت على سور سريرها تمشط الغرفة بعينيها الصغيرتين .

- ياااااا ريم .... يا رييييييم ... كانت نور واقفة أمام الدرج المواجه لباب شقة أمها , وتنادي بصوتٍ عالٍ , خرجت أمنية و أطلت برأسها و هي ممسكة بسور الدرج ثم أجابت :
ـ نعم , أنا هنا .

صرخت نور قائلة :
ـ أنزلا حالاً .

غادرت الشقة ونزلت الدرج صوب منزل حماتها وهي تتمتم : لن تسمعي مني مايسرك أيتها الحمقاء لقد سئمت غبائك , حفذها عقلها قائلاً : ها قد اقتربت من الطريق الصحيح , غاليتي , وبدأ باسترجاع نصائح الأخصائية ليعزز قدرتها على خوض تلك الحرب وحدها بل ويؤكد نجاحها أيضًا .

وجدت الباب مفتوحًا و نور تقف أمامها وقد عقدت ذراعيها أمام صدرها وترمقها بنظرات غيظ وهي عاقدة جبينها , بينما كانت زينب تجلس على الأريكة و يجلس عمر بجوارها يتابع الرسوم المتحركة على إحدى القنوات الفضائية , أما علي فكان يفترش الأرض وحوله المكعبات يلعب بها و ما إن رأى ريم حتى ركض نحوها وجذبها لتشاركه اللعب .

ازدردت أمنية ريقها حينما رأت نور , وحاولت معرفة سبب صراخها على السلم وهي تنادي عليها لكنها فضّلت ألا تسأل , باغتتها نور بسؤالها وهي على نفس وضعها :
ـ كيف تتركي أمي بلا إفطار لمثل هذا الوقت ؟

التفتت أمنية لساعة الحائط فوجدتها لم تتجاوز العاشرة بعد ، فقالت :
ـ مازال الوقت مبكرًا , كما أنني انشغلت بتنظيف شقتي , لي فترة لم أنظفها .

فصرخت نور قائلة :

ـ أيهما أهم ؟ ثم أشارت على أمها وتابعت : أمي أم شقتك ؟

ترك الأطفال اللعب و التلفاز وتابعا ذلك الشجار الذي استأنفته نور , بينما نظرت أمنية لزينب التي أشاحت بوجهها كي لا تتلاقى أعينهما وكأن عنف نور راق لها , لم تحاول حتى لوم ابنتها أو تهدئتها , أعادت نور سؤالها بصوتها العالي :
ـ لم تردي عليّ , أيهما أهم ؟ لم ترد أمنية ... أشارت نور إلى المطبخ وبلغه آمره تابعت :
ـ هيا اذهبي إلى المطبخ لإعداد الفطور , لقد تأخرتِ كثيراً ...

أشارت لها أمنية قائلة : من سمح لكِ بمعاملتي بهذه الطريقة ؟

نظرت نور لأمها في ذهول من رد أمنية الغير متوقع وقبل أن تصرخ , باغتتها أمنية قائلة :
ـ أنا لست خادمة يا نور , أنا زوجة أخيكِ المهندسة ... لعلك ظننتي أنني لم أتعلم لمكوثي في بيتكم .

شهقت نور قائلة :
ـ هل جننتِ لتردي عليّ .. التفتت لأمها قائلة : انظري يا أمي كيف تخاطبني ؟

هتفت زينب وهي تشير بيديها :
ـ هل من الأدب أن تخاطبي عمتك الأكبر منك هكذا ؟

رفعت أمنية أحد حاجبيها قائلة :
ـ وهل ما تفعله معي يمت للأدب ؟ .... فاقد الشيء لا يعطيه .. وأنا افتقدت منها احترامي كيف لي بإعطاءه و أنا لم أحصل عليه ؟

اتسعت حدقتيهما و بُهتا مكانهما , صفقت زينب بكفيها قائلة :
ـ هل هذا ما طُلب منكِ عندما خرجتِ أمس لبيت أمك ؟

فهمت أمنية ماترمي إليه فقالت :
ـ لو علم أهلي ما أكابده هنا لأخذوني معهم بلا عودة , لكنني امرأة عاقلة ولا أحكي لهم أي شيء .... نظرت لنور و رفعت صوتها متابعة :
ـ صمتي لا يعني أنني راضية , أنا فقط أحاول التأقلم حتى لا يشمت بي أحد , لكن كرامتي خط أحمر ولن أسمح بالمساس بها ثانيةً , أما بخصوص الإفطار , فلن أكون أحن على أمك منك يانور , تابعت سائلة : لِما لم تصنعيه لها ؟

هتفت زينب و هي عاقدة جبينها قائلة :

ـ ما الذي قلب حالكِ ؟ كيف تعاملين ابنتي هكذا ؟

ـ هي من بدأ , و اعتادت على ذلك ... تابعت أمنية وهي تنظر لنور بغيظ :
ـ هدوئي أوحى لها أنني لقمة سائغة ... زفرت قائلة : لكنني لست كذلك .

ـ هل تودين أن تقطعي قدم ابنتي عن زيارتي ؟ قالتها زينب وصوتها العالي قد بلغ مداه .

ـ بل أردتُ أن تحترمني ولا تصرخ في وجهي , أنا ابنة حسب ونسب , لايجدر بأحد التقليل من شأني .. استكملت وهي تنظر لزينب : لقد تغاضيت عن الكثير و الكثير من المواقف منذ زواجي , لكن إلى متى ستظل تعاملني هكذا ؟ أولست بشر ؟ انتظرت أحدًا يأتي بحقي لكنه لم يحدث ... أشارت على نفسها متابعة : وبالنهاية تلوميني عندما أقف لحماية كرامتي .

رفعت زينب كفيها قائلة :
ـ حسبنا الله في كل من خببكِ علينا , قال كرامة قال .

انزعجت أمنية فسألتها :
ـ هل ترضين ذلك لنور ؟ أم هل رضِيّت هي من الأساس بالمكوث مع حماتها ؟

صاحت نور وقد طرقت أمنية بمطرقة من حديد على حقيقة لا تحاول عرضها :
ـ لا تتدخلي بحياتي , تابعت وهي تلوح بيديها أمام أمنية : كل ذلك الشجار افتعلتيه كي تتملصي من تحضير الإفطار .

ـ بل سأذهب لتحضيره لكنك ستأتين معي لتساعديني ولتعتادي على ذلك يا عزيزتي ... قالتها أمنية بنوع من البرود .

توترت نور وشعرت بالخوف , رغم جرئتها و طريقتها الفظة في التعامل مع الناس إلا أنها تخاف أن يحاصرها أحدهم و يشعرها بضآلة حجمها ... لأول مرة تدرك حجم أمنية .... أخذت تقضم أظافرها و عيناها تدور هنا وهناك .

ـ خذي ريم واصعدي شقتك ... قالتها زينب وهي تشير على الدرج .

انطلقت أمنية إلى المطبخ و كأنها لم تسمع ماقالته زينب للتو , تاركة نور و أمها يتوعدان لها مما قالته و الأفكار تعصف عقليهما عما قد تخبأه لهما الأيام من تلك التي لطالما عهدوها غافلة .

حاولت نور إثارة غضب أمها اتجاه أمنية , أشارت ناحية الباب الخارجي ثم قالت : ـ لقد

غضبت عندما رأيت التراب يفترش درجات السلم الخارجي و المدخل : أين هذه البلهاء من تلك الفوضى , يالها من مهملة , وكيف لكِ أن تسكتي؟! تابعت وهي منفعلة : اصرخي في وجهها و ستنتطلق مثل القطار .

ـ لا أظن ذلك ... قالتها زينب ثم تابعت : لقد خبتها أمها الماكرة علينا ... لكنني سأخبر آدم .

أومأت نور برأسها ثم قالت :
ـ نعم أخبريه حتى يضربها ...قاطعها نداء أمنية عليها من أجل مساعدتها .

.....

مهما تمادينا ظنًا منّا أن وقت التسلية اللا مشروط قد حان , سيظهر أمامنا من يصفعنا ليشعرنا بضآلة تلك النفس التي خشيت من بشر ونسيت أمر الخالق ... وستظل مفاجأة من يرانا على ذاك الوضع أسوء مفاجأة على الإطلاق ....

كان منهمك في عمله أمام الحاسوب لإنجاز المخطط المعماري الخاص بالفرع الجديد للشركة , شرد لوهلة بعيدًا عن المخطط , وتمثلت صورتها أمامه , تلك الطيبة الممتزجة بالحزن المنبعث من عينيها ، لم يعلم سبب ذلك الحنين الذي يشعر به تجاهها الآن , لعلّ حوارهما أمس أثار شيئاً بداخله وكأنه هزّ أركانه و زلزلها , لكنه يعتبر الحنين ضعف , ولا يحق لمثله الضعف حتى ولو كان بالحنين ، تلاشت صورتها حينما أتاه صوت أنثوي مخلوط بعطر فواح لامرأة حسناء في نفس عمر أمنيته , مالت بجذعها ناحيته وقد أسندت ذراعها على مكتبه فانساب شعرها البني على كتفيها ليزيد جمالها الذي كان أغلبه من حيل مستحضرات التجميل , ابتسمت قائلة :
ـ آدم , هل أنت بخير ؟

التفت إليها يمشط ذلك الجسد الممشوق بعينيه ولم يحسب لغض البصر حساب , كيف يقوى وقد ثارت مفاتنها وخرجت عن طوع تلك الملابس الضيقة و القصيرة فزادتها جاذبية , ارتبكَ بعد تلك النظرة المطولة , ثم عاد لحاسوبه ورد عليها بنوعٍ من التحفظ :
ـ منذ متى و أنتِ هنا ؟

ضيّقت عينيها ثم ابتسمت قائلة :
ـ منذ أن كنت تنظر في اللاشيء, ناديتك مرتين ولم ترد وكأنك لا تسمعني .

استكمل ما كان يفعله على الحاسوب , ورد عليها وهو يتصنع الإنشغال :

ـ أرجو المعذرة , شردت قليلاً فحسب , عقد حاجبيه عندما رآها على نفس وقفتها فقال :
ـ هلا جلستي من فضلك؟

اتجهت للكرسي المواجه للمكتب ثم جلست عليه و قد بدا عليها الضيق لكنها سرعان ما رسمت ابتسامة مصطنعة :
ـ لن أسألك عن سبب شرودك لأنني جائعة , ألن تشاركني الإفطار في المطعم القريب ؟

شعر بالتوتر لجرئتها فهي حديثة عهد بالشركة , ومع ذلك وطدت علاقتها بمعظم الزملاء , وهاهي تحاول معه , حاول التملص قائلاً :
ـ لقد سبقتك في بيتي .

زمّت عينيها لتستدر عطفه ثم قالت :
ـ كان هذا منذ وقت , مؤكد أنك جائع الآن , ماذا لو قلت لك لأجل خاطري ؟

تنحنح آدم وشعر بالحرج ولم يرد , حفظ التعديلات التي قام بها على المخطط ثم أغلق الحاسوب و نظر إليها وقال :
ـ هيا بنا يا آنسة شمس .

وقفت مكانها وقد وضعت يديها على خصرها ونظرت له باستنكار بسبب تحفظه ثم قالت وهي ترفع إصبعها السبابة :
ـ قبل أن نذهب عليك أن تسحب كلمة أنسة , أنا شمس فقط .

ضحك و كأن طريقتها في الحديث وخفة ظلها راقت له , فقال :
ـ تحت أمرك يا شمس .

لم يشعرا بمن يراقبهما وهو على مكتبه , كانت عيناه تطلقان شررًا رغم أنه يرى اعتيادية أفعال شمس لكن هناك شيء يخبره أن هذا الآدم غير الجميع بالنسبة لشمس .

ذهبا حيث كان المطعم مترجلين لأن المسافة لم تكن بعيدة , استفاضت شمس في الحديث عن نفسها وعائلتها التي عاشت بإحدى قرى الدلتا وانتقلوا مؤخرًا للعيش بالقاهرة بعد أن تم تعيينها بالشركة , ثم صمتت هنيهة فقد أتى النادل بالطعام , وما إن غادر حتى عادت للحديث , كان آدم مستمعًا فحسب مما جعلها تشعر بالإحراج لثرثرتها فحاولت تبرير فعلها قائلة :
ـ أعتذر عن ثرثرتي , لقد تماديت قليلاً لكني لا أعلم السبب , أظنّها الراحة النفسية , فأنت مُنحتها بالفعل .

التقط آدم شطيرته ثم ابتسم وقال :
ـ ياله من إطراء , وقضم منها .

تابعته بعينيها وهو يأكل وقالت :
ـ ليس إطراءًا صدقني , أنت ... قاطعها قائلاً :
ـ لقد جئت مشاركتك الإفطار لأنك جائعة , و ها أنا آكل وحدي ... التقطت شطيرتها وقضمت منها وظلت صامتة .

فجأة رن هاتفه برسالة , فتحها , كان مفادها : لقد رأيتك متلبسًا , لم أصدق عينيّ حتى تأكدت .

بُهت آدم لدى قراءته العبارة حتى أنه شعر بأن هناك غصة في حلقه وسعل , فقربت له شمس الماء وسألته :
ـ هل هناك شيء ؟

رشف آدم من الماء ثم نظر حوله فلم يجد من يعرفه , فقام ونظر خلفه , فوجده يلوح له وهو يجلس على الطاولة القابعة خلفه بعد طاولتين أمامه , تواثبت دقات قلبه لدى رؤيته وتسمر مكانه فلم يكن يتوقع أن يراه هنا .

الفصل السابع

(صفعة)

.....

لا , لن أصدق أني هنت ..

على من وعدني بالحب ...

سرنا سويًا ... هكذا ظننت

حتى أدركت أني وحدي بالدرب

صدقت ماقيل عني ...

ولم تسمع لدقات القلب ..

آه من جرحك ...

ليتني لم أسمع بما بُحْتَ

لم تصفع وجهي .. لكنك بقلبي فعلت ..

لطالما منيت نفسي بحبك الوهم

وها أنا بعالمك قد تهت ...

آه من جرحك ...

ليتني لم أسمع بما بُحْت

.....

هناك من يتفانى في رسم صورته المثالية ... ومع ذلك سيحدث شيء يزلزل تلك الصورة لإخباره أن لا شيء مضمون في هذه الدنيا ! ....

فجأه رن هاتفه برسالة , فتحها , كان مفادها : لقد رأيتكَ متلبسًا , لم أصدق عينيّ حتى تأكدت ....بُهت آدم لدى قراءته العبارة حتى أنه شعر بأن هناك غصة في حلقه وسعل , فقربت له شمس الماء وسألته : هل هناك شيء ؟

رشف آدم من الماء ثم نظر حوله فلم يجد من يعرفه , فقام ونظر خلفه , فوجده يلوح له وهو يجلس على الطاولة القابعة خلفه بعد طاولتين أمامه , تواثبت دقات قلبه لدى رؤيته وتسمّر مكانه فلم يكن يتوقع أن يراه هنا .

استأذن من شمس قائلاً :
ـ أستأذنك في أن أذهب إلى صديقي أسلم عليه ,ابتسمت له وهي تشير بيدها قائلة : ـ تفضل.

اتجه وقد ملأ الغيظ جوارحه من فعلة صديقه الذي كان يجلس بمفرده على الطاولة , يعبث بهاتفه النقّال , وقف أمامه وقد انتفخت أوداجه :
ـ ما الذي فعلته للتو يا هيثم ؟

رفع هيثم كفيه أمام آدم وضحك قائلًا :
ـ على رسلك يارجل ! لم آتِ للمشاجرة , بعثت إليك الرسالة للفت انتباهك ليس إلا , لم أقصد مضايقتك صدقني .

عقد آدم جبينه و زفر قائلًا :
ـ كيف علمت أني هنا ؟

أشار له هيثم ليجلس :
ـ اجلس أولًا , ولا تقلق لن أخذ من وقتك الكثير .

جلس آدم فتابع هيثم :
كنت مارًا بسيارتي فرأيتكما تتجهان نحو المطعم , تنحنح ثم قال :
ـ سأخبرك شيئًا , لم أصدق أنك أنت , لذا جئت لأتحقق بنفسي .

رفع آدم حاجبه و لوى شفتيه قائلًا :
ـ و مالذي استفدته بتحققك هذا ؟

قهقه هيثم قائلاً :

ـ لقد أعجبني ذوقك يا رجل , كنت أظنّني قدوة في هذا المجال , لكنك أبهرتني , أقسم لك على ذلك .

أخذ آدم نفسًا عميقًا ليتمكن من كبح غضبه الذي بلغ أوجه , ثم قال :
ـ لست مثلك يا هيثم , ازدادت حدة نبرة صوته وهو يقول :
ـ أنا لا أواعد النساء , هل فهمت ؟؟

ـ هه , هل كنت تعلمها تعاليم الإسلام مثلًا ؟؟ قال هيثم ساخرًا ، ثم التقط فنجانه يرشف منه.

صمتا لبرهه ثم نطق هيثم :
ـ صدقني لم آتِ لمحاسبتك , لقد سعدت كثيرًا برؤيتكما , اعتذر عن رسالتي التي استفزتك .

مسح آدم وجهه بكفيه ثم زفر قائلًا :
ـ أقسم لك أنه ليس بيني وبينها أي شيء , مجرد زميلة صدقني , ليتني لم أخرج معها .

ضحك هيثم قائلًا :
ـ وإن لم تكن زميلة , لقد أحسنت الاختيار يا صديقي ... تنحنح ثم قال : هلّا عرفتني عليها ؟

حدجه آدم بنظرات مستنكرة ثم قال :
ـ ألن تخرج من طور المراهقة القابع بداخلك ؟ هل انتهيت من صديقاتك لتنظر لتلك ؟

أشار هيثم علامة لا ثم قال :
ـ لقد أسأت فهمي يا رفيقي , قصدت أتعرف عليها لعل لها أخت أو صديقة .

أشاح آدم ببصره بعيدًا عنه ثم قال :
ـ اطمئن , ليس لها أي ممن تبحث عنهن , ولتنس أمرها و أعدك بألا تراني في مثل ذلك الموضع أبدًا ... وقف استعدادًا للعودة إلى الطاولة حيث تجلس عليها شمس , استأذن وانصرف بينما كان هيثم مبهوتًا من طريقته في الحديث الذي انتهى على غير رضاه
....حدث نفسه قائلاً :
ـ يالك من مخادع , حينما حصلت على الجمال احتكرته , ولم تدع لى طريقًا لأصل إليه , عض شفتيه وهو يقول : رغم أنني من علمك الحرفة , يالي من غافل .

وصل آدم إلى الطاولة و الأفكار تعج برأسه والندم يفتك به لرؤية صديقه له برفقة شمس , ترى كيف ستكون نظرة أصدقائي لي إن حكى لهم هيثم ؟ انتقدته وسخرت منه وفعلت ما أنكرته عليه .. لقد خفت من بشر ونسيت الخالق ؟ سأل نفسه مرارًا , حتى أفاقته شمس بسؤالها

:
ـ ما الذي حدث ؟

أشاح بوجهه ورد باقتضاب :
ـ لا شيء ، لم تصدقه , فعادت بإلحاح :
ـ لقد أطلت الجلوس معه , هل هو صديقك ؟ أرجو أن تجلس وتحكي .
نادى آدم على النادل لينقده ، ثم التفت لتلك التي تر يعجبها ترمقه بعينيها ولم يعجبها تجاهله لها , قال :
ـ هيا لنعود للشركة , لقد تأخرنا .

عقدت جبينها وقالت :
ـ والقهوة , ألن نحتسيها ؟

أولاها ظهره استعدادًا للمغادرة ثم قال :
ـ إذن احتسيها وحدك , سأشربها هناك , مضى نحو الباب ليغادر ذلك المكان المشئوم الذي أشعره بضآلته , قامت من مكانها و سارت خلفه وهي تنادي : ـ انتظرني يا آدم ..

عادا إلى الشركة وقد أطبق الصمت إحكامه عليهما , كان يمشي بخطوات واسعة , بالكاد تمكنت من اللحاق به والأفكار تتواثب داخل عقلها عما دار بينه وبين ذلك الغريب بعد رنين الرسالة , تمنت لو لم تدعه للإفطار , فقد كان أكثر لطفًا , رسمت أحلامها للتقرب منه رغم ذلك الخاتم الفضي القاطن في بنصره الأيسر جذبها هدوءه , وسامته و تحفظه الذي لم تعهده على أحدٍ غيره , فقد اعتادت على المزاح مع الآخرين و تلقي مزاحهم , أما هو فلا .... تمتمت قائلة :
ـ تبعثرت أحلامي بعد أن شارفت على تحقيقها .

حينما عادا اتجه كل منهما لمكتبه على مرأى ومسمع من الجميع الذين لم يهمهم ماحدث باستثناء رامي الذي ظلّ يراقب شمس بعينيه , ود لو ذهب وصفعها رغم أنه لا يقل عنها تحررًا , لكن لا يعلم سر رغبته تلك , انتقل ببصره لآدم الذي لا يبدو عليه السعادة أبدًا رغم أنه خرج معها , حاول تخمين ماحدث معهما لكنه لم يفلح فوضع السماعات المتصلة بهاتفه في أذنه وقام بتشغيل أغنية أجنبية علّه بذلك يخفف ضجيج رأسه .

.....

أسوء شيء أن يكون أحدهم مجرد هدف لامرأة فاقدة للنضج , لا ترى سوى ما تريده فقط

بغض النظر عمّا سيترتب على أفعالها ....

كل منهما على مكتبه , هو منشغل فى حاسوبه بينما كانت تطالعه من مكانها وتَجِذ على أسنانها من فرط التوتر , لم تلحظ من وقفوا أمامها مباشرة , أسامة , رامي , إيمان زملائها الذين دعتهم لحفل ذكرى مولدها كما دعت الجميع , قالوا :

ـ كل عام و أنتِ بخير .

التفتت لهم وقالت مبتسمة :

ـ موعدنا غداً وليس اليوم , ستأتون أليس كذلك ؟

أومأ أسامة علامة الإيجاب بينما تنحنحت إيمان وقالت :

ـ سآتي ولكن لن أتأخر حتى لا يغضب زوجي ..أما رامي كان صامتًا ينظر لشمس وعينيه تقول أشياء لم تفهمها.

حادت شمس بعينيها بعيدًا عن رامي ثم أشارت بإصبعها لا وهي تنظر لإيمان قائلة : إن لم تطفئي معي الشمع , لن تتذوقي الكعكة .

ضحك أسامة ثم قال :

ـ سأمكث حتى ألتهم الكعكة بينما اقتربت إيمان قائلة :

ـ أتمزحين معي ؟ لقد جئت لأجلها , تابعت وسط ضحكات الجميع :

ـ ستقدمين موعد إطفاء الشمع لأجل هديتي .

رفعت شمس حاجبها و رمقتها بطرف عينيها قائلة :

ـ امممم , اتفقنا ... ثم انتقلت لذلك الصامت قائلة :

ـ وماذا عنك , رامي ؟ ... لا أسكت الله لك حِسًّا !

ـ هل مجيئي سيسعدك ؟ .... قالها رامي وهو ينظر لعينيها ... التفتا له أسامة وإيمان ليقولا في نفس واحد :

ـ طبعا ... هل تمزح ؟!

عقدت جبينها وضيّقت عينيها متسائلة :

ـ لم أعهدك تتحدث بجدية هكذا . ماذا حدث لك ؟

ـ ردّي عليّ يا شمس ... قالها رامي بلا تعابير على وجهه .

ـ مؤكد سيسعدني مجيئك رامي .... تابعت مناغشة : طالما ستحضر معك هدية .

تعالت أصوات ضحكاتهم فانضمت لهم سوزان لتضحك معهم , فتمتم آدم من مكانه عندما سمع أصواتهم :
ـ حقًا, إنكنّ للخديعة عنوان , لا يمضي يوم بدون تصرفاتكنّ الحمقاء مع الرجال .

همّ الجميع بالمغادرة , فنادت شمس على أسامة وحينما اتجه نحوها , وقفت وقالت : أودّ أن طلب منك شيء ؟

ـ تفضلي ... قالها أسامة وهو ينظر إليها ليتفرس نوع الطلب .

نظرت شمس نحو آدم ثم عادت لأسامة وقالت :
أودّ منك أن تدعو آدم لحفل مولدي وتؤكد عليه الحضور .

غضّن أسامة جبينه وقد بدا عليه التعجب من طلبها ، فقد عادا لتوهما من الخارج , حاول جاهدًا ألّا يحرجها فقال :
ـ ألم تدعيه ؟

أسندت أحد كفيها على المكتب وتركت الأخرى من أجل الإشارة وهي تتكلم :
ـ بلى دعوته أمس , لكن أود فقط التأكد من حضوره .... سألته راجية :
ـ هلّا أسديت لى تلك الخدمة ؟

هزّ أسامة رأسه موافقًا :
ـ بالطبع ياشمس , سأذهب إليه ..... قال ذلك واتجه نحو آدم العاكف على حاسوبه .

وقف قبالته ثم قال :
ـ السلام عليك يا حضرة المهندس .

ابتسم آدم ثم التفت إليه ليرد السلام , أشار على الكرسي المقابل له ثم قال :
ـ تفضل , أهلًا بك .

جلس أسامة ثم سأله :
ـ كيف حال المخطط معك ؟

ضحك آدم ثم قال :
ـ بخير , و أنت ماذا عن المنشآت التي تعمل عليها ؟

تأفف أسامة قائلًا :

ـ أوه يا رجل , يالها من منشآت عنيدة سأطلعك على كل ما رسمته لأجلها لأنني أثق برأيك .

قهقه آدم و هو ينظر صوب حاسوبه ليكمل ما كان يفعله ثم قال :
ـ من منا يستشير الآخر ؟ أنسيت أنك الأكبر سنًا والأقدم ؟

تغير وجه أسامة وعندما لاحظ ذلك آدم , ترك حاسوبه و قال :
ـ لقد كنت أمزح فحسب .

ابتسم أسامة وقال :
ـ لا عليك ... تصنّع تذكره لشيء ما , فقال وهو يضع إصبعه على رأسه :
ـ تذكرت , هل ستأتى معنا غدًا لحفل شمس ؟

شعر آدم بقليل من التوتر لدى ذكر اسمها لكنه عاد إلى حاسوبه وقال :
ـ لا .

سأله أسامة وقد أسند ذراعه على المكتب :
ـ ألم تدعوك ؟

نظر إليه آدم وقد حاول جاهدًا التملص بأي حجة لا سيّما أنه لم يكن ينوي الحضور, فقال :
ـ بلى ولكن لديّ موعد , من الجيد أنك ذكرتني , لأنني أحضرت معي هديتها .

ضيّق أسامه عينيه ثم قال :
ـ أحضرت معك هديتها ؟ لم أفهم شيء ولن أسأل .. استكمل ضاحكًا :
ـ مجرد الجلوس معك يجهد عقلي ..

ضحك آدم قائلًا : هل هذا مدح ؟ أم ذم ؟

استقام أسامة واقفًا ثم قال :
ـ سأغادر قبل المزيد من الإجهاد , إلى اللقاء.
اتجه ناحية شمس ليخبرها , التقط آدم مفاتيحه , قام متجهًا نحو الباب ليذهب إلى السيارة لإحضار هدية شمس , فقد جلبها لرد وليمتها التي أعدتها للجميع بعد تعيينها بالشركة , وضع الهدية داخل السيارة قبل أن تتعثر فيها أمنية .

أحضر الهدية وعاد إلى المكتب , سار نحو مكتب شمس التي كانت تراقبه بعينيها التي أخفتهما خلف تلك العدسات الرمادية , وضع الهدية على مكتبها ثم قال وهو يتحاشى النظر لعينيها : كل عام و أنتِ بخير .

عقدت شمس جبينها ونظرت للعلبة ثم عادت إليه وقد لوت شفتيها سائلة :
ـ ألن تأتِ الحفلة ؟

ـ للأسف , لديّ موعد هام غدًا , قالها ثم تنحنح وتابع : أرجو المعذرة , آنسة شمس ..انصرف وتركها مبهوتة وقد تسّمرت عيناها أمام العلبة التي تجهل محتواها , أسندت خدها على كفها و تأفّفت قائلة :
ـ آنسة شمس مجددًا , عضّت شفتها بتذمر قائلة : لن أيأس فقد صرت هدفي يا آدم .

.....

قبل الحكم على أي نزاع لابد من سماع أحداثه من طرفيه بعد تنحية القلب جانبًا , لأنَّ العقل وحده هو المنوط بتلك المهمة ...

تنفست أمنية الصعداء بمغادرة نور و كأنَّ الغيمة التي كست المكان وعتّمته , انقشعت لتوها , وها هو الضوء يعود من جديد .

أخذت ريم لتصعد بها إلى الأعلى كي تمددها على فراشها , لعلّها تقرأ الرواية التي خرجت لها من المكتبة صباح اليوم , وما إن همّت بالصعود حتى سمعت من أتى لتوه ملقياً السلام ، التفتت هي و زينب إليه لتردا السلام , تابعت زينب : حمدًا لله على سلامتك يابني , التفتت لأمنية وقالت : ادخلي ريم إلى غرفتي لتنام على سريري , و أعدي المائدة حتى نتناول الغداء .

تنهدت أمنية وحدثت نفسها قائلة :
ـ لن اقرأ شيء في هذا اليوم الغابر , يا لحظي .. اتجهت نحو غرفة زينب و أسلمت ريم للسرير ثم خرجت متجهة إلى المطبخ لكنها تعثرت في قطع الألعاب المبعثرة على الأرض في الصالة فلوت قدمها وسقطت على الأرض , فقالت زينب : لو كنتِ نظفتِ المكان من الألعاب لما حدث لك ذلك .

همّ آدم بالنهوض ليطمئِن عليها لكن زينب جذبته من ذراعه و همست له :
ـ هل صدقت تلك الخدعة ؟ يالك من مسكين ... إنها ألاعيب النساء ... دعها وانظر ماذا ستفعل ؟؟

كانت تتألم بشدة , أمسكت قدمها ومسدته وهي تتأوه من ألم قدمها و قلبها لعدم اهتمام أحد بآهاتها , لم تنظر لأحد , ساعدت نفسها على النهوض و قاومت ألمها لتقف , حاولت السير

لكن قدمها خانتها فبدت بعرجٍ خفيف .

ـ هه , ألم أقل لك ؟ .. قالت ذلك ونظرت لآدم وتابعت :
ـ تستدر اهتمامك لا أكثر ... لم يرد آدم لأنه لم يشعر بالراحة حيال ذلك , استكملت وهي تحاول نداء الدموع لتغرق مآقيها :
ـ آه لو تعلم ما فعلت تلك الماكرة مع أختك الكبرى !

عقد جبينه وضيق عينيه وحاول تخمين ما حدث لكنه لم ينجح فسألها :
ـ ماذا حدث ؟

أخيرًا سالت الدموع استجابةً لها , قالت :
ـ لقد تشاجرت معها و رفعت صوتها عليها أمامي ولم تضع لأي منا احترام .

ـ ماذا ؟ سألها آدم وقد اتسعت حدقتاه من أثر صدمته بما سمع .

بكت زينب و أخذت تمسح عن خديها الدموع ثم قالت :
ـ كل مافعلته نور أنها نادت عليها لترى ريم , نزلت من شقتها كالبركان الثائر , صرخت في وجهها وعنّفتها وعندما حاولت تهدئتها ردت عليّ ... عادت لبكائها وكأن ذلك العمل الدرامي راق لها ... رق قلب آدم لها فربت على كتفها قائلاً :
ـ لا تبكِ أرجوكِ .

قالت وسط نشيجها :
ـ لقد كسرت قلب ابنتي الكبرى وحرّمت عليها زيارتي يا آدم , لا أعلم ما الذي قلبَ حالها هكذا ؟ لطالما اعتبرتها ابنةً لي , لماذا فعلت ذلك ؟ لقد خببتها أمها علينا .

ثارغضبه من شكوى زينب و بكائها فنادى بأعلى صوت :
ـ يااااريييييم

كانت أمنية منهمكة بغرف الطعام , تنهدت قائلة :
ـ ريم مجددًا , لن تتغير يا آدم .. خرجت متجهة إليه , وما إن وقفت أمامه , قالت : ـ ما الأمر ؟

أشار بيده نحوها وهو عاقدًا جبينه والغضب يطل من عينيه :
ـ ما الذي فعلته مع نور اليوم ؟

نظرت أمنية لزينب التي كانت تمسح دموعها وتحاول اخفاء ضحكة الشماتة على محياها ثم

قالت :
ـ لم أفعل شيء .

صاح بها قائلًا :
ـ كيف تجرؤين على التصرف مع أختي الكبرى هكذا ؟

ـ عن أي تصرف تتحدث ؟ ... قالتها ببرود مما زاد حنقه فبلغ غضبه مداه , بينما كانت زينب تتمتم :
ـ يالبرودك ! ستنالين ما تستحقين الآن .

ـ لا تروغي واعترفي بخطأك ... صاح آدم

تنهدت أمنية ثم قالت :
ـ هل الدفاع عن كرامتي أصبح خطأ ؟ لو أنك قمت بحمايتها لم لجأت لذلك .

صرخ وهو يشير بيديه عليها :
ـ أيُّ كرامة تلك التي تجعلكِ تنالين من أختي الكبرى ؟ هل جننتِ ؟

أشارت بسبابتها أمامه , قالت :
ـ طالما لم تسمع مني ما حدث , لِما تستجوبني من الأساس ؟ تابعت قبل أن يتكلم : ـ لقد صارت إهانتي أمر مباح لدى نور , أخشى أن تعتاد ريم على ذلك , هل عندما أقول لها يكفي إهانة أكون بذلك مذنبة ؟

ـ نعم مذنبة ومجرمة , لأنك تجاوزت حدودك مع الأكبر منكِ .... صاح متابعًا :
ـ لا تكرري ماحدث اليوم ..

استدارت لتتجه نحو المطبخ ثم قالت :
لن أعدك , لأنك اكتفيت بسماع القصة من طرف واحد ولم تكلف نفسك عناء سماعي ... قام على أثر ذلك وأمسك ذراعها قائلاً :
ـ ما الذي قلته للتو؟! رمقها بنظراته الملتهبة ، خلصت نفسها من قبضته ثم قالت :
ـ ماسمعته , رفعت سبابتها متابعة :
ـ إلا كرامتي ...خط أحمر, رفع يده ليصفعها , تلاقت عيناهما , سألته عيناها مستنكرة :
ـ ألهذه الدرجة هُنت عليك يا آدم ؟ ستضربني ؟ سالت دمعاتها رغمًا عنها , فأشاح ببصره بعيدًا عنها وكأنها صوبت سهمًا نحو قلبه أسكن لهيبه , ضمّ أصابعه بقوة ليخمد قبضته ثمّ

أخفض ذراعه وتنهد بصمت لعلّه يخرج ما آلمه ... تركهما وخرج إلى الحديقة , ضرب سورها بقبضته ثم قال :
ـ كنت على يقين من حدوث ذلك إن بحت ... ضغط على شفته قائلًا :
ـ ليتني لم أفعل ... ليتني صمتّ ...

كانت زينب غاضبة , فقد كاد مخططها ينجح , وكانت الصفعة وشيكة لكن لا تعلم لماذا لم يفعلها آدم ؟ تمتمت قائلة :
ـ لقد خيبت ظني أيها السبع .

.....

عندما يكون الشخص أسير الغضب , سيبحث عمّن يصدق انفعالاته بل ويعاونه في القصاص ممن يحقد عليهم....

عاد من دروسه الخاصة على صراخ نور مع الطفلين و الصغير يبكي و آثار كفها على خده , هرع محمود نحو علي يتفحص خده ثم نظر لنور قائلًا :
ـ ماذا فعل لتضربيه هكذا ؟

كان وجهها يغلي من الغيظ , قالت :
ـ لقد سكب الحليب .

عقد محمود حاجبيه قائلًا :
ـ لكنّه مازال صغيرًا , لا يجدر بكِ صفعه هكذا .

أشارت نحوه وهتفت به :
ـ ومن أدراكَ أنت بالطريقة المُثلى لمعاملة الأولاد ؟

جذب عمر والده من يده , فجثى محمود على ركبتيه ليسمع ما يريده منه عمر , حكى له عمر ماحدث في الصباح , فأومأ محمود برأسه ثم نظر لنور قائلاً :
ـ مشاكلك مع أقاربك لا تقحمي بها أبنائي .

استشاطت نور غضبًا , فثارت كما الوحوش , جذبت عمر من أذنه ثم صاحت :
ـ لماذا أخبرت والدك ؟ ألم أقل لك لا تفعل , صرخ الولد من شدة القرصة , فأفلته محمود من قبضتها ثم أخذ علي و حاول تهدئتهما واتجه بهما لغرفتهما , وعاد إليها , وقف أمامها وهو قاطب جبينه , قال :

ـ هل جننتِ ؟ رفع صوته متابعًا :
ـ ماذنب الولدين فيما حدث ؟

ـ طالما أنك لا تعلم شيء , إذن اسكت .... قالتها وهي تلتقط أنفاسها من أثر الغيظ و العصبية .

ـ إذن أخبريني ... قالها واتجه نحو الكرسي المقابل لها ، قصّت عليه ما حدث .. فصمت ولم يعلق مما زاد غضبها , قطعت صمته بصراخها :
ـ طلبت منّي إخبارك وها أنت صمتت , هل أكلت القطة لسانك ؟

هزّ محمود رأسه مستنكرًا فظاظتها , قال :
ـ لا أعلم سبب تنمرك على زوجة أخيكِ .. إن أردتِ تفسيري فهي ليست إلا غيرة .

ـ ماذا ؟ سألته وعيناها قد تخضبت بلون الدماء .

ـ نور اهدئي واسمعيني وكفي عن تلك الوحشية , أشار بيديه لتهدأ ثم استكمل : أنتِ تعجزين عن فعل مافعلته أمنية لذا تغارين منها , أليس كذلك ؟

صرخت وهي ممسكة بجلبابها تريد شقه :
ـ هل جننت لتحدثني هكذا ؟ كيف تحامي لتلك اللئيمة ؟

صاح بها وقد رفع سبابته :
ـ اصمتي حتى أكمل كلامي , حرمتني من المكوث بقرب أمي في الوقت الذي فعلت أمنية فيه العكس , بل وتتحمل سوء معاملتك , لقد أوجعتكِ الحقيقة لكنها ستظل حقيقة ...قالها وقام من مكانه متجه لغرفة النوم بينما انهارت نور بالبكاء وهي تلطم وجهها لأن محمود لم ينصفها ويفكر معها بأي حيلة لتنتقم من أمنية ... صرخت بالآهات وقالت وسط نشيجها :
ـ لن أتركك يا أمنية ... سأنتقم منك بطريقتي .

.....

ردود الأفعال ماهي إلا مآسي رسّخها الماضي ببراثنه على أيدي الظالمين .... وكأن الزمن أقسم على جلب ضحايا جدد لمأساة لم يروا حقيقة أحداثها ....

ضغطت على رقم دينا لمهاتفتها وما إن ردّت حتى أخفضت صوتها و قطعت أنفاسها وكأنها تبكي , قلقت دينا حيال ذلك , فسألت :
ـ أمي هل أنتِ بخير ؟

انتقلت لغرفة الجلوس و أغلقت عليها الباب ثم قالت :
ـ لا ؛ لست بخير أبدًا .

ـ يا إلهي , ما الأمر ؟ ... سألتها دينا وقد بلغ خوفها مداه .

ـ لقد تمادت زوجة أخيكِ يادينا و تشاجرت مع نور ... قالتها زينب وقد بدا على صوتها التأثر .

لم تصدق دينا ماسمعته للتو , فسألت :
ـ تقصدين أمنية ؟

مطت زينب شفتيها قائلة :
ـ وهل لأخيكِ زوجة غيرها ؟

حكت دينا رأسها لتستوعب ماتسمعه ثم قالت :
ـ أعتذر , لكنني مصدومة وحسب ... تنحنحت متابعة :
ـ ماذا فعلت ؟

قصّت عليها زينب ما حكته لآدم , فغرت دينا فاها لعدم تصديقها ولم ترد , فبادرتها زينب قائلة :
ـ دينا ! لماذا سكتِ ؟

أجابتها دينا :
ـ أمي , أودّ أن أعلم مافعلته نور بالضبط .

تنحنحت زينب قائلة :
ـ لم تفعل شيء سوى أنها نادت عليها لتحضر الفطور ولامتها على تأخرها ..

سكتت دينا هنيه ثم قالت :
ـ لا أعلم إن كان رأيي سيزعجك , لكن لا يحق لنور معاملة أمنية هكذا , أنا متأكدة أنها لامتها بصوت عالي كما تفعل في المعتاد , أليس كذلك ؟

لم ترد زينب فتابعت دينا : ألا تظنين أن نور تتمادى في التحكم بأمنية بمرأى ومسمع منكِ يا أمي ؟

رفعت زينب صوتها قائلة :
ـ في النهاية هي ابنتي الكبرى التي لا تغفل عن زيارتي و صِلتي .

سكتت دينا لأن زينب رمتها بسهم الحنين فآلمها كثيرًا , أخفضت صوتها متابعة :
ـ أسفة لو رأيي أزعجكِ , لكن أمنية بالفعل طيبة ولم أرى منها سوى اللُّطف والأدب , قد تكون أخطأت لكن ليست وحدها .

نهرتها زينب قائلة :
ـ و أختك ، ألا يهمك غضبها وقلبها الذي تحطم على يد تلك المخادعة ؟

ـ بلى ؛ طبعًا يهمني وسأهاتفها الليلة لأطمئن عليها ولن ألومها لا تقلقي , استكملت : لكن أنا أقول رأيي بناءً على معرفتي المسبقة بأختي , فهي صعبة المراس , ألا تذكرين شجارها مع أخت كامل يوم خطبتي ومع والدته يوم زفافي .... تنهدت متابعه :
ـ يالها من ذكرى .

ـ هذا يكفي ... قالتها زينب بجمود في محاولة منها لإنهاء المكالمة , انتبهت دينا لذلك فقالت :
ـ هل غضبتِ منّي ؟ لم ترد زينب فتابعت دينا :
ـ أمي أرجوكِ لا تغضبي , أنا آسفة , لم أكن أقصد شيء .

انتهت المكالمة على غير رضا زينب , لم تجد الإنصاف من آدم ودينا , غضبت كثيرًا مما حدث وكلما تذكرت موقف آدم عندما امتنع عن صفعها ازداد غضبها , وتذكرت أيامها الخالية مع زوجها عندما كان يصفعها بلا تردد إذا وقفت أمامه , لم تتغير وتيرة حياتها إلا بعد أن كبر الأبناء ومرض الزوج فاشتدت على إثر ضعفه شوكتها وزادت قوتها , لتكون كلمتها هي الأولى و الأخيرة في هذا البيت ومن حينها أقسمت أن تجعل زوجة ابنها تحيا كما عاشت هي .... تمتمت قائلة عندما تذكرت ماضيها :
ـ لماذا أُضرب أنا وهي لا ؟ بل ويقف في صفها ولدي ؟ لا لن يدوم هذا ... صمتت هنيهة عندما تناهى لمسامعها صوت أقرب للهمس ... لقد كانت أمنية ! ... تسائلت زينب عندما حاولت الإنصات من خلف الجدار :
ـ ترى ماذا تفعل ؟ ولماذا تخفض صوتها هكذا ؟؟

الفصل الثامن

(عتاب)

.....

سيبقى العتاب معلق

بيني وبينك

كرسالة تأبى أن تُرسل

لبريد قلبك

فأظل أُمني نفسي

بحنين وصلك

لكنك أبيت إلا أن

أرضى بمرار بعدك

وظنّنت بأن الأيام

لجرحي ستضمد

قد تفعل ذلك مع جسدي

لكن لقلبي لن تدرك

هل هنتُ عليك يا آدم ؟

أم هان حبك ؟

هل كنت حقًا ستصفعني ؟

أم كان كفك ؟

طلبت فقط أن تسمعني

فصممت أذنك

وتلاقت عينانا قدرًا

فأشحت بصرك

لأعود من حيث أتيت

وحيدة في دربك

وسيبقى العتاب معلق

بيني وبينك ....

.....

لم ينتهي اليوم بكل آلامه , كعادة أي ضيق يأبى أن يرحل حتى يململ الجوارح ويجعلها تنظر لعقارب الساعة , أملًا في انتهاء الوقت , لعلّ اليوم الجديد أوفر حظًا من سابقه , وستظل الجملة الأخيرة محض أمنية لا أكثر ....

رنّ هاتف أمنية , التقطته و اتجهت نحو إحدى الغرف لترد فوصل لمسامع زينب صوت ثرثرتها بالهاتف , فخرجت و سألت عنها , وعندما علمت بمهاتفة صديقتها لها , وقفت بجوار آدم وقالت :

ـ دخول الصديقات في حياة بعضهنّ البعض إمّا أن يكون فيه حسد و إما فساد .

نظر لها قائلًا :

ـ ماذا تقصدين ؟

جلست على الأريكة وقالت :

ـ أقصد أنّ معرفة الصّديقات لن تأتي بخير أبدًا , إمّا أن تحسدها صديقتها و إمّا أن تفسد حياتها .

خرجت أمنية بخطى حثيثة بعد انتهاء المكالمة ليصل لأذنيها حديث زينب مع آدم وهي تقول :

ـ هل تعلم نية صديقة زوجتك يا آدم ؟ عليك ألا تثق في أي امرأة لأن كيد النساء عظيم .

ضحك آدم بمرارة وقال :

ـ لم أر أحدًا يتحدث عن بني جنسه مثل حديثك يا أمي .

هزّت زينب رأسها وهي غير راضية عمّا يرمي إليه ابنها وقالت :
لدي الخبرة للحكم على الناس ومعرفة مكنوناتهم , لذا تراني في عزلة عن الكثير .

أومأ آدم برأسه وكأنه اقتنع بكلامها , فتابعت قائلة :
ـ لا تعلم ماذا ستدس لها تلك الصديقة من أفكار لتخببها عليك , هل هي متزوجة ؟

هزّ رأسه بنعم و قال :
ـ نعم متزوجة ولديها ولد , كما أنها ليست مستقرة بمصر , تسافر بين كل حين و الآخر للكويت حيث يعمل زوجها .

ـ اممم , ولو ، لا بد أنها ستؤثر على زوجتك آجلًا أم عاجلًا , و لا سيّما أن من السهل التأثير عليها كما حدث اليوم , قالت ذلك وصمتت برهة حتى تتوغل ما قالته من أفكار لعقل آدم .

تنحنحت أمنية لتعلمهما بقدومها فلم يتكلم أحد , أخذت الأطباق إلى المطبخ , وقامت بتنظيف المائدة ثم عادت إلى المطبخ ، خرجت ورصّت كوبين من الشاي و فنجان قهوة على المنضدة , نظرت زينب لفنجان القهوة وقالت :
ـ لم يطلب أحد قهوة .

جلست أمنية على الكرسي وقالت :
ـ هذا لي .

نظر آدم للفنجان ولم يود التعليق لكنّه قال :
ـ ومنذ متى تشربين القهوة .

نظرت له أمنية ولسان حال عينيها يقول :
ـ لم نتعاتب بعد ، أتسأل وأنت موقن بحسن ردي عليك ؟ أشاح ببصره بعيدًا عنها ، قالت :
ـ مذ كنت بالجامعة , لم أعلم أنها حرام .

اقتربت زينب من آدم وقالت :
ـ ألم أقل لك ؟ هاهي البداية .

رفع آدم أحد حاجبيه وقال ساخرًا :
ـ ألا تريدين بعض السجائر معها ؟ ضحكت زينب وكأن مزحة ابنها أعجبتها و راقت لها .

نظرت لعينيه تستنكر مزحته وكأنها تقول : ألم يكفيك مافعلته منذ قليل ؟ ... صمتت لبرهة ثم

قالت :
ـ بلى أريد ؛ إن كانت ستسعدني ، شهقت زينب وضربت صدرها ونظرت لآدم الذي كان يحدّج أمنية بنظراته الملتهبة .

أخذت أمنية فنجان قهوتها واتجهت نحو الغرفة التي تنام فيها ريم لتنعم ببعض الهدوء و هي تحتسي القهوة , لكنّها تذكرت شيئًا , فوقفت و قالت :
ـ ستأتي سحر بعد قليل .

قضّبت زينب جبينها و سألت :
ـ من سحر ؟

استدارت أمنية و ردت :
ـ صديقتي التي هاتفتني منذ قليل .

سألها آدم وقد تخلّله التوتر فقد خشيّ أن تكون قصّت لصديقتها ماحدث :
ـ هل هناك شيء ؟

التفتت له أمنية وقالت :
ـ كانت بالقرب من منطقتنا , فودّت المجيء للإطمئنان عليّ .

لوت زينب شفتيها ونظرت لآدم ثم عادت لأمنية وقالت : هل شكوتِ لها من ألم قدمك .

ـ لا ؛ لم أفعل ... قالت أمنية وهي تشعر بالضيق من ذلك التحقيق الذي فُتح عندما قررت سحر زيارتها , و كأنّ مجيء الناس لأجلها أمرًا غريبًا يحتاج إلى ذكر الأسباب و أخذ الإذن للموافقة عليه , تابعت قائلة :
ـ إن لم يكن لكما رغبةً في مجيئها سأتصل بها واعتذر لها .

سألتها زينب :
ـ هل ستقضي هنا وقتًا طويلًا ؟ تنحنحت متابعة : فقد حلّ المساء .

ارتشفت أمنية بعض القهوة وهي واقفة و ردّت باقتضاب :
ـ لا تقلقي , لدى سحر أدب يكفيها لتعلم الدنيا بأسرها كل ما هو جميل و مناسب للإجتماع بالناس , فهي تعلم جيدًا آداب الزيارة وغيرها من آداب الحياة .

لم تشعر زينب بالراحة من كلام أمنية عن صديقتها بهذه الطريقة , ردت ساخرة : ـ هه , من يشهد للعروس ؟

ـ صديقتها ... ردّت أمنية , انتهت من قهوتها و عادت لزينب قائلة :
ـ إنها توأم روحي .

نظر لها آدم وقد زادت ريبته من كلام أمنية عن سحر , فقال محاولًا نصحها :
ـ لا تبالغي فى ثقتك بها ؛ حتى لا تندمين .

ردت عليه أمنية باقتضاب :
ـ أشكرك على النصيحة الثمينة , لكن قلبي هو من أخبرني بحبها و أفعالها وافقت مايقول ,
رفعت سبابتها قائلة :
ـ إلا سحر , لن أتحمل أي كلام عليها .

اتجهت نحو المنضدة الواقفة أمامهما و التقطت الأكواب واتجهت بهم إلى المطبخ , تاركة آدم و والدته يتبادلان نظرات الريبة عن تلك العلاقة الوطيدة التي تجمعها بسحر والصمت هو سيّد الموقف .

قطعت زينب ذلك الصّمت قائلة :
ـ لعلّها تخبرها بأسراركما الخاصة ؟

هزّ آدم كتفيه ثم رد :
ـ لا أعلم , ولم أكن أظنّ أنها متعلقة بها هكذا .

أشارت بكفيها و لوت شفتيها قائلة :
ـ لم تظن , يا لك من غافل , زوجتك تحتاج إلى من يتابع تحركها ويبحث في جوالها , تابعت : هاهي وشت لها عمّا حدث منذ قليل .

مسّد آدم شعره و قد تيقنّ من شكه بعد كلام والدته , زفر قائلًا :
ـ سأفعل يا أمي , نظر لساعة الحائط ثم قال : سأصعد لإنجاز بعض الأعمال على الحاسوب , هل تريدين شيئاً منّي ؟

ـ ألن تستقبل مع زوجتك الضّيفة القادمة ؟ سألته , لكنّه قام من مكانه ومدّدَ جذعه وهو ممسك بخصره ثم قال :
ـ ليس هناك داعي لوجودي بجلسة نسائية ... تركها وصعد لشقته .

.....

اشتدت قسوة الحياة لازال هناك حب صادق لن يتغير مهما تغيرت موازين الحياة ....

خرجت أمنية من المطبخ على جرس الباب , سارت مسرعة لكن قدمها آلمتها , فتحت الباب لتجد سحر واقفة حاملة ابنها , لم تمنعها أمومتها من الإهتمام بنفسها ولباسها الذي لم يلق استحسان أمنية لكونه ضيق بعض الشيء .

سلّمت عليها و دعتها للدخول , كانت حماتها مازالت جالسة على الأريكة تتابع التلفاز , لم تظهر أي مودة لدى رؤيتها سحر , قامت من مكانها بتثاقل وسلّمت عليها بنوع من الفتور ونظراتها تتفحص ثيابها ومساحيقها , مما أزعج أمنية و سحر لكنهما حافظا على ابتسامتهما ..

أشارت أمنية لها على الأريكة و قالت :
ـ اجلسي يا حبيبتي , لقد أنرتِ البيت بقدومك .

ابتسمت لها سحر شاكرة :
ـ لا حرمني الله منكِ ... جلست و نظرت لقدمها قائلة : هل أصابكِ شيء ؟

ـ تعثرت بإحدى اللعب فقط , آلمت قدمي , لكنها بسيطة إن شاء الله ... قالت ذلك ونظرت لحماتها التي رمقتها بعينيها ممتعضة .

شعرت سحر بالقلق حيال ذلك , فقالت :
ـ لما لا تذهبي للطبيب , هيا و سأذهب معك و .... قاطعتها زينب قائلة :
ـ لا تحتاج , هي بخير و ليس هناك داعي للتنقل بين العيادات .

ألجمت تلك الكلمات سحر فآثرت الصمت لكن أمنية قطعته قائلة :
ـ سأعد لكِ المائدة لتناول الغداء , تنحنحت زينب ففهمت سحر أنها لا ترغب في ذلك فقالت :
ـ لقد أكلت لتوي يا حبيبتي , لا تتعبي نفسك , اجلسي أرجوكِ .

شعرت أمنية بالإحباط من حركات حماتها التي اتضحت لسحر , فاتجهت إلى المطبخ قبل أن تسمع رأي سحر أو ترى ردة فعل زينب لتعد عصير المانجو مع الحلوى ولسان حالها يقول :
ـ أهذه الضيافة التي أوصانا بها المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟!

استيقظت ريم فدخلت زينب و أخذتها متّجهة نحو الحديقة , بينما انتهت أمنية من إعداد العصير , حملته إلى سحر ثم جلست بقربها والابتسامة الصافية على ثغرها .

قربت منها الكوب وقالت :
ـ تفضلي , بالهناء و العافية .

شكرتها سحر لكنّها عاتبتها قائلة :
ـ جئت لأجهدك يا أمنيتي الجميلة .

قضبت أمنية جبينها وقالت :
ـ لا تقولى ذلك , لقد سررت كثيرًا برؤيتكِ , تنهدت متابعة :
ـ لم يكن ذلك يومي الأفضل على الإطلاق لكنّه صار كذلك بعد مجيئك , ابتسمت ثم حملت الكوب الآخر وقالت :
ـ هاتِ محمد ليشرب ذلك الكوب .

ناولتها محمد لكنّه رفض شرب العصير و أخذ يشير بإصبعه نحو الحديقة , فسألته أمنية :
ـ ماذا تريد يا حبيبي ؟

ضحكت سحر وقالت :
ـ يريد ريم .

نظرت أمنية إلى الغرفة ثم قالت :
ـ مازالت نائمة , لكني سأوقظها لأجلك .

أشارت سحر بلا و قالت :
ـ أخذتها جدتها إلى الحديقة قبل قليل , لكنك لم تسمعي بسبب صوت الخلّاط .

ـ اممم , سأذهب و أحضرها معي , همّت بالنهوض لكن سحر جذبتها وقالت :
ـ في المرة القادمة , جئت لأجلك وحمدت الله أن تركتنا حماتك ليتسنى لي التحدث معك قليلًا فقد بات سفري وشيكًا, التفتت لمحمد و أشارت على المكعبات وقالت
ـ اِلْعب بتلك المكعبات يا محمد , فاتجه الولد نحو المكعبات على الفور .

عادت أمنية لمكانها , وابتسمت بمرارة قائلة :
ـ معكِ حق , مهما جلسنا سويًا , لن أمل ولن أشبع من حديثنا ... صمتا هنيهة

ـ سحر ... قالتها أمنية وصمتت فبادرتها سحر :
ـ أنا أسمعكِ يا حبيبتي .

ـ بصراحة وددّت التحدث معكِ بشأن هيئتك التي لا ... تنحنحت أمنية معتذرة :
ـ أرجو ألّا يغضبكِ ما قلت .

هزّت سحر رأسها نافية :

ـ أنا أيضًا لا تعجبني ، لكنني ضعيفة اتجاه الموضة , ضحكت ثم ربتت على كتف أمنية قائلة :
ـ لذا أنا أحبك ؛ لأنكِ تُريني ما أغفل عنه .

ـ متى ستتركين ذلك ؟ قالتها أمنية وهي تنظر لسحر .

ـ بخصوص لباسي , قريبًا جدًا بإذن الله ... تابعت وقد عقدت جبينها مبتسمة :
ـ أمّا مساحيق التجميل لن أعدك بتركها , سأحاول فقط التقليل منها .

طبعت أمنية قُبلة على خدها قائلة :
ـ أسعدني استعدادك للتغيير يا حبيبتي .

تنهدت سحر قائلة :
ـ وأنتِ ؟ ماذا عنكِ ؟

ـ لم أعد أهتم بنفسى , أليس كذلك ؟ قالتها أمنية وهي مطرقة رأسها .

زفرت سحر بارتياح لأن أمنية لم تحمّلها عناء النقد , قالت :
ـ تعلمين , أن الجميع يمر بأوقات صعبة لا يجد فيها الوقت المناسب للاهتمام و ... قاطعتها أمنية :
ـ لكنني دومًا هكذا .

اتسعت حدقتا سحر وقالت :
ـ ماذا ؟!

ـ لا تتعجبي يا سحر ... أشاحت بوجهها بعيدًا عن سحر , وتابعت :
ـ أنا الآن خادمة فقط , أخدم بيتي و بيت حماتي و أقوم على شئون الجميع .

فغرت سحر فاها لما سمعته لتوها ثم نطقت : يا إلهي ! كان الله فى عونك .

ـ على ذكر ذلك سأخبرك بما حدث معي اليوم , قصّت عليها مالاقته وسحر منصته فقط و بعد الانتهاء ران عليهما الصمت , بترته أمنية قائلة :
ـ لقد أوشكت على تصديق أنّني مذنبة .

أشارت سحر بلا ثم قالت : لستِ كذلك ؛ بل هم المذنبون .... زفرت بضيق وتابعت: ـ أكثر ما أغضبني موقف آدم لأنّه المعني بإنصافكِ إن ظلمكِ الآخرون ..

رفعت أمنية كتفيها قائلة :
ـ لا أعلم كيف أتعامل معه ؟ لن يجدي عتابي له نفعًا .

أتى محمد لأمه ببعض المكعبات يريدها أن تقوم بتركيبهم , فعلت مايريد ثم التفتت لأمنية قائلة :
ـ لكل شخصية مفتاح , ألم تعلمي مفتاح شخصية زوجك بعد مرور ثلاث سنوات ؟

ـ له شخصيتان ؛ إحداهما معي بالبيت والأخرى أمام أهله والناس , أودّ أن أعلم مفتاح كل شخصية ... قالتها أمنية وهي تنظر لعيني سحر .

أمسكت سحر بكفها قائلة :
ـ الرجل كما الطفل يسهل ترويضه , صدقيني ... لكن عليكِ فقط معرفة مايحتاجه .

تنهدت أمنية قائلة :
ـ أخشى أن أفنى و أنا أبحث عما يحتاجه و أنسى ما أحتاجه أنا .

ابتسمت سحر قائلة :
ـ ستجدين ضالتك في حاجته .

ـ كدُّت أنسى أمره .. قالت سحر و أخذت من حقيبتها كيسًا ثم قدمته إلى أمنية التي ضيّقت عينيها في محاولة منها لتخمين كنهه أو سببه .

ـ لا تفتحيه الآن ... قالت سحر , فزادت حيرة أمنية , فسألتها :
ـ أوليس لي ؟!

ـ بلى ؛ إنّه لكِ يا عزيزتي ... لكن وددّت أن تسمعي ما سأقوله لكِ قبل أن تعلمي محتواه .

ظلت سحر تتحدث و أمنية تنصت حتى دخلت عليهما زينب وهى تتأفف فأعلنت انتهاء موعد الزيارة , قامت سحر ونادت على محمد لتحمله معها وتودع أمنية .

أغلقت أمنية الباب الكبير ودلفت لتجد زينب وقد ارتسمت على وجهها علامات الغضب وكانت شفتاها على وشكِ إخراج البركان الثائر , اتجهت إلى المطبخ لتحضر وجبة ريم لكنّها سمعت زينب وهي تصرخ قائلة :
ـ تلك التي ستُعلِم العالم آداب الزيارة , كيف سيكون الحال لو لم تكن على علم بها ؟ من الذي علمها ؟ لقد قلتها :
ـ دخول الناس على بعضهم إما حسد و إما فسااااااااد ، لا أريد أحدًا يقتحم حيااااتي .

خرجت أمنية حاملة الطعام ولم تسمع ماقالته زينب لأنها شاردة تمامًا فيما فعله آدم , الأفكار تعصف بذهنها لإيجاد فكرة مناسبة من أجل العتاب , وتسأل نفسها : ــهل سيجدي نفعًا ؟ وقفت زينب أمامها قائلة :

ـ ماذنب طفلة مثل هذه حتى تُحرم غدائها ؟ ها ماذنبها ؟

ردت أمنية منزعجة من قطعها لحبل أفكارها بذلك الصراخ :

ـ أنتِ من أخرجها للحديقة ولست أنا ..

ـ خرجت حتى لا تطيل صديقتك المكوث , قالتها زينب ثم صرخت متابعة : لكن من يفهم ؟

عقدت أمنية حاجبيها و شعرت بالاستياء من موقف زينب , قالت :

ـ ما الذي سيحدث لو أكلت ريم و هما معنا ؟

تأففت زينب وتركت ريم على الأرض ثم وقفت في مواجهة أمنية وقالت :

ـ لقد أحضرت صديقتك ابنها معها , هل سيدع ريم تهنأ بطعامها ؟

زفرت أمنية بضيق وقالت :

ـ مهما بلغت شراهته لن يلتهم كل الطعام , هو في النهاية طفل , ألا تعلمي أن الكرم صفة من صفات الأنبياء ؟... وضعت الطبق على المائدة و بدأت بإطعام ريم بينما تابعتها زينب ونظرات الغيظ تعلو محياها وقالت :

ـ يا لكِ من مستهترة .

اتجهت نحو التلفاز , أخذت جهاز التحكم تنتقل بين القنوات حتى وصلت إلى مسلسلها , قبل متابعته وجهت جملتها إلى أمنية قائلة :

ـ بيتى لا يتسع للجلسات النسائية , ليس هناك وقت لذلك , تابعت بلهجة آمرة : لا تقومي بدعوتها أو دعوة غيرها مجددًا .

ـ لن أفعلها ثانيةً , فبيت أبي يتسع لكل الناس , حفظه الله ورعاه ... قالتها أمنية و استكملت إطعام ريم .

انتهى يومها بحلول الليل , لتصعد إلى شقتها وهي تحمل ريم على ذراعها و قد أمسكت بيدها الآخرى هدية سحر لتستأنف العمل على الخطة الجديدة .

.....

عجلات الدنيا تدور بسرعة للدرجة التي تجعلنا ننسى أننا كنا صغارًا ذات يوم , فنجهل

مايحتاجه صغارنا , موقنين بأن متطلباتنا هي فقط أحلامهم ....

كان يعبث بجواله وهو جالس على الكرسي و الأفكار تعج برأسه , جاءت وجلست بقربه , قطعت سلسلة أفكاره قائلة :

ـ عندي لك خبر سعيد .

انتبهت حواسه لما قالته , فترك جواله والتفت لها سائلًا :

ـ أيّ خبر ؟

ابتسمت له قائلة :

ـ سنشتري أرضًا في منطقة مميزة لعمل بيت كبير .

رفع أحد حاجبيه قائلًا :

ـ ولماذا ؟! لما نترك هذا البيت ؟

ربتت على كتفه قائلة :

ـ لتتزوج قربي يا مازن , أنا أبحث لك عن عروس .

ـ ومتى ستدعيني لحفل الزفاف ؟ قالها بنوع من المزاح الممزوج بالألم .

ضحكت من مزحته ثم قالت :

ـ لم أر الفرحة في عينيك , ماقلته يتمناه أي شاب يابني .

ـ أي شاب غيري ... مسّد شعره وتابع : لماذا تصرين على معاملتنا هكذا ؟ نحن جيل الثورات , لن نرضى بالقمع حتى لو كان محاط بسياج الرفاهية ..

عقدت رغدة جبينها قائلة :

ـ هه , تقصد جيل الفوضى و الهمجية , ستظلون تائهين بدوننا , تابعت بنبرة أكثر جدية : أهكذا تخاطب أمك ؟ مع من جمعت نفسك حين قلت معاملتنا ؟

أخفض رأسه ونظر للأرض قائلًا :

ـ أنا أسف , قصدت نفسي و أمنية .... تنهد مستكملاً : لقد صرت رجل , و أعلم جيداً ما أريد , ل... قبل أن يكمل قاطعته قائلة :

ـ هكذا تظن ... لكنك مازلت طائش .

هزّ رأسه نافيًا : لا ؛ لست كذلك , أنتِ من ظنّ كذلك لأنك آثرتِ الاعتماد على أبي دون

محاولة تجربة قوة تحملي لأي مسؤلية ... لم أعد طفل .. تظنين أن ماتريدين هو فقط ما أتمنى .

أشارت بيدها نحوه قائلة بسخرية :
ـ لقد أفلحت في تربيتي لك يا مازن ... لم أكن أعلم أن عصيان الأم من علامات الرجولة .

مسح وجه بكفيه قائلاً :
ـ لم أعصيكِ , صدقيني .

رفعت أحد حاجبيها سائلة : وما الذي تفعله الآن ؟

غضن جبينه قائلًا :
ـ أحاول التحاور معكِ بكل الوسائل التي لا تفضي لطريق مسدود بالنهاية , حتى أبي أذعن لقراراتك بسبب انشغاله , لكنني لن أفعل .

هتفت به قائلة :
ـ لقد تماديت كثيرًا , لمن ستلجأ إن قطعنا عنك المصروف ؟ هل صدقت ماتقول عن القمع , أيها الفيلسوف الصغير .... أخذت تنادي على جمال الذي كان مشغولًا بمهاتفة أيمن من أجل تذكيرة بشراء كراسة الشروط الخاصة بقطعة الأرض لأن آخر موعد لها بعد غد .

وقف مازن وقد استعد للخروج , قال : أنا أسف يا أمي , لكن عليّ المغادرة الآن .

أشاحت بوجهها ولم ترد , بينما خرج جمال من غرفة المكتب يسأل عن سبب ندائها , لم ترد فسأل مازن , استدار ونظر لأبيه ثم قال :
ـ صراحتي ضايقتها .

ضيّق جمال عينيه وحاول تخمين سبب المشكلة لكنّه لم يفلح , فالتفت لرغدة سائلًا : ـ ماذا حدث ؟

أشارت على مازن قائلة :
ـ المهندس المحترم لا يعجبه مانفعله لأجله .

نظر مازن لأبيه قائلًا :
ـ أشكركما على كل ما فعلتماه وماتفعلانه معي , لكنكما لا تعلمان ما أريد .

جلس جمال على الأريكة ثم سأله :

ـ وماذا تريد يا مازن ؟ قاطعته رغدة مستنكرة :
ـ هل ستسمع لما يهذي به ؟ لديك ماهو أعظم ... أشار لها جمال لتهدأ ثم نادى على مازن ليجلس بجواره ...

اتجه مازن نحوه قائلًا : أولست مشغولًا كالعادة يا أبي ؟ أخشى أن يقاطعنا رنين هاتفك بالمكالمات الهامة .

مطت رغدة شفتيها قائلة :
ـ يا لأدبك الجم ! لقد ضاع تعبي سدى في تربيتك .

ـ يكفي ، رغدة ، لابد أن نعلم مايريده ... قالها جمال وقلبه يتألم مما سمعه من ولده , لم يعلم أن هناك فجوة زادت مع انشغاله بالشركة , فضاعت معها مرحلة المراهقة الخاصة بمازن دون أن يشاركه إياها نظر لقسمات مازن وهو يحاول تذكر تلك الملامح حال الطفولة , حاول جاهدًا تذكرها حال مراهقته لكنّه لم يفلح وكأنّ ولده انتقل من طور الطفولة لطور الشباب دفعة واحدة , أغمض عينيه وهو ينظر لمازن ثم قال :
ـ لقد كبرت يا مازن .

التفتت له رغدة وهي قاطبة جبينها ثم قالت :
ـ ما الذي أصابك أنت الآخر ؟ هل اتفقتما عليّ ؟ هل يعجبك تمرده ؟ ستترك مشاغلك لأجل كلامه الفارغ .

ـ هلا صنعتِ لنا بعض العصير؟ قالها جمال ثم قام و جذب مازن من ذراعه متجهًا نحو المكتب بعد أن أغلق هاتفه ليعلم ماخلفته الأيام على نفسية ولده وهومشغول بشركته داعيًا ربه أن تكون أمنية بخير .

ابتسم مازن بخبث وقد شعر بنشوة نجاح تمرده ولسان حاله يقول :
ـ لقد حانت اللّحظة الحاسمة , و سأفصح عن مطالبي .

الفصل التاسع

(أنين الذكريات)

.....

صدمات تروي أيامي

لتعزف ألحان الذكرى

أنغام قد تبدو حزينة

لكن فيها كل العبرة

أغمضت عنها عينيّ

فتلاشت معها القوة

وأتاني الهم بصورته

فغدوت وحيدة في الدنيا

لا أب يضمد آلامي

أو أمّ تفهم أحلامي

انقلبت في عيني معاني

كانت في الماضي أسمى

فاهتزت كل أركاني

كزلازل تصحبها الفوضى

تتبعثر معها آمالي

فتشتت روحي بقسوتها

لأجابه معترك حياتي

فأكون أسوء ما أسعى

.....

هناك صدمة تجعل من صاحبها أقوى لأنها تزلزل كيانه فيستفيق , لكن ماذا لو كانت الصدمة ستفقده هويته؟ فيحيد عن الطريق , حينها لن يدمر نفسه فقط ؛ بل سيفعل بأهله وسيصل أذاه للقريب والبعيد...

كان التلفاز يتحدث باللهجة الشامية لدبلجة ذلك المسلسل التركي المحبوب , بينما كانت شاردة تهز ساقيها بلا توقف , تطقطق أصابعها وعينيها معلقة على الجوال , تريد مهاتفته لكن لا تعرف ماذا ستقول ؟ خرجت والدتها من المطبخ , لتجدها على نفس حالها , ظلت تنظر لها ثم أخذت جهاز التحكم وأغلقت التلفاز , فهتفت بها شمس قائلة :

ـ لما أغلقتيه يا سعاد ؟

ـ لأنّك لا تتابعيه .... ردّت سعاد والعبوس يعلو محياها , ثمّ تابعت :

ـ تركتيه يحدث ضجيج حتى لا نعلم مابكِ , أخبريني يابنيتي عمّا حدث لكِ ؟

رفعت شمس أحد حاجبيها قائلة :

ـ وماذا ستفعلي لي ياربة المنزل العظيمة ؟

تنهدت سعاد قائلة :

ـ سأدعو الله لكِ أن يهديكِ و يوفقكِ , ليس عندي أغلى منكِ وأختك .

ـ هه , هذا آخر ما تقدرين عليه ... قالتها شمس بنوع من السخط , استكملت :

ـ دائمًا مستكينة , له حق أبي يذهب لغيرك .

قلّبت سعاد يديها قائلة :

ـ ما الذي كان يتوجب عليّ فعله ؟ هل كان عليّ أن أقوم بتقييده في البيت حتى لا ينظر لامرأة غيري ؟

مطّت شمس شفتيها , وأشارت عليها قائلة :

ـ كان عليكِ الاهتمام بنفسك , بصراحة أنا لا ألومه أبدًا ولن ألوم زوجته الذكية التي خططت ببراعة ونجحت في ذلك ... شعرت سعاد بأنّ الأرض تميد بها ورأسها يتأرجح من أثر كلمات ابنتها , فلم تقوى على الرد .

خرجت رنا من غرفتها على صوتهما , جلست على الأريكة بجوار أختها ثم سألت : ـ لما صوتكما ارتفع ؟

أشارت سعاد نحو شمس قائلة :
ـ لقد بلغ توترها مداه , وعندما سألتها عن السّبب ردّت عليّ بفظاظة , إنها قليلة الأدب .

ـ أنتِ من تدخلت فيما لايعنيكِ ... قالتها شمس بغضب , فلامتها رنا قائلة :
ـ لماذا تصرين على معاملة أمّنا بهذه الطريقة ؟

تنهدت سعاد بمرارة قائلة :
ـ لقد تغيرت كثيرًا بعد زواج أبيكِ وانقلبت أحوالها رأسًا على عقب .

صوبت شمس نحوها نظرات الغيظ وهي تشير بسبابتها نحوها ، قائلة :
ـ أنتِ من ضيعنا بسلبيتكِ و سذاجتكِ , ليذهب أبي مع أخرى تنعم بماله , نفوذه ووجوده معها , فيما ننتظر نحن أن يحن علينا كوسيط لوظيفة مرموقة أو كمصرف لأجل المال بعد أن يجف ريقنا من إلحاحنا عليه .... تنهدت قائلة :
ـ رغم كرهي لزوجة أبي لكنّني أُحيّيها على مافعلت ... تألم قلبها عندما طافت حولها الذكريات التي تجمعها بأبيها قبل أن يتغير عليهنّ ويتركهنّ بعد زواجه بأخرى .

ـ هذا يكفي ياشمس ... قالتها رنا وهي ترفع كفها أمام أختها , ثم تابعت : مشاكلك مع آدم لا تقحمي بها أمي و .... قاطعتها شمس وقد لكمتها في جنبها قائلة :
ـ اصمتي , أيتها الغبية .... لن أحكِ لكِ شيئًا مجددًا , صرخت فيها :
ـ هل صدقتِ حقًا أنكِ محامية ؟ لقد التحقت لتوك بالجامعة أيتها المخبولة , تابعت بمرارة : هه , على أمل أن يأويكِ أباكِ العظيم بإحدى نواحي مكتبه الفخم .

نظرت سعاد لرنا سائلة :
ـ من آدم هذا ؟

نظرت رنا لشمس التي اتسعت حدقتاها وكأنها تتوعد أختها , فردت رنا قائلة :
ـ إإإإ إنه زميلها بالعمل , لكن تعلمين أن مكائد زملاء العمل لا تنتهي , لا سيّما إن كان هناك من هو حديث عهد بالعمل كحال شمس .

أشارت سعاد على الجوال قائلة :
ـ هاتفي أباكِ ليتدخل ؛ حتى لا يتمادى زميلك هذا .

وضعت شمس كفيها على وجهها وهي تتأفّف وتتمتم قائلة :
ـ كم أوّد أن أقتلك يارنا ، بينما رفعت رنا كفيها قائلة :
ـ لا لا , ليس هناك داعي لذلك ؛ فمديرها صديق أبي ولن يسمح بأي تمادي .

رفعت سعاد كفيها قائلة :
ـ حفظكما الله يا ابنتيّ , وهداكما لطريق الخير و الفلاح و رزقكما الستر و..

قاطعتها شمس قائلة :
ـ سأقوم قبل أن تتزلزل الأرض من تحتي .. انصرفت وهي تتمتم قائلة :
ـ ها قد استأنفت الدراما كعادتها ... بُهتت سعاد وامتقع وجهها من رد فعل شمس .

اقتربت رنا منها ثم طوقتها بذراعها قائلة :
ـ لا تغضبي منها يا أمي , لطالما عهدنا قلبك كبير , يتحملنا ويغفر ذلاتنا , داومي على الدعاء لنا لعله ينجينا من الخطايا التي تحاصرنا .

ذرفت سعاد الدموع وقالت :
ـ أخشى أن يكون عدم استجابة دعائي من غضب الله عليّ , تخلت شمس عن حجابها , وتركت صلاتها لكن رغمًا عنّي , ووضعتني أمام الأمر الواقع و وافقها أباكما , أخشى أن تفعلي كما فعلت يارنا , ستكونان سبب عذابي في الآخرة و عنائي في الدنيا .... انخرطت في البكاء ورنا تربت على ظهرها وتشاركها البكاء والألم يعتصر قلبها بسبب انهيار أمها أمامها .

.....

لنا في الحب قناعات , لكل منّا مذهبه وطريقته الخاصة لملىء قلبه بهوى محبوبه , ومهما حاولنا توحيد قناعتنا لن نحصل على مقياس واحد يمثل جميع المحبين ... و سيظل كل إنسان يتكلم بلسان حال قلبه الذي تختلف لغته باختلاف ما كابده في قصة حبه , حتى و إن كان ظالم لنفسه ...

كان مشغول بحاسوبه , يرتشف من الشاي تارة و يعمل تارة , قاطعه صوت ضحكات أخيه بالشرفة وهو يتحدث بالجوال , ظل يراقبه بعينيه , وما إن انتهى , أغلق حاسوبه وخرج إليه فقد قتله الفضول ، كان ينظر للمارة وعندما أتى أيمن وقف بجانبه وقال : مع من كنت تتحدث يا طبيب المستقبل ؟

نظر أدهم لعينيه ولم يعلق , فقال له أيمن :
ـ لقد باحت عينيك بما تخفي .

تنحنح أدهم قائلًا : وماذا قالت لكَ ؟

ضحك أيمن قائلًا :
ـ قالت لي أن هناك جميلة سلبت لبّك .

ـ لقد أصَبْت .... قالها أدهم ثم عاد للمارة .

سأله أيمن بنوعٍ من الفضول :
ـمن هي ؟

التفت له أدهم قائلًا :
ـ زميلتي في الكلية .

ـ بنفس عمرك ؟ .... قالها أيمن مستنكرًا

أومأ أدهم بنعم ثم قال :
ـ وماذا في ذلك ؟

ـ لا أحبذ الارتباط بامرأة في نفس عمري , ألا تعلم أن علامات تقدم العمر تظهر عليهنّ قبلنا .

ـ لاعلاقة لذلك بالحب ... قالها أدهم وهو يبتسم ثم تابع : سنتقدم سويًا بالعمر وستظهر عليّ علامات العمر أيضًا لكن الحب سيجعلنا أجمل .

صفق أيمن قائلًا :
ـ الله الله ... لقد أصبحت شاعرًا أيها الطبيب .

ضحك أدهم قائلًا :
ـ الحب يصنع المعجزات .

أشار له أيمن قائلًا :
ـ وماذا عن السنتين المتبقيتين على التخرج , والعام الذي ستؤديه لخدمة الجيش, أضف على ذلك عدة أعوام من أجل عمل عيادة وربح المال لتأمين حياتك ... ألم أقل لك فكرة الارتباط بمن هي في نفس العمر فكرة خاطئة .

رفع أدهم كتفيه قائلًا :
ـ لا يهم ، ستنتظرني و سنبني حياتنا معًا .

ضحك أيمن بمرارة وكأنّه تذكر شيء ثم قال :
ـ من يضمن لك ذلك ؟ أخشى عليك من خيبة الأمل .

حكّ أدهم رأسه ثم قال :
ـ أنا وهي ندعو الله دومًا أن يجمعنا على خير و أخذنا عهد على أنفسنا أن يبقى حبنا صادقًا ماحيينا .
زفر أيمن بضيق قائلًا :
ـ تحاول اقناعي بشيء لا أحبذه , هل مهاتفة الفتيات ومواعدتهنّ أصبحت مباحة ؟ ... صمت هنيهة وكأنّه تذكر من ذكّره بذلك .

رفع أدهم أحد حاجبيه قائلًا :
ـ هل عدم فلاحك في حب إحداهنّ سبب لك عقدة ؟ لقد ظلمت الحب لأنّك أخطأت بانتظار واحدة لم تحبك ... زلزل ذلك الكلام كيان أيمن فشعر بغليان الدم في عروقه , قطب جبينه ولم يرد , فتابع أدهم :
ـ لا تحاول تنفيري مما أفعل , لأخذ العلم ؛ أنا لا أتجاوز معها , كل مافي الأمر أنني أطمئن عليها و أساعدها في فهم مايصعب عليها دراسته , ماذا ظننتني أفعل ؟

ـ أليس عندكَ طريقة أفضل للتحدث مع أخيكَ الأكبر منكَ بعشر سنوات ؟ قالها أيمن وعيناه تنهر أخيه .

ـ أنا أسف , لكن لن أتحمل أي تقليل من علاقتي برهف ... قالها أدهم وهو ينظر للأرض .

تنحنح أيمن ثم قال :
ـ لا عليكَ , أسأل الله لكما التوفيق , همّ بالرحيل لكن شدّه أدهم من ذراعه و عانقه ثم قبّل رأسه قائلا :
ـ لا تغضب مني , أرجوك .

ابتسم له أيمن و قال :
ـ لا تقلق , أنت أخي وابني .

نظر له أدهم وقال :
ـ لقد عوضتني فقد أبي رحمه الله ولازلت تفعل , أسأل الله ألا يحرمني إياكَ .

عاد أيمن أدراجه والذكريات تحاصر عقله , لقد طرق أخاه على وتينه بمطرقة الإشتياق , فحرك لهيب الذكريات الخامدة أو التي كان يظنّها كذلك , يحبها و يتعذب ببعدها لكنّه أقسم على قلبه ألا يُفتح بعدها .

عادت سيادة من إحدى جلساتها النسائية برفقة الجارات , وجدته شاردًا , ألقت السلام ولم يسمع , فأعادت إلقاءه بصوت أعلى , انتبه لها ورد ... لكنّها لم تشعر بالراحة حيال ذلك , اتجهت نحوه والبسمة على ثغرها , ربتت على كتفه قائلة :
ـ من أخذ عقلك , أيها الغالي ؟

التفت لها ضاحكًا وقال :
ـ من سيأخذ قلبي وعقلي سواكِ , يا أجمل نساء الأرض , التقط يدها وقبّلها , عندما رآها أدهم , دخل الغرفة وقال :
ـ حمد لله على سلامتكِ يا أمي .

ـ سلمكَ الله ياولدي ... قالتها سيادة بينما استأذن أدهم للخروج .

نظرت سيادة لأيمن وقالت :
ـ ما الخطب ؟

عقد أيمن جبينه وابتسم قائلًا :
ـ أيّ خطب ؟

ضيّقت سيادة عينيها قائلة :
ـ مالذي حدث بينكما قبل مجيئي ؟

لوح بكفه قائلًا :
ـ كنّا نتسامر يا أمي .

ـ عينيك تقول الكثير يا ولدي , وكذلك أخيك الذي هرب لدى رؤيتي ... قالتها وهي تسأل عينيه .

ربت أيمن على كفها قائلًا :
ـ هو ليس أخي فقط ؛ بل ابني كذلك ... تابع وهو يبتسم : ألا تذكرين عندما كنت أحمله لينام على ذراعي ؟ تابع وهو يستعيد ذكرياته : لعلكِ نسيتي أول كلمة نطقها ؟

ـ كانت اسمك ياحبيبي ... قالتها سيادة وهي تتذكر فانسالت من عينيها العبرات , ثم تابعت :
ـ تحملت الكثير وكبرت قبل أوانك بعد موت أبيك , تحملت الصعاب لأجلنا ... تنهنهت وهي تقول :
ـ حتى حبك حُرمت منه لضيق ذات اليد , كم أود أن أراك سعيدًا حتى لو كلفني الأمر روحي ... طوقها بذراعه قائلًا :
ـ بل أنا من يفديكِ بروحه يا أمي , أنا أسعد إنسان طالما محاط بدعواتك .

.....

كل الثورات تبدأ بشرارة منبعها التمرد , تسبب فوضى عارمة داخل النفوس فتبعثر الأرواح إلى أشلاء , لكن هل من سبيل إلى غلق المنبع لذرىء مخاسره ؟ ... قد تكون الإجابة المرضية لا ... لكن ماذا لو كان هناك حوار مثمر يُفضي لإطفاء الشرارة فينغلق على إثرها المنبع ؟ ...

كان جمال يتوسط المكتب مسندًا مرفقيه أعلاه , ينصت لمازن باهتمام , فقد قصّ عليه حواره مع والدته منذ قليل ... انتهى مازن ليقطع صمت والده قائلاً : لم أسمع رأيك ؟

ابتسم له أباه قائلًا :
ـ أنا هنا من يريد سماعك , أود أن أعلم ما أردته بالضبط ولم أعلمه حتى الآن.

تنحنح مازن ثم قال :
ـ أخشى ألا تتفهم رغبتي , وتفعل كما فعلت أمي .

ـ إحكِ لي و دع الحكم للنهاية .... قالها جمال وهو يتفحص قسمات وجه مازن .

ـ هناك أمران , أود مناقشتهما معك ... تابع وهو ينظر لأبيه : أولهما أمر البيت الذي تود بناؤه .
سأله جمال :
ـ وماذا فيه ؟

صمت مازن هنيهة ثم قال :
ـ لا أودّ المكوث معكما بعد زواجي .

ـ لك ذلك ... قالها جمال , فتهللت أسارير مازن و انبثقت الفرحة من عينيه , لأنه لم يكن يعلم أن الأمر بهذه السهولة , فقد تحقق طلبه الأول دون عناء , أشار له جمال قائلًا :
ـ ما الأمر الثاني ؟

تنهد مازن قائلًا :
ـ تعلم أنني أحب الرسم مذ كنت صغيرًا .

أومأ جمال بنعم لموافقة ولده , فتابع مازن :
ـ إنها موهبة , لكن .

ـ أكمل يا بني أنا أسمعك .. قالها جمال وهو يبتسم ليُطَمئِن ولده .

حكّ مازن مؤخرة رأسه قائلًا :
ـ لطالما تمنيت أن أحترف تلك الموهبة و أصقلها بالدراسة المخصصة لها.

نظر جمال لعيني مازن في عدم استيعاب لما يقول , فسأله :
ـ ماذا تقصد ؟

أشاح مازن ببصره بعيدًا عنه ثم قال :
ـ أقصد أنني لم أهوى أبدًا دراسة الهندسة ولا أريد العمل بها .

عقد جمال مابين حاجبيه ثم قال :
ـ ألم تتذكر ذلك إلا الآن , وأنت على أعتاب التخرج ؟

هزّ مازن رأسه نافيًا ثم رد :
ـ بلى ؛ حدثت أمي في الأمر من قبل لكنّها رفضت الفكرة , وأمرتني بعدم طرحها أمامك حتى لا تغضب مني , لا سيّما أنك تطمح لأساعدك بالشركة .

غضب جمال لسماع ذلك لكنّه حاول ألا يظهر ما اعتراه , لم يود نقدها أمام ولدها حتى لا يقلل من شأنها , بادره قائلاً :
ـ لن أُلم والدتك فهي تعلم جيدًا كم كابدتُ من أجل تلك الشركة , وفي النهاية سيصبح كل شيء لكَ و لأختك , لذا تمنينا أن تقوم على حماية مالك وكذا أمنية. لامه متابعًا :
ـ لا أظن أن هذا مبرر كافٍ لعدم إخباري .

أشار مازن بيده قائلًا :
ـ لقد أخذت أمي منّي وعدًا بعدم فتح الموضوع .

وضع جمال كفه على صدغه قائلًا :
ـ ومالذي تنوي فعله الآن ؟

ـ امممممم , بصراحة ... قمت بالتسجيل بإحدى الأكاديميات الخاصة بالفنون الجميلة ... قالها مازن وصمت , فقال له جمال :
ـ لا أظنُّ ذلك يعارض دراستك .

أومأ مازن بنعم قائلًا :
ـ نعم ولكن ... لا أشعر بالرغبة في العمل بالشركة بعد تخرجي .

طرق جمال على المكتب قائلًا :
ـ ما رأيك في أن أعقد معك صفقة ؟

ـ صفقة ؟ سأله مازن بنوع من الفضول محاولًا تخمين نوع تلك الصفقة .

.....

العتاب أجمل ما يقدمه المحبين لبعضهم للمحافظة على العلاقة , لكن ماذا إن جاء بالوقت الخطأ ؟ أليس تجنبه حينها يكون القرار الأصوب ؟

مرت أول مقابلة لذلك العروس المجهول طباعه , لكن لا أعلم معنى نظراته التي كلما التقت عيناي بعينيه وجدتها , نظرات غريبة وكأنّه يود اخباري شيئًا أجهله رغم أنني أجزم عدم لقائنا قبل ذلك و لا أذكر أنني رأيته قدرًا حتى , يمكن لأنني أطالع الأرض و أنا أمشي , لكن هل يعقل أن يكون رآني قبل ذلك ؟

ـ هه , اعترف لي بعد مضي ثلاث سنوات ... لم يتذكر حتى انهرت أمامه ...بترت قراءة سطور مفكرتها وهي تحدث نفسها وتتذكر ما باح به آدم ولم يغير شيء.

تذكرت أمر الهدية فاتجهت نحو الكيس وقامت بفتحه وأخرجت محتواه , انبهرت من ذوق سحر الذي لطالما راق لها , لكنّها شعرت بتوجس لا سيّما أنها تود أن يصالحها آدم أولًا .

أخذت الفستان ذو اللون الأحمر اللامع المزركش ببعض اللآلىء البراقة , كان مفتوحًا من صدره و ظهره ومنسدلًا بشكل أوسع بعد منطقة الخصر , فبدا وكأنّه فستان من فساتين

الأميرات , عادت للكيس لتجد قنينة عطر و بعض مستحضرات التجميل ، دفعها فضولها لتجربة الفستان , وباقي الأشياء , وما إن فعلت ورأت نفسها بالمرآة حتى قالت : يا إلهي , إنه رائع حقًا ... أخذت تدور وتدور كما الطفلة فتطير أطرافه حوالها .

عادت للمرآة تنظر لشعرها لتصففه , ووجها الذي تزين ببعض المساحيق , حدثت نفسها قائلة :

ـ لم أكن أعلم أنني جميلة هكذا .... أووه كم أحبك ياسحر

فجأة سمعت من دخل لتوه من الشرفة , نسيت أمره تمامًا , أخذت تركض في الغرفة كالمجنونة ثم اختبأت خلف الباب ...عندما ولج آدم من الشرفة اشتم رائحة العطر الذي تخترق أنفه بمكتبه في الشركة , فقال بدون أن يشعر :

ـ شمس ! ... سمعته أمنية وهي خلف الباب فتمتمت قائلة :

ـ من شمس ؟

ـ سار خلف رائحة العطر حتى وصل إلى غرفة النوم , وقف على الباب , نظر لملابس أمنية الملقاة على السرير , علب المساحيق المنثورة أمام المرآة , و قنينة العطر , اتجه نحو القنينة التقطها ثم شمها وهزّ رأسه موافقًا تخمينه وقال :

ـ نعم هي .

مشط الغرفة بعينيه يبحث عن أمنية التي حاولت جاهدة كتم أنفاسها لكنّه في النهاية اكتشف أمرها , اتجه نحو الباب و جذبه نحوه , فوجدها واقفة وقد أخفت وجهها خلف كفيها , ضحك عندما رآها ثم سألها :

ـ لماذا اختبأتِ هنا ؟

لم ترد , فأمسك كفيها و أبعدهما عن وجهها الذي كان يشع حرارة وكأنّه قطعة من الشمس فنظرت للأرض , مشط جسدها بتلك الملابس الأنيقة , رفع وجهها بيده وعيناه تلمعان ثم همس قائلًا :

ـ تبدين جميلة , من أين حصلت على تلك الأشياء ؟

ـ سحر أهدتني إياها وفضولي دفعني لتجربتها ... قالتها وابتعدت عنه , فجذبها إليه بقوة , حاولت التملص قائلة :

ـ ماذا تريد منيّ ؟

ضمّها إليه وابتسم بخبث قائلًا :
ـ حقًا ؟ لا تعلمين ما أُريد .

نظرت لعينيه بعدم استيعاب .. عادت لصمتها , نحى إحدى خصلات شعرها المنسدلة على عينيها وقطع صمتها قائلًا :
ـ لما تنظرين لي هكذا ؟

ـ لم أعد أفهمك ياآدم .... قالتها وهي معلقة عينيها بعينيه .

قطب جبينه سائلًا :
ـ لماذا ؟

ـ لأن من يراكَ منذ ساعات لن يصدق ماتفعله الآن ... تابعت :
ـ ها أنا أمامك , اصفعني... ازدرد ريقه لسماع ذلك , ولم يعلق .

تركها وخرج إلى الصالة , جلس على الكرسي و صاح غاضبًا :
ـ هكذا أنتِ دومًا ؛ تفسدين اللحظات اللطيفة .

اتجهت نحوه قائلة :
ـ لم نتعاتب بعد , لننتظر لحظات لطيفة .

رفع سبابته قائلًا : إلا أهلي , لن أتحمل إهانتهم .

ـ لماذا لم تسمعني ؟ تابعت وهي تشير بيديها نحوه : هل تجهل طباع أختك الحادة ؟

تأفف قائلًا : أنتِ تعشقين الكآبة ,وكثرة اللوم و العتاب .

جثت على ركبتيها أمامه , مسندة ذراعيها على ركبتيه قائلة :
ـ من سيداوي جرحي ؟

مط شفتيه قائلًا :
ـ الأيام .

تنهدت قائلة : قد تفعل مع جروح الجسد , لكن قلبي هو من جُرح .

زفر قائلًا :
ـ ها قد عدتِ للقراءة .

ابتسمت قائلة :
ـ ما أطلبه منك يُطلب من أيّ إنسان يتبع دين محمد , أولست تتبع دينه ؟

ـ ماذا ؟ سألها مستنكرًا ماترمي إليه .

أشارت بيديها ليسمعها ثم قالت :
ـ ألم يكرّمنا الإسلام ؟ أوليست (رفقاً بالقوارير) هي آخر وصايا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

رفع أحد حاجبيه قائلًا :
ـ وأنتِ من سيعلمني الدين ؟

هزّت رأسها نافية وقالت :
ـ أنا فقط أذكركَ , صدقني .

ـ وهل النساء في عصر الرسول كانوا متمردات كنساء هذا العصر ؟ سألها بامتعاض.

عقدت جبينها قائلة :
ـ ما قاله الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوكله للعالم حتى قيام الساعة , ولم يحدد فئة بعينها , بل هو للعالمين ... تابعت سائلة :
ـ وهل رجال اليوم كصحابة الرسول ؟

أبعد يديها عن ركبتيه والتقط جواله ومفاتيحه ثم قام متجهًا نحو الخارج , جلست أمنية القرفصاء على الأرض و وضعت يدها على خدها , تفكر في ذلك الآدم الذي لا تعرف كيف تعامله ؟ ذكرها عقلها بالاسم الذي سمعته قائلًا :
ـ أراكِ انشغلت بموقف آدم ونسيتِ ما قاله حين دخل من الشرفة ؟ لقد قال شمس .. هل كان يحدث نفسه أم كان يراسل أحد ما ؟ تنهدت قائلة :
ـ حقًا لا أعلم ... نفضت عنها الأفكار وقامت تبحث عن جوالها .

.....

استقل سيارته ولا يعلم أين ستكون وجهته , ظل يتجول في الشوارع , يفكر بما حدث , هل كان عليه أن يسمعها ؟ هل هي تمادت لتملي عليه شروطها قبل أن يمسّها ؟ حدث نفسه قائلًا :
ـ أنا رجل لابد أن تتمنى قربي , لا تملي عليّ شروط ...هه قال نتعاتب قال ! لقد فقدت عقلها وتظن ثقافتها ستجذبني نحوها .

فجأة علا رنين هاتفه ليخرجه من شروده , تخلله التوتر ما إن رأى الاسم , لكنه بالنهاية رد .

الفصل العاشر

(لقلبي أنصتِ)

.....

أحبكِ ولكن ...

لا تعاتبي

ودعِ اللوم ...

ولقلبي أنصتِ

يمر الوقت ...

وأنتِ كما أنتِ

لطبعي وعقلي..

دومًا تجهلي

أريد الوصل..

وأتوق للحْنِهِ

أتيت إليكِ ...

والشوق في عيني

لكنكِ أبيتِ..

إلا أن تبعدي

ولِما يضيرك

تتذكري

ونسيتي أنني رجل

شروطك عليّ

لن تنطلي

وهل في الحب

قيود للأسر ؟

أم في العشق

أوامر بالهجر ؟

.....

الرغبة بجعل النفس محط أنظار الجميع ليس قاصر على جنس بعينه وإنما هو حاجة بشرية لتعويض النقص الراسخ بين جنباتها ... ويبقى السؤال الأهم من سيتمكن من تجاوز تلك الرغبة بسلام ؟

استقل سيارته ولا يعلم أين ستكون وجهته , لا يريد الذهاب إلى المقهى القريب بعد أن رآه هيثم مع شمس , ظلّ يتجول في الشوارع , يفكر بما حدث , هل كان عليه أن يسمعها ؟ هل هي تمادت لتملي عليه شروطها قبل أن يمسها ؟ حدث نفسه قائلًا :

ـ أنا رجل لابد أن تتمنى قربي , لا تملي علي شروط ...هه قال نتعاتب قال ! لقد فقدت عقلها وتظن ثقافتها ستجذبني نحوها ، رن هاتفه , تخلله التوتر ما إن رأى الاسم , لكنه بالنهاية ردّ :

ـ أهلًا أنسة شمس .

ردت عليه بحنو :

ـ كيف حالك يا آدم ؟

قال ممتعضًا :

ـ ألا تظنين أن الوقت متأخر لمهاتفتي في تلك الساعة المتأخرة ؟

ازدردت ريقها قائلة :

ـ أنا آسفة , لكن وددت أاا .

زفر قائلًا :

ـ أنا اسمعك .

ـ وددّت أن أعلم سبب رفضك للقدوم لحفلة ذكرى مولدي ... قالتها وهي ترجوه أن يعدل عن قراره .

تأفف قائلًا :
ـلقد قلت لكِ مسبقًا , عندي موعد هام .

سألته بنوعٍ من اللوم :
ـ لماذا تغيرت معي ؟

ضحك ساخرًا :
ـ ليس هناك شيء يجمعنا لأتغير , آنسة شمس .

ـ ولكن ... قبل أن تكمل قاطعها قائلًا :
ـ أنا رجل متزوج و لديّ طفلة , أظنّك تعلمين ؟

ـ بلى ؛ أعلم ... لكنني عهدتك أكثر لطفًا , أنت أحد أسباب السعادة لي في الشركة , صدقني .

كانت لجملتها الأخيرة وقع مختلف على نفس آدم , شعر بالارتياح و الغرور لأن هناك أنثى غير أمنية تسعى إليه , حدثه عقله قائلًا :
ـ بربك , أليس هذا أجمل شعور ؟

حدثها بلين قائلًا :
ـ صدقيني مشغول , ولولم أكن كذلك لكنتُ حضرت .... تابع ضاحكًا :
ـ من يفوت فرصة كهذه ؟

ضحكت شمس ملئ فيها وكأن ما قاله أعلن إذعانه لرغبتها , قالت :
ـ ما قلته كفيل بقلب حال ليلتي رأسًا على عقب .

ـ حقًا ؟ ... سألها بحماس

تتابعت ضحكاتها التي سلبت لبّه , ثم قالت :
ـ بالطبع ياعزيزي , كان يومي بائسًا بعد ما حدث في الصباح , لكن كونك عدت كما كنت فذلك يسعدني كثيرًا ... نتحنحت متابعة : أنتَ لي أكثر من صديق .

ـ يشرفني أن أكون كذلك ... قالها وقلبه يتراقص من فرحته بأنه محط اهتمام إحداهن , من ترنو له بدون شروط , تسعى له , تهتم لأمره ... آه من ذلك الشعور الذي يدغدغ المشاعر

ويقلب حال صاحبه رأسًا على عقب , فيضيع على أثره أي تقدم يمكن إحرازه لإصلاح تلك الشخصية .

.....

عندما تتحطم القلوب , تُنهك الأرواح , كل ماعلينا فعله حينها هو البحث عن ذاك القلب الذي لن يمل سماعنا ولن يفتر تقفي أخبارنا للإطمئنان علينا , وهل هناك أفضل من ذلك ؟

وجدته أخيرًا على الكمود , أخذته بيدها المرتعشة ثم ضغطت الرقم وانتظرت الرد , مرت الثواني وكأنها ساعات , حتى ردت أخيرًا ومع ذلك صمتت عوضًا عن إجابتها , فبادرتها سحر :

ـ أمنية , هل أنتِ بخير ؟

أخذت تنظر لنفسها عبر زجاج النافذة المطلة على الشرفة , وما إن تذكرت كيف نحى آدم يديها بعيدًا عنه وغادر البيت في تلك الساعة , انفجرت باكية , قالت وسط شهقاتها :

ـ لقد أصبحت رخيصة حد الإمتهان ... استكملت نحيبها .

ـ اهدئي حبيبتي لأتمكن من سماعك , ما الذي حدث ؟... سألتها سحر بشيء من القلق ..

قصّت عليها أمنية ماحدث , ختمت حديثها قائلة :

ـ ليتني لم اتبع مانصحتني به .

ـ لكنكِ بالفعل لم تعملي بنصائحي ... قالتها سحر فتوقفت أمنية عن البكاء سائلة :

ـ ماذا ؟

تنهدت سحر قائلة :

ـ لم يكن هذا هو الوقت المناسب للعتاب يا حبيبتي .

عادت أمنية لبكائها قائلة :

ـ أنتِ كذلك يا سحر تلومينني على العتاب .

ـ اهدئي , أرجوكِ ... قالتها سحر منزعجة مما حدث لصديقتها ...

ـ يريد زوجة جميلة بلا شعور , لا عتاب , لا نقاش , لا اعتراض .. تابعت أمنية وسط نهنهاتها :

ـ أنا أكره الزواج , أكرهه و أكره نفسي الضعيفة التي لم تظهر إلا هنا ...

ـ لأجل خاطري اهدأي ... تابعت سحر قائلة :
ـ لا يفهم معظم الرجال لغة العتاب , يظنونها كآبة .. لذلك غضب منك زوجك .

ـ وماذا عنّي ؟ ألا يحق لي أن أغضب ؟ سألتها أمنية , ثم تابعت :
ـ لقد انتظرت أن يصالحني لكنه لم يفعل .

ـبلى ؛ فعل ... قالت سحر فتوقفت أمنية عن البكاء قائلة :
ـ لا , لم يفعل .

سألتها سحر :
ـ ألم يمدحك , ويطلب قربك ؟

أجابت أمنية : بلى , فاستطردت سحر :
ـ هذا هو أسلوبه في التصالح لكنكِ صددتيه بعتابك .

تلعثمت أمنية قائلة :
ـ ومتى سيعلم أنه أخطأ في حقي ؟

ضحكت سحر قائلة :
ـ تتقبلي صلحه أولًا , ولتعلمي أنه لا يوجد رخص أو إمتهان بين الزوج وزوجته .

صمتت أمنية هنيهة ثم قالت :
ـ إنه عنيد وصعب المراس , لقد أخطأت بالزواج منه .

ـ لا تقولي ذلك , هو نصيبك واختيار الله لكِ ... تابعت سحر قائلة : تذكري ريم التي لابد أن تحيا بوئام بينكما , هي الآن صغيرة لكنها ستكبر وتفهم كل شيء.

ـ لقد تعبت من كثرة التفكير بكيفية التعامل معه , هل هو يفعل ذلك ؟ قالتها أمنية بشيء من الألم .

ـ لعله يفعل , لكنكِ لا تعلمين .... تابعت سحر :
ـ وهن علاقتكما نَجم عن قصوركما أنتما الإثنين , هو أخطأ لكنك أيضًا مخطئة , اعذريني ان قلت ذلك , لابد من التدرج في إصلاحه .

زفرت أمنية بضيق قائلة :
ـ أخشى أن يكون على علاقة بغيري .. لقد سمعته يقول : شمس .

سألتها سحر بخبث :
ـ هل تغارين عليه ؟

ردت أمنية بامتعاض :
ـ مزاجي لا يسمح بالمزاح ... ردت سحر :
ـ لكنني لا أمزح , صدقيني ، أنتِ تحبيه يا رفيقتي , بخصوص شمس فهو يحتمل أن يكون اسم رجل , لعله زميله بالعمل أو صديقه .

توترت عندما سمعت دوران المفتاح في الباب , فأنهت المكالمة , ظلت واقفة تنظر من نافذة الشرفة , عندما وَلج آدم و رأها واقفة ممسكة الهاتف , ظنّ أنها حاولت مهاتفته بنفس الوقت الذي هاتفته فيه شمس , شعر بالحرج حيال ذلك , ازدرد ريقه , سألها :
ـ لماذا تقفين هكذا ؟

لم ترد عليه , فاقترب منها و أمسك كتفيها لتستدير له وما إن فعلت , سألها :
ـ لماذا تبكين ؟ ... تابع وهو ينظر لعينيها الدامعة وقد رق لحالها كثيرًا :
ـ أولستِ من أراد ذلك ؟

هزت رأسها نافية , فقطب جبينه و ابتسم قائلًا :

ـ لم تفسدي الليلة فقط , بل فعلت أيضًا بمساحيق وجهك التي اختلطت بدموعك.

ضحكت أمنية , فأخرج من جيبه منديلًا ورقيًا , وقام بمسح وجهها , ثم قال :
ـ تعلمين ! تبدين أجمل بدونها.

ـ حقًا ؟ سألته أمنية وهي تنظر لعينيه , فأومأ بنعم , غمرتها السعادة لاستئناف صلحه مجددًا , سألته بدلال :
ـ هل تحبني يا آدم ؟ ... أومأ برأسه موافقًا .

أشارت بلا وقالت :
ـ قُلها .

ضحك قائلًا : أحبكِ .

هزّت رأسها نافية ثم قالت : أرفقها باسمي الذي تأبى نطقه .

ـ أحبك يا أمنية ... قالها ثم غمرها بدفئه وقد شدّ وثاقه حولها ليغرقها بعناق لخص معنى العشق بين دفاته وقد استسلمت له مستشعرة صدق تلك النبضات التي تطرق صدره هاتفة باسمها .

.....

مهما حاولنا تناسي ذكريات موجعة جمعتنا بأحدهم سيأتي من سلالته من يعيد الماضي بحذافيره ليذكرنا أن الأيام دول تسلم الأدوار من الأباء للأبناء ...

تنفس الصبح , ناثرًا أشعة الشمس الذهبية في كل مكان , ليعلن ميلاد يوم جديد مليء بالحكايا و الأحداث التي ستنفرج عن الغيب لتقتسم جزءًا من حياة أصحابها .

كانت واقفة أمام المزينة تدندن بأغنيتها المفضلة , تضع الحمرة كخطوة أخيرة لإنهاء رسم مكايجها , رتبت هندامها ثم التقتطت حقيبتها وخرجت من الغرفة باتجاه المطبخ لتشرب عصير قبل الذهاب للشركة , كانت رنا قد خرجت لتوها من دورة المياه وماء الوضوء يقطر من وجهها , نظرت لشمس قائلة :
ـ سبحان مغير الأحوال .

رفعت شمس أحد حاجبيها قائلة :
ـ لا تعكري صفو مزاجي يا رنا .

مطت رنا شفتيها قائلة :
ـ لقد أصبحت حياتنا معكِ رهن مزاجك يا شمس ... أشاحت شمس بيدها وذهبت لتحضر كوب العصير , فوجدت والدتها تعد الفطور , صبّحت عليها لكنها لم ترد , بل تركت ماكانت تعده وخرجت من المطبخ , امتعضت شمس وحدثت نفسها قائلة : ـ حتى أنتِ ياسعاد ! هل اتفقتما عليّ ؟

انشغلت سعاد بترتيب البيت , لكن شمس اتجهت نحوها و وقفت أمامها , فأشاحت سعاد بوجهها وتأففت قائلة :
ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

عقدت شمس مابين حاجبيها قائلة :
ـ هل رأيتِ شيطان لتقولي ذلك ؟ ... لم ترد سعاد وتابعت ماكانت تفعله .

انتهت رنا من صلاتها واتجهت نحو شمس معاتبة :
ـ ما الذي تريدينه يا شمس ؟ ألا يكفيكِ ما فعلتيه بالأمس ؟

ـ أنا المخطئة لأنني أحاول مصالحتها ... تابعت بصوت أعلى :
ـ هل هكذا تتقبل اعتذاري ؟

قلّبت رنا كفيها سائلة :
ـ وأين ذلك الاعتذار ؟ تابعت وهي تشير نحوها : لم تكلفي نفسك عناء نطقه حتى .

ـ لعلّها تريد منّي شيئًا ... قالتها سعاد وهي ترتب وسائد الأريكة .

غمزت شمس قائلة :
ـ يعجبني ذكائك يا سعاد ... تنحنحت متابعة : تعلمين أن ذكرى مولدي اليوم و ... قاطعتها رنا قائلة :
ـ هل تقبلين على نفسك ما قلتيه لأمي بالأمس ؟ كيف تجرؤين على طلب مساعدتها بعد ما فعلتيه ؟

اتجهت شمس لسعاد و قبّلت جبينها ثم أمسكت كفها راجية :
ـ ألن تسامحيني ؟ ... تابعت وهي تبتسم : أنا أعلم أن قلبك طيب و ستسامحي .
كانت سعاد واقفة أمامها بوجوم , في حيرة من أمر ابنتها التي تتقلب أحوالها بين جنبات الليل والنهار , أعادتها الذاكرة لسنوات خالية حينما كان يفعل والدها ذلك , يغضب , يهين ويضرب ثم يعود وكأن شيئًا لم يكن , فقط عندما يحتاج منها شيئًا ... وهاهي شمس تعيد ماضٍ حاولت سعاد نسيانه بل إخفاؤه من ذاكرتها لكن أنّى له ذلك في وجود ابنة أبيها .

.....

لقاء الأحباب أروع ما تقدمه الحياة , لكن ماذا عمن تلاقت بشقيق لخّص معاني الإخلاص في شخصه ليخبرها أن الأخوة أسمى معاني الحب ؟ ...

انتهت من التسوق حاملة الأكياس , رنّ هاتفها ليعلن انتظار مازن لها , خرجت من المتجر , تنظر يمنة ويسرة حتى وجدت سيارته , ما إن رآها تحمل الأكياس حتى ترجل من السيارة صوبها ليساعدها ...

ـ تبدين سعيدة اليوم ؟ سألها مازن وهو يبتسم .

ردت عليه أمنية والبسمة على شفتيها :
ـ وأنت كذلك .

ـ ليتكِ أحضرتِ ريم , فقد اشتقت لها .. قالها مازن وهو يصف الأكياس بصندوق السيارة .

ردت عليه أمنية :
ـ وهي أيضًا اشتاقت لكَ , لكنني تركتها مع جدتها لأتمكن من التسوق .

ـ من قال أن التسوق يغير نفسية المرأة .. صادق لا محالة ... قالها وهو يستأنف القيادة .

ضحكت أمنية ومازحته :
ـ من قال ذلك ؟

حكّ مازن رأسه قائلًا :
ـ لا أعلم ؛ فليكن أنا , أولست مهمًا في هذه البلد ؟

ـ بلى ؛ أنتَ الأهم على الإطلاق ... تابعت وهي تربت على كتفه :
ـ حان وقت فتح التحقيق ، قل لي أين كنت ؟ ولماذا ؟ وقبل ذلك عليك أن تحكي لي سر سعادتك اليوم .

أشار بيده قائلًا :
ـ على رسلك , لعلكِ تتابعين كونان مع ريم ؟

ضحكت أمنية على مزحته , فبادرها قائلًا :
ـ لقد كان لديّ موعد في أكاديمية الفنون الجميلة القاطنة على بعد عدة أمتار من هنا ... لقد لخصت إجابات أسئلتك في تلك الجملة ...

ضيّقت أمنية عينيها قائلة :
ـ هل تمزح معي ؟

ضحك مازن قائلًا :
ـ لقد توقعت ردة فعلك تلك ... استكمل وهو يتابع الطريق :
ـ لقد قمت بثورة سلمية بالأمس .

قطبت أمنية جبينها قائلة :
ـ لِما كل ذلك ؟ في جميع الأحوال لن يحدث تعارض بين الدراستين .

قال مازن وهو ينظر أمامه صوب الطريق :
ـ أعلم ذلك , لكنني أردت التمرد لأرى ما الذي يمكنهما فعله بعدما أخبرتني أمي بالأمس عن نيّة أبي بعمل بيت كبير ننتقل إليه لأتزوج معهما .

اتسعت حدقتا أمنية في عدم تصديق قائلة :
ـ لا ؛أنا أحب بيتنا كثيرًا , أرجوك أطلب من أبي يعدل عن قراره .

ـ حدث بالفعل , لا تقلقي ... تابع وهو يشير بيده : عقد أبي معي صفقة رائعة , وعدني بعمل مرسم و معرض لي , بالإضافة لمساعدته بالشركة , الحوار مع أبي مثمر يا أمنية لكن مشكلته الإنشغال .

غمزت له أمنية مازحة :
ـ وأين ستعيش حال زواجك ؟

ضحك مازن قائلًا :
ـ سيشتري أبي لي شقة مميزة بإحدى الأحياء الراقية .

ابتسمت له أمنية قائلة :
ـ هنيئًا لك , لقد وجدت أخيرًا الطريق المفضي للسعادة , سعدت لك كثيرًا .

التفت لها مازن سائلًا :
ـ الحمد لله , لكن ماذا عنكِ , هل وجدته ؟ أم لازلتِ تبحثين عنه ؟

ازدردت ريقها , ولم ترد فبادرها :
ـ ألا تودين العمل بالشركة أيضًا ؟

زمّت عينيها قائلة :
ـ ولماذا أفعل ذلك ؟

ـ لحماية مالك , كما قال أبي أمس ... تابع : فهو يتمنى ذلك .

ـ لا أريد , كما أن آدم لن يوافق .... استكملت قائلة :
ـ بصراحة أنا أتمنى المضي قدمًا في الدراسات العليا .

ـ ومالذي تنتظرينه ؟ ... تابع محفزًا إياها : كلنا سندعمك , لكن قومي بأول خطوة .

ـ لا حرمني الله منكم ... قالتها ثم نظرت للأبنية العالية بالحي من نافذة السيارة و قالت :
ـ لقد أخذنا الكلام ونسيت إخبارك بوجهتي , وها نحن اقتربنا منها كثيرًا , أشارت بسبابتها قائلة :
ـ بعد شارعين من تلك البناية .

ـ لمن سنذهب ؟ تابع ضاحكًا : لا يُعقل أن أكون سائقكِ الخاص ولا أعلم إلى أين ؟ و إلى من سأذهب ؟

ضحكت قائلة :
ـ سأخبرك , لكن لا تقلل مما أود فعله ... أومأ برأسه قائلاً :
ـ لكِ ذلك .

استطردت قائلة :
ـ جئت لمساعدة امرأة فقيرة , تعمل بخدمة البيوت , كنت قد وعدتها بالقدوم لأجلها , وسأفعل كلما سنحت لي الفرصة بإذن الله .

ابتسم مازن قائلًا :
ـ وفقكِ الله لما يحبه ويرضاه , فلتسمحي لي بمرافقتك في كل مرة تأتين لها ... توقف عندما أشارت له أمنية , قام بصف السيارة ثم ترجلا حيث ستكون وجهتهما .

.....

لكل منّا طاقة لتحمّل الصعوبات , لكن ماذا إن كانت الصعوبة قَدَر تمثل في زوجة تأبى أن تعترف بالخطأ وترفض سماعه ؟ هل حينها ستتسع طاقتنا لتحمل المزيد في صمت ؟ أم سنتمكن من البوح والتمرد ؟

قامت من نومها , لم تجده , خرجت من الغرفة باتجاه غرفة ولديها , فوجدته يقوم بمساعدة الولدين على ارتداء ملابسهما , وقفت أمام باب الغرفة , فركت عينيها ثم رمقته بنظراتها تسأله :
ـ ماذا تفعل ؟

ـ كما ترين ؛ أجهزهما للخروج معي ... قالها وهو يتلاشى النظر لها

تأفّفت قائلة :
ـ وأين ستذهبون ؟

قال :
ـ إلى أمي .

أشاحت بيدها و عقدت جبينها قائلة :
ـ اذهب وحدك , هل جننت لتأخذهما بدون علمي ... تابعت وقد ارتفع صوتها :
ـ ماذا لو لم أكن استيقظت الأن ؟

ـ كنت سأذهب إليكِ و أوقظكِ لأخبركِ بنفسي .... تابع هو يمط شفتيه :
ـ ظَننتكِ ستقولين سآتي معكم .

صرخت قائلة :
ـ ألن ينتهي فيلم الكآبة هذا مذ بدأ من الأمس , ما الذي جرى لك ؟

زفر محمود بضيق قائلًا :
ـ اخفضي صوتك عندما تتحدثين معي .... وقف بعدما انتهى من تجهيز ولديه ثم قال : فيلمك بدأ منذ الأمس ؛ أما معي بدأ مذ تزوجتك .

صفقت بيديها ثم قلبتهما قائلة بصوتٍ عالٍ :
ـ لم أضربكَ على يديك لتفعلها , هل كنت نائم حينها ؟

ـ لم تكوني هكذا ... تابع وهوينظر لعينيها : لقد أحببت نور الطيبة التي ماتت طيبتها بعد زواج أخي من امرأة طيبة وتفاقم الوضع بعد زواج أختكِ من طبيب ثري , أسعى جاهدًا لتحقيق متطلباتك بكل حب لكنّكِ تأبين رؤيته , الحياة بالنسبة لكِ تلخصت في وجود المال أو بالأحرى ما تملكه أختكِ و غيرها ممن تنظرين إليهن , أليس كذلك ؟

ـ ما الذي تهذي به أيها المجنون ؟ ... قالتها وقد اتسعت حدقتاها وانتفضت بها خطوط دقيقة بلون الدماء ، أشار بيده لتهدأ ثم قال :
ـ كلما أردّت التحدث تسكتيني هكذا , لكنّه لن يغير من الواقع شيء صدقيني .

صمتت لأنّه أوقظ الحقيقة التي حاولت جاهدة توريتها , ومع ذلك ظلّت غافلة كل هذه المدة ولا تعلم بأنه كشف أمرها وكانت الحقيقة واضحة كما الشمس أمام عينيه .

قطع صمتها قائلاً :
ـ ألن تغيري رأيك يا نور وتأتي معنا ؟

هتفت به قائلة :
ـ اتركني وحدي طالما خططت وحدك .

ـ مالذي فعلته أمي لكِ لتمتنعي عن زيارتها ؟ ... قالها وهو يقلب ذراعيه.

أشارت بيديها قائلة :
ـ تحب سلفتي أكثر منّي , رغم أنها لم تُرزق الذكور مثلي .

هزّ محمود رأسه نافيًا ثم قال :
ـ هل فعلتِ كما فعلت هي ؟ ..زوجة أخي التي لطالما ناديتها بأم البنات , تحب أمي و تقوم على رعايتها دون تذمر أو تململ ولم يضغط عليها أخي , تعيش معها معيشة واحدة لضيق حال أخي ورغم ذلك لا تشتكي .. تابع وهو يشير نحوها بسبابته : وافقت على البعد عن أمي طامعًا في أن تتغيري وتحاولي إصلاح علاقتكِ بها , علّ البعد يكسبكِ الحنين , لتعلمي أن أمي لا تطمع في خدمتك لها وكل ماتريده منك وجه بشوش وبضع زيارات تشعرها أنها على بالك , لكنّه لم يحدث , إلى متى سأتحمل ؟ ... جاء "عليّ" وشدّ أبيه من ساقه قائلًا :
ـ ألن نذهب يا أبي ؟ بينما كان "عمر" يتابع ذلك الحوار بإنصات كي يقوم عقله بترجمته بشكل عملي حالما يكبر .

قال ما لديه و أخذ الولدين ثم غادر البيت بعدما صفق الباب خلفه , تاركًا إياها تنظر حولها , تقلب ماقاله في رأسها , تتأرجح كلماته في رأسها فتمزق نفسها إربًا , شعرت بأن الأرض تدور بها فاتجهت نحو أقرب كرسي , صدمتها فيه كانت كبيرة , لم تكن تتوقع أن ذلك المطيع يمكن أن يتمرد أو ينطق بما يَضِيْرَه حدثت نفسها قائلة :
ـ هذا أخر مايقوى عليه , الكلام الذي لاقيمة له ، تذكرت حماتها قائلة :
ـ ليس هناك غيرها أمه اللئيمة التي أفسدته عليّ في الهاتف وستكمل دورها بلقاءه اليوم .

.....

إفشاء الخطايا أصعب من صنيعها , لأنها ستزلزل صورة من قام بها في عيون مريديه , هذا إن تم نقلها لمريديه , لكن ماذا لو انتقلت لحاقديه ؟ أليس هذا الأسوء على الإطلاق ؟

استقل أيمن سيارته , متجهًا نحو جهاز مدينة القاهرة الجديدة لشراء كراسة الشروط الخاصة بقطعة الأرض , وما إن وصل حتى ترجل نحو الداخل , ليجد عددًا لا بأس به ممن يرغبون في ابتياع الكراسة , اتخذ ركن قَصِيّ حتى يأتي دوره لكنّه وجد هناك من يبتسم له , اتجه نحوه ليسلم عليه .

ـ أهلًا أهلًا ... كيف حالكَ يا أيمن ؟ قالها هيثم وهو يبتسم ، صافحه أيمن قائلًا :
ـ بخير , ماذا عنّكَ ؟

ـ الحمد لله .. تابع هيثم : لقد طالت غيبتك يا رجل .

هزّ أيمن رأسه موافقًا ثم قال : لم تطل كثيرًا ؛ فقد عدّت منذ شهرين .

هزّ هيثم رأسه ثم قال :
ـ حمد لله على سلامتك , لكن فترة غربتك ليست كافية لجمع مال تلك الأرض !

ضحك أيمن قائلاً :
ـ ليست لي ؛ إنها لخالي , فقد استأنفت العمل معه بالشركة , لم أحب الاغتراب أبدًا

ـ اممم , وفقك الله , لطالما عهدناك بالطيبة مذ كنا معًا بالدراسة.. تابع هيثم سائلًا: ـ وكيف حال خالك ؟

ـ بخير الحمد لله ... استكمل أيمن وكأنّه تذكر شيء : لقد جئتَ على بالي بالأمس .

ضيّق هيثم عينيه قائلاً :
ـ خيرًا !

ـ كل خير , ضَحِكَ أيمن متابعًا :
ـ كيف تستمتع بوقتك هذه الأيام ؟

فهم هيثم مايرمي إليه أيمن , تخلّله الغضب من كلماته , قال له :
ـ لا تتقمص دور الشريف كي لا يحدث معك كماحدث لصهرك .

قطب أيمن جبينه سائلًا :
ـ من تقصد ؟

مط هيثم شفتيه قائلًا :
ـ آدم جابر .

انتبهت حواس أيمن عندما سمع الاسم , فسأله بفضول :
ـ ماذا حدث ؟

أشار هيثم بيده قائلًا :

ـ أووووه , لقد حدث الكثير أيّها الطّيّب لكنّك بعيدًا عنّا ... قصّ عليه ماحدث وأيمن منصت له باهتمام , لا يود أن يفوت أي جزء من تفاصيل مارآه هيثم , قلبه يتراقص و روحه انتشت بالفرحة , فقد وقع "آدم" أخيرًا تحت أنيابه .

الفصل الحادي عشر

(وعد)

.....

أباري الكون بهواكَ

فقلبي لم يعشق إلاكَ

أغار عليكَ من أنفاس

تُزيد حلاها شفتاكَ

وأخشى عليكَ من طيفٍ

تلتقي بها عيناك

أغار عليكَ من نسمة

تداعبها يمناكَ

أكاد أموت من خوفي

إن غبت عنّي ... فيجافيني سناكَ

يذوب حنيني من الوجدِ

إن لاحت بالأفق

من ترنو لدنياكَ

وأعلم أنك تعشقني

وتحيا بقربي هَنَاكَ

لكنني حقاً أغار

فقلبي لم يعشق سواكَ

.....

طالما وُجد الحب , وُجدت الغيرة ... تلك الغيرة المحمودة التي تشعل لهيب العشق كل آن , لكن الحذر كل الحذر أن تتحول إلى شك , يستوطن القلب فيصبح الهجر عنوانه ...

على مائدة الإفطار كانت تنظر له بعينيها التي تقول الكثير , لم تأكل أي شيء , قطع صمتها قائلًا :

ـ لم تأكلي شيئًا ! هل ستكتفي بالنظر لي هكذا ؟ لم ترد فاستكمل حديثه :

ـ هل عليّ أن أُخَمّن سبب حزنك ؟

أشاحت ببصرها بعيدًا عنه ثم أسندت وجهها على خدها , فزفر قائلًا :

ـ أووه , يبدو أن الموضوع كبير ويستحق كل هذا .. قام من مكانه وذهب ليجلس قربها ثم قال :

ـ أخبريني ما الأمر ؟

تنهدت قائلة :

ـ أنت تعلم كل شيء .

قطب جبينه قائلًا :

ـ صدقيني لا أعلم ... أشار بيديه متابعًا :

ـ لماذا إذن أسألك ؟

أشاحت بوجهها و تتابعت أنفاسها , فنظر لساعة الحائط ثم قال :

ـ هيا أخبريني , تعلمينّ وقتي ضيق .

التفتت له وعينيها مَلأى بالدموع ثم قالت :

ـ وقتكَ ضيّق , أم مشتاق للقياها ؟

ضيّق عينيه قائلًا :

ـ لقياها ؟

انهمرت من عينيها العبرات رغمًا عنها , مسحت عينيها قائلة :

ـ نعم تلك الطبيبة التي تم تعيينها حديثًا بالمشفى .

حكّ رأسه ثم ضحك قائلًا :

ـ تقصدين دكتورة أريج ؟

نظرت له بطرف عينيها قائلة :
ـ ما الذي يستدعي الضحك فيما أقول ؟

ـ أنا أسف ؛ لكنّني أظنّك تبالغين في ردة فعلك التي لا أعلم سببها .... تابع وهو ينظر لقسمات وجهها الجادة :
ـ ما الذي فعلته لتقولي هذا ؟ أنتِ لم ترينها حتى لتحكمي علينا .

ـ بل رأيتها من خلال متابعتها لك عبر مواقع التواصل الإجتماعي و تعليقاتها على منشوراتك بالقلوب و الورود ... قالتها بغضب , عندما تذكرت ما رأته عبر مواقع التواصل , تألم قلبها وكأن هناك وخز يدميه فهي تحبه بجنون وتغار عليه .

ابتسم كامل عندما سبر أغوار روحها وعلم قدره بقلبها , فقال :
ـ هل هذه غيرة ؟ أم شك ؟

ـ ولِما أغار منها ؟ سألته دينا , فأعاد سؤاله عليها رغم أنه يعلم الإجابة :
ـ تغارين عليّ ؟ أم تشكين بي ؟

رفعت أحد حاجبيها قائلة :
ـ لا تغير مسار الموضوع , من فضلك ، نظر لعينيها ثم قال :
ـ لم أغيّره , لابد أن تعلمي أن غيرتك عليّ تسعدني , لكنّها قد تنقلب إلى شك حينها ستنقلب حياتنا رأسًا على عقب , فهي كفيرس قاتل حينما يجد طريقه لقلبك سيقطع كل أواصر العشق التي بيننا .

ازدردت ريقها قائلة بصوت خفيض :
ـ تعلم أنني أثق بكَ كثيرًا لكنّني لا أثق بها ولا أعلم نيّتها , كما أنها تمادت كثيرًا بملاحقتك عبر مواقع التواصل .

صمت هنيهة ثم قال :
ـ وهل وجدتِ منّي إستجابة لتعليقاتها ؟ لم ترد فتابع : أم أن مواقع التواصل كافية لتعلمي ما أفعله ؟ اتسعت حدقتاها ثم قالت :
ـ ماذا تقصد؟ كاد قلبها ينخلع بعدما قال جملته الأخيرة ،أشار بيديه لتهدأ ثم قال :
ـ أقصد أن صاحبة التعليقات بنفسها أمامي طوال اليوم , وبإمكاني أن أحقق لها ماتسعى له بالمشفى , لكنّني لست كذلك , وقد حدث نفس الأمر منذ عامين ؟

ـ أيّ أمر؟ سألته دينا بشيء من الإهتمام .

ـ تقربت إليَّ إحداهنّ.... تنحنح متابعًا :
ـ وقالتها بصراحة : " أنا أحبك ولا يفرق معي أن أكون زوجة ثانية " .

ثارت دينا وانتفضت قائلة :
ـولماذا لم تخبرني حينها ؟ كيف جروأت على قول هذا الكلام تلك المخادعة ؟ استكملت وهي تصرخ : وماذا كان ردك ؟
تنهد قائلًا :
ـ قلتُ لها بالحرف الواحد :" أنا رجل يعشق زوجته ولا يرى سواها , وسأظل هكذا حتى أفنى " .

صمتت دينا هُنَيْهة تستوعب ردّه , شعرت بالسعادة والإمتنان لكن ضميرها أنبها لطريقتها الفظّة معه في الحديث , نظرت للأرض وقالت :
ـ أنا أسفة , لم أكن أقصد التحدث هكذا , لكنني أغار عليك كثيرًا .

ـ وأنا أحب ذلك , لكن احذري أن تتحول لشك .... قالها ثم وقف ومد يده لها لتقوم حيث سيقلها في طريقه إلى عملها ، وقفت أمامه ثم قالت :
ـ ألست غاضب مني ؟ .. هزّ رأسه نافيًا ... فارتمت في أحضانه وقالت :
ـ أنا أحبك كثيرًا .. تابعت وهو يربت على رأسها بحب : لا حرمني الله منك. قاطعهما طرقات أم حمدي على الباب الخارجي فقد أتت لتجالس" جنى " حال غيابهما .

.....

مهما تمكن الشر من القلوب , ستظل غريزة الأمومة في الركن القَصِي محاطة بسياج الأمان كي لا يتعكر صفو طبيعتها , فإن ضلت صاحبتها الطريق لن تحيد هي عنه ...

كانت تتابع ذلك المشهد بكل حواسها , لكن توقف بثّه من أجل فاصل إعلاني , أخذت تسب التلفاز قائلة :
ـ كان على وشك إفشاء سرها , أيّها اللعين ... تذكرت نور , فجالت ببصرها هنا وهناك حتى وجدت الهاتف ،ردّت عليها والحزن يتخلل صوتها :
ـ أهلًا أمي .

ـ ما بال صوتكِ يا ابنتي ؟ سألتها زينب بشيء من القلق .

ـ تشاجرت مع محمود ... ردت نور وهي منزعجة .
سألتها زينب مستنكرة :
ـولماذا مازلت عندك ؟ ألن تأتي ؟

زفرت نور قائلة :
ـ لا ؛ يكفي ما لاقيت أمس من اللّئيمة القاطنة معكم , ولم يأتي أحد بحقي .

ـ أخاكِ أتى بحقك وضربها ... تصنعت الفخر وهي تقول ذلك .

ـ حقًا ؟! سألتها نور في عدم تصديق وقد اعتدل مزاجها أخيرًا و طرقت السعادة بابها ،
ضحكت زينب قائلة :
ـ تعالي بسرعة قبل أن تعود وسأخبرك بكل شيء .

ـ وأين ذهبت تلك الحمقاء ؟ ... سألتها نور .

ـ ذهبت للتسوق وتركت ريم هنا , هاهي تلعب بالمكعبات ... تابعت محفزة إياها : ـ هيا تعالي أنتِ و الولدين ؛ أنا في انتظاركم .
تنهدت نور قائلة :
ـ ليسا هنا ؛ لقد خرجا مع أبيهما لزيارة أمه , وكان يريد مني مرافقتهم لكن مزاجي لم يسمح لذا تشاجرنا .

ـ لعلّها تحتَضِر يا نور ... تابعت زينب لائمة : كان عليكِ مرافقته .

ضحكت نور مِلئ فيها ثم قالت :
ـ ياليتها تحتَضِر وتريحنا من درامتها التي طالت بعدما أُصيبت بالفشل الكلوي .

انقبض قلب زينب لما سمعته وتذكرت أمنية , فقالت :
ـ اهدأي يا ابنتي , لا ينبغي التحدث عن حماتك هكذا , تمني لها الشفاء فهي مريضة ...
صمتت نور فاستكملت زينب حديثها :
ـ ما رأيك بأن أذهب معكِ للإطمئنان عليها ؟

هتفت نور قائلة :
ـ لا ؛ لن نذهب فهي لا تستحق , يكفيها المتملقة التي تعيش برفقتها .
تنهدت زينب قائلة :
ـ القريب من العين قريب من القلب , لقد أخطأتِ بخروجك من بيت العائلة في تلك الظروف

العصيبة و .... قاطعتها نور صارخة :
ـ كفى يا أمي أرجوكِ ، لقد تعبت .

ـ حسنًا , لن أفتح معكِ الموضوع مجددًا , لكن لا تجلسي وحدك , تعالي أنا في انتظارك .

انتهت المكالمة برضا نور بعدما سمعت ماحدث لأمنية , لم تكن تود الخروج لكنها الأن تريد معرفة المزيد لذا قامت من مكانها متّجِهة نحو غرفة النوم لتغير ملابسها استعدادًا للخروج .

.....

حال النفوس كحال الأيام تتقلب و تتوالى عليها المشاعر , فتدنو من البعض تارة وتبعد تارة أخرى , لكن ماذا إن كان هناك من يأبى البعد مُصِرًا على حقه في تملك من يود قربه بكل ما أوتي من خطط ؟ هذا إن كان له حق التقرب من الأساس , لكن ماذا إن لم يكن له ؟ حينها علينا أن نسأل : هل إلى سبيل من مفر ؟

تصنعت إنشغالها بالعمل على الحاسوب لكن هيهات في وجود ذلك الآدم , تطالع سكناته بين الفَيْنَة والأخرى , دقات قلبها تتسارع ونبضات عقلها تتواثب لتحيك لها خطة ما لاستئناف الحديث معه , و أخيرًا وجدتها , قامت من مكانها متجهة نحوه لكن استوقفها رامي وفي يده شوكلاتة , لوّح بها قائلًا :
ـ صباحك بطعم تلك الشوكولاتة .

ارتبكت لرؤيته لاسيّما أنّه قطع مخططها , رسمت ابتسامة مصطنعة لترد :
ـ صباح الخير رامي ، قدم لها الشوكولاتة قائلًا :
ـ ألن تأخذيها ، التقطتها منه ثم شكرته , فتنحنح قائلًا :
ـ ما رأيك أن نتغدى سويًا بعد العمل .

نظرت لعينيه فزاد ارتباكها بعدما رأت تلك اللمعة , أشاحت بهما بعيدًا ولم ترد , فقال لها :
ـ ألا يناسبك الخروج اليوم ؟

هزّت رأسها قائلة :
ـ اجعله في يوم آخر رامي .

ـ غدًا مثلًا ؟

ـ اووووه , يالك من لحوح ... قالتها ودفعت كتفه لكنه لم يتزحزح ، فضحك مِلىء شِدْقَيْه ، قطّبت حاجبيها قائلة :
ـ ما الذي يضحكك ؟

أمسك كفها ثم قال :
ـ من أين جئتِ بالثقة أن ذلك الكف الصغير قادر على إبعادي ؟

مطت ثغرها قائلة :
ـ يالك من ظريف .. أليس لديك عمل ؟

ـ بلى ؛ لدي مالديكِ ... ما إن قالها حتى عادت لمكتبها تاركة إياه يشيعها بنظراته الشّقِية التي اِزْدَانَت بجاذبيته مع عينيه العسلية ثم انصرف صوب مكتبه .

حالما غادر قامت من مكانها متجهة نحو مكتب آدم وقفت أمام المكتب ثم تنحنحت ملقية تحية الصباح ، لم يحد ببصره عن حاسوبه , رد باقتضاب :
ـ صباح النور .

ـ كيف حالك يا آدم ؟ قالتها وهي لازالت واقفة .

ـ بخير ... أجابها وهو منشغل بعمله , علّها تفهم وتعود أدراجها ..

كانت تفرك يديها من فرط توترها لمعاملته الغريبة , قالت :
ـ ألن تسألني لِما أتيت لك ؟
أشار بسبابته نافيًا ثم قال :
ـ لا يهمني ... امتقع وجهها من إجابته تلك , صمتت هنيهة ثم قالت :
هلا ساعدتني في إنجاز مخطط ال .... وقبل أن تكمل كلامها قاطعها قائلًا :
ـ أنا أسف , مشغول .

أشارت بكفيها قائلة :
ـ لن آخذ من وقتك الكثير .

مط شفتيه قائلًا :
ـ قلت لكِ مشغووووول ، رامي أمهر مني في إنجاز المخطّطات , قال جملته ثم نادى على رامي الذي لم يتوانى عن تلبية النداء , فبُهِتت مكانها واحتقن وجهها بلون الدماء من فرط

الإحراج , ودت لو انشقت الأرض وابتلعتها , حتى عقلها صمت في تيك اللحظة ولم تتمكن من التفكير أو الرد عليه ... لكن هل يعني ذلك أنها لن تفعل شيئًا لرد إعتبارها ؟

ـ لقد كنا معًا منذ قليل , لماذا لم تطلبي منّي ؟ ... قالها رامي وهو يتفحص قسماتها

لم ترد فجذبها من ذراعها بهدوء , فسارت معه على مضض ثم سحبت ذراعها من قبضته قائلة :

ـ لا أريد مساعدتك .

ـ ليس لكِ غيري يا صغيرة ... قالها رامي وهو يغمز ، لكمته في كتفه بغيظ وهي قاطبة جبينها ثم قالت :

ـ كف عن هذا , لا أريد مساعدتك .

اتجه نحو حاسوبها حيث كان المخطط عالق على شاشته , جلس على كرسيها و أخذ يعبث بأصابعه على لوحة المفاتيح ثم التفت لها فوجدها عاقدة ذراعيها أمام صدرها متذمرة , ابتسم لها بجذل فأشاحت بوجهها بعيدًا وقد زمّت شفتيها بقنوط وقلبها يغلي غليانًا من كرامتها التي سُحقت تحت قدمي آدم على مرأى ومسمع من ذلك الوسيم الذي يبتسم لها الآن مستمتعًا بما حدث لها .

.....

للقلوب طرق , هناك من يرضى بكلمة , وآخر يحنو ببسمة , وذاك ترضيه نظرة , وهذا يهدأ بهدية , بالنهاية نتعامل مع بشر قلوبهم تتقلب بين جنبات الليل والنهار , تمسي حانقة تصبح حانية ...

دلفت إلى الداخل حاملة الأكياس , وما إن رأتها ريم حتى ركضت نحوها وهي تهلل قائلة :

ـ أمي أمي ، بينما كانت نور و أمها تتابعان التلفاز ولم يحركا ساكنًا , ألقت أمنية السلام ثم أخذت بعض الأكياس وقامت بصف محتواهم بالثلاجة ثم عادت إلى الصالة , التقطت كيسان قدمت أحدهما لزينب و الآخر لنور , فنظرتا لبعضهما البعض ثم التفتا لها تسألاها :

ـ ماهذا ؟

ابتسمت أمنية قائلة :

ـ هديّة بسيطة أتمنى أن تعجبكما ... انشرح صدر زينب من فعل أمنية بينما ظلّت نور واجمة

تدور عينيها هنا و هناك , حدثها عقلها : لعلّ تلك اللّئيمة تحيك خطة ما لتستدر عطف أمك تجاهها وها قد باء مخططك بالفشل جراء صنيعها .

ـ شكرًا لكِ يا ابنتي , لما كلفتِ نفسك ؟ قالتها زينب وقلبها يتراقص , فقد كانت تخشى أن تصل علاقتهما لنفس حال نور وحماتها .

ـ العفو , أتمنى أن تنال إعجابكِ ... قالتها أمنية ثم التقطت باقي الأكياس الخاصة بثلاجتها لتصعد لصفهم بالأعلى , نظرت زينب لنور معاتبة إياها لعدم إبداء إعجابها بالهدية حتى ولو تصنعته , مما جعل نور تنادي قائلة :
ـ أمنية .

التفتت لها أمنية , فقالت نور وهي متصنعة البسمة :
ـ شكرًا .

ابتسمت أمنية قائلة :
ـ العفو , فلتهنئي بها .

همست نور لزينب قائلة :
ـ هل آدم من أعطاها مال الهدايا ؟ أم أخذته من وراءه ؟

أخفضت زينب صوتها كي لا تسمعهما أمنية فلم تكن صعدت بعد , قالت :
ـ مؤكد أنه يعلم كل شيء , كما أن أبيها يعطيها راتبًا شهريًا مذ تزوجت .

ـ ماذا ؟ قالتها نور بغيظ .

ـ آدم من قال لي ذلك ... قالتها زينب وابتسمت لأمنية التي نظرت لهما علّها تخمن كنه ذلك الهمس الذي يدور بينهما .

ما إن صعدت شقتها ومعها ريم , حتى انقَضّت زينب و نور على هديتهما , وجدا عبائتين ملونتين لاستقبال الضيوف , أُعجبت زينب بعبائتها لكن نور أبدت تذمرها , فقالت :
ـ لون عبائتك بني قاتم وكأنّها خاصة بالمآتم , كما أن خاصتي لونها أزرق و أنا لا أحب هذا اللون .

أومأت زينب بلا ثم قالت :
ـ أعجبني ذوقها كثيرًا , يكفي أنها تذكرتنا .

مطت نور شفتيها وهي تتفحص بعينيها العباءة ثم قالت :
ـ أظنُّ أن قياسها يحتاج تعديل .

ـ لا يهم ؛ سأذهب للخيّاطة لضبطها ... قالتها زينب وهي ممسكة بكتفي العباءة .

اشتعلت الغيرة بنفس نور فنحت عبائتها جانبًا ثم قالت بخبث :
ـ لم أكن أعلم أن الضرب يجدي ثماره نفعًا هكذا ، لم ترد زينب عليها , قامت متّجهة نحو غرفة النوم , سألتها نور :
ـ إلى أين ؟

ـ سأرتديها لأرى شكلي بها أمام المرآة ... تابعت زينب وهي في طريقها للغرفة :
ـ ألن ترتدي خاصتك ؟

صاحت نور قائلة :
ـ لا ؛ لن أرتدي تلك المهترئة التي لا أعلم من أين حصلت عليها ... قامت بلف العباءة بين كفيها ثم ألقتها بغيظ أمام باب الحديقة , وأخذت تقضم أظافرها وتحدث نفسها قائلة :
ـ لقد أديت دور البراءة ببراعة يا أمنية , حتى أمي بدأت تنحاز لكِ .... انهمرت دموعها عندما تذكرت حالها و أخذت تقول وسط شهقاتها : لماذا تحظى هي بحب الناس , وأنا لا ؟ لماذا طرقت السعادة بابها وأنا لا ؟ حتى أبي حُرمت منه وماتت معه القوة وهي تعيش في خير أبيها و تنعم بحنانه ... لماذا يحدث كل هذا لي؟ ....زوجي يعتبرها مجاهدة ويقف بصفها ....
طافت الجملة الأخيرة بمخيلتها و قلّبها عقلها مرات ومرات قائلًا لها : لماذا يفعل هذا زوجك ؟ ألا تلاحظين اهتمامه بها ؟ ضربت صدرها بكفها قائلة : ياويحي .

.....

اعتادت على أن تربت على القلوب وتضمد جراحها لكن ماذا لو كانت هي من تحتاج لذلك , هل ستتمكن من تضميد جرحها ذاتيًا ؟ أم أن الأمر أصعب من مجرد تخيله ؟

انتهت من مهمتها وقبل النزول لحماتها , هاتفت حبيبتها , وما إن ردت حتى شعرت بالقلق , قالت :
ـ سحر ، هل أنتِ على مايرام ؟ صمتت سحر قليلًا , ثم قالت :
ـ الحمد لله , كل اختبارات الله رحمة .

ـ اختبارات الله ؟ ... سألتها أمنية وقد وقع قلبها من الخوف , تابعت :
ـ أخبريني ماذا حدث ؟ لقد أقلقتني عليكِ .

تنهنهت سحر قائلة :
ـ أمي يا أمنية .

ـ ماذا بها يا حبيبتي ؟ سألتها أمنية , فاستأنفت سحر البكاء ولم تتمكن من الرد , فطلبت إليها أمنية أن تهدأ , لكن أنّى لها ذلك وقد وجدت أخيرًا الطريق المفضي للفضفضة ففُتِح قلبها على مصرعيه وأخرج كل الهموم على هيئة دموع تأبى التوقف ، قالت وسط شهقاتها :
ـ لقد أجريت لها تحليلًا منذ أيام , وظهرت نتيجته منذ قليل .

ـ أي تحليل ؟ سألتها أمنية وجوارحها تنتفض مما ستسمعه .

تلعثمت سحر وهي تقول :
ـ اااالتهاب الكبد الفيروسي , أمي في المرحلة الثالثة منه ... استكملت نحيبها وهي تقول : ليس عندي غيرها , مات أبي وماتت معه عزوتي , لم يتبقى لي إلاها وأختي يا أمنية , سأموت بدونها يا أمنية , هي روحي و نبض قلبي .... آه لكم أجهدني بكاء روحي بعدما علمت ، لطالما دعوت الله أن أموت قبلها , لن أتحمل فراقها .... آه لو يمكنني إعطائها كبدي أنا تعيش به و أفنى أنا .

انقطع صوتها من البكاء وأمنية تبكي معها , رغم أنها من المفترض أن تقوم بتهدئتها لكنها انهارت بعدما سمعت كلام سحر , تأثرت به ولا تعلم كيف تخفف عنها , مسحت دموعها ثم قالت :
ـ أرجوكي اهدأي , تابعت وسط تقطع أنفاسها : لقد أصبح له علاج على جرعات شهرية .

ـ لكن .... تابعت سحر بصوتها المبحوح : أبي مات به يا أمنية ... مااااات وتركنا وحدنا ، يارب خذ من عمري وزد عمرها , بل خذني أنا و احفظها يارب يارب .

عادت أمنية لبكائها من مجرد سماع دعوات سحر على نفسها , فهي أيضًا لن تتحمل فقد سحر , قالت لها :
ـ لا تقولي ذلك أرجوكِ يا سحر , ستشفى بإذن الله ولتستأنفي العلاج , موت أبيكِ كان منذ زمن طويل قبل اكتشاف العلاج الفعّال للمرض , لكن الوضع الآن اختلف كثيرًا وصارت نسب الشفاء عالية جدًا .

ـ لقد أخبرني الطبيب أن الوضع سيصبح أسوء إن تأخرت أمي عن جرعتها , لا سيّما أن كبدها محاط بدهون .... تابعت سحر وسط نشيجها : كما أن زوجي كان يرنو للسفر له قريبًا .

ـ هاتفيه ياسحر و أخبريه بضرورة بقائك بجانبها ... تابعت أمنية : لن يرفض إن علم بمصابها , فهو يحبها ويعدها أمه , أليس كذلك ؟

تنهدت سحر قائلة :
ـ نعم ؛ هو كذلك .

انتهت المكالمة , فارتاحت سحر ببوحها وتألمت أمنية لحزن رفيقتها , لم تكن تتوقع أن سحر القوية قد يأتي عليها يوم وتنهار وتحتاج إليها لتربت على روحها .... وقفت ريم بجوارها تشير على الماء , فقامت معها كي تسقيها , ومن ثمّ أخذتها واتجها للأسفل لتجهيز الغذاء .

.....

قد يكون الوطن مجرد قطعة أرض لكنها اكتسبت اسمها من ذكريات جمعت صاحبها بها , لكن ماذا إن كان الوطن عبارة عن عناق ضمّ قلبين على العشق فلا يسعهما الرحيل ؟ ....

حلّ الليل ناثرًا نجومه بستائر السماء , ليعلن أن قد حان وقت العشاق من الآن , كانت ترتب خزانتها , وجدت الكثير والكثير من الفساتين و القمصان التي لم ترتدها مذ زواجها , أخذت فستان أزرق اللون ضيق وقامت بارتداءه , صففت شعرها , نظرت لنفسها في المرآة وهي تقول :
ـ جميل لكنه بحاجة لحذاء ، اتجهت لخزانة الأحذية , أخذت منها واحدًا بكعب عالٍ ثم عادت للمرآة , دارت أمامها ثم وضعت يديها على خصرها قائلة :
ـ هكذا أجمل ، نظرت لها ريم وهي تضحك واضعة كفها على فمها .

جثت على ركبتيها ثم قالت مبتسمة :
ـ هل أنا حلوة ؟

أومأت ريم بنعم ثم طوقت رقبة أمنية بذراعيها الصغيرين , تنهدت أمنية قائلة :
ـ أووه لكم أحب عناقك يا ريمي .

حملتها أمنية , قبلتها ثم اتجهت بها إلى المطبخ لتطعمها , وما إن فعلت هدهدتها حتى نامت ثم أسلمتها لسريرها ، اتجهت ناحية غرفة المكتب ثم استوت على كرسيه و التقطت القلم

وبدأت الكتابة على إحدى الأوراق , ظلت تكتب ولم تشعر بمن دخل لتوه , وقف أمام باب الغرفة , ألقى السلام , فتركت القلم ونحت الورقة جانبًا ثم ردت عليه .

ابتسم لها ثم قال :
ـ ماذا تفعلين ؟

ـ أكتب قصيدة ... قالتها ثم وقفت , فأطلق صفير قائلًا :
ـ ألن تنتهي مفاجآتك ؟

أشارت بسبابتها لا , فضحك قائلًا :
ـ لعلكِ تقرأين هذه الأيام رواية رومانسية .

هزّت رأسها نافية ثم قالت :
ـ بل أنا من يكتبها .

ـ أووه , يعجبني الأمر .. قالها وعلى محياه نظرات الإعجاب , سألها :
ـ ومن أبطالها ؟

اقتربت منه ثم وضعت سبابتها على صدره قائلة :
ـ أنتَ و أنا فقط .

طوق خصرها بذراعيه ثم قال :
ـ وهل ستظلين هكذا ؟

أشارت بيدها قائلة :
ـ مارأيك ؟
ابتسم قائلًا :
ـ أود أن تبقي هكذا للأبد ... صمت هنيهة ثم قال بدون تفكير :
ـ عديني ... لم يعلم السبب الذي دعاه لذلك لكنّ قلبه هو من أمره بذاك الطلب

قطبت أمنية حاجبيها ثم ابتسمت قائلة :
ـ ماذا ؟ تنحنح قائلًا :
ـ ع ع ع عديني أن يبقى حبنا قويًا ما حيينا .

ـ على شرط ... قالتها أمنية , فازدرد آدم ريقه وتجهم وجهه لأنه لا يحب الشروط .

ابتسمت أمنية عندما رأت قسماته الواجمة , أشارت بكفيها ليهدأ ثم قالت :
ـ لا تقلق يا آدم ؛ هو ليس شرط بل وعد , لاأعلم سر تحفظك على الشروط هكذا .

لانت ملامحه و ابتسم ثم قال :
ـوماهو الوعد ؟

رفعت سبابتها قائلة :
ـ عدني بالوفاء .

تنهد قائلًا :
ـ أعدك .

نظرت لعينيه قائلة :
ـ وأنا أعدك أن يبقى حبنا قويًا للأبد يا حبيبي .... عانقها بقوة , وهو يمسح على شعرها وقد فاض الشوق من قلبه على هيئة حرارة ماجت بين أضلعه شعرت بها أمنية داخل أسره و قلباهما ينبضان بالعشق الذي يتقافز على جسرهما بوتيرة رومانسية هادئة , تمنى لو وقف الزمن عند تلك اللحظة... ظلا هكذا بلا كلام فقد كان الحب هو سيد الموقف ولا يريدا سوى ذلك بعدما اتحدت ذراتهما في كيانٍ واحد .. لأول مرة يشعر آدم بالعشق داخل ذاك الأسر الوردي , لم يكن موقن أنها قادرة على زلزلة كيانه كما فعلت الآن وكل منهما لايريد التحرك وكأن ذاك العناق بمثابة وطن ضمهما فلا يريدا تركه .

بترت ذلك الحصار قائلة بصوت خفيض :
ـ ألا تود بعض الشطائر؟

ـ بلى ؛ أود ... قالها ثم طبع على جبينها قبلة .

اتجهت نحو المطبخ لإعداد الشطائر , استوقفها رنين الجوال بصوت رسالة , أخذته لتعلم ماهية الرسالة , وما إن فتحتها حتى تسمرت مكانها , انتفضت حواسها , وشعرت بأن الأرض تميد بها , اتجهت لأقرب كرسي , جلست عليه وظلّت تعيد قرائتها علّها تستوعب ما كُتب فيها .

الفصل الثاني عشر

(لحظة السقوط)

.....

حزن يتخلل آهاتي

ينفذ من قلبي كالنيران

يلتهم جدران الشوق

كالحمم من بين البركان

يأسرني في بحر التيه

والموج حولي كالقضبان

الماء كأشباح الظلمة

لا يابس فيه أو شطآن

لا صوت يحلق بسماءه

غير نعيق الغربان

عيناي زاغت بالأرجاء

فتشتت جسدي كالحيران

انتفضت كل أوصاله

نثرتني كبقايا إنسان

حاولت ألملم أشلائي

لكن صارت طي النسيان

جربت البحث عن مكاني

فوجدت أني بلا عنوان

.....

عندما يأسرنا الهمّ لن تتمكن المناسبات السعيدة من تغيير الحال , لأن القلب هو من أُسر , فكيف له بمتعة هو بمنأى عن رؤيتها ؟

التف الجميع حول الكعكة التي طُبعت صورة صاحبتها عليها , انطفأت المصابيح , لترك الفرصة للشموع وهتف الجميع بأغاني أعياد الميلاد , ثم قرّب الوالدان صغيرتهما من الكعكة لتطفىء الشمعات الخمس بنفسها , وتستأنف استقبال الهدايا التي انهالت عليها من جميع أقاربها ، كان بيتهما الفاره يعج بعائلتيهما , لحضور تلك المناسبة الجميلة , ونظرًا لبعد بيتهما عن القاهرة كان لابد من مكوث عائلة دينا لليوم التالي ، قامت دينا بتقطيع الكعكة لرص قطعها في أطباق التقديم مع أنواع أخرى من الحلوى والمخبوزات فيما قام زوجها وكذا حماتها بتوزيع الأطباق على الحضور .

ـ أم ريم ... يا أم ريم ... هتف دكتور كامل و هو يقدم طبق الحلوى لأمنية .

التفتت له أمنية و التقطت طبقها ثم شكرته قائلة :
ـ شكرًا لك , كل عام وهي بخير ... عادت لشرودها من جديد , فقد كانت تجلس قرب الباب الزجاجي للشرفة , تركت الضجيج و نظرت من خلال الزجاج لتلك السجادة المعتمة التي ازدانت بوجود القمر والنجوم ، لم تكن بخير أبدًا , كادت الأفكار تفتك بها , لم تستفق إلا على سقوط طبق الحلوى منها و تحطمه على الأرض , وشى ذلك الصوت عنها للجميع فالتفتوا لها مما زاد إحراجها , اتجهت نحوها دينا و ربتت على كتفها قائلة :
ـ لا عليكِ يا حبيبتى .. تفحصتها بنظراتها ثم قالت : هل أصابكِ أذى ؟

أومأت أمنية بلا وقالت معتذرة :
ـ أنا آسفة ؛ لم أقصد ... همّت بالتقاط القطع المتناثرة لكن دينا منعتها وجذبتها من ذراعها قائلة : سأنادي على معاونة المنزل لتقوم بتلك المهمة ...ثم نادت , جائتها على الفور و قامت بالمطلوب كما ينبغى .

أتى آدم ليطمئن على أمنية , تفحص قسماتها التي وشت بالكثير , نظر لعينيها قائلًا : ـ هل أنتِ بخير ؟ تذكر حالتها منذ يومين عندما تعبت بدون مقدمات وحتى قبل أن تعلم كنه هدية جنى , حدث نفسه قائلًا :
ـ إذن الموضوع أكبر من العلبة الحمراء التي وجدتها .

ـ أومأت بنعم , فقال : لا أعلم ما الذي قلب كيانك ؛ منذ يومين وأنتِ بهذه الحالة . .. أشاحت

أمنية بوجهها بعيدًا عنه , فاقترب منها وقال :
ـ إن أردتِ الراحة , اذهبي إلى غرفة النوم ... ردت بصوت خفيض :
ـ سأفعل , لا تقلق بشأني ... تركها وعاد أدراجه .
جائت نور لتشاهد ماحدث , رمقت أمنية بنظرات شامتة ثم ضحكت وقالت ساخرة : ـ لقد أنهى ولداي طبقيهما دون أن يشعر أحد , لم أكن أعلم أنكِ من هواة لفت النظر و .... قاطعتها دينا قائلة : يكفى هذا ..

جذبت أختها من ذراعها بعيدًا عن تلك التي اندست داخل الكرسي و كأنها تسأله ابتلاعها كي لا ترى عينيها مجددًا وعقلها مشتّت لم يمكّنها من الرد عليها .

أخذتها لإحدى الغرف ثم أغلقت الباب وقالت ممتعضة :
ـ لقد أحرجتها ، ردت نور وهي عاقدة ذراعيها فوق صدرها :
ـ تستحق الضرب وليس الإحراج فقط , أشارت لدينا بيدها سائلة :
ـ كيف تأخذينني بهذا الشكل أمام الموجودين ؟

وضعت دينا أحد كفيها على رأسها في محاولة لتصديق ما حدث , قالت :
ـ يا إلهي , لم تتغيري يا نور .

رفعت نور أحد حاجبيها وقالت :
ـ هه , هل أخذتيني معك لتعلميننني الأدب ؟

لم تكد تصدق ما تسمعه من أختها , فسألتها :
ـ ماذا فعلت أمنية لكِ ؟

صاحت نور قائلة : إنها مخادعة و لئيمة , صمتت نور قليلاً ثم تابعت :
ـ سيتم فضح أمرها قريبًا , وسأتولى أنا إزالة قناعها أمام الجميع .

ـ ماذا ؟ ... قالتها دينا وقد ضيّقت عينيها لمحاولة تخمين قصد أختها , أشاحت نور بوجهها بعيدًا ولم ترد فسألتها دينا :
ـ لِما لا تعدينها أختنا ؟ منذ انضمامها للعائلة لم نرى منها سوى الطيبة .

ـ هه , طيبة ... ردت نور ثم تابعت ساخرة :
ـ أيتها المسكينة , ابتلعتِ طُعمها كما فعل الجميع ، مسحت دينا جبهتها بكفها قائلة : ـ لا أعلم كيف سمحت لكِ أمي بالتمادي معها هكذا ؟

صاحت نور قائلة :
ـ لأنني ابنتها البارة التي لا تتوانى عن زيارتها ورعايتها ... تابعت وهي ترمق دينا بنظراتها : لم ابتعد كما فعلتِ أنتِ وتركتينا .

هزّت دينا رأسها نافية , ابتسمت لتحاول السيطرة على غضبها لا سيّما أنها تقف أمام أختها الكبرى :
ـ لم ابتعد , أهاتف أمي يوميًا وأزورها حين تتسنى لي الفرصة , فأنتِ تعلمين انشغالي ....
زفرت متابعة : تواصلي معهم لا يعني اقتحامي لعالمهم , لابد أن أضع للود مكان في علاقتي بزوجة أخي .

امتقع وجه نور لسماعها ذلك فصاحت بدينا :
ـ إلام ترمي ؟ أنسيتِ أنني أختك الكبرى ؟

لا ؛ لم أنسى ... تابعت وهي تشير بكفيها : لكل منا منهجه في الحياة ..... اتجهت نحو الباب ثم قالت : هيا بنا حتى لا تقلق أمي .

.....

الأمومة أسمى معنى للحب اللا مشروط , ومع ذلك هناك من تود كبح طموحات ولدها , أخرى تتفنن في قمع آراء ابنتها , هذه تملي على ابنها كيف يتحرك ويتحدث , أما تلك فقد وضعت ركنه السري داخل مساحتها الخاصة لتعلم أسراره بين الفينة و الأخرى مبررة أنه لا أسرار بين الأم وابنها ... لكن مهلًا , هلا سألنا هؤلاء الأبناء عمّا يودون فعله بعيدًا عن أمهاتهم ؟

انتهت من إعداد قهوته ثم دلفت لغرفة المكتب حيث كان مشغول مع أوراقه , وضعت الفنجان وعلى وجهها العبوس , نظر لها يتفحص قسماتها وقبل أن ترحل نادى عليها :
ـ رغدة ، استدرات له وهي قاطبة جبينها , فعدّل عويناته وقال :
ـ تفضلي بالجلوس و احكِ لي ما يزعجك .

رفعت أحد حاجبيها قائلة :
ـ من منّا عليه أن يحكي للآخر ؟

ترك ما بيده من أوراق و ضيّق عينيه قائلًا :
ـ لم أفهمك .

ـ كيف تفهمني ؟ وقد باتت لك أسرار بمنأى عنّي .... زفرت بضيق ثم قالت : ألهذه الدرجة صرت بعيدة عنك يا جمال ؟

ـ بعيدة ؟! قالها وهو يقلّب ذاكرته عن سبب قولها ذلك، أشار بيده على الكرسي قائلاً : اجلسي حبيبتي , ولتهدأي أرجوكِ .

تناول فنجان قهوته وظل يرشف منه وينظر لعينيها علّه يخمن سبب غضبها , طاف بعقله حوار مازن معها ثم انفراده به دون معرفتها بما آل إليه الحديث ... هزّ رأسه موافقاً تخمينه ثم قال :

ـ هل رأيتِ مازن اليوم ؟

مطت شفتيها قائلة :

ـ أراه كل يوم وكل ليلة ... أشارت بيدها قائلة : ماهذا السؤال ؟

ضحك قائلًا :

ـ قصدت ؛ هل تحدثتِ معه ؟

ـ ولِما أتحدث معه .... رفعت كتفيها متابعة : لن أكلمه حتى يتعلم الأدب .

ـ اممم , ألم يحاول مصالحتك ؟ سألها بهدوء .

بلى ؛ فعل .... تنحنحت متابعة : لكنني لن أقبل أي اعتذار بعد قلة أدبه معي بالحوار ... أشارت بسبابتها نحو جمال قائلة :

ـ حتى أنت لم توبخه على ذلك بل أخذته هنا تتحاور معه ولا أعلم حتى الآن ما دار بينكما

ـ أردت أن أعلم مايحتاجه , أوليس له علينا حق ؟ تابع وهو يمسح بكفه سطح المكتب : هو قطعة منّا بالنهاية .

ـ إن كان يفعل ذلك قبل الزواج , ماذا سيفعل بعد زواجه وسنكون بنفس البيت ؟ قالتها منزعجة .

ـ لا ؛ لن يحدث ! قالها جمال وصمت .

ضيّقت عينيها مستفهمة :

ـ ما الذي لن يحدث ؟

ـ مكوثه معنا بنفس البيت .. ما إن نطقها جمال حتى شهقت رغدة قائلة :
ـ ماذا قلت ؟ تنحنح جمال قائلًا :
ـ سيعيش بالمكان الذي سيختاره بعيدًا عنّا .

ـ وماذا عن الأرض ؟ سألته وقد اتسعت حدقتاها .

نظر جمال للأوراق الموجودة على المكتب ثم قال :
ـ سنقوم بعمل مشروع ضخم بمشاركة عدد من رجال الأعمال .

صاحت رغدة :
ـ يا ويحي , سمعت لذاك السفيه وحرمتني من أن أصبح حماة و جدة وخططت معه لكل شيء دون الرجوع إلي ، تأفّف جمال قائلًا : ستكونين بالفعل ولن يفرق معكِ مكان سكنه ... تابع ممتعضًا : لا أعلم سبب إصرارك على معاملته بهذه الطريقة ؟

أشارت بسبابتها نحوه قائلة :
ـ أنت تفسد كل ما أفعله بتدليله ، هزّ رأسه نافيًا ثم قال :
ـ بل أصلح ما تحاولين إفساده .

ـ هل أصبحت مصدر الإفساد في هذا البيت ؟ استكملت وقد ترقرقت العبرات عينيها : لقد دمرتما كل ما كنت أحلم به , ألا يحق لي أن أكون حماة وأنعم بوجود أحفادي حولي مثل إخوانِ و بنات خالاتي ؟

ران عليهما بعض الصمت , قطعه جمال قائلًا :
ـ لقد تغيرت دفة الحديث و حاد مساره عما نرجوه .

لم ترد رغدة , فتابع جمال : لقد كبر مازن ولم يعد ذاك الطفل الذي تنتظرين طاعته لأوامرك دون جدال .

ـ لكنّني أمه .... تابعت وهي تبكي : أم أنكما نسيتما ذلك .... قام و اتجه نحوها ثم قبّل رأسها قائلًا :
ـ أنتِ أهم شخص , لا حرمنا الله منك , أهدأي أرجوكِ .

ـ أمنية هي ابنتي البارة التي تسمع كلامي ولا تعصيه أبدًا ... قالتها وسط نهنهاتها.

شرد جمال فيما قالته وتذكر أمنية محدثًا نفسه :أرجو أن تكوني على مايرام يا ابنتي.

.....

ينادي القدر لصاحبه كي يؤكد له أنه لا يملك الاختيار , على عكس الشبهات التي لطالما عهدناها اختيار طائش ناجم عن سوء التصرف , لكن ماذا سيحدث إن نادتنا الشبهات رغمًا عنّا لتعلن إذعاننا لرغبتها بأن نرتدي ثوبها مقسمة على أن تختمنا بختم الخطيئة ؟ ....

لم تسمع شيء رغم وجود الضجيج , الأغاني , هتاف الأطفال ولعبهم وأحاديث الكبار, ظلّت مكانها تنظر للا شيء عبر الباب الزجاجي , تتواثب الأفكار بعقلها وتعصف به والألغاز تدور أمام عينيها , بداية من العلبة المخملية التي لم تراها في حفل جنى , وعندما سألت آدم أنكر وجودها من الأساس , بل ووصفها بأنها تتوهم , شعرت بالخزي عندما أثار شكّها , تقع بين خيارين أحلاهما مر , أن تشك بنفسها , أو تشك بآدم ..أيهما تختار و كلاهما صعب ؟ ... وانتهى الأمر بالرسالة , عندما تذكرت أمرها التقطت هاتفها وفتحته لتقرأها , قرأت سطورها وهي تبتسم بمرارة .

كانت نور تتابع حركاتها وتتفحص سكناتها , وكذا زوجها الذي كان يطالع جواله وهو يبتسم وعيناه تلمعان .... حدثها عقلها محفذًا إياها : ألا يبدو منظرهما مثيرًا للإهتمام ؟ يمسكان هاتفيهما ويبتسمان في نفس اللحظة ! ... اتخذت مكانًا قصيًّا لتتمكن من متابعتهما دون أن يشعرا .

أغلقت الجوال وعادت لصمتها الذي لم يلبث طويلًا فقد قطعه ذلك الواقف أمامها بطبق الحلوى وعلى ثغره ابتسامته , توترت لدى رؤيته , التقت عيناهما لكن مالبثت أن أشاحت ببصرها بعيدًا عنه .. تذكرت نور فنظرت له مستفهمة عن وقفته تلك .

قرّب إليها الطبق وهو يبتسم ثم قال :
ـ تفضلي يا أم ريم , أظنّك لم تأكلي شيئًا .

أخذت الطبق منه , حدثت نفسها قائلة : بربك ! ماذا تريد منّي ؟! .. ردت باقتضاب: ـ شكرًا أستاذ محمود , لقد أخذت حصتي بالفعل لكنه انكسر للأسف .

جلس على الكرسي المواجه لها ثم حاول تبرير ما حدث معها قائلًا :
ـ لا عليكِ , هذا شائع الحدوث ... ضحك و كأنه تذكر شيء ثم قال : لقد حدث معي نفس الشيء في حفلة أحد أصدقائي , انكسر الطبق منّي و لومتهم على إحضار أطباق قابلة للكسر في مثل تلك المناسبات , بل وطلبت تعويضًا أيضًا .

اتسعت حدقتا أمنية و سألت باهتمام :
ـ تعويض ؟! قهقه محمود حتى سعل ثم قال :
ـ لا تتعجبي ، فقد قلت لهم يقوموا بلف كل ما لذ و طاب من على المائدة لآخذها معي لنور و الولدين .

وضعت أمنية كفها على فمها فى حركة طفولية لا إرادية منها و تتابعت ضحكاتها مما جعل قلب محمود يرقص لأن حكايته أعجبتها .

أشار إلى الطبق قائلًا وهو يضحك :
ـ هيا , تناوليه بسرعة قبل أن يفكر في التحطم .

أمسكت الشوكة وهي تهزّ رأسها بنعم ثم التقطت قطعة حلوى و قربتها إلى فمها لكنها لم تشعر بالراحة لتحديقه فيها بهذا الشكل فسألته :
ـ ألن تحضر لك طبق ؟ أشار بسبابته لا ثم ضحك قائلًا :
ـ لقد التهمت طبقين إلى الآن , استمتعي أنتِ , بالهناء والعافية .

فجأة وقفت نور قبالتهما وهي تنظر لزوجها وقد رفعت حاجبيها قائلة :
ـ ماذا تفعل هنا ؟!

تبادلا محمود وأمنية النظرات ثم نظرا لتلك السمينة و ازدرد كلاهما ريقه , ثم رد محمود : ل ل ل لم أجد كراسي شاغرة , فجلست هنا .

ـ هيا بنا إلى الحديقة ... قالتها و أولتهما ظهرها لتتجه إلى الحديقة وقلبها يغلي من الغيرة وعقلها يخطط لها كيف يمكنها الإمساك بالدليل القاطع , فلحق بها محمود و سار مسرعًا .
على الجانب الآخر كانت تجلس زينب و آدم رفقة والدي كامل وأخته سمر , ظلّت تمدح جمالها و تتمنى لو عندها ابن آخر لخطبتها له على الفور , بينما كانت والدة كامل تحكي القصائد عن أخلاق دينا و أدبها الجم , فبالرغم من مكوث كل منهما ببيت منفصل إلا أن المودة لم تنقطع بل توطدت أواصرها .

لاقى حوارهما استحسان الجميع باستثناء آدم الذي لم يشعر بالراحة منذ الصباح , كلما تذكر سؤال أمنية عن العلبة الصغيرة التي أهداها لشمس و إنكاره للأمر, انقبض قلبه ... لم يود إفساد علاقتهما لا سيّما أنها لن تصدق أن الهدية مجرد رد لوليمة سابقة , ظلّ ينظر لها بين الفينة والأخرى , يتفحص شرودها , تتسارع دقات قلبه كلما رأى نظراتها الواهنة , ود لو ذهب وعانقها لكن كيف ذلك في وجود ذلك الجمع الغفير ، حدّث نفسه قائلًا :

ـ ستنسى , الأيام كفيلة بمسح تلك الذكرى من عقلها ... يود طمئنة نفسه و إسكات ضميره لعله يرتاح , لكن أنّى له وصورتها لا تفارقه , و كأنها صنعت تعويذه تلاحقه أينما ذهب .

التفت له والد كامل موجهًا له حديثه قائلًا :
ـ كيف حال عملك بالشركة ؟

ابتسم له آدم ورد :
ـ بخير الحمد لله .

ـ ولكن ألم يحن الوقت لصنع عملك الخاص ؟ سأله والد كامل ثم التقط كوب العصير ، عقد آدم جبينه ثم ابتسم قائلًا :
ـ ما زال الوقت مبكرًا على ذلك .

أشار والد كامل بسبابته لا ثم قال :
ـ عمل مكتب هندسي صغير لا يحتاج رأس مال .

رفع آدم حاجبيه قائلًا :
ـ كيف ذلك ؟ أجابه الرجل :
ـ تؤجر شقة صغيرة بغرفة واحدة بأحد الأماكن الراقية , تضع بالغرفة مكتبك و في صالتها مكتب آخر صغير لموظف الاستقبال .... و تضع لافتة كبيرة على حائط البناية من الخارج عليها رقمك و رقم المكتب و ... قاطعه آدم قائلًا :
ـ لكنه يبقى عملا حرًا , أي ... صمت ولم يكمل .

فهم الرجل مقصده فقال :
ـ تقصد ليس له معاش ثابت بعد بلوغ الستين من العمر .

أومأ آدم بنعم , فتابع الرجل :
ـ كم سيكون ذلك المعاش ؟ مهما عظم لن يجدى ...العمل الحكومى يقيدك و يأسر قدراتك , و يحيل بينك و بين إدخار الملايين .

حكّ آدم رأسه و كأنه يقلب كلام الرجل في رأسه , لا سيّما أنه مرّ بنفس التجربة منذ زمن بعيد عندما كان يعمل مهندسًا بإحدى الشركات ثم تركها وصنع مشروعه الخاص الذي نقله لعالم الأثرياء .

ضحك أبو كامل وهويطالع آدم الذي كان شارداً في كلامه , فقال :

ـ هل الأمر يستحق كل ذلك التفكير ؟

هزّ آدم رأسه وقد بدا عليه الحيرة , قال :
ـ لا أعلم ، لكنني أراها مجازفة كبيرة ، غمز له الرجل و قال :
ـ ومن يتحلى بروح المجازفة غير الشجعان ؟ صمت آدم , فتابع الرجل :
ـ فكّر فى الأمر , وإن قررت دخول عالمنا اتصل بى , لأننى أود عمل فرع لشركتنا بالقاهرة , ولن أجد من هو أفضل منك لتولي أمره .

قضب آدم جبينه وضيّق عينيه ثم قال :
ـ لكن سيكون هذا مشروعك , أين أنا ؟ و مشروعي ؟

قهقه الرجل :
ـ سيكون مناصفًة يارجل حتى تبني عالمك الخاص .

مسّد آدم شعره ثم تنفس بعمق وقال : سأفكر بالأمر .

.....

إذا أيقنا أننا حين نحب نمتلك الأحبة , سنظل نقاوم أي جفاء يداهمنا عن طريقهم , مقتنعين بأننا مازلنا سويّا في درب الهوى , مقسمين على أنفسنا الحفاظ على ذاك الحب المزعوم بكل ما أوتينا من حيل ...

دلفت لغرفة أختها التي حبست نفسها داخلها منذ يومين بعد انقضاء عيد ميلادها , اقتربت منها ثم جلست على طرف السرير , ثم نظرت للمنضدة المحملة بالهدايا التي تم فتحها باستثناء واحدة رغم أنها أولى الهدايا التي حصلت عليها لكن تركتها مجهولة المحتوى حتى الآن .

ـ ألن تفتحيها ؟ سألت رنا شمس التي كانت جالسة على سريرها تعبث بهاتفها .

قالت شمس وهي ممتعضة :
ـ لا ! لن أفتحها و لا أريدها .

ابتسمت رنا لسماع ذلك و ركضت نحو المنضدة المحملة بالهدايا ثم التقطت العلبة وقالت :
ـ إذن سآخذها أنا , لقد حصلتِ على الكثير .

تركت شمس الجوال , رفعت رأسها لرنا ثم قالت :
ـ هاتيها ، لوت رنا شفتيها قائلة :

ـ ألم تفرطي فيها منذ قليل .

مدت شمس يدها قائلة :
ـ عدت في كلامي , ولتأخذي غيرها , هناك الكثير و الثمين أيضاً .

عقدت رنا جبينها وقالت :
ـ لكنني أريد هذه , فهي الوحيدة التي لم تُفتح .

ـ هاتيها ... صرخت شمس , فأعطتها إياها اختها .

فتحتها لترى خاتمًا فضيًا عليه قطعة زرقاء وكأنها زمرد , انبهرت الفتاتان من روعة الخاتم الذي بدا و كأنه ماسي , قالت رنا :
ـ يا لجماله ..

ارتدته شمس في إصبعها و قالت وقد بدا عليها الهُيام :
ـ صاحبه أجمل , لو رأيته لما تعجبتِ ذوقه .

زفرت رنا بضيق قائلة :
ـ سيرزقك الله الأفضل لكن دعيه وشأنه .

التفتت شمس لأختها ترمقها بنظراتها من رأسها لأخمص قدميها , ولم يعجبها كلامها , فاستكملت رنا بصوت عال :
ـ ماذا تريدين من رجل متزوج ؟

وضعت شمس يدها على فم اختها التي كادت تشي بأمرها للتو , ثم قالت :
ـ هل جننتِ ؟

ـ بل أنتِ من فعل .. أشاحت رنا بيديها وتابعت : عندما تخطفين رجلًا من بيته وزوجه و تظنين أنكِ على حق ... إذن أنتِ المجنونة .

رفعت شمس أحد حاجبيها وقالت بسخرية :
ـوهل لمثلي أخذ النصيحة من مراهقة حمقاء مثلك ؟

ـ أرجوكِ , لا تفعلي ... قالتها رنا فأشاحت شمس بوجهها عنها ولم ترد , فأمسكت رنا بكفها وقالت :
ـ حتى و إن سارت الأمور على ما يرام ستتعبين , لأنك ستكونين الزوجة الثانية .

تأففت شمس قائلة :
ـ وما شأنكِ أنتِ , بالنهاية هي حياتي وأنا حرة بطريقة الاستمتاع بها .

قامت رنا من السرير وقالت وهي تتنحنح :
ـ أختي ! أنتِ بحاجة إلى ... صمتت ، رفعت شمس أحد حاجبيها قائلة :
ـ ألا أحكِ لكِ شيئاً آخر...

أشارت رنا بإصبعها لا ثم قالت :
ـ بل بحاجة إلى طبيب نفسي ، التقطت شمس وسادة ثم قذفت بها اختها وهي تصيح : اخرجي من هنا يا غبية .

خرجت رنا من الغرفة وهي تفكر بحل لتلحق أختها قبل فوات الأوان , أما شمس , ظلت تنظر للعلبة والخاتم , وتفكر كيف تستفيد منهما , لمعت في عقلها فكرة , فأمسكت الجوال لتسرع بتنفيذها .

.....

مكان استراحة العقل هو القلب , فكل مايسمعه العقل طيلة النهار هو قرع الأجراس و الضجيج و الجدل وكل مايحتاج إليه هو السكون , والمكان الوحيد الذي يجد فيه العقل السلام هو داخل هدوء القلب , ذاك هو المكان الذي تحتاجين إليه .....طعام.. صلاة.. حب... إليزابيث جيلبرت

وضعت يدها على قلبها , تنهدت وهي تقرأ ثم تمتمت قائلة :
ـ من أين يحصل قلبي على هدوء ؟ آه لكم أحتاجه !

لم يطرق النوم باب أمنية , فاستكملت قراءة الرواية , فقد راقت لها , تشعر وكأنها تقرأ مذكرات كما تفعل هي مع دفترها ، أزعجه ضوء المصباح الصغير التي تجلس أمنية بقربه , فحاول الجلوس وهو يفرك عينيه من أثر النعاس , سألها : ـ ماذا تفعلين ؟ التفتت له أمنية و قالت :
ـ أقرأ رواية ، تثائب ثم نظر في الجوال ليعلم الوقت , ثم عاد لها قائلًا :
ـ تقرأين رواية في الساعة الثانية بعد منتصف الليل ؟
عادت أمنية ببصرها للرواية وقالت :
ـ لم أشعر بالنعاس , كما أنني لم أزعجك .

أشاح بيده قائلًا :

ـ ستتعبين هكذا ... تابع وهو يتثائب : أنسيتِ أننا سنسافر في الصباح ؟

زفرت أمنية بضيق وقالت :
ـ لم يبقى على الفجر الكثير , أخفضت صوتها وتابعت : هلّا سمحت لي بالقراءة حتى يؤذن للفجر ؟

ـ لا ... قالها و تسطح على السرير و قد أولاها ظهره .

أخذت الرواية وخرجت لتقرأها في الحديقة , جلست وعادت للقراءة لكن قاطعها خطوات أحدهم , التفتت نحو مصدر الصوت , فتنحنح قائلًا :
ـ أنتِ أيضاً جافاكِ النوم مثلي ؟ .

ازدردت ريقها عندما رأته , انتفض قلبها , أغلقت الرواية واحتضنتها بذراعيها علّها تبثها بعض الطمئنينة التي افتقدتها بعد رؤيته... وقفت تنظر له بعدم استيعاب لتصرفاته ...نظر للرواية ثم ابتسم قائلًا :
ـ تعجبني ثقافتك كثيرًا ... بلعت غصتها ثم همّت بالانصراف لكنه استوقفها قائلاً : ـ لم آت لتغادري , لقد كنت بالحديقة منذ انتهاء الحفل , كنت أجلس في الجانب الآخر خلف الأشجار وما إن رأيتك سعدت كثيرًا وقلت لا ضير إن تسامرنا سويًا ...

ـ تسامرنا ؟ قالتها و زاغ بصرها هنا وهناك خوفًا من أن يراهما أحد ما ... لم تكن تعلم أن هناك من تقف خلف ستائر النافذة , تبكي بحرقة , مقسمة على أن تتخذ دليل الإيقاع بها .

الفصل الثالث عشر

(رسالة)

.....

إلى من علمتني الحب

إلى روحي ...

إلى عمري ....

نسجت سطورًا إلى أمي

نموت كقطعة منها ..

أشاطرها الروح والأنفاس

أرى الكون بعينيها

فأحيا بكل أمان

وأشكر خالقي قلبًا

أسكن داخله بوئام

وأدعوه بكل صلاة

يخفف عنّي آلام

ترعرعت بمرضها

لتزيد عذابي ...

عبر الأيام ...

فكل داء له دواء

يشفي جسدًا أعياه السقام

لكن دائي يختلف ..

فقد سكن جسد أغلى الناس

.....

يختلف ألم المرض حسب نوعه , هذا إن كان ساكنًا بجسد المريض .. لكن ماذا إن كان ساكنًا بالروح ؟ ماذا إن تألم إنسان لداء سكن أغلى مايملك أو بمعنى آخر أمّه ؟ هل هناك من مسكن يجدي نفعًا لتخفيف ذاك العذاب الذي يشعر به مع كل آه تنفرج عنها شفتيها ؟

انتهت من تحضير الحساء , ثم أخذته متجهة نحو غرفة والدتها حيث كانت جالسة على السرير تتلو القرآن وبجوارها كان محمد نائمًا, وضعت الطبق على المنضدة ثم جلست بجوارها وانتظرت حتى تنتهي من وردها .

أمسكت سحر جوالها ثم قالت :

ـ سأتصل بأختي لأرى إن كانت ستأتي ، أغلقت والدتها المصحف ثم قالت :

ـ لن تأتي , يكفيها رعاية أبنائها الخمس , أعانها الله ... هزّت سحر لموافقتها على كلام أمها ثم نحّت هاتفها جانبًا .

ـ أعددت لكِ حساء الخضر اللذيذ ... قالتها سحر وهي تشير نحو الطبق .

ابتسمت لها والدتها قائلة :

ـ شكرًا لكِ ياحبيبتي , لكنّي لست جائعة ، قطبت سحر جبينها قائلة :

ـ لكنك لم تأكلي شيئًا منذ الفطور , نظرت لساعة يدها متابعة : الساعة تشير إلى الرابعة ، تحسست أمها الجانب الأيمن من بطنها و أخذت تمسح عليه علّها تخفف من تنميله ثم قالت :

ـ من أين لي برغبة في الطعام ؟ أشعر وكأن معدتي منتفخة .

ـ ستُشفين بإذن الله يا أمي ... قالتها سحر وهي تحاول جاهدة منع الدموع من التسرب عبر مآقيها , تابعت: سنذهب غدًا لاستكمال باقي الفحوصات من أجل المضي قدمًا في العلاج .

ـ لا أود الذهاب يا سحر ... أشارت بسبابتها إلى الأعلى متابعة : الشافي هو الله , أما الأطباء ليس أمامهم سوى تضخيم الأمور للمرضى من أجل جني المال .

ابتسمت سحر بمرارة قائلة :
ـ ونعم بالله , لكن الرسول ـ صلّ الله عليه وسلم ـ أمرنا بالتداوي فلكل داء دواء يا أمي .

ـ وبعد الذهاب للطبيب , هل سيزيد عمري ؟ تابعت وهي تبتسم : لقد تجاوزت السبعين وأنهيت رسالتي بسلام معكما أنتِ و أختك و ... قاطعتها سحر قائلة :
ـ حفظك الله و أطال عمرك أمي ... اقتربت منها وطوقتها بذراعيها مستكملة :
ـ ماذا عن رسالتك مع الأحفاد ؟ أم أنكِ نسيتهم ؟

ضحكت والدتها قائلة :
ـ طمع مني أن أطلب ذلك , يكفي أنني اطمئننت عليكما ..... تنحنحت متابعة : كما أنني اشتقت للقاء أبيكما .

بكت سحر وهي متشبثة بعنق أمها , قالت وسط نشيجها :
ـ أرجوكِ لا تقولي ذلك ... لن أتحمل فراقك .

قربتها أمها منها ثم احتضنتها قائلة :
ـ الفراق سنّة كونية يا حبيبتي ولابد من الإيمان بوجودها و توقع حدوثها .
اندست سحر في أحضانها منهارة ببكاءها الحار وكأنها تطلب من الزمن التوقف عند تلك اللحظة وفي هذا الحضن الذي لا ينضب دفئه , فجأة تحسستها أنامل دقيقة تربت على كتفيها وتقول :
ـ أمي ، فقد استيقظ محمد لتوه .

التفتت له الجدة وعلى ثغرها البسمة , أخذته بجوار أمه ثم قالت :
ـ أمك منهارة يا محمد , فقلبها أرق من اللازم .

ظلت سحر منكمشة داخل حضن والدتها , حتى هدأت ... فمازحتها قائلة :
ـ يبدو أن رفيقتك أثرت عليكِ ، رفعت سحر رأسها تسألها :
ـ تقصدين أمنية ؟

أومأت أمها بنعم قائلة :
ـ لم أرَّ أحدًا تأثر بمرضي مثلك كحالها عندما جائتنا منذ يومين , جميلة و رقيقة لكنها نحفت كثيرًا عن ذي قبل ... عقدت جبينها مستكملة : لقد أحزنتني نحافتها تلك يا ابنتي .

تنهدت سحر قائلة :
ـ لقد تخطينا أنا و أمنية حدود الصداقة و اندمجت روحينا لتصبح واحدة , لذا رأيتيها متأثرة مثلي ... صمتت لبرهة تتذكر حال رفيقتها ومعانتها مع عائلة زوجها ثم ابتسمت بمرارة قائلة :
ـ هي تحب الرشاقة وتلوم علي امتلائي مؤخرًا .

ـ رشاقة ؟؟ ... تابعت أمها مستنكرة : لقد تخطت حدود الرشاقة , رفعت سبابتها محذرة سحر :
ـ إياكِ أن تفعلي كما فعلت .

عقدت سحر مابين حاجبيها قائلة :
ـ على العكس , أنا أرى أنها ازدادت جمالًا برشاقتها , بصراحة شجعتني لاتباع حمية مناسبة من أجل إنقاص وزني ... انتفضت أمها لسماع ذلك ثم قالت :
ـ سأغضب منكِ إن فعلتها .

ـ القليل فقط , لن يضر ... قالتها وهي تغمز لأمها التي طرقت على كتفها وهي تضحك من عند ابنتها .

.....

قلب الإنسان دائما دليله وهو مصدر الحدس الذي عادةً لا يخطئ , لا يتعلق بالأمور الجيدة , بل أيضاً المصائب والفجعات لها نصيباً من همهمات القلب , ويبقى هنا السؤال الأهم , هل يمكننا حينها منع ما نتوقعه أو حتى تجنبه ؟؟....

كلما تذكرت نظرات نور وعينيها المتورمتين صباح اليوم وكأنها كانت تبكي جوار قبر أبيها طوال الليل , شعرت أن هناك أمرًا جلل سيحدث قريبًا , اتجهت إلى المكتب ثم قامت بكتابة باقي القصيدة التي شرعت في كتابتها ومن ثم قامت بنقلها في أوراق صغيرة ، وأخذت تتجول في غرفة المكتب , تلصق كل ورقة على جدار , ساعدها في ذلك نوم ريم ، عادت لغرفة النوم , لتأخذ الرواية التي كانت رفقتها طوال الليل من الحقيبة , مررت أصابعها بين الصفحات لتصل حيثما وقفت .

توأم الروح الحقيقي ليس سوى مرآة , إنه الشخص الذي يريك كل مايعيقك ...

الشخص الذي يلفت انتباهك إلى نفسك , لكي تغيري حياتك...

توأم الروح هو أهم شخص تلتقين به على الأرجح , لأنه يمزق جدرانك ويهزك بقوة لكي تستفيقي ...

توقفت عن القراءة , وزفرت بمرارة عندما تذكرت سحر وانشغالها بمرض والدتها , حدثت نفسها قائلة :

ـ هذا تمامًا ما حدث يا توأم روحي , لقد مزقتي جدراني لأستفيق لكنني استفقت على كابوس حقيقي أرجو أن أتمكن من التصدي له وحدي .

فجأة رن هاتفها , اتجهت نحوه , وما إن رأت الاسم حتى احتضنت الهاتف كما لو أنها وجدت ضالتها باسم المتصل و كأن مجرد الاسم بعث بعض الطمئنينة التي تحلم بها .

ـ كيف حالك يا جميلتي ؟ ... قالتها سحر , فازدردت أمنية ريقها وحاولت التماسك و التصنع بأن كل شيء على ما يرام , لا سيما أنها تعلم جيدًا حالتها بعد مرض والدتها , ردت عليها :

ـ بخير , الحمد لله ... كنت سأتصل بكِ لأطمئن على خالتي , كيف حالها ؟

ـ بخير , ترسل لكِ سلامها الحار وتشكركِ على الحلوى والأزهار ... قالتها سحر وهي تنظر لوالدتها التي ابتسمت لها وهي تهدهد الصغير .

تنهدت أمنية قائلة :

ـ لا شكر على واجب , فهي أمي .

ـ قلت لها ذلك , صدقيني ... قالتها سحر وخرجت من غرفة والدتها لتنعم ببعض الخصوصية , تابعت مخمنة : أمنية ، هل أنتِ بخير ؟

صمتت أمنية لبرهة حتى تواصل تصنعها , ثم قالت :

ـ نعم , اطمئني ، تنحنحت سحر قائلة :

ـ أنتِ لا تكذبين عليّ ، أليس كذلك ؟ لم ترد أمنية فتابعت سحر : أنا انتقلت من غرفة أمي , فلا تقلقي لن تعرف أي شيء .

أطلقت أمنية تنهيدة , وصلت حرارتها عبر الهاتف لسحر , فتأكدت سحر من صدق حدسها فاستطردت :

ـ أنتِ لست بخير أبدًا يا حبيبتي , أخرجي ما يطبق على صدرك , دعيني أشاركك هذا الألم ، لم ترد أمنية , فتابعت سحر :

ـ يا إلهي ، أنتِ تقلقينني عليكِ هكذا ! لابد أن هناك أمر عظيم قد حدث .

ردت أمنية وسط تقطع أنفاسها قائلة :
ـ ما الذي يعجبك في شخصيتي يا سحر ؟ هل أنا إنسانة جيدة؟

ـ ماذا ؟! ... قالتها سحر في عدم استيعاب ... فأعادت أمنية عليها السؤال , مما زاد حيرتها فسألتها : ما الذي يحدث يا حبيبتي ؟

ـ أرجوكِ سحر أجيبيني ... تابعت أمنية وقد تساقطت منها بعض العبرات :
ـ أود أن استمد من إشادتك القوة والإيجابية .

ـ وستحكِ لي مايحدث عندك ؟ ... قالت سحر

ـ لكن ليس الآن ... قالتها أمنية , لم تود إخبارها في الوقت الراهن كي لا تؤثر على ردة فعلها أو قرارها , فهي تتوق لمعرفة كيف سيجري الأمر لو لجأت لأمنية عوضًا عن اللجوء لسحر , رغم أنهما توأم روح لكنها لم تجد في نفسها الرغبة للفضفضة وكأن قلبها قبض على مكنوناته و طوقهم بسياجه الحامي ولن تسمح أمنية بإفلات أي منهم إلا بعد موافقته علّه يفتح ذلك السياج فتتحرر الأسرة المطبقة
عليه , فردت سحر وهي تفرك جبهتها فهي غير مقتنعة بما تسمعه من رفيقتها لكن بالنهاية تود راحتها :
ـ إذن اذهبي واحضري ورقة وقلم لتكتبي كيف أراكِ بعينيّ ؟

اتجهت أمنية لغرفة المكتب وأخرجت دفتر مذكراتها , أمسكت القلم واستأنفت كتابة ماتمليه عليها سحر , تتواثب دقات قلبها مع كل سطر , تضحك تارة وتبكي أخرى لكن في النهاية أعجبها الأمر ومدها بما تحتاجه , وكأن ذلك الاتصال أتاها في الوقت المناسب ليربت على قلبها ويسكن ألم نفسها التي تنزف في صمت ولا أحد يعلم بما أصابها سوى خالقها .

.....

عندما تضع المرأة أمرًا ما في رأسها , لن تتركه مهما فعل , لأنه صار هدفها المنتظر , ستحارب لأجله مهما كلفها الأمر , وستجابه كل من يعترضون طريقها بكل ضراوة .

قامت بتحميل الصورتين وأرفقتهما ضمن منشور مميز على صفحتها الفيسبوكية ثم أشارت باسمه ليظهر المنشور على صفحته , وما إن فعلت أطلقت ضحكة عالية وصل صداها للموجودين بالصالة , فأتت على إثرها رنا تسألها :
ـ ماذا حدث ؟ رمقتها بطرف عينها ثم عادت لهاتفها , فاقتربت رنا منها ثم مدت رأسها نحو

الهاتف علّها ترى ماتراه أختها , لكنها خبأت الهاتف وصاحت :
ـ ماذا تريدين الآن ؟ عادت رنا للوراء ثم سألتها :
ـ ماذا تفعلين ؟

ـ وما شأنك ؟ .... قالتها شمس وهي رافعة أحد حاجبيها , فتحركت رنا خلفها ثم انتزعت منها الهاتف بسرعة وركضت نحو الشرفة , فركضت خلفها شمس وهي تصرخ :
ـ هاتيه , أيتها المتطفلة .

تمكنت رنا من رؤية ماأرادت قبل أن تستعيده شمس , امتقع وجهها وطالعت أختها بنظرات مستنكرة ثم هتفت بها :
ـ لِماذا ؟
أولتها شمس ظهرها ولم ترد , فتابعت رنا بصوت عالٍ :
ـ متى ستستفيقي من تلك الغفلة ؟ لم أرى أحد يصر على فساده وتدميره لنفسه كما تفعلين .

جائت سعاد على صوت رنا , نظرت للفتاتين قائلة :
ـ ما الذي يحدث هنا ؟

اتسعت حدقتا شمس و احمر وجهها لأنها لا تود سماع المزيد من النصائح , فقالت : ـ لا شيء ، ضيّقت سعاد عينيها قائلة :
ـ إذن لماذا تصرخان ؟ ... تابعت ساخرة : لقد غلبتما الشباب بصراخكما , أين الهدوء الذي لابد أن يتسم به الفتيات ؟... تأففت شمس وأشاحت ببصرها , بينما نظرت رنا للأرض من فرط إحراجها .

ـ أنا آسفة , أمي ... تابعت رنا وهي تفرك يديها :
ـ ولكن ... قاطعتها شمس قائلة :
ـ هي من استفزني بتطفلها , تقتحم حياتي العملية وعلاقتي بزملائي .

قطبت رنا جبينها قائلة : زملائك ؟! أيتها الكاذبة .

صاحت شمس وهي تشير بسبابتها :
ـ بل أنتِ من يكذب هنا , ولست أنا .. استكملت بصوتها الذي بلغ مداه :
ـ ماذا تريدين منّي ؟ دعيني وشأني ...

ـ أود أن أعلم من إحداكما ما الأمر , والآن .... قالتها سعاد وهي تطالع الفتاتان ... فقالت شمس بنفس ذات النبرة العالية وهي تشير بيديها :
ـ دعاني وشأني , لن تهدآ حتى أترك لكما البيت و أذهب لأبي .

ما إن انتهت من جملتها حتى غادرت المكان وهي تشعر بنشوة انتصارها في الحوار وعدم البوح بما فعلت , تاركة سعاد تسمرت مكانها وامتقع وجهها وتبادلت النظرات الواجمة مع رنا ثم قالت بصوتٍ أقرب للهمس :
ـ لأبيكِ ! ... لأول مرة تنطقها ابنتها , شعرت وكأن الأرض اهتزت من تحتها , ظل عقلها يسأل : هل ممكن تفعلها حقًا ؟ ألهذه الدرجة تكرهك ياسعاد ؟ كل ما فعلته وتحملته لأجلهما ذهب سدى ؟؟؟ طافت الأسئلة حول عقلها وهي واقفة لم تحرك سوى عينيها التي تنظر عبرهما للصغرى التي تخشى أن تكرر ماقالته أختها للتو .

اقتربت رنا منها , طوقتها بذراعيها قائلة :
ـ لا تخشي يا أمي , لست مثلها ... نظرت لها سعاد بعينيها الدامعة ثم استأنفت بكائها الحار, يشتعل قلبها كلما تذكرت ماضيها القاتم رفقة زوجها وتحملها شتى ألوان الذل تحت حجة أن لديها طفلتان تحتاجان لوجود أم وأب تحت سقف واحد , ومع ذلك ركض خلف أخرى ليترك ذلك السقف فوقها فقط , لم تطلب الطلاق ليكون هناك أمل في عودته من أجل ابنتيها لكن أنّى ذلك في زواجه من صاحبة النسب التي رفعته لعالمها المحاط بكل الطموحات فينقطع آخر أمل له في العودة وتصبح علاقته بابنتيه مجرد مصرف لاغير ، ظلّت تفكر وتحدث نفسها وسط نشيجها :
ـ هل حقًا ضاع تعبي سدى ؟ هل حرصي على إبقاء آخر خيط بيننا للعودة , كان محض وهم ؟؟ لم تتذكر ابنتي أي تضحيات قمت بها لأجلها , هل كنت عمياء عن إبصار الحقيقة ؟؟

.....

لن تظهر حقيقة الشخص إلا عند الغضب , حينها سيتكلم بلسان حال نفسه التي لطالما اختبئت خلف جدار التجمل , حتى وإن عز , لكنه سيبقى أفضل من الحقيقة .

كان جالسًا بجوار والدته التي اندمجت مع ذلك الفيلم القديم , يطالع هاتفه لكنه تسمر فجأة و ازدرد ريقه بصعوبة ثم تمتم قائلًا وهو يجذ على أسنانه :
ـ أيتها الحمقاء السافلة ! ماذا تريدين منّي ؟؟

انتبهت له والدته , فنظرت له قائلة :
ـ ماذا هناك ؟
ـ لا شيء ... قالها ثم هبّ واقفًا وانطلق إلى الحديقة , أخذ يقلب هاتفه على اسمها ثم ضغط اتصال .

ـ أهلًا , آدم .... قالتها وهي تضحك ملىء فيها ، صكّ أسنانه قائلًا :
ـ ما الذي فعلته للتو .

تصنعت البلادة قائلة :
ـ أنا !

ـ امحي المنشور الآن .... صاح بها وقد احمر وجهه من الغضب

ـ أي منشور ؟! تابعت وهي تطرق بكفها على ساقها كاتمة ضحكاتها :
ـ لا أفهمك ! هتف بها قائلًا :
ـ لم أرَّ في حياتي امرأة أحقر منك .

امتقع وجهها وتجهمت مما سمعته فصمتت , تابع والغضب الهادر يتخلل كلماته :
ـ ماذا تريدين من رجل متزوج ؟ أين كرامتك من رفضي لملاحقتك لي ؟ ما الذي ينبغي عليّ فعله لتبتعدي عني ؟

لم تتمكن شمس من كبح دموعها , قالت وسط نشيجها :
ـ ألهذه الدرجة تكرهني ؟

ـ أنتِ من تصرعلى مقتك وليس كرهك ... قالها باشمئزاز .

ظلّت تبكي ولم ترد , شعرت بوخز في قلبها , لم تظن أن ردة فعله ستكون بهذه القسوة , منّت نفسها بقربه وتخيلت أن كل ماتفعله سيساعدها في ذلك .... بتر صمتها قائلًا بصوتٍ أجش :
ـ امسحيه الآن .

ـ وإن لم أفعل ؟ .... قالتها وهي تكفكف دمعها .

تنفس بعمق , قبل أن يطلق خياره الأخير في وجهها , قال بصوت أقرب لفحيح الأفعى :
ـ سأتوجه للسيد رجب القاضي لأحدثه في الأمر , و لنرى معًا ردة فعله .

ابتلعت غصتها بصعوبة , ثم قالت بصوتها الباكي :
ـ تهددني يا آدم ؟

ـ نعم أهددك. تابع بنبرته الحادة : احفظي ماء وجهك وافعلي ما أمرتك به ، والآن .

ـ حسنًا , سأفعل ... قالتها وسط نشيجها , ولم تجد منه سوى غلق الهاتف في وجهها مما زاد بكائها , احتضنت وسادتها , دسّت وجهها فيها علّها تتشرب حزنها مع الدموع .

.....

مهما حاولنا طمس الأدلة المودية للشبهات , ستبقى هناك خيوط رفيعة تقود إلى صاحب الشبهة , وما أصعب من أن يكون أقرب المتضررين هو الشاهد على ذلك .

داخل غرفة المكتب , كان منهمك بأوراق المناقصة الأخيرة , تذكر شيئًا فأمسك هاتفه ليتحدث إلى أيمن , بينما كان مازن يجلس على الكرسي المواجه للمكتب .

ـ أود منك البحث عن أكبر محامي في مصر .... قالها جمال وهو يتفحص الأوراق المصفوفة أمامه .

ـ وماذا عن أستاذ سيد ؟ ... رد عليه أيمن

ـ لن يكون خيارنا الأمثل الفترة القادمة ... تابع جمال وهو ينظر لمازن الذي كان مشغول بهاتفه : بعد أن انشغل بمكتبه الخاص صارت شئون شركتي على هوامش أهدافه , لذا أود من هو أمهر و أكبر منه .

ـ حسنًا , يا خالي . هل تود شيئاً آخر ؟

ـ أن تسرع في الأمر وتذهب إليه حالما تجده .... قالها جمال و أنهى المكالمة ليجد مازن قاطبًا جبينه , يطالع هاتفه بعينيه التي كادتا تتركا محجريهما , تمتم قائلًا :
ـ أيها الوغد ، عقد جمال مابين حاجبيه قائلًا :
ـ ماذا تتابع ؟

لم يسمعه مازن , ظلّ يتلمس الهاتف بأصابعه وكأنه يفعل شيء ما , فأعاد جمال عليه السؤال , التفتت له بنظراته الواجمة ولم يرد .

ـ بُني ! هل أنت بخير ؟ ... قالها جمال وهو ينظر لمازن وهاتفه .

ـ بخير .. بخير , لا تقلق ... تنحنح متابعًا : استأذنك للخروج للشرفة من أجل عمل اتصال كي لا أزعجك ثم أعود لاستكمال الحديث عن المناقصة .

أشار جمال ناحية الشرفة قائلًا :
ـ تفضل يا مازن , سأنتظرك .

داخل الشرفة , انتظر حتى أتاه صوتها الممتزج بالحنين والحزن :
ـ أهلًا ، مازن .

ـ أوحشتني يا أمنية لذا هاتفتك ، تنهدت قائلة :
ـ وأنت كذلك يا أخي , لا حرمني الله سماع صوتك .

تنحنح قائلاً :
ـ ماذا تفعلين الآن ؟

ـ ماهذا السؤال الغريب ؟! ... تابعت ضاحكة : أقرأ رواية .

ـ جيد .... تابع وهو ينظر للمارة : لا أعلم سبب ابتعادك عن عالم الفيس بوك ؟

ـ لأنه مهما عظم سيبقى عالم افتراضي ... تابعت متحمسة : و أنا أحب العالم الحقيقي لأنه يكشف لي كل الحقائق .

ـ وكذلك الافتراضي يفعلها أحيانًا , صدقيني .

ـ اممم , لا أظن ذلك يا مازن , ولم أجد نفسي فيه لذا أغلقت حسابي منذ شهور.

ـ أخطأتِ يا أمنية بابتعادك .
ـ أخطأت ؟! سألته بعدم استيعاب لما قاله .. ازدرد ريقه ثم حاول تغيير مسار الموضوع قائلًا :
ـ كيف كانت روايتك ؟

ـ جميلة جدًا يا مازن , استمتع برفقتها ... وماذا عنك ؟

زفر بارتياح ثم قال :
ـ أنا كنت مع أبي في المكتب لمناقشة كل مايخص المناقصة الجديدة .

ـ وفقكما الله يا حبيبي , بلغ أبي و أمي سلامي الحار ومدى اشتياقي لرؤيتهما .

.....

أقرب طريق لحافة الهاوية هو ضياع الثقة بالنفس , لأنها ستمحو هوية صاحبها وتجعل منه أضحوكة لنفسه و ذوية ... وبالنهاية ليس له مفر من السقوط ...

رتب هندامه أمام المرآة , ونثر عطره وهو يغني بإحدى الأغاني الرومانسية , كانت تطالعه بغيظ و الشرر يتطاير من عينيها , نظر لها عبر المرآة قائلًا :
ـ ما بالك يانور تنظرين لي هكذا ؟!

لم ترد , فتابع : ألن تقومي بإعداد الفطور ؟

ـ لا , سأستأنف حمية غذائية لإنقاص الوزن .

ـ حقًا ؟ ... قالها ثم استدار لها والبسمة على فيه .

سألته بخبث :
ـ هل يعجبك ذلك ؟

ـ يعجبني ؟ ... تابع وهو يشير بيديه : بل يجعلني أهيم عشقًا .

ـ ماذا ؟

ـ ألم أقل لكِ مسبقًا أنني أحب الرشاقة ؟ هزّت رأسها نافية ثم قالت :
ـ لا أتذكر ؛ لكنني قلت بالفعل ... قالها وهو يتفحص قسماتها الغاضبة .

لم ترد , فقال ضاحكًا :
نور ، أظنك تتعذبين لمثل ذلك القرار ....

رمقته بعينيها وظلّت صامتة , فباغتها قائلًا :
ـ توقعت ردة الفعل تلك إن فكرتِ بحميةٍ ما ... أشار لها بيده مستكملًا : هيا يا نور ! قومي و أعدي ما لذ وطاب وأنسِ أمر الرشاقة الآن , فوجهك ينذر بالخطر المحدق إن تابعت أي حمية .

كانت تسمعه , وتطالع قسماته , ضحكاته , ذلك البريق المطل من عينيه , كل شيء يشي بما أخبرها به حدسها , تدفقت الأفكار لعقلها لتمتزج بمخيلتها فتصنع مشاهد لن تطيق رؤيتها أبدًا , شعرت بالصداع فعادت لسريرها و دثرت نفسها بالغطاء علّها تنسى ما رأته ، اقترب منها ثم هزّ دهون ذراعها قائلًا : نور ! ألم تستيقظي منذ دقائق ؟

لم تجبه , فتابع : لقد توقعت فشل خطة الرشاقة تلك ... ليتك لم تفكري بها , سنواجه على إثرها أيامًا سوداء الفترة القادمة .

انتظرت حتى خرج من أجل دروسه الخاصة , نثرت عنها الغطاء ثم قامت تفتش في الغرفة يمنة ويسرة , ظلّت هكذا حتى قلبتها رأسًا على عقب , تفعل كل ذلك بلا هدف , تود إيجاد أي شيء يثقل ميزان شكوكها , وقفت بمنتصف الغرفة تمشط المكان بعينيها الواسعتين , واضعة كفيها على رأسها , تلتقط أنفاسها بعد ذلك المجهود الشاق , نظرت أمامها لتجد انعكاس صورتها في المرآة ، اقتربت أكثر , تمسح جسدها بعينيها , طوقت نفسها بذراعيها قائلة :
ـ تحب الرشيقات أيها الحقير ، سأفضحكما عن قريب .

عندما تذكرت منظرهما بالحديقة , بكت , ثم طرقت على الإطار الخشبي للمرآة بقوة مما جعله يهتز فظهرت من خلفه طرف ورقة لم تلحظها ... قالت :
ـ كيف تجرؤ ؟ سأجعلك تتمنى الموت ألف مرة .

مسحت عينيها بيديها , ثم عادت للمرآة , فلمحت طرف الورقة , عقدت جبينها سائلة :
ـ ما هذه ؟ .. تلمستها بأصابعها وحاولت شدها لكن بدت أنها ملتصقة , سحبت المرآة ناحيتها فوجدتها مثبتة بشريط لاصق , تمكنت من نزعها , فتحتها وإلتَهمت سطورها لتشعر برجفة قوية في أوصالها وكأن هدفها قد تحقق بظهور تلك الورقة , وها قد صار استقرار العائلة على المحك بسببها , صرخت بأعلى صوت :
ـ لاااااااااااااااا ... علّها تستفيق من ذاك الكابوس .

الفصل الرابع عشر

(طعنة)

.....

أيا عشقًا !

به أيقنت أني على قيد الحياة

أيا حبًا !

أنار الدرب .....

فحار القلب ..

من أين يبدأ ؟

حتى يصل لمنتهاه ...

حيث قلبك , لأسكن فيه ..

و ارتوي ...

من نهر غرامك ...

فهو لن يرى سواه

حللتِ أرضي المقفرة ...

فأزهرت ...

وزرتِ كابوسي المقيت ..

فلونته كحلم العيد ...

آه من ذاك الحلم !

يسعدني ... يسمو بي ... يأسرني

في بحر الحب ..

لأبقى معك طول العمر

فأنتِ العشق !

الذي أيقنت به أني على قيد الحياة

.....

.....

نظن أننا أوصدنا أبوابنا جيدًا , فنأمن للحياة ونوقن بأن لا سبيل للمصائب , لكن ماذا إن قام فلذات الأكباد بفتح الأبواب مرحبين باستقبالها رغمًا عنا ؟ وسيبقى السؤال الأصعب حائرًا ومحيرًا , أيهما أعظم ؟ ألمنا على مصابنا ، أم ألمنا على من اقترفها ؟

إلى من علمتني معنى العشق حتى صرت متيمًا بهواها ...
عرفت معنى الحب بوجودك في حياتي ,بل علمت أنني على قيد الحياة حينما رأيتك .

لقاؤنا الأول هو المنحة التي منحني إياها الله في أيامي المقفرة , لأنه طريق البداية لرحلة عشقنا الأبدية.

سأظل على قيد غرامك يا أمنية حتى ينتهي بنا الحال ونحن تحت سقف واحد .

أووه , مجرد كتابة تلك الكلمات تشعرني بالنشوة , فبها قد لامست عنان السماء , كيف لا ؟ و أنا متيم بأمنيتي الجميلة ... سأحتفظ بتلك الورقة الحبيبة خلف المرآة كما طلبتِ منّي حتى استمد منها السعادة .

كلما نظرت في المرآة , يكفي أنها تحمل أغلى ذكرى وأحبها لقلبي ...

.....

ظلت تقرأها مرات ومرات وهي تصرخ : لاااااا , تبكي دون توقف حتى تورمت عيناها , صاحت قائلة :
– زوجي و زوجة أخي ؟؟؟؟ .... أخذت تلطم وجهها ثم شقت جلبابها حتى ذيله , تهاوت الأرض من تحتها فخرّت جالسة لتكمل نحيبها ولطم وجهها الذي أصبح كجمرة من جهنم ... فجأة دخل عليها الولدان و أعينهما قد غارت من الفزع لدى رؤيتها بهذا المنظر المزري ,

اختبئ علي خلف أخيه وقد وضع كفيه الصغيرين على وجهه وجسده يرتجف من هول ما رأى بينما ظلّ عمر يحدق في أمه لدقائق ثم سألها :
ـ ما الذي حدث ؟ ظلّت تبكي وتصرخ بالآهات ... فقطب جبينه قائلًا :
ـ لماذا قلبتِ حال الغرفة هكذا ؟ ولماذا تبكين يا أمي ؟

ـ دعني وشأني .... قالتها وسط نشيجها ... فقال :
ـ تشاجرتِ مع أبي كالعادة ؟

صاحت به :
ـ أغربا عن وجهي ... ركض الولدان خارج الغرفة في فزع لأنهما يعلمان جيدًا ماسيحدث لهما إن عارضاها وهي بتلك الحالة .

فجأة رن هاتفها حيث كان بالصالة , اتجه عمر نحوه ثم ردّ بلهفة علّها النجدة التي ستأتي لتنقذهما , ما إن وجد جدته على الجانب الآخر حتى قال :
ـ تعالي يا جدتي بسرعة !

ـأين أمك يا حبيبي ؟ سألته زينب .

ـ ففففففف في غرفتها تتتتتتصرخ و تتتتلطم ... تابع بتلعثم : لللللل لقد مزقت ملابسها ووووقلبت الغرفة ، شهقت زينب وطرقت على صدرها قائلة :
ـ لماذا ؟... هداكِ الله يانور

ـ لالالالا أعلم ياجدتي .

ـ ادخل لها ياحبيبي و أعطها الهاتف لأحدثها .

ـ لل لكن ستصرخ في وجهي .

ـ قل لها جدتي على الهاتف ولن تفعل , لا تقلق .

عاد للغرفة , وأطل برأسه من خلف الباب , عندما رأته صاحت :
ـ ماذا تريد ؟ رفع يده ملوحًا لها بالهاتف ثم قال :
ـ جدتي زينب على الهاتف .

ـ ومن سمح لك بالرد على هاتفي ؟ قالتها وهي تنهره بعينيها الحمراوتين ،

صمت , والخوف على محياه من أن تضربه , فهتفت به :
ـ هاته ، أعطاها إياه بيده المرتجفة ثم ركض خارج الغرفة .

ـ مالذي حدث لكل ذلك يانور ؟ تابعت زينب بنبرة غاضبة : ما ذنب الولدين في كل ماتفعلينه ؟ لقد تقطع قلبي على الفزع الذي سمعته في صوت عمر ، ألم يرق قلبك لخوف الصغيرين ؟

واصلت نور بكائها ... فقالت زينب :
ـ هيا ، قومي من مكانك وجهزي نفسك والولدين للقدوم , أنا في انتظاركم .

أطلقت نور الآهات وسط نشيجها , مما زاد قلق زينب وشعرت أن هناك أمر عظيم , فقالت :
ـ تعالي , وسنجد حل لكل ماحدث .

صاحت نور :
ـ بل سينتهي أمر العائلة إن علمتم .

ـ ماذا ؟! عادت نور لبكائها الذي لا ينتهي , فأعادت زينب عليها السؤال :
ـ ما كان قصدك يانور ؟

ـ أمنية .

ـ مابالها ؟

قالت بصوت مكتوم , وسط تقطع أنفاسها :
ـ على علاقة بزوجي .

ـ أعيدي ماقلته للتو , لم أفهمك .... قالتها زينب علّها تستوعب ماسمعته , وعندما أعادت نور كلامها , صاحت بها زينب : عيب عليكِ ... أنسيتِ أنها زوجة أخيكِ ؟! أم نسيتِ أنكِ ستورطين زوجك بهذا الكلام؟ أي غيرة تلك التي ستدفعك لتدمير العائلة بأكملها ؟ كفي عن اختلاق المشكلات .

ـ وإن كان معي كل الأدلة التي تؤكد كلامي ؟

ـ أدلة ؟؟ ..... قالتها زينب ومازالت غير مصدقة لما سمعته .

ـ نعم , أدلة سأفضح بها الساقطان .

ـ تريثي يا نور , وفكري فيما تقولينه ... قالتها و شعرت بوخز في رأسها من ذاك الكلام .

ـ في أي شيء أفكر ؟ و كل شيء معي يدينهما ... ضحكت بمرارة : سآتي و أخبرآدم , لتتم المواجهة .

ـ آه ، ياويحي ... أين كانت تختبئ لنا تلك الفضائح ؟ .... تابعت راجية : أرجوكِ لا تفعلي .

ـ ألهذه الدرجة تحبينها ؟ سألتها نور وهي تمسح دموعها .

ـ بل أحبك وأحب أخيك , ولا أريد أن تدمري حياتكما و حبكما بسبب وهم .

رفعت نور صوتها :
ـ ليس وهمًا .

ـ وهل سألت محمود لتتأكدي منه أولًا ؟ سألتها وسط تقطع أنفاسها وكأنها كانت تركض .

أخذت نور طرف قميصها الممزق ومسحت به أنفها ثم قالت :
ـ لا ؛ لأنه لن يقول الحقيقة ، حاصرتها زينب بسؤالها :
ـ ومن أدراكِ أن ما معك من أدلة حقيقية ؟

عقدت نور حاجبيها وتأففت قائلة :
ـ إنها بحوزتي , وسأطلعكم عليها .

ـ أرجوكِ يا نور ! لا تخبري آدم .

ـ بل سأخبره وأخبر الجميع ... قالتها نور بتحدٍ ولم تلق لرجاء والدتها بالًا .

أطلقت زينب أمام ابنتها سؤالها الأخير :
ـ وهل أنتِ مستعدة للطلاق ؟

ـ سأستعد لأي شيء في سبيل أخذ حقي و استرجاع كرامتي .

ـ يا إلهي استرنا ، قالتها زينب وقد وضعت كفها على رأسها علّها تخفف الصداع الذي زاد أجيجه مع كلمات نور , فقد استأنفت المصائب قرع بابهم الذي لطالما أحكمت إغلاقه في وجوه البشر , لتأتيها الفضائح من حيث لا تدري وهي في عقر دارها .

.....

لا شيء يضاهي وجود قلب يخاف عليك , يدعو لك ويحبك بكل قطرة دماء تمر عبر شراييه , حتى إن قسوت عليه , سيحزن ويغضب منك لكن سيظل يحبك لأن معينه لا ينضب أبدًا , فقد جُبِل على ذلك , إنه باختصار شديد قلب الأم ....

على مائدة الإفطار كادت رنا تنتهي من طبقها بينما فضّلت سعاد البقاء شاردة ولم تأكل لقيمة , بترت رنا شرودها قائلة :

ـ أمي ، فانتبهت لها سعاد وهمهمت لتعلمها بتركيزها معها .

ـ لم تأكلي شيئًا ... قالتها رنا وهي تشير بسبابتها على الطعام .

رفعت سعاد كفها قائلة :

ـ لست جائعة , كلي أنتِ بالهناء والعافية .. التفتت لغرفة شمس ثم سألتها :

ـ ألن تذهب أختك للعمل اليوم ؟ رفعت رنا كتفيها بلا اهتمام قائلة :

ـ لا أعلم ، تفحصت سعاد زجاج باب غرفة شمس ثم قالت :

ـ الغرفة مازالت مظلمة , يبدو أنها لم تستيقظ بعد ..

ـ إذن لن تخرج اليوم ... تابعت رنا وهي تلوك الطعام : تجهز نفسها باكرًا إن نوت الخروج .

نظرت سعاد لساعة الحائط قائلة :

ـ لقد تأخر وقت ذهابها للعمل ... تشعر بالقلق حيال غياب شمس رغم أنها ليست المرة الأولى التي تتغيب فيها , لكن قلبها يحدثها بأن هناك أمر سيء حدث لابنتها .

أومأت رنا بنعم فتابعت سعاد :

ـ لِمَ لا توقظيها يا رنا ؟ أشارت رنا على نفسها مستنكرة :

ـ أنا ؟؟... لست مستعدة لاستئناف وصلة توبيخ أخرى هذا اليوم .

تنهدت سعاد قائلة :

ـ لم تخرج من غرفتها منذ مشاجرة الأمس يا رنا .

ـ لعلّها فعلت بعد أن نمنا ... قالتها رنا غير عابئة بقلق أمها , ثم تابعت : لا تنسي أننا ننام باكرًا .

ـ من أين جئتِ بهذه القسوة ؟ سألتها سعاد

ـ منها يا أمي ... قالتها رنا وأشاحت ببصرها حتى لا تلتقي عينا والدتها .

ـ أتعالجين الخطأ بخطأ مثله يا رنا ؟

هزّت رنا رأسها نافية ثم قالت :
ـ لا , لكننا أسرفنا في الحنو عليها حتى اعتادت عليه ولم تشعر بقدره وهذا هو الخطأ الحقيقي .

قامت سعاد من مكانها , اقتربت من رنا ثم أحاطتها بذراعيها قائلة :
ـ لا تسمحي للقسوة بالعبور إلى جدران قلبك , أنتِ طيبة بالفعل يارنا وكذا شمس لكنها متأزمة نفسيًا لفراق أبيها وهو على قيد الحياة , فهل سنتركها تعاني ذاك الألم وحدها ؟ أم نتحملها ونحتويها ؟

عقدت رنا مابين حاجبيها قائلة :
ـ تقولين هذا بعد إهانتها لكِ , وطريقتها المستفزة في الحديث ؟؟

ـ إن لم أتحملها و أنا أمها , كذلك أنتِ أختها , من سيتحملها ؟ تابعت سعاد وهي تربت على كتف رنا : هيا اذهبي لتوقظيها من أجل الفطور.
ـ ستثور عليّ يا أمي إن فعلت , فهي تصحو متأخرة حال إجازتها ... استكملت رنا وهي تمسح فمها من أثر الطعام : كما أنني سأخرج بعد قليل , وعندما أعود سأتحدث معها .

ـ إلى أين ؟؟ سألت سعاد

حاولت رنا تغيير الموضوع قائلة :
ـ ألا تودين ابتياع بعض المعلبات من أجل الثلاجة ؟

بلى , أود .... تابعت سعاد وقد ضيّقت عينيها قائلة :
ـ لكن منذ متى والتسوق الخاص بالبيت يعجبك ؟؟ تنحنحت رنا قائلة :
ـ إن لم يكن لكِ رغبة في ذلك لن أذهب .

رفعت سعاد كفيها قائلة :
ـ لا , بل يعجبني الأمر .... صمتت لبرهة و كأنها تذكرت شيء : ولكن , دعيني أكتب لكِ كل ما نحتاجه حتى لا تنسي شيئًا .

طرقت رنا بكفها على رأسها ضاحكة ثم قالت :
ـ يا إلهي ، هل تفعلين ذلك في كل تسوق ؟ أشارت سعاد بسبابتها نافية , قالت :
ـ لكنها المرة الأولى لكِ .

ـ قولي لي كل ماينقص البيت ... أكملت وهي تشير على رأسها : سيتم حفظه في هذا الدفتر .

.....

هناك من تربيه الأيام , وآخر تربيه المواقف , أما ذاك ففعل والداه , وهذا يربيه الأصدقاء ليكون نسختهم , لكن ماذا عمن احتضنته الذكريات لتعيد تربيته بعدما شاب ؟ هل سيجدي ذلك نفعًا ؟ أم أنه محض ألم يضيف لقلبه مزيدًا من العذاب ؟؟

كان يختبئ خلف المكتبة , فنحافة جسده ساعدته على المرور بسهولة من خلفها , بحث عنه الجميع وخاصة نور لتقدمه على طبق من فضة لوالدهم حتى يتلقى نصيبه من الضرب المبرح , بعد أن وشت عنه عندما رأته يلعب في وقت الراحة بفناء المدرسة مع إحدى زميلاته , لطالما تمنت أن يُضرب كما يحدث معها وأختها , لاسيما أنه مميز عنهما .

تقطعت أنفاسه ولازال في مكانه والكل يمشط البيت بحثًا عنه , رأته زينب ولم تحرك ساكنًا حتى لا يضربه أباه , لكن هيهات فبالرغم من محاولاته المضنية في كتم أنفاسه , تمكنت نور من سماعه , فأمسكت به ثم قامت بسحبه وكأنها تجره إلى جهنم , وهو يرتجف من الخوف ويترجاها :
ـ أرجوكِ يا نور، اتركيني .. لن أفعلها مجددًا صدقيني لن أفعلها ... سأعطيكِ نقودي ... أرجوكِ ! ... ركضت دينا نحوه حاولت تخليصه من قبضة نور لكنها دفعتها بيدها لتسقط أرضًا ..

ـ اتركيه ... قالتها زينب , لكن سبقها ظهور جابر بجسده الضخم و كأنه كان لا يجيد سوى التمرن في الصالات الرياضية , قال بصوته الأجش :
ـ هاتيه يا نور .

ازدردت زينب ريقها , ثم اقتربت منه تجذبه من نور و قالت :
ـ ما الذي فعله لكل ذلك ؟ ستقتله لأنه لعب مع فتاة ؟ أنسيت أنه ابنك الوحيد ؟

صاح جابر وهو يشير بيديه :
ـ اصمتي يا امرأة و لا تتكلمي عندما أتحدث وإلا لقنتك درسًا عنيفًا بعد أن انتهي منه .

بلعت زينب غصتها وسكتت , وتركت العنان لدموعها , فاستكمل بنبرته الغليظة: ـ أوليس لعبه مع فتاة جرم ؟ ألم أحذرك يا ولد من التعامل مع الفتيات ؟ كيف ستكون رجل إن لعبت معهن يا غبي ؟

التقطه من نور وصبّ عليه الصفعات , ثم قام بركله كما الكرة ليطير مستقرًا من حيث أتى بجوار المكتبة وهو يصرخ من آلام ظهره , و وجهه الذي اشتعل من أثر الضرب , ركضت زينب نحوه واحتضنته باكية , شاركته دينا البكاء , واضعة كفيها على عينيها وهي تصيح قائلة :

ـ يكفي يا أبي ، أولسنا بنات ؟ لما تريده لا يلعب مع زميلاته ؟ بينما كتمت نور ضحكاتها خلف كفها على ذاك المنظر الذي تحبه , فهو قلما ضُرب ليس مثلهما هي ودينا .

ـ لأنه رجل , أيتها الحمقاء ... تابع متوعدًا إياه : إن سمعت أنك لعبت مع إحداهن سأقطع رقبتك , رفع آدم كفيه وجسده مازال ينتفض بعد سماع ذلك الوعيد , قال وسط بكائه :

ـ لا ؛ لن أفعلها مجددًا ... لللللن لن أفعلها .

زفر بضيق لدى مرور تلك الذكرى الأليمة على مخيلته , والتي على أثرها كره التعامل مع الجنس الآخر , حدث نفسه قائلًا :

ـ رحمك الله يا أبي ، لقد تركت لي أسوء ذكرى في حياتي على الإطلاق , تحسس ظهره على ذكر تلك الواقعة وكأنه لازال يتألم كلما استرجع عقله تيك الذكرى .

حاول تبرير ما فعله والده بأنه يريد مصلحته ويقوم بتربيته , ولم يكن صارمًا معه فقط , بل مع الجميع أيضًا , وكيف تغير عندما دار به العمر ليتركه في دائرة المرض , فيضعف و تقل سيطرته , ليكن آدم هو الأقرب إليه , فيلمع عقله بوصايا والده التي علقها في أذنه قبل وفاته , كانت آخرها .... لا تطلق لقلبك العنان في حب امرأة ، تعجب من تلك النصيحة فسأله :

ـ لماذا؟!

ربت والده على كتفه قائلًا :

ـ لأنك حينها ستفقد سيطرتك عليها ... وليس هناك أسوء من ذلك ...لن تكون أضحوكة المجالس فقط , بل سيحدث الأعظم وهو أنك لن تتعدى حدود طفل في بيتك .

أومأ آدم بنعم ليتفكر كلام والده , فاستكمل جابر :

ـ أما ترى كيف تخافني أمك ؟ صمت آدم لأنها لم تعد كذلك بعدما مرض ... فتابع والده : أريدك أنت كذلك تسيطر على من ستتزوجها , وإياك ثم إياك أن تظهر لها حبك , لأنها ستتمرد .

حاول تنفيض سيل الذكريات الذي قرر إغراق عقله , في هذا الوقت بالتحديد , كل شيء أمامه مبهم , يشعر أن هناك أمرًا تخفيه أمنية , لكن كيف يستجوبها عن ذلك ؟

لم يجد في نفسه القدرة على استكمال يومه بالشركة , أغلق الحاسوب , ثم قام من مكانه ليغادر , وهو عازم على استئناف الحديث ليعلم ما أصابها ولكن عليه أولًا المرور على المحل الذي أوصاه بهدية أمنية ليفاجأها .

.....

السند هو المعنى الحقيقي لكلمة أب , حتى إن قسى وابتعد , ستظل أنفاسه هي الخيط الرفيع المودي للأمل بإمكانية وصله , قد لا ينجح في دوره أو احتواء ذويه ومع ذلك بأول مشكلة سيتجه إليه الجميع ..

كانت مترددة في أمر اللجوء إليه , لحل مشكلة أختها , تكره بعده , جفاءه لكن بالنهاية لم تجد بدّ من الذهاب إليه لأنه والدهما وعليه مسؤلية كبيرة في كل ما يحدث لهما , بل هو السبب الأكبر في تحول شمس , كان خيارها الأخير حتى لا تشعر بتأنيب ضمير عن تقصيرها في حق أختها التي تسقط أمام عينيها .

وصلت لتلك البناية الضخمة القابعة بقلب العاصمة حيث يعمل والدها , وقفت تنظر للمكان ودقات قلبها تتعارك , إنها المرة الأولى التي تأتِ هنا بمفردها , فقد أتت العام الماضي مع شمس بعد إلحاحها عليها لزيارته لعله يحن ويأتي للبيت ولو مرة , لكن لم يحدث ، حدثها عقلها :

ـ لعله مشغول ... ماذا لو رفض لقائك ؟ ... استدارت لتعود للبيت لكنها تذكرت شمس وحالتها المزرية , فصعدت الدرج لتتجه للمصعد حيث كان يقف أمامه شخص ما ، ولجت المصعد , وقفت تنظر عبر المرآة , وجدته ينظر لها , ارتبك عندما لمحته فقال وهو يشير نحو أزرار الطوابق :

ـ عذرًا , أي طابق وجهتك ؟

ـ حيث أبي ... قالتها بسرعة وهي تنظر للأرض وقد احمر وجهها .

قطب حاجبيه مبتسمًا من ردها العجيب ثم قال :

ـبأي طابق يكون هو ؟

تنحنحت قائلة :

ـ الدور الخامس بإذن الله .

ـ وأنا أيضًا نفس الطابق وجهتي ... قالها وضغط على الزر الحامل لرقم خمسة .

استدارت و أولته ظهرها كي لاتنظر إليه , فقد تسلل بعض الخوف إليها من نظراته المتفحصة وبسمته الغريبة رغم أنها لم تراه من قبل , حدثت نفسها بغضب : ـ لعل زوجتك تتجرع ويلات بعدك , فيما أنت تبتسم و تحدق في الأخريات , كلكم هكذا ؛ تعشقون الغدر .

.....

عندما تحبسنا الذكريات المؤلمة , نسارع بالهروب منها إلى أفضل خيار واقعي , فمهما ساء سنتمكن من تغييره لأنه واقع ملموس نراه بأعيننا و نعيشه بجوارحنا , لكن ماذا إن حاصرنا الواقع بأسوء مما يمكن تخيله ؟ هل حينها ستكون لدينا الشجاعة الكافية لمواجهته وتغييره ؟ أم صدمتنا فيما وجدنا ستجعلنا نسعى لتدميره غير مبالين بتدمير أنفسنا و أحبابنا معه ؟ ...

وصل البيت , ليجد حالة حداد عارمة قد اجتاحت البيت و وشحت والدته وأخته بالسواد , الولدين يجلسان بجانب جدتهما التي كانت مسندة رأسها على كفها كمن تلقى مصيبة كبيرة للتو , أما نور فكان وجهها مكفهرًا وعينيها قد اختفت خلف التورم , وعلى حجرها ورقة لم يعلم كنها .

ألقى السلام بصوتٍ خفيض , وهو ينظر لهما في فزع , ظل واقفًا عند الباب يحدق فيهما و الأفكار السوداوية تغزو عقله , سألهما :
ـ أين أمنية وريم ؟
نظرت زينب لنور بعينيها الدامعة , ورد عمر :
ـ بالأعلى يا خالي .

زفر بارتياح , فقد خشي أن يصيبهما أذى , اقترب منهما سائلًا :
ـ ما الذي حدث ؟ هل مات أحد أقاربنا ؟

هزّت نور رأسها نافية ثم التقطت الورقة من على ساقيها , ولوحت بها أمامه , بينما أخفت زينب وجهها خلف كفيها وعادت لنحيبها بصوتٍ عالٍ .

ـ ما تلك الورقة يانور ؟ ... سألها آدم

ـ خذها لتعلم .... قالتها نور وقد مدت يدها بالورقة نحوه .

ضيّق عينيه متربصًا لتلك الورقة المجهول محتواها , لا يعلم أي سطور تلك التي تعكر مزاج بيت بأكمله وتقلب حاله , لكنه بالنهاية أخذها ليعلم ما أصابهما , فتعالى صوت زينب بالآهات مما زاد قلقه فانفلتت من بين أصابعه لتهبط على الأرض , أحنى جذعه نحوها ثم

التقطها متجهًا نحو أقرب كرسي , جلس عليه ليستأنف قرائتها وسط نهنهات زينب ونشيجها المرتفع .

الفصل الخامس عشر

(على حافة الهاوية)

.....

أرفرف بين أشجاني
بجرحٍ نبضه دامي
يقطع كل أوصالي
تتحشرج معه أنفاسي
كما المحتضر ...
أطالع روحي تتعذب
و لا تصعد لخالقها
فلا أرتاح ....
أتاني العار على غفلة
و أوصد خلفه الأبواب
باغتني بطعناته
و أنا أقف له باستسلام
ألاقي مرارة خيانتها
كصفعات خبئتها الأيام
لمن أشكوكِ يا عمري ؟
و أنتِ من خان عهدي ..
لمن آوي لأحضانه ؟؟
فأشكو قسوة الأيام ؟
ومن سيضمد جرحٍ
شققته بنصل يديكِ
بكل برود ...
أنا المجروح يا أمنية !
أنا الملتاعُ يحتضرُ !!

.....

.....

عندما تتعاون الأدلة المشبوهة مع الشيطان لن تدمر صاحبها فقط , بل ستلتهم في طريقها كل من يقف أمامها من مشاعر بريئة , لتبدلها بالحقد والكراهية تاركة القلوب مجرد أنقاض ...

مسح سطور الورقة بعينيه في عدم استيعاب , وما إن انتهى حتى نظر لنور مستفهمًا , بينما أخذت زينب الولدين متجهة لغرفة نومها ثم أغلقت الباب لتكمل نحيبها ، أعاد القراءة مرات ومرات , كل ما وصل لعقله أن اسم أمنية مرفق بكلمات الغزل والحب , لكن هل هي أمنيته أم أخرى ؟؟ وهل هذه الكلمات سبب في تلك الكآبة الموجودة بالبيت ؟؟

تبادلا النظرات المطبقة بالصمت , لكن مالبث أن قطعه وهو يلوح بالورقة قائلًا :

ـ ما تلك الورقة ؟ رفعت نور أحد حاجبيها قائلة :

ـألم يصلك ما كُتب فيها ؟

هزّ رأسه نافيًا , فتابعت : إنها من محمود لأمنية .

- من تقصدين ؟ ... قالها وقد ضيّق عينيه لأنه مازال لا يفهم ماترمي إليه .

صاحت قائلة :

ـ زوجي كتبها لزوجتك ، كمش الورقة بقبضته ثم ألقاها في وجهها قائلًا :

ـ ماهذا الهراء ؟ هل جننتِ ؟

- بل أنت من سيجن إن رأيت ما بهاتفي .... قالتها ثم التقطت الهاتف وأخذت تتلمس شاشته وكأنها تبحث عن شيء ما بحوزته .

ـ هبّ واقفًا وهو يرمقها بنظرات الغيظ ثم اتجه للدرج لكنها استوقفته ووضعت الهاتف أمام ناظريه وقالت :

ـ أليسا هما ؟ أم أن عينيك ستكذب صور هاتفي أيضًا؟

قطب جبينه ثم صاح قائلًا :

ـ كيف حصلتِ على تلك الصورة؟ وأين أخذتيها ؟

- في بيت دينا ... تابعت وهي تطالع وجهه الذي امتقع وبدا عليه التسمم مما قالته : ـ كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل بنصف الساعة وقاطعها قائلاً : ـ يكفي ، أمسك بتلابيب جلبابها قائلًا :

ـ ألا تعلمين أيتها الغبية أنكِ تورطين زوجك قبل زوجتي بهذا الكلام ؟

أبعدت يديه عن ملابسها قائلة :

ـ حتى وإن كان , هل سندعهما يفعلان الخطيئة تحت مرئى ومسمع منا ؟

لم يشعر بيده وهو يدفعها بكل قوته حتى سقطت أرضًا , فبكت من ألم ظهرها , ثم صرخ قائلًا :

ـ أين زوجك الغافل من إتهامك ؟ أم أنك فضلتي إشعال بيتنا قبل معرفة الحقيقة منه ؟ ... تابع

وهو يشير بسبابته عليها : هاتفيه الآن ليأتي في الحال , وبلغيه أنه إن فكر في عدم المجيء أو تأخر سأجعله يتمنى الموت .

لم ترد , واصلت بكائها مع الآهات ... فتركها مكملًا طريقه نحو الدرج ليصعد إلى شقته و قد تمكن السم من رأسه بعدما دسته نور , حفزه الشيطان سائلاً :

ـ ألا تذكر عندما استيقظت في تلك الساعة لتجدها ممسكة برواية ؟ وحينما طلبت منها النوم , رفضت بل وخرجت للحديقة ؟؟ أيعقل أن يكونا اتفقا على اللقاء في هذا الموعد ؟؟ بل وقدم لها طبق الحلوى في الحفل ؟؟ أيعقل يا آدم ؟؟

.....

غضب الأم هو أسوء ألم لأنه ينخر الوتين فيزيد عذاب صاحبه , مهما حاول الخروج من حالة الكآبة , لن يفلح لأن مليكة قلبه حزنت والأسوء أنه سبب ذلك الحزن , لكن أمله موجود طالما أنفاسها تتردد في الأرجاء وتعطر الهواء , سيظل يرجو رضاها مهما كلفه الأمر.

قام بإعداد كوب القهوة خاصته ثم اتجه ناحية الأريكة , يتفحص هاتفه , فجأة انتبه لمن كانت ترمقه بنظرات الغيظ , فالتفت لها لكنها حادت ببصرها بعيدًا عنه .

ثبت بصره على قسماتها التي تصنعت التكبر حتى لا تضعف على أثر بسمته الصافية , رفعت رأسها غير مبالية بثغره الباسم , وقامت بالتنقل عبر قنوات التلفاز وكأنها لا تراه ...

- أمي .... قالها وهو يرجو أن تقطع جفاءها.

لم ترد عليه , فتابع وهو يرشف من قهوته :

ـ هل ستطول فترة خصامك لي ؟

رمقته بطرف عينيها وهي رافعة أحد حاجبيها ثم عادت للتلفاز , فقام من مكانه متجهًا نحوها , جلس بجوارها فهمّت بالنهوض متأففة , فجذبها من يدها.

- ماذا تريد يا مازن ؟ ... قالتها بتذمر

- أريد التصالح ... تابع وهو يقبل يدها : لن يجدي تمثيلك بالقسوة , فلا مثيل لطيبة قلبك ...

لانت ملامحها لما فعله , جلست ثم قالت :

ـ ليتك تضع نفسك مكاني .

- أووه , من يرقى لذلك يا أمي ؟ أنتِ هنا الملكة .

- ملكة .... تابعت بامتعاض : بل غافلة , آخر من يعلم بمايحدث ببيتها.

صمت مازن , فتابعت : أتعب بالحمل و الولادة ثم أربي و أسهر الليالي إن مرض أحدكما , أقدم مصلحتكما على مصلحتي , حتى صلاتي كرست الدعاء فيها لكما , حتى تكبر أيها المهندس المحترم و تبعد عني , بل وتخفي عني سرّك ....أشارت بكفيها على صدرها ثم استكملت وقد ترقرقت الدموع في مقلتيها : أهذه مكافئتي بالنهاية ؟؟

اقترب منها مازن ثم طوقها بذراعيه , قال :
ـ أنا آسف إن ضايقتك , لم أكن أعلم أنكِ ستغضبين هكذا , صدقيني .
استرسلت في بكائها , فقبل جبينها ثم ربت على كتفها قائلاً :
ـ أرجوكِ يا أمي اهدئي .
- لطالما حلمت ببيت كبير كما القصر ... تابعت وسط نشيجها : لنتجمع فيه بعد أن تكون لديك عائلة , أهدهد أطفالك , و أنعم بوجود زوجتك معي , لكنك محوت كل ذلك الحلم بجلسة واحدة مع أبيك .

ازدرد ريقه , عندما تذكر أنها لم تعلم بعد بأمر الورشة التي سيصنعها له أبوه وكذا المعرض , حدثه عقله : - ليس الوقت المناسب لإخبارها يا صاح ! .... ستقضي عليها هكذا , فأمك رقيقة !
- لمَ لا ندع أمر الغد للغد ؟ ... قالها وهو يربت على ظهرها .
هزّت رأسها نافية , ثم قالت :
ـ إنها طريقة الكسالى والضائعين , لا أعلم كيف وافقك أبوك ؟
حكّ رأسه ضاحكًا :
ـ شكرًا أمي على هذا الإطراء الجيد .
زوت مابين حاجبيها قائلة :
ـ أنت دومًا هكذا ، تأخذ كل المواضيع على محمل المزح .
احتضن كفيها بين كفيه , قال :
ـ بدون المزح لن نواصل الحياة يا أمي ، لقد تخطت قساوتها الحد الذي يمكن للنفس البشرية تحمله ... تابع وهو ينظر لعينيها : ألا تظنين ذلك ؟
تأففت قائلة :
ـ أنت دائمًا هكذا ... تعشق التفلسف علي , كلما جادلتك في أمر , قفزت من عقلك المبررات والحلول في أقل من ثانية .
- قفزت ! تتابعت ضحكات مازن , قال : تعجبني مصطلحاتك يا أمي..صمت هنيهة ثم قال : أخذنا الكلام ونسينا أمرالصلح , هل هكذا تم ؟ أم أنكِ لازلت غاضبة ؟
ابتسمت له , زفر بارتياح ثم قبّل جبينها قائلًا :
ـ لقد أثلجتِ قلبي , سأخرج الآن و أنا مرتاح البال .
عقدت جبينها وهي مبتسمة , قالت :
ـ وهل يهمك الأمر لهذه الدرجة ؟

- طبعًا ياأمي... تابع وهو يعدل هندامه بعدما وقف :
ـ أي مجنون ذاك الذي يسير مطمئن على طريق وهو يعلم أن أمه غاضبة عليه .
- حفظك الله يا ولدي وحفظ أختك وكفاكما شر الطريق والحياة ... قالتها وهي تودعه .
.....
رفرفت الأحلام الوردية حول مخيلتها بأنها ستجد الحل عنده , لا سيما أن أختها تهابه , لم تكن تعلم أنها ستعود بخفي حنين , فكما تركهما في صغرهما كيف سيهتم بأمرهما الآن ؟
ولجت المصعد , وقفت تنظر عبر المرآة , وجدته ينظر لها , ارتبك عندما لمحته فقال وهو يشير نحو أزرار الطوابق :
ـ عذرًا , أي طابق وجهتك ؟
- حيث أبي ... قالتها بسرعة وهي تنظر للأرض وقد احمر وجهها .
قطب حاجبيه مبتسمًا من ردها العجيب ثم قال :
ـ بأي طابق يكون هو ؟ تنحنحت قائلة :
ـ الدور الخامس بإذن الله .
- وأنا أيضاً نفس الطابق وجهتي ... قالها وضغط على الزر الحامل لرقم خمسة.
استدارت و أولته ظهرها كي لاتنظر إليه , فقد تسلل بعض الخوف إليها من نظراته المتفحصة وبسمته الغريبة رغم أنها لم تراه من قبل , حدثت نفسها بغضب : ـ لعل زوجتك تتجرع ويلات بعدك , فيما أنت تبتسم و تحدق في الأخريات , كلكم هكذا؛ تعشقون الغدر.
ما إن وصلت , حتى ترجلا نحو المكتب , دخلا سويًا فالتفت لها قائلًا :
ـ السيد رجب القاضي والدك ؟ أومأت بنعم ولم ترد , رجعت قليلًا وسارت خلفه ألقى التحية على سكرتيرة المكتب ثم قال :
ـ لدي موعد الآن مع السيد رجب.
مسحت الورقة الساكنة أمامها بعينيها ثم وضعت سبابتها على أحد السطور قائلة :
ـ أستاذ أيمن راضي .. هزّ رأسه موافقًا , فأمسكت الهاتف واتصلت على السيد رجب لتعلمه بحضور أيمن , ثم قامت وهي تشير نحو باب المكتب قائلة :
ـ تفضل , أستاذ أيمن .
ما إن اتجه للداخل حتى اقتربت منها رنا , تفحصتها بنظراتها لا سيما أنها لاتذكر أن رأتها العام الماضي , سألتها السكرتيرة :
ـ عفواً آنسة ... هل لديكِ موعد ؟
- موعد ؟! .... أنا ابنته .

- ابنته ؟ ... لا تذكر أنها رأتها من قبل رغم وجودها هنا منذ شهور ... تابعت بشكل رسمي :
ـ لكنه مشغول، أخذت دفتر المواعيد تبحث فيه ثم قالت : سأعطيك موعد في الغد و ...
قاطعتها رنا بغضب :
ـ لعلكِ لم تسمعيني جيدًا .. قلت لكِ أنني ابنته ... اتجهت نحو الباب وطرقت عليه . فقامت السكرتيرة واتجهت نحوها وقالت :
ـ غير مسموح بذلك يا آنسة .
سمع رجب الضجيج بالخارج , فقال لأيمن :
ـ أستأذنك للحظات ، قام متجهًا نحو الباب , ما إن فتحه حتى تسمر لدى رؤيتها وكذا هي , ظلت تتطالعه , تتفحص شعره الذي حرص على صبغه كما يفعل بالمعتاد ليكون لونه أسود قاتم , ترهلات وجهه التي لن تسمح لتلوين شعره بإضفاء روح الشباب على هيئته , جسده الضخم الذي زادت ضخامته عن العام الماضي ....
- أنا آسفة , أستاذ رجب ، لكنها أصرت على الدخول رغم أنني عرضت عليها أخذ موعد .... قالتها السكرتيرة ممتعضة .
- لا عليكِ , إنها ابنتي ... قالها ثم جذب رنا من ذراعها قائلًا : أهلا بكِ يا رنا , لم تأتِ منذ زمن .
- أهلا أبي ... قالتها رنا وهي تطالعة بوجوم ... خالجها شعور غريب لدى رؤيته , مزيج من السعادة والحزن المختلطا بالحنين ... كان أيمن يطالعها بإعجاب وهو يمسد ذقنه وينصت لطريقتها في الحديث , صوتها , تعبيرات وجهها الذي شعر وكأنه مألوف رغم أنه لم يراها من قبل.
- هل هناك شيء يا ابنتي ؟ سألها وهو ينظر لعينيها الدامعة ... لم ترد فتابع وهو يشير على الأريكة الموجودة بجوار المكتبة :
ـ اجلسي هنا حتى انتهي من عملي ، عاد لمكتبه , استوى على كرسيه ثم قال لذلك الشارد :
ـ ماذا تريد أن تشرب أستاذ أيمن ؟ لم يسمعه أيمن فقد كان منتبهًا لتلك الجالسة على الأريكة وهي تفرك كفيها وتنظر لحقيبتها الساكنة على ساقيها , فأعاد عليه السؤال بصوت أعلى :
أستاذ أيمن .
انتبه له أيمن , فقال له :
ـ ماذا ستشرب ؟
- قهوة ... قالها مرتبكًا فقد شعر بالحرج جراء تحديقه في ابنته هكذا , ولا يعلم سر ما فعله , فهو لم يعتد على فعل ذلك مطلقًا , لكنه شعر بشيء غريب حالما رآها في المصعد , أخذه حياؤها الذي أصبح نادرًا هذه الأيام.

اتصل على سكرتيرته التي انتهت لتوها من إبلاغ زوجته بما استجد , لطلب فنجاني قهوة وكأس ليمون لرنا , ثم استأنف الحديث عن سبب مجيئه .
ما إن انتهى من عمله مع أيمن حتى أشار لرنا لتجلس أمامه , ثم سألها :
ـ ماذا حدث ؟
تنهدت قائلة :
ـ هل لابد أن يحدث شيء لآتي ؟ أوليست رؤيتك سبب كافي ؟
ضيّق عينيه قائلًا :
ـ لكنك لا تفعلينها في المعتاد , لي عام لم أراكِ فيه ... تابع مبتسمًا : لقد كبرتِ وصرتِ شابة ... بأي كلية التحقتِ ؟ أشاحت ببصرها بعيدًا عنه قائلة :
ـ أنا في السنة الثانية من كلية الحقوق ...
- حقاً ؟ .... استكمل وهو يضغط بأصابعه على المكتب :
ـ مكانك هنا يا رنا , من الغد إن شئت استئنافه ...
قطبت جبينها قائلة : لكنني لم أنهي دراستي ...
- لا يهم ... تابع وهو يبتسم : يمكنك التدرب مع الشباب , يوجد هنا مكاتب صغيرة حيث شباب وفتيات يقومون على القضايا الصغيرة , ستتعلمي الكثير من وجودك بينهم وعندما تنتهي دراستك لن تواجهي أي صعوبة من العمل معنا.
هزّت رأسها موافقة ثم قالت : سأفكر في الأمر ... تنهدت متابعة : بصراحة , لم آتِ لهذا الشأن ...
انتبه لها والدها وقال : أنا أسمعك .
- شمس يا أبي .
- ما بالها ؟ زفرت بضيق عندما تذكرتها وقالت :
ـ تمر بمشكلة كبيرة , وتحتاجنا كلنا بجانبها .
شبّك رجب أصابعه وهو مستند بمرفقيه على المكتب ثم قال :
ـ وما نوع المشكلة بالضبط ؟
- مشكلة عاطفية .... قالتها وصمتت
هزّ رجب رأسه متفهمًا ثم قال :
ـ إن كانت تحب أحدهم فليأخذ منّي موعد لنتفق على كل شيء.
أومأت رنا بلا ثم قالت :
ـ حتى إن قلت لكَ أنه متزوج ولديه طفلة .

امتقع وجهه لأن نفس الأمر حدث معه عندما تزوج للمرة الثانية , ازدرد ريقه ثم قال :
ـ أهو زميلها ؟
- نعم ... قالتها رنا بمرارة , ران عليهما بعض الصمت ثم قال :
ـ وماذا فعلت أمك ؟ لعلها بقيت صامتة كما تجيد .
قطبت رنا جبينها ولم ترد , فتابع رجب :
ـ دعينا من أمك , ماذا عنك ؟ ألم يكن لكِ دور في تلك القصة ؟
ردت رنا باقتضاب :
ـ أمي لاتعلم شيء , وعندما تحدثت مع شمس ثارت عليّ ،رفع أحد حاجبيه قائلًا : ـ وما الذي تعلمه أمكما , إذن ؟
احتقن وجه رنا , وردت بغضب :
ـ من فضلك يا أبي ،لا تعلق على أمي خطايانا , لا تنس أنك أخطأت بتركنا في هذه الدنيا وحدنا .
نظر لساعة يده ثم قال :
ـ لدي الكثير من المواعيد , فلتقولي لي مايتوجب عليّ فعله .
نظرت له بوجوم ولم ترد , فقاطعها : هيا ، أنا أسمعك يا رنا .
زفرت قائلة :
ـ من عليه نصح الآخر ؟ ومن عليه أن يسمع الآخر ؟ شعرت بأنها أخطأت حين لجأت إليه ، شعر بذلك في عينيها , فقال :
ـ لماذا لم تأتِ معك لأعلم منها كل شيء ؟
- لأنها لا تعرف أنها مخطئة ... تابعت وهي تفرك يديها : لا أحد يعلم أنني هنا ، ظننت أنك ستنقذ شمس مما ستقدم عليه ... لامست كلماتها شغاف قلبه ورأى خيبة الأمل في نظراتها , فتنحنح قائلًا :
ـ سأهاتفها يا ابنتي , من أجل الحضور للتحدث معها في الأمر وسيكون كل شيء على مايرام .

انتهت الزيارة التي لم تجدي ثمارها نفعًا , وهل كان لها ثمارًا من الأساس لتنتظر هي ؟... سارت خارج البناية كما جائت بل ازدادت حيرة من قلب ذلك الأب الذي لاتعلم له طريق , تمنت لو أنها لم تأتِ حتى لا تشتاق لرؤيته مجددًا , فبالرغم من جفاءه إلا أنها تود لو تأتي إليه مجددًا , لا تعلم سر ذلك , هل هو الحنين؟ أم الشعور بأن لها أب هو السبب في ذلك ؟؟

.....

أي سوء تفاهم يحتاج لمواجهة ... لكن ماذا إن كانت تلك المواجهة ستشعل الوضع أكثر مما ينبغي ؟ و لا يمكن تجاوزها لإخماد النار ...

دلف إلى الداخل ثم صفق الباب خلفه محدثًا صوتًا عنيفًا , خرجت على إثره أمنية من مخدعها فزعة , وقفت أمام باب الغرفة لتجده مستندًا بظهره على الباب يلهث , وجبينه يتفصد عرقًا وكأنه عاد لتوه من سباق .

- حمدًا لله على سلامتك يا حبيبي .... قالتها أمنية وهي تتفحص هيئته المجهدة.

- هه , حبيبي ! ... قالها آدم ثم دخل في نوبة ضحك هستيري.

اقتربت منه أمنية قائلة :

ـ آدم ، هل أنت بخير ؟!

- طبعًا طبعًا يازوجتي العفيفة ... قالها وعاد لضحكاته العالية حتى دمعت عيناه

لم تشعر بالراحة أبدًا من طريقته الغريبة تلك , قربت كفها من جبهته وعندما وجدت الأمر طبيعي , ربتت على ذراعه قائلة :

ـ سأعد لك عصير الليمون.

همّت بالذهاب للمطبخ لكنه جذبها من ذراعها قائلًا :

ـ ما الذي بينك وبينه ؟

- نعم ! ... قالتها ثم استدارت له ،رفع صوته قائلًا :

ـما الذي بينك وبين محمود ؟

وضعت كفيها على صدرها وقد اصفر وجهها من سماع هذا الاتهام المشين , قالت بصوتٍ مهزوز مما زاد شكه :

ـ بيني أنا ومحمود ؟؟... تابعت متلعثمة : هل فقدت عقلك ؟!

ـ اممم , فقدت عقلي... قالها وهو يرمقها بنظرات ذئب على وشك التهام فريسته

صمتا لبرهة , نظرت لعينيه الملتهبة , علمت ما يدور بداخله , شعرت بوخز يدمي قلبها , بالكاد واصلت الوقوف أمامه لتوهمه بأنها قوية , لكن الخزي كاد يفتك بها .

أشاح ببصره بعيدًا عن عينيها حتى لا يضعف , قال :

ـ أجيبي ، رفعت أحد حاجبيها سائلة بتحدٍ:

ـ ما الإجابة التي ترضيك ؟

رفع سبابته في وجهها قائلًا :

ـ الحقيقة .

- لكنك بالفعل تشك بي و أنا لم أفعل شيء ... اغرورقت عينيها بالعبرات قائلة : أنا يا آدم ؟ أنا ؟

هتف بها والدماء تغلي في عروقه من مرواغتها , وقلبه تتسارع دقاته وكأنه يحاول الفرار من الموت :

ـ قولي الحقيقة ...

سألته بشيء من الحزن مما زاد غيظه ثم تابعت :

ـ أتظنني مثلك ؟

لم يلتفت لتلميحاتها المبطنة , فقد كان عقله مشغولًا بمعرفة حقيقة ما رآه مع نور , هزّ كتفيها بقوة قائلًا وسط أنفاسه المتقطعة :

ـ ماذا حدث بينكما في الحديقة ؟

- أي حديقة ؟ ... قالتها بارتجاف فقد كان قلبها يغلي من اتهامه .... زاد حنقه وكأن روحه تسحب مع كل كلمة تنطق بها ، صرخ فيها :

ـ حديقة دينا .

صمتت حتى كاد يُجن , شعر بأن قلبه سينفجر , لا يريد أن يصدق لكن عقله يأمره بتصديق كل ماسمعه ورآه , تمنى لو أنه يرى كابوس فيأتي أحد ليوقظه ...

كانت ترى قسماته الموجوعة , تتألم لما تراه على وجهه لكنها ظلت واجمة , خائفة بل مشتتة لا تعلم أين ذهب الكلام من على لسانها وكأنها صارت بكماء .

قطع صمتها قائلًا :

ـ لماذا تراوغي ؟

رفعت صوتها قائلة :

ـ قلت لك لم أفعل شيء , لو أردت الإنتقام منك لفعلتها بطريقة شريفة .

ـ انتقام ؟ تابع وقد بلغ صراخه مداه : لا تحيدي عما أريد معرفته , لماذا قابلتيه في الحديقة ؟

ـ لم أقابل أحداً ، قالتها ونظرت لعينيه بخوف من أن يتهور معها إن قالت الحقيقة لا سيما أن الشك تمكن منه ومهما قالت لن يصدقها .... زفر بغضب ثم قال :

ـ لن تتحملي ما سأفعله معك .

ـ لقد توغل الشك لقلبك , ومهما حاولت الدفاع عن نفسي لن يجدي نفعًا .. استكملت باستكانه : إذن فلتظن ما تشاء .

- أيتها الخائنة...لم يشعر بنفسه وهو يصفعها على وجهها بقوة لترتطم بالأرض , تمنى حينها لو صعدت روحه لخالقها قبل أن يسمع منها ذاك الكلام , كانت كل جوارحه تؤلمه من صدمته فيها ...وضعت يدها على خدها الذي طُبع عليه كفه تتلمس تلك السخونة ثم شعرت بخط دماء رفيع يخرج من أنفها و انخرطت في بكائها الحار .

لم يكن ليصدق ماسمعه لكنه لم يقتنع بكلامها , لاسيما أنها كذبت عليه بأمر لقائها بمحمود في الحديقة , مما زاد عذابه , ألهذه الدرجة هان عليها ؟ شعر بوخز في عظامه , و نخر في قلبه يتبعه ألم ينبض ذهابًا وإيابًا , كان صدره يعلو ويهبط تمكن بالكاد من التقاط أنفاسه وهو منحني ممسكًا بركبتيه , يطالعها بنظراته المكفهرة ... جذبها من شعرها قائلًا :

ـ منذ متى ؟ خلصت نفسها من قبضته ثم صاحت قائلة :

ـ أهو حلال لك ولشمس ؟؟

- ماذا ؟! ... قالها ثم صمت لبرهة بعد ذلك سألها : من أين علمتِ بأمر شمس ؟

أشارت بكفيها وهي تبكي ثم قالت :

ـ تظنني غافلة ، هل الخيانة جائزة لكما ؟ انتظرت أن تأتي وتعترف بخطيئتك , لعلّي أسامح ... لكنك لم تفعل .

كانت اتهاماتها بمثابة مطرقة حادة , طرقت على رأسه لتخرج كل ماحدث , كل ماحاول اخفاءه لحماية علاقتهما , ومع ذلك كل محاولاته بائت بالفشل ... طاف بعقله منظر هيثم عندما رآه بالمطعم , ومع كل ذلك لم يفكر سوى في أمر واحد وهو خيانتها , كيف جرؤت ؟ بل كيف فكرت ؟

اتجه نحوها وقبض بقوة على ذراعها حتى تأوهت , قال :

ـ وهل هذا يسوغ لكِ الخطيئة ؟ أشارت بلا وسط نشيجها ثم قالت :

ـ أنت من أخطأ و لست أنا ، أمسك بشعرها قائلًا :

ـ أنا رجل لن يعيبني شيء مهما فعلت , ومع ذلك لم أخنكِ أيتها الحقيرة .

- اتركني ، لم أخنك أبدًا .... قالتها وسط نهنهاتها وهي تتوجع من الألم .

- لن أفعل حتى تصعد روحك لخالقها ... تابع وهو يوجه لكماته لجسدها النحيف , حاولت قدر المستطاع الدفاع عن نفسها لكنها لم تفلح , عندما زاد الألم , قالت وسط تقطع أنفاسها :

ـ لم أفعل , صدقني .

- كاذبة ! ... تحاولين الفرار منّي لكن هيهات .

أفلتت نفسها من قبضته فقد خارت قواه , ثم ركضت لغرفتها قبل أن يمسك بها , أغلقت الباب على نفسها , اتجهت لخزانة ملابسها , وما إن رأت وجهها المضرج بآثار كفه على المرآة المثبتة على باب الخزانة حتى علا نحيبها , التقطت منديلًا ورقيًا قامت بمسحه ثم بدلت ملابسها وأخذت حقيبة سفر كبيرة , وضعت بها ملابسها ومجوهراتها , خرجت من الغرفة لم تجده ، ذهبت إلى غرفة ريم ثم أيقظتها وحملتها على ذراعها وقامت بسحب الحقيبة خلفها حتى وصلت لباب الشقة وما إن همّت بفتحه , حتى وقفت فجأة عندما أتاها صوته الثائر :

ـ إلى أين ؟... شعرت بالفزع , كادت تموت من الخوف من أن يأتي ويصب عليها ضرباته وريم على ذراعها .

- إلى أبي ... قالتها ولم تستدر , لكن أوصالها كانت تنتفض وجوارحها ترتجف من الخوف .

ـ اتركيها...صاح بها وقد تصنع الثبات رغم أنه تمكن بالكاد من الوقوف , فقد خارت قواه , تباطئت نبضاته لكنه لازال مصممًا على استكمال تلك الحرب الضروس التي استئنفتها ،

تركت الحقيبة أرضًا وفتحت الباب , لكنه هتف بها :

ـ اتركي البنت .

ما كانت لتستوعب طلبه , استدارت ونظرت له بعينيها الدامعة تسأله :

ـ ماذا ؟! رفع صوته لينذرها بخطر قادم :

ـ اتركيها .

عادت للخلف خطوة ثم نظرت لريم واحتضنتها بقوة , قائلة :

ـ مستحيل ... لديها خيارين كلاهما قاتل , أن تخرج بدون روحها وهذا لن تطيقه أبدا ... و أن تعود أدراجها ليتم جلدها كخائنة ..... أيهما تختار ؟ غارت عيناها وهي تراه يقترب منها , شعرت بأنها في كابوس , تود لو يفيقها أحد , لكن من يفعل وهي وحدها بصحراء الخديعة التي نُفيت فيها , حتى نفيها لذلك الجرم الملصق بها لم يصدقه ماذا عساها أن تفعل وقد أوصد الشك أبوابه حول قلبه ... فضلت الرحيل حتى تتمكن من الفرار من أجل استئناف محاكمة عادلة لكل الأطراف , لم يكن بحسبانها أن الأمر سينقلب عليها هكذا , ويجذبها آدم من ذراعها الضعيف ليضاعف ألمها , فريم هي نقطة ضعفها الوحيدة وهاهو زوجها نجح بالضغط عليها بكل قوته , لتخرج آهات قلبها الحارة و كأنها تحتضر .

تشبثت بريم أكثر وهي تحيطها بذراعيها بقوة ثم تمتمت قائلة :

ـ لن أترك روحي هنا , أفضل الموت على تركها ... تابعت وهي تدعو ربها في سرها عندما رأته يقترب منها أكثر و أكثر كالبركان الثائر :

ـ يا إلهي أنقذني .

الفصل السادس عشر

(رماد)

.....

مضيت وحيدة في الدرب

بلا روح .... بلا قلب ...

كجثة أحرقتها النار

فباتت رماد ...

تبعثر الريح ذراتي

بلا إشفاق ...

فتترك إطار آلامي

يبث عذاب ...

وليت عذابي في جسدي

أراه عيان ...

ولكنّي أكاد أموت

على بعد بضعة منّي

تبكي وتنادي اسمي !

فتصرخ كل أوصالي

وتبكي مقلتي حالي ..

دموع تصهر وجهي

كما البركان ...

فتمحو كل قسماته

بغير هوان ..

وتنفث كل أحلامي

مع الدخان ....

.....

.....

مهما قست الحياة لن تبلغ قسوتها مداها بلا تدخل عناد البشر الذي يحاصرنا بين أصعب الاختيارات التي تفتك الروح بمجرد التنقل عبرها , وسيبقى السؤال الأصعب : على ما سيقع الاختيار ؟

عادت للخلف خطوة ثم نظرت لريم واحتضنتها بقوة , قائلة :

ـ مستحيل ... لديها خيارين كلاهما قاتل , أن تخرج بدون روحها وهذا لن تطيقه أبدًا ... و أن تعود أدراجها ليتم جلدها كخائنة ..... أيهما تختار ؟ غارت عيناها وهي تراه يقترب منها , شعرت بأنها في كابوس , تود لو يفيقها أحد , لكن من يفعل وهي وحدها بصحراء الخديعة التي نُفيت فيها , حتى نفيها لذلك الجرم الملصق بها لم يصدقه ماذا عساها أن تفعل وقد أوصد الشك أبوابه حول قلبه ؟ فضلت الرحيل حتى تتمكن من الفرار من أجل استئناف محاكمة عادلة لكل الأطراف , لم يكن بحسبانها أن الأمر سينقلب عليها هكذا , ويجذبها آدم من ذراعها الضعيف ليضاعف ألمها , فريم هي نقطة ضعفها الوحيدة وهاهو زوجها نجح بالضغط عليها بكل قوته , لتخرج آهات قلبها الحارة و كأنها تحتضر .

تشبثت بريم أكثر وهي تحيطها بذراعيها بقوة ثم تمتمت قائلة :

ـ لن أترك روحي هنا , أفضل الموت على تركها ... تابعت وهي تدعو ربها في سرها عندما رأته يقترب منها أكثر و أكثر كالبركان الثائر, كان قلبه يغلي بدماء الحقد على فعلتها , كلما تذكر كلمات نور كاد يُجن : يا إلهي أنقذني .

لم يتأثر ببكائهما, فقد شاركت ريم أمها البكاء رغم أنها لم تر ماحدث , دموع والدتها وهيئتها كانت كفيلة بإزعاجها لتنهمر العبرات من مقلتيها وهي متشبثة بكتف أمها .

وقف أمامها مباشرة متصنعًا القوة , ثم جذب ريم بعنف جعل أمنية ترتجف جوارحها و القهر بادي على محياها , تنظر له باستعطاف علّه يتراجع عمّا يفعله , لكنه قطع صمتها قائلًا :
ـ يمكنك الآن الرحيل .

ـ لكن ريم ستبكي .... قالتها وهي تمد ذراعيها نحو ريم لتأخذها فتراجع للخلف , لا سيما أن ريم كانت ترفرف بيديها نحو أمها وتبكي.

ـ هاتها يا آدم ... تابعت وهي تصرخ : لن تقدر على رعايتها ... كيف هانت عليك دموعها , أولست أبوها ؟

ـ لأنني أبوها , لن أدعكِ تأخذينها .... قالها وهو ينهرها بنظراته الثائرة , ثم دلف وأغلق الباب خلفه , فتعالى بكاء ريم وهي تنادي : أمي ! أمي ... أخذت أمنية تضرب الباب بيديها وهي تصيح :
ـ افتح الباب ، افتحه ... حرام عليك ، تتابع صياحها أمام الباب وهي تسمع بكاء ابنتها بالداخل لكن لا حياة لمن تنادي .. لم يكن يود أبدًا التصرف معها بتلك القسوة لكن ما قالته لم يشفع لها أمامه , يتألم على الغدر الذي باغته من أقرب إنسانه لقلبه , تستعر النيران في صدره كلما تذكر الأيام الأخيرة التي تغيرت فيها للأفضل لتكن زوجته الجميلة المثالية , كاد يحسد نفسه على تغيرها المرغوب و منّى روحه بوعدها المزعوم لتفاجئه بخيانتها من أجل الإنتقام بعد ما علمت بأمر شمس التي لم يكن بينها وبينه شيء من الأساس , كاد عقله ينفجر كلما فكر بكيفية وصول أمر شمس لأمنية , سأل نفسه : كيف علمت ؟ ولماذا تصر على إخفاء لقائها بمحمود في الحديقة وتنفي الأمر برمته ؟ إلى هذا الحد كنت غافل ؟ , تعالت أنفاسه ولم يشعر بصغيرته التي تبكي على ذراعه حتى طرقت على كتفه بيديها الصغيرتين قائلة وسط نشيجها : أمي .

.....

هبطت الدرج وهي تترنح , فقد سُحبت روحها منها للتو , اتجهت للباب الخلفي لتخرج منه حتى لا تلتقي زينب أو نور , وما إن خرجت للطريق , سارت في منتصف الطريق كالمشردة والساعة لم تكن تجاوزت الرابعة مساءاً بعد , كادت سيارة تصدمها .

فجأة جذبها أحدهم ناحية الرصيف , كان شيخ ممن يسكنون بنفس الحي , طالع هيئتها المجهدة و وجهها الذي حُفِر عليه كف آدم , شعر أنها ابنة أصول لكن الدنيا خدشت بريقها

ببراثنها , عقد مابين حاجبيه قائلًا :
ـ عليكِ أن تنتبهي للطريق يا ابنتي ، لم ترد فقال :
ـ لقد كادت العربة تصدمك , ماذا حدث لكِ ؟ بإمكاني مساعدتك .

ـ ليتها صدمتني ... قالتها وعادت لنحيبها على ذلك البؤس الذي حاصرها ولم تحسب له حساب فقد اسودت الدنيا في عينيها بعدما أخذ منها آدم نبض قلبها , لتسير بلا قلب أو روح كجثة تنتظر موعد دفنها .

هزّ الرجل رأسه آسفًا على حالها ثم نفض كفيه قائلًا :
ـ لا حول ولا قوة إلا بالله , كيف يمكنني مساعدتك ؟

أشاحت بوجهها بعيدًا عنه وهي تكفكف دموعها , بما تجيبه في حالتها تلك ، تخشب لسانها ولا تعرف ماتقوله , تشعر بالخزي فقد أحوجتها الظروف لتلك المساعدة من رجل كبير لا تعرف حتى أين يقطن ولا تذكر أن رأته خاصة أنها لاتخرج كثيرًا , ظلّت صامتة , فسألها :
ـ أين وجهتك ؟

نظر للطريق و مد ذراعه يستوقف إحدى سيارات الأجرة المارة , وما إن وقفت إحداهن حتى نظر لأمنية يسألها وجهتها , فقالت له وسط نشيجها عنوان بيت أبيها , انحنى الرجل ناحية السائق ثم قال له العنوان ونقّده فقد لاحظ أنها تسير بلا حقائب أو أي شيء تحمل فيه المال ، فتح باب المقعد الخلفي للسيارة ثم أشار لها لتركب , نظرت له بامتنان , شعرت بأن الله بعثه إليها في تلك اللحظة العصيبة , قالت وسط نهنهاتها :
ـ لا أعلم كيف أشكرك .

ـ أنتِ مثل ابنتي , لا تشكريني ... تابع وهو يلوح لها : انتبهي على نفسك .

.....

ضمّها لصدره وأخذ يربت على ظهرها , كانت أول مرة يضمها هكذا , فقد كانت علاقتهما علاقة عادية غير مميزة , يحضر لها الحلوى ويقبّلها بسرعة دون حتى معرفة رأيها فيما أحضره , لم يكن يعلم أن عناق الأطفال قد يجدي نفعًا أحيانًا بل سيخفف من وطأة المصاب , لطالما ظن أن الأطفال كائنات لا تعي شيء ولا نفع لهم حتى يصلون لسن الإستيعاب , تنهد وهو يعانقها وكأنه يحتاج لذلك العناق أكثر منها , زفر بحزن قائلًا : آه يا ريم ، أحتاج لمن يربت على قلبي .... أنا بائس يا ريم ، بل أكثر الناس بؤسًا على الإطلاق ... اتجه للأريكة ثم

جلس عليها ورفع ريم عند عنقه قائلًا :
ـ ضميني يا ريم ، ضميني بقوة .

صمتت ريم عندما أوكل لها والدها تلك المهمة , ثم حاوطت عنقه بذراعيها الصغيرين وهي تضحك فهي لم تستوعب بعد ماحدث , فلأول مرة يطلب منها والدها ذلك , أعجبها الأمر وأخذت ترفرف بيديها في الهواء ثم تلصقهما بعنق آدم وهي تتنهد بمرح : أبي !

.....

تحتمي النفوس بالبيوت ذات الجدران و الأبواب , ومع ذلك لن تختبئ من المصائب إذا قررت مباغتتها على حين غفلة مؤكدة أن لا مناص من فتح الباب على مسرعيه أمامها , ففي جميع الأحوال لا سبيل سوى المواجهة والرضا بكل ما قُدر لها ....

سمعت رنين جرس الباب , وما إن فتحت حتى تسمرت مكانها من هول ما رأت , اتسعت حدقتاها مشدوهة و عندما استوعبت المنظر , شهقت و ضربت صدرها قائلة :
ـ يا إلهي ! أمسكت بيدها متجهة نحو الداخل ثم أغلقت الباب , طالعت هيئتها وخاصة وجهها بهلع قائلة :
ـ ماذا حدث ؟ جثت أمنية على ركبتيها قائلة :
ـ أنا أم سيئة ، بل أسوء أم .

انحنت رغدة باتجاها ثم أمسكت بذراعيها لتقوم معها نحو غرفة النوم , ارتعد قلبها من كلام ابنتها رغم أنها لا تعلم شيء , لكن هيئتها كفيلة ببث الرعب في نفسها , أخذتها لغرفة النوم ثم أجلستها على السرير , قالت :
ـ اهدأي أولًا .

ـ تركت ابنتي , ورحلت قالتها أمنية وسط دموعها , فضمتها رغدة لصدرها قائلة :
ـ ماذا حدث ؟ واصلت نحيبها مما جعل أمها تشاركها وهي لا تعلم شيء لكن بكاء قطعة منها كان كفيل بجعلها تبكي , تمتمت وهي تربت على ظهرها : اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه .

ـ أريد ريم ... قالتها بصوتها المبحوح , فسألتها رغدة :
ـ أنا لا أعلم ماحدث يا ابنتي... احكِ لي أولًا .

ـ تركتها تبكي يا أمي ... تابعت أمنية وصدرها يعلو يهبط : لعلّها مازالت تبكي , ستوجعها عيناها يا أمي .

ـ اهدأي يا حبيبتي , سأهاتف جمال ومازن ليأتيا حالًا ... قالتها رغدة وروحها تتمزق من حال ابنتها .

تشبثت أمنية بملابس رغدة , ورفعت رأسها إليها ترجوها بعينيها الحمراوين قائلة : ـ قولي لهم يحضروا ريم , أرجوكِ يا أمي .

هزّت رغدة رأسها في أسف على منظر ابنتها المزري , ثم قامت من مكانها وعادت إلى الصالة تاركة ابنتها تنفرد بنحيبها المكتوم الذي كاد يفتك بعينيها المتورمتين , أخذت تبحث عن هاتفها بلا تركيز فقد فقدته مذ وصلت أمنية , وما إن رأته أمسكته بيدها المرتجفة و لمست رقم جمال لمهاتفته لكنه كان مشغول , تأففت قائلة : هكذا دائمًا , حتى في أحلك الأوقات و أصعب الظروف ... هاتفت مازن وعندما رد , قالت له بلكنة متوترة :
ـ أين أنت يا مازن ؟ تعجب مازن من سؤالها , فقال :
ـ مع رفاقي

ـ أحضر حالاً , حالاً يامازن .

اندهش مازن من ذلك الاتصال الغريب , لاسيما أنه لم يمر على خروجه الكثير من الوقت , فسألها :
ـ هل أنتِ بخير ؟!

ـ نعم بخير , لكن أمنية هنا تحتاجك ...

ـ أمنية ؟! قالها وساوره الشك بأن شقيقته ليست بخير , تمتم قائلًا : لعلّها عرفت ؟

ـ عرفت ماذا ؟ ... سألته رغدة , فتنحنح قائلًا :
ـ لا شيء... أنا قادم يا أمي .

أنهى المكالمة , واستأذن ممن كان معهم ثم استقل سيارته عائدًا للبيت وعقله يحكي له عدة تخمينات لمجيء أمنية , هل تشاجرت معه ؟ أم رأت شيئًا ما ؟ هل ؟ هل ؟ هل ؟ كل تخميناته تجعل أخته بمركز قوة بحيث أنها هي من خرجت بإرادتها بعدما أرغمت آدم على ذلك , مهما حاولت مخيلته رسم سبب قدوم أخته , لن يكون بسوء الواقع .

.....

تفكر بحل ليس لها وإنما لروحها الأخرى التي تسمى شقيقة , تتألم لما أصابها , تبحث عن يد العون التي ما إن وصلت لها فتحت الباب لطردها , لتضيف الحياة لقلبها صدمة أخرى تجاور مالاقته من صدمات يمكن أن تكون أكثر من عدد سنين عمرها , وتظل تسأل : هل ستنجو شمس ؟

اتجهت للمتجر علّها تفلح في أمر مما خطت لعمله اليوم , هاهي فشلت في جلب يد أبيها لمساعدة شمس , حاصر الخزي قلبها وبعثره , أطلقت تنهيدة تخرج فيها كل الألم الذي اختلج روحها , أخذت عربة من عربات المتجر لتحضر على متنها كل ما طلبته أمها , بالكاد تذكرت بعض المشتريات رغم أنها لا تنسى بسهولة إلا أن ذاكرتها خانتها ولأول مرة يحدث ذلك معها , لا تعلم هل صدمتها بوالدها للمرة الثانية السبب أم ماذا ؟ تمنت لو أنها لم تكلف نفسها عناء الذهاب إليه , أو حتى ترضى بصف الحاجيات المطلوبة بخط أمها داخل ورقة صغيرة ... لامت نفسها قائلة : خانتني ذاكرتي لتؤكد لي أن الثقة بالغير أسوء شيء يفعله الأنسان في نفسه حتى لو كانت الثقة بشيء منه .

انتهت من الشراء وعادت أدراجها , لتجد أمها واقفة في المطبخ , تعد المعكرونة , وعندما رأتها هرعت نحوها وأخذت الأكياس من كفيها بينما كانت واجمة , مستسلمة بلا تعابير على وجهها , فتشت سعاد الأكياس ثم هتفت :

ـ أوه ! لقد نسيتي الكثير من الأشياء يارنا .... لامتها : سامحك الله ..

اتجهت رنا للأريكة ثم رمت نفسها عليها لتحتضنها الأريكة وكأنها بذلك ستخفف من وطأة مالاقته اليوم , خلعت حجابها وألقته أرضًا , فاقتربت منها سعاد وقطبت حاجبيها قائلة :
ـ هل غرفتك بعيدة لتقومي بخلع حجابك هنا ؟ وعلى الأرض بهذه الطريقة ؟

ـ أنا آسفة ... قالتها رنا وهي تخفي وجهها بالوسادة , فتابعت سعاد وهي تنظر لساعة الحائط متذمرة : كما أنكِ تأخرتِ كثيرًا , أربع ساعات لتحضري بعض المعلبات ؟

أحاطت رنا الوسادة بذراعيها لتحكم إخفاء وجهها خلفها ولم ترد , فصاحت سعاد : ـ أين كنتِ كل تلك المدة يا بنت ؟ ماذا تظنان نفسيكما أنتِ و أختك ؟ إلى متى سأُعامل معاملة الخدم ؟ .... تابعت وهي تشير بيديها :
ـ أنتِ هربت للشارع و هي غرقت بأحلامها ولا تريد أن تستفيق .

أزاحت رنا الوسادة من على رأسها ثم التفتت لأمها سائلة :
ـ ألا زالت شمس نائمة ؟

ـ ماذا ستفعل بيوم إجازتها غير النوم ... تابعت ممتعضة : لقد بلاني الله بفتاتين اتخذا الكسل عنوان ، اعتدلت رنا في جلستها ثم قالت :
ـ لماذا لم توقظيها يا أمي ؟ تأففت سعاد :
ـ سنعيدها ثانية ... لعلك تنسين ما كنا نتناقش فيه بالصباح , لقد أوكلت إليكِ مهمة التحدث معها بعدما انفعلت معي بالأمس ، عادت للمطبخ وهي تتمتم بكل الشتائم على ابنتيها و زوجها .

قامت رنا من مكانها نحو غرفة شمس , طرقت عدة طرقات وعندما لم تجد رد , فتحت الباب على مهل ثم أطلت من فرجة الباب , لترى الغرفة لازالت مظلمة , وأختها تتوسط سريرها متدثرة بغطائها الخفيف ..

ـ شمس ... نادت بصوت خفيض لكن لم ترد عليها فرفعت صوتها والحال لم يتغير , اقتربت منها أكثر وهي تسير على أطراف أصابعها متوجسة , تعلم جيدًا ردة فعل أختها العنيفة لكن لاسبيل لها لتطمئن عليها , جلست بجوارها ثم همست باسمها مجددًا بدون جدوى , فوضعت كفها على جبهتها لتجد حرارتها مرتفعة , شهقت فزعة و خائفة على أختها التي طال نومها بسبب مرضها ولايعلم أحد .

اتجهت نحو زر الإضاءة ,أشعلت النور ثم عادت للسرير ,حركت كتفيها بقوة قائلة : ـ شمس ، هيا قومي معي لنذهب للطبيب .. شمس... ارتجفت عندما تخيلت أنها قد تفقد أختها , تسارعت دقات قلبها لمجرد التخيل وتلاحقت أنفاسها وبدأت العبرات بالهطول , عادت لهز جسدها والهتاف باسمها , ظلّت هكذا فاستجابت شمس ببطء برمش جفنيها ، والتنهد بالآهات المتقطعة وكأنها تهذي , زفرت رنا بارتياح عندما استجابت شقيقتها لها , نحت الغطاء بعيدًا عن جسدها لتجد ماروعها , جف حلقها وهي تطالع ذلك المنظر , فصرخت صرخة مدوية ثم انحنت نحو أختها واحتضنت رأسها وهي تبكي ... ركضت سعاد خارج المطبخ باتجاه الغرفة عندما سمعت الصوت و خفقات قلبها تصدح بكل ماهو مريع .

.....

وماسمي الشقيق شقيقًا ؛ إلا لأن هناك روحًا واحدة انشقت لنصفين كل منهما بجسديكما , يتقاسم معك الدم الذي يسري بجسدك , فهو نظيرك الذي لا مثيل له , يتألم لوجعك وكأنه أنت , يفكر معك بحل , حتى في أحلك الأوقات إن أجهدتك الحياة سينطق لسان حالك : أخ .

صف مازن سيارته وهرول مسرعًا نحو البيت , ما إن دلف ألقى السلام ثم مشط بعينيه المنزل فلم يجد أمنية بالصالة , خرجت رغدة على أثر صوت غلق الباب , أسرعت نحوه ثم جذبته من ذراعه نحو غرفة أمنية , سار معها باستسلام تام وما إن وصل حيث أمنية اتسعت حدقتاه لرؤية وجهها وعينيها المتورمتين , وقف واجمًا يحاول استيعاب مايرى , عاد بعينيه لرغدهة وهو يهز رأسه ويقلب كفيه لتخبره بما حدث لكنها أومأت نافية أن يكون عندها الجواب لما يعتمل صدره , اقترب منها أكثر ثم قال :
ـ ماذا حدث يا أمنية ؟ .. تابع وهو ينظر حوله : أين ريم ؟

أجهشت أمنية بالبكاء لدى سماعها اسم ابنتها وهتفت بلكنة مهزوزة :
ـ أخذها منّي يا مازن , اذهب وهاتها معك ... أحاطها بذراعيه و أخذ يربت على كتفيها قائلًا :
ـ اهدأي ! ظن أنها ضغطت على آدم في المغادرة فأخذ منها البنت وأن وجهها متورم من أثر البكاء ... أشار لوالدته وطلب منها أن تصنع لها عصيرًا , فخرجت رغدة متجهة نحو المطبخ آملة في أن يعلم مازن ماحدث ويساهم في حله .

جلس جوارها وعانقها فاندست بحضنه تبكي حتى أوجعتها عينيها للدرجة التي تشي باقتراب العمى , لكن الدموع تسيل رغمًا عنها وكأنها فقدت السيطرة على مقلتيها , يشعر بالقهر لأجلها , كيف يتحمل كسرها هكذا ؟

ـ احكِ لي يا حبيبتي ماحدث .. قالها مازن وهو يمسح على رأسها ؟
ـ أريد ريم يا مازن ... تابعت وسط بكائها : الآن يا مازن أرجوك ، سأموت بدونها.
تنهد مازن بأسف على حالها مشفقًا عليها ، لكن لا يعلم كيف يتصرف يربت ويعانق ، لكن بكائها يزداد وكأن مقلتيها فتحت ممرًا لأنهار جارية من دموعها الحارة , تبعثرت الكلمات من على لسانه , حتى عقله توقف عن التفكير لحل مشكها الغامضة والتي ترفض هي الإفصاح عنها ليصل هو إلى حل لها .

ـ سآتيكِ بها يا حبيبتي ... نطق بها فسكت بكائها , ورفعت رأسها في مواجهته تطالعه بما تبقى من عينيها قائلة :
ـ حقاً !

ـ أومأ بنعم , لمح كدمة أعلى كتفها ظهرت عندما انزاح عنه الحجاب , تلمسها فتأوهت , لم يظن أنها ضُربت حتى رأى تلك الكدمة , أزاح حجابها أكثر ليرى مزيدًا من أجزاء لكدمات متفرقة حول عنقها وكتفها , انتفض لدى رؤية ذلك , لم يكن يتوقع أن يكون ضربها ولم يكن

ليصدق لولا أنه سألها وهو يتفحص أجزاء تلك البقع المائلة للزرقة :
ـ هل ضربك ؟ علا نشيجها عندما تذكرت ضرب آدم لها ..

كاد يجن لأن من المفترض أنها بمركز قوة لايعرضها للضرب أبدًا , لكن من الواضح أن آدم أكثر عنفًا مما ظن , عض شفته السفلى بغيظ قائلًا :
ـ وله عين ... ذلك الحقير .

التفتت له أمنية , طالعته بنظرات راجية , كانت تكفكف دموعها قائلة :
ـ هل ستحضرها يا مازن ؟ لازالت تبكي , صوت بكائها وأنا راحلة لا يفارقني , ستتعب هكذا .

ـ سأحضرها لكِ ... هب واقفًا , قابضًا على مفاتيحه بقوة حتى تركت أثارًا على راحته ، قائلًا : والآن ، رفعت أمنية رأسها , ماسحة دموعها ثم قالت :
ـ حقاً ! ... لكن مازن تركها خارجًا وقد تملكه الغيظ من فعلة آدم الشنيعة التي لم يكن يتخيلها حتى في أبشع كوابيسه .

.....

عندما يعتمل الصدر غضب سببه شخص ما , حينها يأتي دور الشيطان محفذًا الغاضب على الانتقام بكل ما أوتي من قوة , ولن ينسى بالطبع أن يضع على عقله غشاوة كي لا يفكر فيما سيفعله بل يفعل مايمليه عليه الشيطان فقط ....

نزل على صوته , حفذه الشيطان قائلًا :
ـ هاهو من انفرد بزوجك بدون علمك في الحديقة , لابد أن تلقنه درسًا قاسيًا على فعلته تلك ... دخل لغرفة أمه التي كانت جالسة على السرير كما المغشي عليها تدور عيناها هنا وهناك , مسندة خدها على كفها ببؤس وولدي نور يلعبان على الأرض بجوارها , عندما أبصرته رفعت رأسها تنظر له بحزن عما هو مقدم عليه , تحدث نفسها : حافظت عليكم دهرًا لتهدموا كل شيء في لحظة , تسأل نفسها أين كان يختبئ لها كل ذلك الهم ؟ لطالما أحكمت غلق بابها عليها وعلى أبنائها حتى لا تدع سبيل للشيطان ، كانت تظن أنها قدوة في رعاية الأبناء والحفاظ عليهم لتستفيق على ذلك الكابوس الذي فقدت فيه دورها الرئيسي لتقوم فقط برعاية الأحفاد بعيدًا عن النزال المنتظر ولسان حالها يقول : أنتِ أجبن من الوقوف في ساحة المعركة , نظرت له ولريم بعينيها الدامعة ثم مدت ذراعيها لتلتقطها منه , أعطاها ريم ثم خرج للصالة

كالسيف المستل الذي جُهز للعدو بكل حماس حيث كان محمود واقفًا ينظر لنور باستغراب , يسألها عن سبب حزنها هكذا وبكائها .

اتجه نحوه كالسهم المشتعل وبدون سابق إنذار لكمه بقوة , فصرخت نور , أما محمود فتراجع للخلف على أثر اللكمة , تحسس صدغه وهو يتأوه قائلًا :
ـ ماذا حدث لك يارجل ؟ هل فقدت عقلك ؟ طالعه آدم بنظرات الحقد , والغضب الهادر يعلو صفحات وجهه ثم تابع صفعه بقوة على وجهه بكفيه وكان سريعًا لدرجة أن محمود لم يتمكن من الدفاع أوتسديد أي ضربة , بالكاد تمكن من الركض خارج المنزل نحو الحديقة , فتبعه آدم مقسمًا ألا يتركه حتى تفيض روحه .

شعر محمود بآلام متفرقة في وجهه الذي تورم من أثر الضرب وخاصة جفنه الأيسر, وهناك دماء قد سالت من فمه , أخذ يمسحها بظهر كفه ثم بصق على الأرض , ونظر لآدم بغيظ شديد وأشاح بيديه قائلًا :
ـ ما الذي يحدث هنا بحق الإله؟!

اتجه نحوه آدم مسرعًا ليكمل ضربه لكن محمود تمكن هذه المرة من الإمساك بكفيه قبل أن يضربه , قال :
ـ قل لي ماذا فعلت لك لتضربني هكذا ؟ هل جننت ؟

دفعه آدم بكل قوته ليسقط أرضًا لكن محمود لحق نفسه فقفز للوراء وهو يصرخ :
ـ ماذا أصابك يا رجل ؟ هل هاتفتني أختك لتضربني ؟ لم يرد آدم بل اكتفى بنفث هواء بسخونة دماءه مما جعل ممحود يرتعد من هيئته .

خرجت نور , وقفت بينهما قائلة :
ـ ستقتله يا آدم ؟ , فاختبئ محمود خلف جسدها الضخم وهو يهتف :
ـ هل ناديتني لأجل ذلك ؟ هلا عرفني أحدكما مايحدث هنا ؟

رمت نور في وجهه الورقة المنكمشة بفعل قبضة آدم , وما إن رآها محمود حتى بلع غصته , رغم أنه لم يكن متأكدًا بعد من فحواها لكنه خمن , وقد صدق تخمينه , ارتجفت أوصاله وهو ينظر لكليهما نظرات الملتاع , لكن آدم لم ينتظر , انقض عليه ليكمل ذلك النزال الذي استأنفه على باقي جسده وهو يصيح :
ـ أيها الخائن الجبان ، كيف تجرؤ ؟ كيف سمحت لنفسك بالمساس بزوجتي ؟

بالكاد نطق محمود داخل تلك المعمعة قائلًا وسط أنفاسه المتقطعة :
ـ لم أقرب زوجتك أيها الغافل الأرعن ؟ حاول جاهدًا التملص من قبضة آدم ليتمكن من الكلام بوضوح , وما إن ابتعد حتى صاح فيه وهو يعيد ما قاله , فبُهت آدم وكذا نور التي عقدت جبينها وجذت على أسنانها بقوة وهي تقول :
ـ تقصد أن الورقة ليست لك , أيها الكاذب .

ـ بلى ؛ لي .... قالها وسط نظراتهما الملتهبة , لكنه لم يأبه فقد تناول ضربًا لم يراه في حياته ولن يراه خاصة الآن بعدما خارت قوى آدم وهو واقف يلهث و صدره يعلو ويهبط كمن كان في مصارعة حرة , والعرق يقطر من جبينه حتى شعره وجسده مبتل وكأنه عاد من البحر لتوه .
التقط آدم أنفاسه ثم ذهب لذلك الواقف يمسح دماء وجهه , أمسكه من تلابيبه ثم اقترب من وجهه قائلًا بصوتٍ خفيض كفحيح الأفعى :
ـ اشرح لي كل ما حدث , و الآن ، صوبت نور هاتفها نحو زوجها وهتفت به :
ـ وتلك الصورة ، أليست لكما أيها الخبيث ؟

نظر محمود لذلك الممسك بتلابيبه , نظرة رعب فقد كان قريبًا منه كفاية ليسدد صفعات أخرى لن يحتملها وجهه الذي اختفت معالمه خلف التورمات المنتشرة فيه والممتزجة بالدماء , لكنه رغم كل ذلك قال :
ـ بل لنا ، فبصقت نور أمامه قائلة :
ـ تستحق الموت أيها الحقير .

كان ينتظر مزيدًا من اللكمات لوجهه المتورم , فأغمض عينيه لكن آدم لم يفعلها , فقد تعب لدرجة أنه لم يعد بمقدوره استكمال ضرب محمود , روحه كانت تنزف ودماؤه تغلي , أطلق زفيرًا حارًا وصلت حرارته لوجه محمود فأشفق عليه لا سيما أنه فهم سبب غضبه , قال له :
ـ ليس بيني وبينها أي شيء , أقسم لك يا آدم ، هتفت نور وهي تشير بيديها قائلة : ـ لا تصدقه ؛ إنه يكذب لتفلته من قبضتك يا آدم .

نظر لها محمود بغيظ وهو يضغط على أسنانه التي باتت تؤلمه بعد ذلك الضرب المبرح قائلًا :
ـ اصمتي أيتها الغبية ، أولست زوجك ؟ كيف تورطيني وتطعني في شرفي هكذا ؟!

ـ هه , شرف ؟ تابعت وهي تضحك ساخرة : أين أنت من الشرف أيها المعلم الخلوق ؟ لتتحدث عنه .

هزّ محمود رأسه مستنكرًا ماتهذي به نور , بينما كان آدم لايزال ممسكًا بياقتي قميصه المتبقعة بدماءه متوعدًا له بنظراته المكلومة , حدث محمود نفسه قائلاً :

ـ حاولت الحفاظ على بيتنا قدر المستطاع يانور لتهدميه في لحظة , استأنفتي إشعال النيران لتهلكي ذلك المسكين , لكنني أقسم لك أن تكوني أول من يُلسع بها ... حدثه عقله قائلاً : ليس هناك بد من الإفصاح عن الحقيقة مهما كلفك الأمر , فقد ساء الوضع وبلغ البركان ذروته ... حينئذ قرر محمود إخبارهما بكل شيء

.....

الفصل السابع عشر

(براءة متأخرة)

.....

ها قد تجلت باكية

تلك الحقيقة المضنية ..

نطقت براءة مهجتي

بعد الهزيمة الساحقة ..

لتؤكد معها خيبتي

القلب حاوطه الجحيم

والروح تهذي بالأنين

والموت يسري في الوريد

لا أحد يسمع صرختي

لاشيء يمكن أن يواسي

أو حتى يمسح دمعتي

من أين يأتيني المدد ؟

لأواصل السير المرير

بين الدروب المظلمة

خارت قواي معلنة

ضعفي وقلة حيلتي

والجسد غدا مستسلما

والقامة صارت تنحني

مع كل دمعة موجعة

تذرف بها تلك الحقيقة المؤلمة

.....

.....

ليس هناك أصعب من انتظار الحقيقة أيًا كانت نتيجتها , لأن الانتظار بحد ذاته أقوى سجان على النفس , يأسرنا فلا نستطيع سوى عد الدقائق و اللحظات لبزوغ فجر الحقيقة مفصحًا عن الخبايا التي عذبت القلوب و نادت للشك لاحتلال الصدور ....

كان ينتظر مزيدًا من اللكمات لوجهه المتورم , فأغمض عينيه لكن آدم لم يفعلها , فقد تعب لدرجة أنه لم يعد بمقدوره استكمال ضرب محمود , روحه كانت تنزف ودماؤه تغلي , أطلق زفيرًا حارًا وصلت حرارته لوجه محمود فأشفق عليه لا سيما أنه فهم سبب غضبه , قال له :

ـ ليس بيني وبينها أي شيء , أقسم لك يا آدم ،هتفت نور وهي تشير بيديها قائلة :

ـ لا تصدقه ؛ إنه يكذب لتفلته من قبضتك يا آدم .

نظر لها محمود بغيظ وهو يضغط على أسنانه التي باتت تؤلمه بعد ذلك الضرب المبرح قائلاً :

ـ اصمتي أيتها الغبية ، أولست زوجك ؟ كيف تورطيني وتطعني في شرفي هكذا ؟

ـ هه , شرف ؟ ... تابعت وهي تضحك ساخرة : أين أنت من الشرف أيها المعلم الخلوق ؟ لتتحدث عنه .

هزّ محمود رأسه مستنكرًا ماتهذي به نور , بينما كان آدم لايزال ممسكًا بياقتي قميصه المتبقعة بدماءه متوعدًا له بنظراته المكلومة , حدث محمود نفسه قائلاً :

ـ حاولت الحفاظ على بيتنا قدر المستطاع يانور لتهدميه في لحظة , استأنفتي إشعال النيران لتهلكي ذلك المسكين , لكنني أقسم لك أن تكوني أول من يُلسع بها . حدثه عقله قائلًا : ليس هناك بد من الإفصاح عن الحقيقة مهما كلفك الأمر , فقد ساء الوضع وبلغ البركان ذروته ... حينئذ قرر محمود إخبارهما بكل شيء بعيدًا عما حدث داخل قلبه ....

ـ انطق ... باغته آدم وقد جذب ياقتيه بقوة آلمت عنقه , فأومأ محمود رأسه بنعم , فصاحت نور :

ـ لما تقابلتما بالحديقة ؟

ـ لم نتقابل ... ما إن قالها حتى لكمته نور في كتفه قائلة :
ـ كاااااااذب ، نظر لها محمود بطرف عينه اليمنى التي كانت لازالت مفتوحة وقد زاد حنقه من محاولاتها المستميتة لتوريطه , عاد ببصره لآدم الذي كان مصوبًا عينيه عليه والشرر يتطاير منهما , قال له بنبرة استعطاف وهو يرفع سبابته :
ـ لم نتقابل ورب الكعبة , لقد كنت جالسًا في الحديقة بالقرب من الأشجار بعد انتهاء الحفل ولم أشعر بالنعاس فقضيت ليلتي بنفس المكان حتى خرجت أم ريم للحديقة ومعها كتاب ... صمت ليلتقط أنفاسه , فهزّه آدم بعنف قائلًا :
ـ أكمل ، ازدرد محمود ريقه ثم تابع :
ـ خرجت ولم تراني حيث كنت بالجانب الآخر من الحديقة بين الأشجار وكان المكان مظلم بعض الشيء ,لكنني رأيتها فاتجهت نحوها لل.. تلعثم فلطمه آدم قائلاً: ـ لماذا ؟

ـ لأسألها عن سبب خروجها في ذلك الوقت المتأخر , لل لكنها عندما رأتني همّت بالرحيل إلا أنني استوقفتها لتجلس وتكمل قراءة كتابها و .... قبل أن يكمل كلامه قام آدم بخنقه قائلًا :
ـ وما شأنك أنت في أن تجلس أو ترحل ؟؟ .. كاد محمود يختنق فحاول تخليص عنقه من أصابع آدم ثم سعل قائلًا :
ـ سأموت بين يديك , أيها الأحمق ،جذبه آدم من قميصه قائلاً بصوتٍ أقرب للزئير: ـ لا شيء يسوغ لك الجلوس معها بالحديقة .

انحنت نور لتلتقط الورقة التي صارت بالية من كثرة كمشها ورميها ثم ألصقتها بوجه زوجها قائلة بصوتٍ عالٍ :
ـ وماذا عن الورقة ؟ ابتلع محمود غصته بصعوبة و زاغت عينيه بينهما , فهزّه آدم بقوة قائلًا :
ـ تكلم يا غبي .

ـ كككككك كنت أتكلم مع أم ريم بشأنها ... قالها فصفعه آدم قائلًا :
ـ يا لوقاحتك ! رفع محمود كفيه قائلًا :
ـ ليست لها , صدقني ... لم يكن يعرف من أين يبدأ لكنه تابع متلعثماً وجبينه يتصبب عرقًا : إإإإإإ إنها لمخطوبتي ، قالها فالتفت آدم لنور يتبادلا نظرات الدهشة التي لم تطل فقد خلعت نور فردة حذائها وانقضت عليه وهي تصرخ بكل الشتائم .

ـ من تلك ؟ وما اسمها ؟ ... سأله آدم وهو يحاول تخليصه من ضرب نور , قرر محمود التكلم بعيدًا عن ذكر إعجابه بأمنيته الذي جعله يتعلق بأخرى تحمل نفس الاسم , دفع نور بيديه

لتسقط أرضًا تبكي وتلطم , ثم التفت لآدم قائلاً :
ـ تعرفت إليها السنة الماضية عندما كانت تأتي للتدرب بمدرستنا لأجل السنة النهائية بكلية التربية ... حاولت نور وسط بكائها استرجاع متدربات العام الماضي لكنها لم تفلح , تذكرت من تم تعيينهن لهذا العام لكن لا أمنية بينهن ...

ـ أمنية سالم .. هو اسمها ... قالها محمود فشهقت نور وضربت صدرها , فقد تذكرتها أخيرًا كيف لا ؟ وقد كانت الأجمل بين المتدربات و الأكثر رشاقة و أناقة و كأنها كانت تأتي لأجل حفل وليس تدريب إجباري , لكن متى تعرف إليها وهما يعملان معًا بنفس المدرسة ؟... تذكرت الأسبوع الذي غابته عن المدرسة في ذلك الوقت بسبب مرض علي , أيعقل أن علاقتهما توطدت خلال ذاك الأسبوع ؟ ولماذا لم يخبرها أحد الزملاء ؟ لكن كيف ذلك وهم يخافونها ويعلمون ماستفعله إن نبشوا في أمورها الشخصية ؟ طالت همهمات عقلها و لازالت الدموع تجري أنهارًا .

كان آدم لايزال ممسكًا به و ينظر له نظرات غير مستوعبة لما تم قوله للتو , انخفضت ثورته وهدأت نفسه بعض الشيء ببراءة زوجته لكن بعد ماذا ؟ بعد طعنها بشرفها ؟ وخروجها قبل تبرأتها ... حدثه عقله : لقد فقدت كل شيء يا آدم ! كل شيء ... أمسك محمود كفي أدم ثم نحاه بعيدًا قائلًا : و الآن ابتعد عنّي .

جثى آدم على ركبتيه , مسندًا كفيه على الأرض وهو يزأر قائلًا بصوتٍ مدوي :
ـ آآآآه ، التفت محمود لنور قائلًا :
ـ عندما أخبرت أم ريم بذلك لامتني و طلبت إلي أن أعدل عن قراري وأن أكرس اهتمامي بكِ والولدين , بالرغم من كيدك لها , إلا أنها لا تريد أذيتك أيتها الحقودة ... كانت نور تتقطع وقلبها ينفث براكين الحقد , نظرت له بعينيها الدمويتين وهي تتابع شتائمها عليه وتقذفه بالحصى من الحديقة .

التفت محمود لآدم وهو يهز رأسه في أسف قائلًا :
ـ لم أرَّ في حياتي امرأة بنقاء وطهر أم ريم , كنت أظن أن أختك فقط الغبية الوحيدة في هذا البيت لكنك انضممت مؤخرًا للقائمة ... تابع وهو يشير بيده على رأسه :
ـ أوليس لك عقل للتأكد من صحة كلامها قبل اتهام الجميع ؟ لقد فقدت حياتك وزوجتك الشريفة للأبد ... أشار بأصبعه عليهما مكملًا : لا يوجد في الدنيا من هو أكثر حماقة منكما ... شعر آدم بالجروح الغائرة تنبض في كل نواحي روحه , وكأن محمود قام بوغزه بسكين بارد داخل قلبه مع نطقه لتلك الكلمات فلم يتمكن من الرد عليه فقد أحكم الخزي قبضته عليه مضيفًا

لسيطرته الغفلة , ليجعل آدم يتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه في تلك اللحظة , أشاح بوجهه بعيدًا عن ذاك الذي أتته الفرصة ليرد له مافعله به منذ قليل , ود لو ضحك من آدم بعدما ظهر الندم على محياه لكن شفتاه لم تسعفاه فقد تورمتا أيضًا , لكن يكفي شعوره بالنشوة لأخذ حقه دون اللجوء لخوض معركة أخرى , لم يكن يتوقع أن يأتيه حقه بهذا الشكل ، أخذ يرتب هندامه الذي إهترأ من تلك المعركة و الملون ببقع الدم الصغيرة ثم التفت لنور وهو يحك رأسه وينظر للأعلى وكأنه تذكر شيء , ثم قال :

ـ كدت أنسى ، سأتزوجها الشهر القادم بإذن الله ... صرخت نور لسماعها ذلك ثم قذفته بحذائها قائلة :

ـ طلقني يا خائن .

ـ بسيطة... تابع محمود وهو يرفع كتفيه بلا مبالاة ثم نطق بصوتٍ واضح وبشجاعة بان شكلها جلياً على وجهه المعدوم من الضرب : أنتِ طالق .

حاولت نور النهوض لتتجه نحوه توسعه ضربًا , لكنه ركض للخارج قبل أن تصل إليه وفرّ هاربًا لينجو بحياته علّه يستطيع إصلاح ماحدث لوجهه قبل موعد الزفاف , يكفي أنه سيعتذر لمخطوبته الأيام القادمة عن مقابلتها حتى يتحسن وضعه وسيحاول التفكير بقصة مقنعة لما سيتبقى من آثار في وجهه حين يلقاها .

.....

تستمر الحياة بقسوتها مقسمة على أن تكمل مسيرتها حتى الذروة وكأنها تختبر مدى صبر القلوب , ومع ذلك لن ترمي عليها النفوس مايؤول إليه حالها لأنها ستنشغل بالجفاء والتباعد , أوليست تلك هي المأساة الحقيقية ؟

هرعت سعاد على غرفة شمس عندما سمعت صرخة رنا , وما إن دلفت وجدتها تبكي وهي محتضنة أختها التي كانت تهذي من ارتفاع حرارتها , اقتربت أكثر لترى بقعة دماء عظيمة أسفل شمس مفترشة السرير , فشهقت قائلة :

ـ ماذا حدث ؟ التفتت رنا لسعاد قائلة وسط نشيجها : لا أعلم .

ـ لعلها دورتها الشهرية ؟ ... قالتها سعاد وهي تتفحص حرارة شمس ،

هزّت رنا رأسها نافية وقلبها يقطر أسى, قائلة :

ـ لقد انتهت منها منذ أيام , كما أنها ساخنة يا أمي .

أمسكت سعاد بذراع شمس في محاولة منها للنهوض بها ثم التفتت لرنا قائلة :
ـ سآخذها إلى الحمام لتأخذ حمام بارد يخفض من حرارتها , أما أنتِ فلترتدي حجابك لنأخذها للمشفى ، مسحت رنا دموعها قائلة :
ـ سأتصل على صديقتي , أختها الكبرى طبيبة و لن تتأخر عن المجيء إن طلبت منها ذلك .

ـ هيا , إذن .... قالتها سعاد وهي ممسكة بشمس من أسفل ذراعيها لتسير بها حيث كانت مستسلمة تمامًا لوالدتها غير واعية لما يحدث , وبنطال منامتها ملطخ بالدماء من الخلف , اتجهت بها نحو دورة المياه وهي تقول والدموع تنهمر من مقلتيها :
ـ إلهي لا تريني فيهما بأسًا أبدًا , يارب أحفظها وعافها ولا تؤاخذها بما فعل أبوها .. ركضت رنا للصالة لتهاتف صديقتها وما إن فعلت حتى أخبرتها أن أختها بالمشفى لكنها ستتصل عليها وتخبرها بحالة شمس .

رنّ الهاتف فردت رنا وهي ترتجف , أخبرتها صديقتها أن أختها ستأتي إليهم بعد انتهاء دوامها بالمشفى وخلال ذلك الوقت عليهم استخدام الطرق التقليدية لخفض حرارتها بالماء البارد ، انتهت من المكالمة , لتجد أمها تنادي عليها لتساعدها في تحميم شمس بالماء البارد وتغيير ملابسها , رمت هاتفها على الأريكة واتجهت حيث كانت أمها واختها ، انتهت سعاد من مهمتها مع شمس بمساعدة رنا ونجحت في خفض حرارتها بشكل نسبي , أخذتها للغرفة الكبيرة حيث كان الفراش نظيف لحين تنظيف سريرها من بقعة الدم , ذهبت إلى المطبخ لتحضر مواد التنظيف اللازمة لذلك بينما جلست رنا بجوار أختها تقرأ بعض سور القرآن وتدعو لها .

استأنفت مهمة فراش شمس بفكر مشوش تتحدث مع نفسها بصوتٍ مسموع ... لا أعلم مايحدث معكِ ياشمس .. وهل أنا السبب فيما آل إليه حالك ؟ كيف أؤنب نفسي على ذنب لم أقترفه ؟ المذنب الوحيد في جميع الأحوال هو ذاك الرجل الذي لازالت محتفظة بلقبه حتى بعد رحيله عنّا ... تنهدت متابعة والعبرات قد انسالت رغمًا عنها على وجنتيها : لو تعلمين كم أحببتكما وفنيت نفسي لأجل الحفاظ عليكما يا شمس لن تجافيني أبدًا .

زاد بعدهما في الفترة الأخيرة محدثًا شروخًا أليمة في نفسيهما يصدح أنينها في الروح مضيفًا عذاب للعذاب وكلتيهما محتفظة بعنادها ورغبتها في البعد , استفاقت من مناجاة عقلها على صوت جرس الباب ولم تكن انتهت من إزالة البقعة بعد لذا واصلت العمل , خرجت رنا لتفتح للطبيبة , استقبلتها رنا بحفاوة ونادت على والدتها لترحب بها .

ـ مم تشكو دكتورة ؟ ... سألت سعاد الطبيبة التي انتهت لتوها من فحص شمس بينما كانت رنا تطالعها باهتمام , مترقبة ماستقوله .

رسمت الطبيبة على شفتيها ابتسامة مصطنعة ثم قالت :
ـ ستكون بخير , لا تقلقا , من الواضح أنها لم تأكل منذ مدة , كما أنها تعاني بعض الاضطرابات النفسية .

ـ لكن , ماذا عن الدم ... قالتها سعاد وهي تشير بيدها , فهتفت رنا :
ـ وحرارتها المرتفعة ؟

أشارت الطبيبة لكلتيهما أن تهدآ ثم أخرجت من حقيبتها قلماً و ورقة , وقالت :
ـ بخصوص حرارتها سأكتب لها دواءًا خافضًا للحرارة , أما بخصوص النزيف . شهقت سعاد لسماع ذلك وطرقت على صدرها بينما سألت رنا بشيء من الخوف : ـ نزيف ؟ أومأت الطبيبة بنعم ثم حاولت طمئنتهما قائلة :
ـ ستكون على مايرام ولكن لابد أن تحضرانها غدًا للمشفى .

اتسعت أحداق رنا وسعاد وهما ينظران لبعضهما ثم يعودا للطبيبة التي احتفظت بتخمينها حتى تتأكد في الغد ران على الجميع بعض الصمت , قطعته الطبيبة وهي تقدم ورقة الدواء لرنا قائلة :
ـ هاهو الدواء اللازم لها , وسأنتظرها غدًا لكن عليكم أولًا الاهتمام بطعامها , تابعت وهي تشير على الورقة : عنوان المشفى مكتوب أسفل الورقة .

ـ حسنًا , سنأتي بها غدًا ... قالتها رنا ثم التقطت الورقة من الطبيبة , وسارت معها للخارج تودعها بعدما شكرتها للاهتمام بأمر أختها والقدوم , بينما ظلت سعاد بجوار شمس تمسح على شعرها وهي تبكي وتتمتم بآيات من القرآن .

.....

عندما ينهشنا الندم معلنًا تفاقم حجم الخطيئة , فتأتي الحسرة ممسكة بسياطها لتجلدنا لكن هل سيكفي ذلك الضرب لمحو آثام الخطيئة ؟ أم إنه محض تعذيب مضاعف ؟

كان يقود سيارته بعصبية , ود لو يزيد السرعة لكن الزحام حال بينه وبين ذلك , أخذ يضرب المقود كلما تذكر حال أخته , يسأل نفسه كيف تجرأ آدم على فعلته ؟ كيف تصل به

الوقاحة لهذا الحد ؟ تابع وهو يعض شفته السفلى متوعدًا :
ـ لكنني سألقنه درسًا لن ينساه مدى الحياة .

وصل أخيرًا , صف سيارته أمام منزل جابر ثم ترجل , شعر بسخونة في صدره لدى رؤية المنزل , صك أسنانه وهو يطالع بابه الذي كان مواربًا , ود لو يدخل بلا استئذان لكنه عدل عن ذلك عندما وقف أمام الباب الكبير , رن الجرس وعندما تأخر الرد قام بالطرق عليه بقوة وهو يسترق النظر بين الفينة و الأخرى من فرجته , لاحظ من كان جالسًا بالحديقة مطرقًا رأسه وكأنه أصيب بالصمم فلم يسمع الجرس أو الطرق على الباب , أمعن النظر أكثر فتأكد من هويته , حينها دفع الباب بغضب واقتحم الحديقة بلا استئذان ، وقف أمامه مباشرة , وقد عقد ذراعيه أمام صدره وهو يطالعه باحتقار من رأسه لأخمص قدمه , ثم قال :
ـ ألن ترحب بي أيها الأصم ؟ أم أن البكم أصابك أيضًا ؟

رفع آدم رأسه ينظر لمازن والحزن الممتزج بالندم بادي على محياه الذي أُنهك بفعل معركة اليوم التي انتهت بهزيمته شر هزيمة , أغمض جفنيه في أسف ولم يرد , فمط مازن شفتيه قائلًا :
ـ اممم , تعجبني تلك الدراما , أيها القائد .

ازدرد آدم ريقه , وقطب جبينه في حرج وقد توقف لسانه عن النطق , وبما ينطق ؟ وقد انتهت الكلمات بعد فعلته مع أمنية , حتى عقله توقف عن التفكير بعد مواجهته بمحمود , لم يكن بحسبانه أن مازن على موعد معه وهو منهك خائر القوى هكذا , لم يقوى على الصعود لشقته لذا فضّل الجلوس بالحديقة بعدما دخلت أخته تكمل نحيبها مع أمها ، قطع مازن صمته قائلًا بعصبية :
ـ تمثيلك للهدوء لن يجدي نفعًا ، تابع وهو يشير بيديه : هيا قم و واجهني رجلًا لرجل .

لم يجبه آدم , فأمسكه مازن من تلابيب قميصه ليقف , ثم صفعه بقوة قائلًا :
ـ هذا لأجل أختي , لطمه على الجانب الآخر قائلًا : وهذا لأجل ريم التي أبكيتها برحيل أمها ... كان آدم مستسلمًا لصفعه وكأنه بذلك سيريح ضميره من تأنيبه لضرب أمنية , لم يرد عليه لا قولًا ولا فعلًا , كان لقمة سائغة لمازن الذي انتهى من صفعة ليقوم بلكمه في جسده وهو يصيح :
ـ كيف تجرؤ ؟ إن كنت لا تعلم كيف تكون معاملة النساء , ها أنا قد جئت لأعلمك ... , وصل الصوت لزينب وهي تبكي مع نور على طلاقها , مدت عنقها علّها ترى من بالحديقة , لمحت مازن فخرجت على الفور , وما إن رأت ولدها يُضرب باستسلام دون محاولة الدفاع عن نفسه

, صاحت وهي تلطم :
ـ يا ويحي ، ركضت نحوهما ثم جذبت آدم من قبضة مازن وهي تصرخ وتشير بيدها :
ـ هل جننت ؟ ألم تعلمك أمك أن للبيوت حرمات ؟

رفع مازن أحد حاجبيه قائلًا :
ـ بلى ؛ علمتني , لكنكم من تعديتم على الحرمات وجئت هنا لأخذ حق أختي من ذلك الأهوج الموقن بخطأه لذا لم يرد عليّ ولو بضربه واحدة .

نظرت زينب لآدم الذي كان واقفًا كطفلٍ مذنب , وقد جال بخاطرها ذكريات طفولته الأليمة مع والده فبكت حاله , سألته وسط بكائها :
ـ ماذا فعلت لها يا آدم ؟ لم يرد , فصاح مازن :
ـ ألم يخبرك أنه ضربها ؟ ... فشهقت زينب وسألته :
ـ أين هي ؟ اتسعت حدقتا مازن في عدم استيعاب ورد ساخرًا : هل تمزحين معي ؟! ألم ترينها وهي تخرج كالمشردة من بيتكم بدون ابنتها ؟

وضعت زينب كفها على فمها ثم التفتت لآدم تلومه بعينيها وتحرك رأسها في أسف , لم تكن تعرف ما آلت إليه الأمور وهي حبيسة غرفتها , لكنها الآن أيقنت أن الكثير فاتها , ارتبكت بعد كلام مازن لكنها تذكرت منظر ابنها المضروب الذي وقف مستكينًا كما المغشي عليه , فقالت :
ـ وهل هذا يسوغ لك اقتحام بيتنا بلا إذن ؟
تأفف مازن قائلًا :
ـ استأذنت قبل الدخول , لكنكِ لم تسمعي الجرس أو الطرق على الباب .... تابع وهو يرمق آدم بنظرات غيظ : أما بخصوص أختي , فما فعله ابنك كفيل بقتله و إحراق بيتكم بأكمله .

سرت رجفة في أوصال زينب عندما كشف مازن عن وجهه الذي لم تر أوقح منه , نظرت لآدم قائلة :
ـ وأنت ما الذي دهاك ؟ هل أخافك هذا الولد ؟ لما لاتسكته ؟

ـ أنا رجل ولست ولد .... تابع مازن وهو يطالعها بطرف عينه وقد رفع أحد حاجبيه : هل له عين بعد ما فعله لمواجهتي ؟

ـ عين ؟ ...صاحت زينب وهي ترفع ذراعها في وجهه : من يسمعك يظنك أمسكت عليه ذلة , هل جننت يا ولد ؟

ـ قلت لكِ رجل ... استكمل وهو يبتسم بخبث : نعم أمسكت عليه ذلة .

ـ اخرس ، صرخت بها في وجهه ثم دفعته بيدها والتفتت لابنها الذي آثر الصمت وكأن عقله توقف عن التفكير ليدرك مايحدث , تسأله وهي تشير على مازن بإصبعها :
ـ ما الذي يهذي به هذا ؟ زفر مازن بضيق قائلًا وهو يشير بكفيه :
ـ هاتي ريم لأغادر ثم ناقشيه في الأمر على راحتك .

ـ ريم ! .... تابعت زينب وقد زمّت شفتيها وهي تطالع مازن بغيظ : لن تخرج ريم من هنا يا هذا .

ـ أعطها له ... قالها آدم بعد صمته المضني , فصاحت به :
ـ الآن نطقت ! ... بينما تنهد مازن قائلًا :
ـ خيرًا نطقت يارجل .

ـ لن يخرج أحدًا من هنا غيره ... تابعت وهي تشير لمازن على الباب : هيا أغرب عن وجهي .

رفع مازن حاجبيه وهو يتمتم بتذمر :
ـ يالكِ من امرأة عنيدة , بينما أخذ آدم ينادي على ريم بأعلى صوته فأتته بها نور , حملها متجهًا نحو مازن قائلًا بأسى والحزن يملئ مقلتيه وهو يودع ريم التي تبتسم له منادية عليه وترفرف بذراعيها الصغيرين :
ـ هاهي , انتبهوا عليها .

ـ هه , ستكون بخير طالما ابتعدت عنكم ... قالها مازن وهو يهم بالمغادرة حاملًا ريم على ذراعه , تاركًا زينب تغلي من الغيظ على عدم سماع آدم لكلامها أمام مازن , التفتت له قائلة :
ـ ما الذي فعلته ؟! هل جننت لتعطيه ريم ؟ سيضغطون عليك بها , أيها الأحمق .

تركها آدم بلا رد وانصرف مترنحًا بما تبقى من قوته التي قضت عليها معارك اليوم الضارية , يعتصره الألم على تسرعه , يشعر بأن الدنيا بأسرها قد تآمرت ضده لتفرق بينه وبينها , تصدح الأفكار السوداوية بعقله مؤكدة أنه بات الأحمق على وجه البسيطة , يدور أمام عينيه شريط اليوم بكل ماحدث ليزيد عذابه لكن بلا حل , فقد توقف عقله عند سرد مامضى فقط بدون التطرق لأي سبل تودي للنجاة .

.....

أجمل لحظة هي تلك التي نتمكن فيها من اقتناص السعادة لاستئناف التمتع بها لنخبر الدنيا لاحقًا أننا واعدناها وعشناها , لكن ماذا إن صنعت لنا الدنيا تعويذة تحول بيننا وبينها قبل أن تبدأ ؟

كان جالسًا بالشرفة , ينظر للكون الذي احمر بوداع الشمس بشرود وفنجان القهوة يطالعة والأبخرة الناعمة لازالت تتصاعد منه , تصدح الذكريات في ذهنه ممتزجة بما حدث اليوم , يفكر في حظه وكيف قابلها اليوم لتسلب لبّه وكيف بدت مألوفة للحد جعله يعصر عقله ليذكر أين رآها وليته لم يفعل , هاتف أحد أصدقاءه ممن يعملون مع والدها ليسأل عنها ممنيًا نفسه بأن عقله أخطأ عندما ربط بينها وبين من تذكرها لكنه وللأسف كان مصيبًا للحد الذي جعله توقف عن جلب أي ذكرى أخرى , كان يسأل نفسه : ألهذه الدرجة حظي عسر ؟ كلما اقتربت من إحداهن داهمني القدر بخفاياه وكأنه أقسم على الوقوف ضدي أو أنني ولدت بتعويذة حالت بيني وبين السعادة ... زفر بمرارة وهو يستفيق من فضفضته مع نفسه قائلًا : لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا .

اتجهت نحوه والدته ثم جلست على الكرسي المقابل , التفت لها مبتسماً , فمازحته قائلة :
ـ من أخذ عقلك فليهنأ به .

ارتبك قليلًا لكنه تدارك ذلك بالتقاط فنجانه ليستأنف احتساءه بتلذذ , فباغتته :
ـ متى سنذهب ؟ عقد حاجبيه وضيّق عينيه سائلًا : إلى أين ؟

ـ إليها ؟ ... قالتها سيادة وهي تغمز له , فضحك قائلًا :
ـ من تقصدين ؟ رفعت أحد حاجبيها ونادته باستياء من تصنعه البراءة :
ـ أيمن ، أشاح بوجهه بعيدًا عنها قائلًا :
ـ ما الأمر ؟ أشارت على نفسها قائلة :
ـ أنا من عليه أن يسأل ما الأمر؟ ولست أنت .

حاول كتم ضحكاته من محاولاتها المستميتة لكشف أمر هو نفسه لا يعلم كنهه , فتابعت : عيناك فضحتك يا غالي .

ـ أمي ، أرجوكِ ... تابع متحاشيًا النظر لعينيها : لم يحدث شيئًا بعد لتقولي ذلك .

ـ بل حدث ... قالتها بإصرار وهي تضرب بيدها المنضدة .

ـ ولِما لا تقولي أنني وُفقت في عملي وحسب .
ابتسمت سيادة وهي تطالع وجهه الذي احمر خجلًا :
ـ بريق عينيك يا بُني , بريق من وجد شطره الآخر .

أعاد الفنجان للمنضدة ثم رفع ذراعيه ممازحًا إياها :
ـ فليشهد الكون أن أمي أصبحت شاعرة .

ضحكت سيادة من مزحته ثم قالت :
ـ لا تبتعد عن الموضوع يا أيمن، وقل لي من هي سعيدة الحظ ؟

ـ سعيدة الحظ ؟ ... قالها بمرارة , فتابعت سيادة :
ـ نعم يا حبيبي , كفاها شرفًا أن تكون زوجتك ، صمت هنيهة , فاستكملت : هل أزعجتك بكلامي يا أيمن ؟

هزّ رأسه نافيًا وعاد لشروده , فقالت سيادة والحزن قد شق طريقه لقسماتها :
ـ لعلك أحببتها فوجدتها مرتبطة ؟

ضحك أيمن على ماترمي إليه أمه لتخرج ذكريات طي النسيان دفنها بأعماقه , طمئنها :
ـ لا تقلقي , سألت عليها وأخبروني أنها ليست مرتبطة .

ـ سألت ؟ ... قالتها وهي تلومه بعينيها ثم صمتت

ـ مهلًا , أمي ... تابع وهو ينظر يعتذر لعينيها : الموضوع لم يأخذ إلا لحظات .

ـ لحظات ؟ .... قالتها وهي عاقدة حاجبيها ، ضحك قائلًا:
ـ تعلمين أننا في عصر السرعة , رأيتها اليوم وبعد ذلك سألت عليها .

ـ مرحي ... قالتها سيادة وهي تصفق بطريقة طفولية وتضحك ملئ فيها .

لم يشأ إفساد فرحتها فصمت وعاد لتأمل الكون الفسيح , فبترت صمته قائلة :
ـ لنذهب لهم الليلة ، لم يرد عليها , فهتفت باسمه : ماذا دهاك ؟ من المفترض أن تكون سعيدًا بذلك ؟

ـ لكن ... قالها وسكت ... فخرجت سيادة عن هدوئها قائلة :
ـ لما لا تحكِ لي كل شيء عوضًا عن تنقيطي بالكلام هكذا .

الفصل الثامن عشر

(وماذا بعد؟!)

.....

باسمك قلبي
كان يغرد ..
طربًا بحروفه وسعيد
حتى غادرتِ
معتذرة !
ليكون البُعد
سياج جليد ...
حاولت النسيان مليا
علّي أفقد طيفك
لكنّي عنيد ...
أوصدت القلب بأبواب
أقسى من أي حديد
أوهمت النفس بأنّي
للنسوة سأظل بعيد
لم ألبث حتى أحنثت
بالقسم وخلفت الوعد
ليرفرف قلبي مع أخرى
لكنّي
ولحظي العاسر ...
أبصرت سد منيع
شيّده اسم مسحور
كان للقلب حبيب ...

.....

.....

يتعلق القلب بأشخاص من لحم ودم فيسعى دائمًا للتقرب منهم بكل الأشكال , لكن ماذا عمن تعلق باسم إحداهن ممن غرز بنصل عشقها داخل قلبه بيده هو لا بيدها ليزيد عذابه , فتمر

السنون مضيعة زهرة شبابه حتى تأتي أخرى يهفو لقربها لكن اسم الأولى يقف بينهما , أوليس ذلك أقسى مايقدمه القدر ؟؟

لم يكن يعلم من أين يستأنف حديثه عنها , كل الحروف تلاشت من على لسانه والأفكار تشتتت فصمت وظل ينظر لها علّ عيناه تخبرها بما عجز عن البوح به , لم يرد إفساد تلك الفرحة التي نطقت بها قسماتها , وهو يعلم جيداً مدى اشتياقها لاستقراره ... توالت همهمات عقله وهو مثبت بصره عليها دون أن ينبس ببنت شفه , فبترت صمته مزمجرة:

ـ أيمن ، همهم وهو يهز رأسه و قد رفع حاجبيه ليعلمها أنه منتبهًا لها , فقالت :

ـ هلا حدثتني عن تلك الفتاة التي تحاول إخفاء أمرها عنّي ؟

تنهد بأسى وهو يطالعها بلمحة من ارتباك قائلًا :

ـ لازالت تدرس بالسنة الثانية من الجامعة .

- وما المشكلة ؟ .. تابعت سيادة وقد زوت مابين حاجبيها : لا ضير في أن تكون صغيرة , بل أظنه أمرٌ جيد , كما أنك شاب , لما تتكلم وكأنك على أعتاب الشيخوخة ؟

- مشكلتي ليست في ذلك وحسب ... تنحنح متابعًا وهو يتذكر ماقاله صديقه الذي يعمل بمكتب والدها : لقد تركها والدها منذ مدة وتزوج بأخرى , وبالرغم من ذلك لم تطلب والدتها الطلاق.

- وماذا في ذلك ؟! ... سألته سيادة بدهشة وهي رافعة أحد حاجبيها

- أظن أن ذلك قد خلف أثرًا سلبيًا عليها ... تابع وقد أشاح بوجهه بعيداً عنها : لم تحيا في بيئتها بشكلٍ سوي رغم خجلها وبرائتها .

أومأت سيادة برأسها نافية ثم قالت :

ـ على العكس ؛ أمها امرأة أصيلة، وبالرغم من بعد زوجها عنها لم تطلب الطلاق للحفاظ على بيتها ... أضافت وهي تشير بسبابتها نحوه : وها أنت وسمتها بالخجل والبراءة .

- لكن ... قالها وقد زاغ بصره في الكون الفسيح ليطلق العنان لشروده الذي يحلق بين دفات السماء فترسل له نسمات لطيفة تلفح وجهه بنعومة .

تذمرت سيادة من محاولات ابنها المستميتة للعزوف عن الزواج , فقالت مستاءة :

ـ كف عن محاولاتك المخفقة تلك ... إلى الآن لم أجد عيب في تلك الفتاة يستدعي شرودك هذا .

قرر إظهار ورقته الأخيرة أمامها بدون توقع رد فعلها , بلع غصته قائلًا :

ـ لكن أختها .

- وما شأنها ؟ ... سألته سيادة وقد مطت شفتيها مستاءة .

لم يعتد التحدث عن أخلاق أحد لا تعجبه لاسيما إن كانت فتاة , شعر بأن الكلام ثقيل على قلبه للحد الذي منعه من التكلم , ظل يتمتم : هل عليّ إخبارها ؟ ... اختصر على نفسه ذلك العذاب

قائلًا :

ـ يتحدث الناس عن أخلاقها ب...رفعت سيادة كفها أمامه قائلة :

ـ لا تكمل... فقد فهمت مايريد قوله لكنها لم تنس أنها بالنهاية بشر ولا يحق لهما اغتيابها بهذا الشكل ولعل مايقوله الناس محض افتراء فيضيفا بذلك ذنب للذنب ...

ران عليهما بعض الصمت قطعته سيادة قائلة :

ـ برأيي أن البنت ليس لها ذنب في فعلة والدها أوأختها.

- حتى وإن كانت أختها تواعد رجل متزوج وتغويه ... قالها أيمن فاتّسعت حدقتا سيادة وشهقت ثم وضعت كفها على فمها من هول ماسمعت.

- لا حول ولا قوة إلا بالله .... تابعت سيادة في أسف : وماذنب تلك المسكينة ؟

وضع أيمن كفيه على وجهه قائلًا : وماذنب أطفالي في أن تكون خالتهم هكذا ...تابع وهو يمسح وجهه بألم ويزفر بضيق : هكذا حظي دومًا ...

أخذت سيادة تفرك كفيها في ألم , لا تعلم كيف تواسيه , تشعر بوخز يدمي قلبها لوجعه , قررت الدفاع عن أخت تلك الفتاة قائلة :

ـ ومن أدراك أن ماسمعته من صديقك حقيقي ؟

- رأيتهما بأم عينيّ ... قالها بنبرة حزينة ثم حاد بوجهه متحاشيًا النظر لعينيها ضيّقت سيادة عينيها وحاولت الركض في زوايا عقل ابنها في محاولة منها لفهم مايجري لكنها لم تفلح , فقالت :

ـ ما الذي رأيته بالضبط ؟ تنفس أيمن بعمق وهو يطالع السماء التي تستأنف استقبال الساعات الأولى من الليل , قال :

ـ رأيت صورتها مع ذلك الرجل الذي أخبرتك أنها تواعده وهو متزوج .

- ومن أدراك أنه لم يخطبها ؟ ... تابعت محاولة لإصلاح الوضح حتى ترجح كفة الفتاة التي يريدها : تعلم أن الرجل يحق له الزواج بمثنى وثلاث ورباع .

التفت أيمن لها ثم نظر لها مطولًا وهو يحدث نفسه : لقد فرحت بتلك الصورة التي رأيتها وكأنني لم أفرح بشيء قط فقد وأتتني الفرصة لأرى ألمك يا أمنية عسى أن تشعري بما فعلته بي في السابق , لكن ما إن وجدت تلك الفتاة حتى تمنيت لو لم أقابل هيثم حينها فأرتاح من كل ذلك ... أخذ يتذكر ذلك اليوم عندما أنهى هيثم حديثه معه بتلك الصورة المقيتة المحفوظة على جواله التي اتخذها خلسة دون أن يشعرا به ... ويهمس لعقله : لو أنني لم أرَّ أختك على هاتفه لما أطلقت بصري بكِ لمحاولة تخمين ذلك الوجه الذي رأيت نظيره من قبل , ليتني لم أنظر لكِ وأنتِ تتحدثين بحياء مع أبيكِ فيتعلق قلبي بك , أو وقفتك بالمصعد ناظرة للأرض , صدك لي بالكلام ثم استدارتك كي لا أطيل الكلام معك ... كل تلك الأشياء جعلت قلبه يرفرف وكأن

حياؤها فتنة وملامحها أججت نار الشوق التي ظن أنها انطفئت بزواج أمنية .... طال صمته وهو يتذكرها ويتذكر كيف كانت سعادته حينها عندما ظن أنه أخيرًا وجد ضالته بفتاة حَيِيَّة ممن يظن أنهن عزّ نظيرهن في الوقت الراهن , شعر بحرارة تخرج من قلبه وتنفث دخانها بين قسمات وجهه فيحمرعلى أثرها .

- أيمن .... تابعت سيادة وهي تغمره بدفئ عينيها فتحتوي ملامحه المحببة لنفسها والأثيرة لقلبها وقد أشفقت على حاله بعدما رأت احمرار وجهه هكذا وتأثره بذاك الموضوع :

ـ لقد طال صمتك يا حبيبي , قل لي فيما تفكر ؟ لم يرد عليها , فقالت بنبرة جادة : ـ للمرة الأخيرة أذكرك بأن الفتاة ليس لها ذنب في كل ماقلته , بل أظنك خير عوض لها عن كل ما سببته لها الحياة .

تنهد أيمن ثم أغمض جفنيه بوجع ثم فتحهما وطالعها بنظراته الضائعة وقال :

ـ حتى لو كان من تواعده أختها هو زوج أمنية .

- من ؟! سألته سيادة بعدم استيعاب , وكأن أذنيها أخطأتا الاسم فودت التأكد من ذلك.

طرق أيمن على المنضدة ليفيقها ثم قال بنبرة حازمة وبصوتٍ أعلى حتى تعي أمه تماماً مايقول :

ـ أختها تواعد المهندس آدم جابر زوج أمنية جمال ابنة أخيكِ .

- ماذا ؟ ... قالتها سيادة مشدوهة وقد ضربت صدرها , شردت بعبوس وكأنها تتابع فيلمًا به نفس الأسماء التي تعرفها لكنه حقيقي , سألت نفسها ألهذه الدرجة الدنيا صغيرة ؟ رغم أن ابنة أخيها تقطن بعيدًا عنها إلا أن ما حدث بحياتها وصلها في غمضة عين ... تألمت لحالها وحال ابنها وتذكرت الماضي لتهمس لعقلها قائلة :

ـ في كل مرة يكون لكِ يد يا أمنية بشكل أو بآخر في كسر قلب ولدي ، حتى بعد زواجكِ لا يزال اسمك مقترن بصوت تحطم فؤاده .

صمتا للحظات وكأن الوقت قد توقف عندها , هتفت به سيادة وقد تجلت العزيمة على قسماتها فقد شعرت بأن الأمر أصبح تحدي , لا سيما أن ذكر اسم ابنة أخيها ذكرها بسنوات عمر ابنها التي ضاعت في حبها وهوعازف عن الزواج , وعندما انحلت عقدته بأخرى جاء اسمها في اللحظة الخطأ ليجعله يتراجع مضيعًا مزيدًا من الوقت وكأنها صنعت تعويذة باسمها :

ـ سنذهب إليها .

- حتى بعد ما قلته لكِ ؟

- نعم , أنا أعي تمامًا ما أقول .... تابعت بتحدٍ واضح بين كلماتها :
ـ خذ من والدها موعد , وهات لي رقم هاتف والدتها لأخذ موعد من أجل زيارتها في القريب العاجل .

.....

أي شكر يمكن أن يوافي من يعيد روحًا لجسدها ؟ غير وعدًا بالإخلاص والحب الصادق الذي تبقى سيرته مهما فنت الأجساد ليعلم الدنيا بأسرها أن الأخوة حق ورباطها إيمان ...

عاد حاملًا ريم وهو يضحك ملئ شدقيه بعد فوزه في نزاله مع آدم , ما إن أدار المفتاح في الباب حتى فتحت أمنية وكأنها كانت تنتظره خلف الباب متلهفة لرؤية نبض قلبها وعودة روحها لجسدها التي رفرفت بيديها وهي تهتف بكلمة :

ـ أمي ! بينما هتف مازن وهو يضحك :

ـ أووووه , هل كنتِ بانتظارنا خلف الباب ؟

- ريييييم ... صرخت بها وهي تبكي من فرحتها بعودة روحها إليها أخيرًا , التقطتها من ذراعي مازن بسرعة ثم عانقتها مطولًا وهي تقول :

ـ الحمد لله ... ثم التهمت شفتيها ريم بكل جوارحها مقبّلة إيّاها بحرارة وكأنها لم تراها منذ أعوام , تتحسس جسدها لتؤكد لنفسها أنها حقًا ريم , تتلمس عينيها الصغيرتين التي لم يكن عليهما أثرًا للبكاء وتزفر بارتياح أنها لم تبك كثيرًا , عادت ببصرها لشعر صغيرتها التي تم تصفيفه بغير ترتيب فمسحت عليه وهي تضحك قاطبة جبينها بينما كانت ريم تنظر لها بارتياع من منظر عينيها الحمراوتين و وجهها الذي تبدلت معالمة بسبب كثرة النحيب , قالت :

ـ من صفف لكِ شعرك هكذا ؟

ـ أبي ... قالتها ريم , رفعت كفيها الصغيرين تتلمس بهما عيني أمها وهي تقول :

ـ عين أمي .... ضمتها أمنية لصدرها بقوة وهي تقول :

ـ لن أبكي مجددًا , طالما ريمي معي , أخذت تتنفس رائحة برائتها التي خشيت أن يطول غيابها .... كان مازن يقف قاطبًا جبينه متأثرًا برد فعل أخته الذي شعر أنه قد يكون مبالغًا بعض الشيء بينما كانت رغدة واقفة على باب المطبخ تنقل بصرها بين الجميع وعلى وجهها أمارات الدهشة مما يحدث ولا تعلم كنهه .

- كيف جئت بها ؟ .... تابعت رغدة وهي تنظر لمازن : ما الذي حدث ؟

ابتسم مازن لدى تذكره نزاله منذ قليل ثم حك رأسه قائلاً :

ـ لقد لقنت آدم درسًا جيدًا , وكأنني بإحدى معارك المدرسة الثانوية .

- معارك المدرسة الثانوية ؟ قالتها رغدة وقد ضيقت عينيها ، تنحنح مازن وقد زاغ بصره بين والدته وبين أخته التي لم تنتبه لما قاله منذ قليل فقد انشغلت بعناق روحها , قال :

ـ لقد ضربت آدم ، شهقت رغدة وقد وضعت كفها على فيها , بينما التفتت له أمنية وقد اتسعت حدقتاها فقد رنّت جملة أخيها لتخرق أذنها فانتبهت له بكل حواسها ونحت العناق جانبًا وقالت :

ـ ماذا فعلت يا مازن ؟

رفع ذراعه بفخر وكأنه يستأنف خطبة , قال :

ـ لقد جلبت لكِ حقك يا أمنية ، وضربته كما ضربك ولأنه مقر بخطئه لم يرد عليّ ، ولا ضربة .

- ضربك ؟ قالتها رغدة وهي تنظر لابنتها وقد رفعت أحد حاجبيها من تلك الأحجية التي لا تتقن حلها ، حادت أمنية بنظرها لوالدتها ثم لريم وعادت لمازن قائلة بلا تعابير على وجهها :

ـ وهل رأتك ريم وأنت تفعل ذلك ؟

هزّ مازن رأسه نافياً ثم عقد جبينه وهو يشير بذراعيه قائلاً :

ـ ظننتك ستفرحين بذلك !

- أيها الطائش ... صاحت بها رغدة متابعة : لقد أفسدت كل شيء ...

- بل أتيت بحق أختي وحسّنت وضعها .. تابع وهو يشير على ريم : لو لم آتِ بابنتها لما توقفت عن البكاء .. ظننتكما ستشكراني على ما فعلت .

- سيتدهور الوضع بسبب فعلتك , أيها الأهوج ... قالتها رغدة وهي تنهره بنظراتها الغاضبة ... فتأفف مازن بحنق وهو مصوب عينيه على والدته التي لم تفهمه يومًا ،

اقتربت منه أمنية وقد شعرت بالحرج بعدما بان الخزي على وجهه جليًا بسبب كلام رغدة , ربتت على كتفه وهي تطالع ريم قائلة :

ـ لا تؤاخذني ، فقد ألهتني ريم عن شكرك , لكنني حقًا ممتنة لك ... تنهدت بارتياح وقد أسندت رأسها على ذراعه وهي محتضنة ابنتها قائلة : لا حرمنا الله منك يا غالي .

وضعت رغدة كفيها على رأسها في محاولة منها لتقليل الضجيج الذي احتل عقلها بعد كلام مازن , نظرت لأمنية قائلة :

ـ علام تشكريه يا من ظننتك عاقلة ؟ أنسيتِ أنه ضرب زوجك منذ قليل ؟

- لكنه يستحق .... قالتها أمنية فصاحت رغدة وهي تغادر المكان للذهاب حيث الهاتف لتتصل بجمال :

ـ سأجن من أفعالكما أيها الغبيان .

زفر مازن بضيق قائلًا :

ـ لا تفهمني مطلقًا.. رفعت أمنية رأسها له تنظر له بحب , وتقول :

ـ لكنني أفعل .

طوقها وهي تحمل طفلتها بذراعه ثم قبّل رأسها واقترب من أذنها هامسًا :

ـ إلّا أنتِ يا أمنية .. دمعة واحدة منكِ كفيلة بأن تجعلني أحطم الكون بأسره.... تابع ساخرًا من موقف أمه : هه , تظنني سبب تدهور الأمر , ونسيت أنها لو لم تلح عليك بإتمام الزواج لما وقعتِ ببيت الأشباح هذا ... تتابعت ضحكات أمنية من وصفه فضحك معها وكذا ريم التي ضحكت على ضحكاتهما دون معرفة السبب ...

تشبثت أمنية بذراعه قائلة :

ـ أود منك معرفة التفاصيل .

- أي تفاصيل ؟

- تفاصيل مبارزتك , ومن قابلت ...وكل شيء ....

هزّ رأسه وهو يبتسم لطريقتها الطفولية في الكلام , قال :

ـ حسنًا , هيا نأكل أولًا وسأحكي لكِ كل شيء بعد ذلك , فأنا حقاً جائع .

استدارت أمنية ونظرت ناحية الباب وكأنها تبحث بعينيها عن شيء ما , ثم عادت لمازن قائلة:

ـ ألم تحضر معك من هناك حقيبة كبيرة ؟ ..أومأ نافيًا ثم قال :

ـ وهل تحتاجين شيء أهم من ريم ؟

ازدردت أمنية ريقها وقد شعرت ببعض الحرج من سؤال أخيها لكنها ابتسمت قائلة: ـ بالطبع لا , لكن فيها هاتفي و مفكرتي بالإضافة لمجوهراتي و ....

قاطعها مازن قائلًا بحنانه الأخوي :

ـ كل ذلك يمكن جلبه , يكفي عودتك بالنور لهذا البيت يا أختاه ... تابع وهو يربت على كتفيها : سأشتري لكِ هاتفًا حديثًا الليلة , ويمكنك استخدام هاتفي خلال ذلك الوقت .

ابتسمت أمنية على مضض ولم ترد لكنها شعرت بالقلق حيال أمر المفكرة التي يمكن أن يقرأ آدم سطورها من باب الفضول , ففهم مازن أن عرضه لم يلق استحسانها , قال :

ـ وبخصوص المفكرة , يمكنك انتقاء أيا مما أملك في غرفتي وكلهم جديد لا تقلقي.

غضنت أمنية جبينها وابتسمت بامتنان وهي تنظر لعينيه الصادقتين , قالت :

ـ حفظك الله , أخي .

مال بجذعه ناحيتها ثم احتضن رأسها رأسه قائلًا :

ـ سأعد لكِ خطة مميزة للتنزه والاستمتاع بالوقت قبل بدء الدراسة .

.....

تقلبنا الحياة بين جنبات القدر فنواجه مالا يمكننا توقعه علّنا نلجأ لأصعب الاختيارات التي ترميها بوجوهنا كأوراق اللعب لكن هل ستؤثر تلك الأوراق المقيتة بقراراتنا المصيرية ؟

ما إن انخفضت حرارتها , استعادت وعيها فجلست متكئة على وسادة سريرها وهي تتأوه ممسكة بأسفل بطنها والإعياء الشديد ظاهر على قسماتها , جاءتها سعاد بالحساء لتطعمها ,

جلست بجوارها وهي تطالعها بقلق ممتزج بحنان أمومي بعينيها العسليتين ثم مدت إليها بملعقة الحساء قائلة :

ـ افتحي فمك , حبيبتي .

طالعتها شمس ببالغ الحرج من طيبتها معها رغم أفعالها المشينة اتجاهها , تناولت الحساء ولازالت ممسكة ببطنها , لاحظت سعاد ذلك فنقلت بصرها لبطن ابنتها بخوف والألم يعتصر قلبها على ألم بضعة منها, قالت :

ـ مما تتألمين ؟ وما الذي حدث معكِ , صغيرتي ؟

رغم وجعها إلا أنها ودت لو تشكر ذاك الألم الذي جعل والدتها تعود لتدليلها مجددًا , لكنها شعرت بالخجل عندما تذكرت طريقتها الفجة بالأيام السابقة في الكلام معها , قالت بتحشرج :

ـ لا .. أعلم ، قدمت لها ملعقة أخرى , لكن شمس اعتذرت و نفضت عنها الغطاء وحاولت النهوض ممسكة بطنها و الأوجاع تقطعها إربًا , فبادرتها سعاد قائلة :

ـ ماذا تريدين ؟

- الذهاب للحمام ... قالتها وهي تجاهد ألمها لأجل النهوض, فوضعت سعاد الطبق على المنضدة ثم ساعدتها لأجل القيام وقد تقافزت الظنون والخواطر السوداوية لعقلها .

انتهت رنا من صلاة العشاء , اتجهت حيث كانت شمس , لكنها وجدت سعاد جالسة تكفكف دموعها وتتحدث لنفسها وكأنها جُنت , هرعت رنا نحوها ثم أمسكت بكتفيها قائلة :

ـ ماذا هناك , أمي ؟ وأين شمس ؟

- هاتِ هاتفي ... قالتها سعاد فعقدت رنا حاجبيها والدهشة تعلو ملامحها وسألتها :

ـ لماذا ؟!

تأففت سعاد محفزة إياها على إحضاره بدون أسئلة , فذهبت رنا إلى الصالة ثم أحضرته مسرعة , أخذته سعاد ثم تحسسته حتى وصلت لرقم ما هاتفته وانتظرت الرد .

- أهلًا سعاد ... قالها رجب بجمود .

- ابنتك مريضة ... قالتها سعاد بنبرة مهزوزة والغضب يخرج من قلبها على تلك الظروف التي أحوجتها لمكالمته .

- أي منهما ؟

- شمس .

- خذيها للمستشفى يا سعاد . ... قالها ببرود وصل جليده عبر ذبذبات الهاتف

شعرت بالندم لمهاتفته و ازداد حنقها لأنها لازالت على ذمته آملة في عودته , حدثت عقلها أي غباء هذا ؟ .. خرجت من حديث عقلها بصرخة أرعبت قلبه :

ـ ابنتك تنزف يارجل ... أي نوع من الآباء أنت ؟ أقول لك ابنتك تموت من النزيف وتقول خذيها للمشفى ببرود هكذا ... لو أنك مثلت عليّ التأثر لصمت .

تأفف رجب من كلامها الذي ظن أنه مبالغ فيه لا سيما أن رنا كانت عنده اليوم ولم تخبره عن مرض أختها , فقال :

ـ سأبعث إليكِ بسائق خاص , سيأخذكما إلى أكبر مشفى في القاهرة .

- سائق ! ... باغتته سعاد متابعة : وهل هو والدها ؟ دائمًا تتهرب حتى مع أحلك الظروف وأصعبها ... تنهنهت مستكملة : كيف ستقابل ربك إذا سألك عنّا , أيها الظالم .

- يكفي يا امرأة ... صاح بها متذمرًا : سأكون أمام البيت بعد ساعة , يا لكِ من لحوحة .

أنهت المكالمة لتستأنف نحيبها على ضياع كرامتها بلصق اسمها بجدار متهاوي بل تظنه سقط مذ تزوج عليها لكنها فضلت الوهم متصبرة بأن وجود اللقب بينهما سيجعله سند لابنتيه وقتما لجآ إليه , حسمت أمرها وهي تتمتم بصوت خافت قائلة : ـ سأفعلها يارجب لكن بعد الاطمئنان على شمس , وسط استغراب رنا التي أجفلت النظر لوالدتها , لا تعلم كيف جاءتها الشجاعة لمهاتفته ؟ وطلب مساعدته هكذا ولماذا تبكي بهذا الشكل ؟ أيعقل أنها اشتاقت لوجوده بيننا كما فعلت أنا ؟

اقتربت منها ثم أحاطتها بذراعيها قائلة :

ـ هل أنتِ بخير ؟ أومأت بنعم , فقالت رنا : لِمَ هاتفتيه ؟ لم يكن عليكِ ذلك , لقد اتفقنا مع الطبيبة أننا سنذهب لها غدًا .

هزّت سعاد رأسها نافية ثم قالت :

ـ حالة أختكِ ستفقدني عقلي , لن يرف لي جفن حتى أذهب بها الليلة لأمهر طبيب يطمئنني عليها .

صمتا عندما لاحظا من عادت لتوها من الحمام تترنح ممسكة بالحائط بيد وباليد الأخرى ممسكة ببطنها وهي تعض شفتها السفلى بمرارة وعينيها ذابلتين ... اتجهت رنا نحوها ثم أسندتها قائلة :

ـ سلامة الله عليكِ , أختي .

رتبت سعاد فراشها ثم ساعدتها لتستلقي عليه جالسة كما كانت منذ قليل لتعود لطعامها , لكنها قالت :

ـ لا أريد الطعام .

ـ لابد أن تأكلي ,حبيبتي ،تابعت سعاد وهي تقدم لها الملعقة :لأننا سنخرج بعد قليل.

ـ إلى أين ؟ ... قالتها شمس بصوت مبحوح .

- للمشفى ... قالتها سعاد ثم التفتت لرنا متابعة : اذهبي يارنا لإحضار ملابس أختك ثم اتجهي لغرفتك لأجل تبديل ملابسك للذهاب معنا ... هبّت رنا واقفة متجهة لغرفة أختها لتحضر ماطلبته منها أمها ..

امتعضت شمس وصدرها يعلو ويهبط قائلة :

ـ لا أريد , ككك كما أنننني لن أقوى على التحرك, والوقت أيضًا تأخر .

ربتت سعاد على كتفها قائلة :

ـ لا تقلقي حبيبتي نحن معك وسنساعدك , وبخصوص الوقت سيأتي معنا أبوكِ

- ماذا ؟ ... قالتها شمس من بين شفتيها المطبقتين على عذاب يخرج وكأن السيوف تقطع جسدها حية ,بارتباك ممتزج بسعادة رغم أوجاعها المؤلمة لأن ذاك التعب كان سبب في لم شملهم من جديد ...

- كما سمعتِ ... استكملت سعاد وهي ترجوها إكمال طعامها مقربة ملعقة الحساء من فمها , فتناولتها شمس لاسيما أن ماقالته أمها كان سببًا لتغير حالتها المزاجية للأفضل بشكل نسبي .

.....

وجع يتلو الوجع ليفتك بما تبقى من الروح , لكن دوام الحال من المحال فلابد من ظهور شيء ما يربت على القلب في ذلك الليل العاصف ...

صعد شقته ممسكًا بالدرابزين خشية أن يسقط بعدما أُنهكت قواه وتلاشت طاقته مبعثرة ماتبقى من عقله , ما إن وصل سار مترنحًا في الصالة كما المخمور , ثم ألقى بجسده على الأريكة الوثيرة فتحتضنه كما يريد ليغيب عن هذا العالم بكل ماعاناه فيه متجهًا بعقله نحو ظلمة مقفرة لكنها أفضل من ضوء يحمل معه العذاب والألم .

لم يمر وقت كبير على غيبوبته , فقد شعر بدوران مفتاح الباب الذي نسيه خارجه , ثم ترائى لمسامعه صوت عجلات صغيرة تمشي على الأرض ببطىء , وكذا صوت هامس :

ـ أووه , ثقيلة رغم وجود العجلات .

حاول النهوض متثاقلًا على جسده المنهك , بالكاد تمكن من الجلوس متكئًا على الأريكة , وما إن نظر إلى مصدر الصوت حتى استفاق وأخذ يفرك عينيه ليتأكد من صدق ما رأى , هبّ واقفًا وكأن النشاط دبّ في أوصاله ليخبره أنه قادر على الذهاب إليها ....

- أمنية ! .... نطق بها فتسمرت مكانها مرتعدة وهي مولياه ظهرها وناظرة للباب اقترب منها أكثر , ثم أمسك كتفيها وأدار جسدها النحيل ليكون في مواجهته, كانت قاطبة جبينها مغمضة عينيها وهي تتأفف ظنّها تفعل ذلك على سوء حظها فقد ظنت أنه لازال بالأسفل , وتخيلت نجاح مهمتها إن دخلت من الباب الخلفي كما حدث معها وهي تخرج بدون ملاحظة أحد .

قرّب وجهه من وجهها يتحسسه ويشتم أنفاسها ثم طبع على قسماتها قبلات حميمية , ضمّها لصدره عنوة حتى كادت تختنق , فهمهمت مزمجرة تحاول الخلاص لكنه ظلّ مطبقًا ذراعيه حول جسدها بقوة وكأنه طفل ضائع لم يلبث أن رأى أمه بعد غياب .

- ابتعد عنّي ، ألا يكفي مافعلته بي ؟... بالكاد تمكنت من قولها داخل سجن عناقه الملتهب .

- أنا آسف .. أنا آسف ... أخذ يكررها وهو يقبّل رأسها بلا توقف ثم يتبعها بسامحيني .

- كف عن ذلك، وفر أسفك ، فقد انتهى كل شيء ... قالتها وهي تحاول دفعه لكن فارق الحجم بينهما لم يمكنها من ذلك , فتابعت بآلية: جئت لأجل مفكرتي ليس إلا .

نجحت بالتحرر من قبضته ثم اتجهت نحو الباب تفتحه لكنه لحق بها وجذبها لأسره مجددًا وهو يعتذر آسفًا بكل الجمل التي نطق بها لسانه مرتجفًا, قاومته بكل ما أوتيت من قوة وهي تقول بنفور :

ـ دعني وشأني، لن أسامحك ماحييت...آثر الصمت فقد كان قلبه يتمزق مع كل كلمة غضب تنطق بها ولا يعرف كيف يجعلها تتجاوز ماحدث مع عظم جرمه، خالجه مزيج من مرارة الندم وسعادة جمّة بعودتها، منّى نفسه بأن كل شئ سيُحل طالما عادت.

تحرك بسرعة نحو الباب , فتحه , أخذ المفتاح من الخارج , ثم عاد مغلقًا الباب وهو يؤكد ذلك بالمفتاح الذي دسه في جيبه , فصاحت به :

ـ ماذا تفعل ؟

استدار لها قائلاً بتصميم وتحدٍ ظهر على عينيه الواسعتين المتشحتا بالسواد التي حاولتا احتضان وجهها الغاضب :

ـ لن تخرجي من هنا .

- ماذا ؟ ... قالتها وقد اتسعت حدقتاها البنيتين المتحجرتين التي كاد يغرق فيهما رغم اختفاء بريقهما وسيطرتهما على الدموع التي ولأول مرة لم تذرفها رغم أن من أوجعها يحاصرها ظل يطالعها بعذاب يؤجج رغبة جامحة لأسرها داخل قلبه إلى الأبد , لكن كيف يفعل ذلك معها طواعية وباستسلامها ؟ لم يحسن الكلام المعسول يومًا , وعندما ظن أنهما تغيرا للأفضل جاءته مصيبة زوج أخته لتدمر ماظن أنه نجح بتحقيقه .

الفصل التاسع عشر

(أحلم بهواكِ)

.....

أحلم بهواكِ منتظرًا ...

على أعتاب القدر ..

وأعد الثواني ..لكن

الوقت أبدًا لا يمر ...

أسأل نفسي ألف سؤال ..

والجواب كالعلقم مر

هل حقًا آثرتي البعد ؟

أم أن خيالي أصابه الضر ؟

ومع ذلك .. لا .. لن أيأس

سأمني نفسي بالعودة

ولتبقيها سر ...

لتكون مفاجأة لقيانا

مشرقة كالدر ...

آه لو تعلمي كم أحلم بهواكِ !

وسيبقى أجمل حلم ...

.....

.....

وما سمي الحلم حلمًا إلا لاشتهاء مايحدث فيه , فكل جميل نراه في الكون ندعي لأول وهلة أنه كما الحلم , ماذا إن جاءنا في أحلك الظروف وأقساها , أوليس هذا أفضل ما يمنحنا الإله ؟

صعد شقته ممسكًا بالدرابزين خشية أن يسقط بعدما أُنهكت قواه وتلاشت طاقته مبعثرة ماتبقى من عقله , ما إن وصل سار مترنحًا في الصالة كما المخمور , ثم ألقى بجسده على الأريكة الوثيرة فتحتضنه كما يريد ليغيب عن هذا العالم بكل ماعاناه فيه متجهًا بعقله نحو ظلمة مقفرة لكنها أفضل من ضوء يحمل معه العذاب والألم .

لم يمر وقت كبير على غيبوبته , فقد شعر بدوران مفتاح الباب الذي نسيه خارجه , ثم ترائى لمسامعه صوت عجلات صغيرة تمشي على الأرض ببطىء , وكذا صوت هامس :

ــ أووه , ثقيلة رغم وجود العجلات .

حاول النهوض متثاقلًا على جسده المنهك , بالكاد تمكن من الجلوس متكئًا على الأريكة , وما إن نظر إلى مصدر الصوت حتى استفاق وأخذ يفرك عينيه ليتأكد من صدق ما رأى , هبّ واقفًا وكأن النشاط دبّ في أوصاله ليخبره أنه قادر على الذهاب إليها .

- أمنية ! .... نطق بها فتسمرت مكانها مرتعدة وهي مولياه ظهرها وناظرة للباب.

اقترب منها أكثر , ثم أمسك كتفيها وأدار جسدها النحيل ليكون في مواجهته, كانت قاطبة جبينها مغمضة عينيها وهي تتأفف ظنّها تفعل ذلك على سوء حظها فقد ظنَّت أنه لازال بالأسفل , وتخيلت نجاح مهمتها إن دخلت من الباب الخلفي كما حدث معها وهي تخرج بدون ملاحظة أحد .

قرّب وجهه من وجهها يتحسسه ويشتم أنفاسها ثم طبع على قسماتها قبلات حميمية , ضمّها لصدره عنوة حتى كادت تختنق , فهمهمت مزمجرة تحاول الخلاص لكنه ظلّ مطبقًا ذراعيه حول جسدها بقوة وكأنه طفل ضائع لم يلبث أن رأى أمه بعد غياب .

- ابتعد عنّي ، ألا يكفي مافعلته بي ... بالكاد تمكنت من قولها داخل سجن عناقه الملتهب .

- أنا آسف .. أنا آسف ... أخذ يكررها وهو يقبّل رأسها بلا توقف ثم يتبعها بسامحيني .

- كف عن ذلك، وفر أسفك ، فقد انتهى كل شيء ... قالتها وهي تحاول دفعه لكن فارق الحجم بينهما لم يمكنها من ذلك , فتابعت بآلية: جئت لأجل مفكرتي ليس إلا .

نجحت بالتحرر من قبضته ثم اتجهت نحو الباب تفتحه لكنه لحق بها وجذبها لأسره مجددًا وهو يعتذر آسفًا بكل الجمل التي نطق بها لسانه مرتجفًا, قاومته بكل ما أوتيت من قوة وهي تقول بنفور : دعني وشأني، لن أسامحك ماحييت...آثر الصمت فقد كان قلبه يتمزق مع كل كلمة غضب تنطق بها ولا يعرف كيف يجعلها تتجاوز ماحدث مع عظم جرمه، خالجه مزيج من مرارة الندم و سعادة جمة بعودتها، منّى نفسه بأن كل شئ سيُحل طالما عادت..

تحرك بسرعة نحو الباب , فتحه , أخذ المفتاح من الخارج , ثم عاد مغلقاً الباب وهو يؤكد ذلك بالمفتاح الذي دسه في جيبه , فصاحت به : ماذا تفعل ؟
استدار لها قائلًا بتصميم وتحدٍ ظهر على عينيه الواسعتين المتشحتا بالسواد التي حاولتا احتضان الغاضب وجهها :
ـ لن تخرجي من هنا ...
- ماذا ؟ ... قالتها وقد اتسعت حدقتاها البنيتين المتحجرتين التي كاد يغرق فيهما رغم اختفاء بريقهما وسيطرتهما على الدموع التي ولأول مرة لم تذرفها رغم أن من أوجعها يحاصرها ظل يطالعها بعذاب يؤجج رغبة جامحة لأسرها داخل قلبه إلى الأبد , لكن كيف يفعل ذلك معها طواعية وباستسلامها ؟ لم يحسن الكلام المعسول يومًا , وعندما ظن أنهما تغيرا للأفضل جاءته مصيبة زوج أخته لتدمر ماظن أنه نجح بتحقيقه .

كان يطالعها مبتسماً رغم امتعاضها وعبوسها , فقد كان سعيدًا برجوعها حتى و إن ظنته مؤقتًا لأجل جلب مانسيته , إلا أنه ظنّ دوامه طالما المفتاح معه ... ران عليهما بعض الصمت قطعته قائلة بصوتٍ عالٍ :
ـ افتح الباب ...هزّ رأسه نافيًا , فقالت بتعابير حملت تهكم :
ـ أنت مصمم على التفرقة بيني وبين ريم

ـ لا تقلقي بشأنها , هي بالنهاية مع عائلتك .

ـ هات المفتاح... صاحت به وقد احمر وجهها من ابتسامته الغير منطقية في هذا الموقف و التي تغيظها .. تلمس خدها المحمر بأصابعه , فنفضت يده بعصبية قائلة : ـ أبعد يدك يا آدم .

ـ قولي لي ما الذي يرضيكِ ؟ وسأفعله... تابع آدم وهو يطالعها بنظرات راجية :
ـ إن كنت تريدين اعتذار من نور , هيا بنا للأسفل وسأجعلها تفعل .... أشار بسبابته على صدره مضيفًا : وأنا أيضًا سأعتذر لكِ أمامهم .

ـ هه , اعتذار ! ... تابعت وقد رفعت أحد حاجبيها ونظرات السخرية تعلو محياها : ـ الذي يرضيني هو أن تتركني أغادر .

قاطعهما صوت الطرق على الباب والنداء خارجه :
ـ خالي.... خالي آدم

ازدادت الطرقات و ازداد معها النداء , وللأسف تلاشى معها ذاك الحلم الذي أثلج صدر آدم وربت على قلبه ليخفف من وطأة الغم الذي احتله , أخذ يفرك وجهه هو لايزال مستلقي على

الأريكة ليسمع صوت من يناديه ويطرق على الباب بدون توقف وكأن خاله ينتظره خلف الباب .

تأفف آدم وهو ينفض عنه آثار ذاك الحلم الجميل رغمًا عنه , ثم نظر نحو الباب لعل ما رآه حقيقة , لكن كان كل شيء كما هو , الحقيبة بمكانها وأمنية ليست هنا , قام من مكانه ثم سار يبحث عنها آملًا في أن تكون فعلًا عادت أثناء نومه , لكنه شعر بالخزي بعدما لفّ بين أروقة الشقة دون العثور على طيفها , ازداد الطرق العنيد , فعاد للباب حانقًا من ذلك المزعج الذي لم تكتف أمه بتمزيق قلبه اليوم بل وصل بها الحال لمحو أحلامه التي كانت خير عوض عما لاقاه .

ـ ماذا تريد يا عمر ؟ .... قالها بصوتٍ مرتفع من خلف الباب بلا فتحه , لايريد أن يدخل له سواها لذا آثر أن يبقى مغلقًا .

ـ افتح الباب يا خالي ، لي ساعة أجوب السلم ذهابًا وإيابًا كما أمرتني جدتي كي تفتح لي ... تابع عمر وهو واقف أمام الباب مندهشًا من إصرار خاله على عدم فتح الباب ومتعبًا بسبب وقوفة وطرقه على الباب عدة مرات خلال ساعة من الإخفاق المتكرر في أن يرد عليه آدم : جدتي تريد منك النزول لتطمئن عليك...

ـ قل لها بخير، فقد فعلت أمك الواجب وزيادة .

ـ ماذا ؟ ... قالها عمر لأنه لم يستوعب ما يرمي إليه خاله , فأعاد عليه آدم ماقاله , مضيفاً :
ـ قل لها ماسمعته .

ـ حسنًا , خالي سأفعل ... قالها وعاد أدراجه من حيث أتى ليخبر جدته بما قاله آدم.

انتظر خلف الباب حتى سمع صوت خطوات الصغير وهو يهبط الدرج , مدد ذراعيه وهو يتثائب ولايزال يشعر بالإنهاك الذي يسري بجسده فيؤلم كل ذراته , استدار ونظر لساعة الحائط فوجدها تجازوت الحادية عشرة ليلًا بنصف الساعة , بينما غط في نومه في الساعة السادسة مساء , خلل أصابعه بين خصلات شعره يشعثها لعله يخفف من وطأة ذاك الصداع الذي شج رأسه لنصفين من الألم وهو يقول :
ـ لقد نمت لفترة طويلة , سينقلب ليلي نهارً بسبب كل ذلك النوم .

ابتسم وهو يتذكر ذلك الحلم الذي راوده على حين غرة , وهو يقول :
ـ أيعقل أن أكون اشتقت لها ولم يمضي على رحيلها سوى ساعات ؟

تنفس بعمق وأخذ يمسح على وجهه المجهد قائلاً : لقد كان حلمًا رائعًا ... لن أنكر اشتياقي لها ... نفض عنه آثار الحلم ثم اتجه لدورة المياه ليأخذ حمامًا دافئًا ينعشه .

انتهى من صلاة المغرب التي فاتته على إثر نومه العميق وكذا صلاة العشاء ثم اتجه للمطبخ لإعداد كوباً من الشاي و أثناء ذلك قفزت أمام عقله جملة أمنية بالحلم : جئت لأجل مفكرتي , ليس إلا... ظل عقله يرددها ويتذكر منظرها وهي ممسكة بالحقيبة ... زفر بمرارة وهو يعود للحلم مجددًا وكيف كانت قوية ؟ ... شرد عن الشاي الذي وصل ماؤه للغليان يتذكر نفورها وابتعادها عنه وكيف كان متشبثًا بها .

وضع الشاي على المنضدة بالصالة ثم اتجه ناحية باب الشقة حيث كانت الحقيبة الكبيرة , فتحها وأخذ يقلب بين محتوياتها بنهم , لم يجد دفاتر بينها , قال :
ـ أين وضعته ؟ ... أغلق الحقيبة ثم واصل بحثه في جيوبها الأمامية حتى وصل أخيرًا لدفتر يسكن بين دفتي الجيب الأمامي , سحبه بهدوء وأخذ يتأمله بعينيه ويشتم رائحة صفحاته التي بدا لونها باهت بعض الشيء ورغم ذلك حملت رائحة أمنية قربها من أنفه لعدة دقائق يلتمس في تلك الرائحة أثرها , تمتم : يبدو أنه رغم نظافته قديم بعض الشيء, لماذا قد تحتاج لمثل ذلك الدفتر ؟ .. تابع بسخرية : جاءت خصيصًا بحلمي تبحث عنه .. نحى الحقيبة جانبًا ثم عاد للمنضدة , استوى على الكرسي وأمسك بالموب يشرب منه و باليد الأخرى يفتح المفكرة ليتصفحها من باب التسلية في ذلك الليل المقفر .

.....

تنهك الروح فتزيد وجع الجسد لاسيما إن كان مصاب بالسقم , لكن ماذا إن أضافت الحياة مزيدًا من الألم بتسديد صفعة قوية ؟ .. ترى هل سيكون الأمر أسوء ؟ أم أن الحكمة ستنطق قائلة : ماذا ستأخذ الريح من الأرض المقفرة ؟

رنّ الجوال معلنًا عمن كان بانتظارهن بالأسفل , يكاد يغلي من تحكمات سعاد التي ولأول مرة تصمم على أمر هكذا , مقسمًا أنه إن كان أمر شمس ليس خطيرًا سيوبخها كثيرًا أمام ابنتيها على جعله يأتي رغمًا عنه هكذا وكأنه سائقهن الخاص .

نزلت شمس مستندة بوالدتها وأختها من الجانبين , تسير على مهل والشحوب ظاهر على محياها , كان رجب يتابعهن داخل السيارة لم يكلف نفسه عناء الخروج لمساعدتهن , ظل يحدق في زوجته المنسية التي لازالت محتفظة بهيئتها رغم كم الحزن البادي على شكلها وكأن

الزمن توقف عندما هجرها فبقيت كما هي جميلة , بريئة بعيدة عن التبرج الذي تتفنن فيه زوجته الثانية .

فتحت سعاد باب الكرسي الخلفي و أجلست شمس ثم جلست بجوارها , بينما اتجهت رنا للكرسي الأمامي المجاور لأبيها .

أدار المفتاح ثم انطلق بالسيارة وقد أطبق الصمت إحكامه عليه ولم يحاول حتى الاطمئنان على شمس أو التخفيف عنها بكلمة , تداركت رنا الأمر والتفتت إليه مبتسمة ثم قالت :
ـ شكرًا لك أبي .

ـ العفو ... تابع ممتعضًا : هل حالتها خطيرة لهذه الدرجة ؟ أومأت رنا بنعم , قالت: ـ ألم تكن تود رؤيتها , أبي ... تنحنح رجب قائلًا :
ـ ليس الأمر كذلك , لكنك تعلمين أني مشغول و وقتي ضيق ... استكمل وهو ينظر للطريق : لأجل ذلك الموعد سيتم تأجيل مواعيد أخرى خاصة بالعمل .

ـ أيهما أهم ؟ ... هتفت سعاد وهي تغلي من طريقته الباردة في الحديث ... بينما آثرت رنا الصمت فلم تلق طريقة والدها استحسانها , لأول مرة تشعر بأن والدتها ضحت بعمرها هباءًا مجرد وهم اسمه اللقب .

تأفف رجب ولم يرد عليها بإجابة شافية , حاولت شمس رغم ضعفها تغيير مسار الحديث , فقالت بصوتها المبحوح :
ـ اشتقت إليك, أبي .

ابتسم رجب وهو يقود السيارة وشعر بوخز يدمي قلبه على ذاك الصوت الواهن الذي ناداه باشتياق , قال :
ـ و أنا أيضًا , حبيبتي ... تابع في حرج : سلامة الله عليكِ .

تهللت أسارير شمس متحدية مرضها , لاسيما أنهم أخيرًا تجمعوا حتى لو كان السبب مؤلم لكن يكفي فرحتها بعودة أبيها حتى وإن كانت مجرد وهم , ردت بحشرجة :
ـ سلمك الله ... أمام المشفى صف رجب سيارته وترجل الجميع , حاول تقديم المساعدة بإسناد شمس قائلًا :
ـ دعياها لي , سأتولى أمرها .

لكن سعاد تصدت له معترضة ببرود نثر الجليد بين حروفها :
ـ شكرًا , يكفي أننا عطلنا مصالحك أيها المحامي العظيم .... تسمر رجب وهو يطالعها باندهاش فقد بدت كقطة شرسة تحاول التشبث بطفلتها بكل ما أوتيت من حنان , تظهر له قوة لم تكن فيها من قبل , سأل عقله : كيف تغيرت هكذا ؟

استقبلهم الطبيب ببشاشة وهو يرحب برجب كصديق , ثم طلب من شمس التوجه لفراش الفحص ليتم تشخيص حالتها بكل دقة .

عقب فحصها عادت حيث الجميع وكذا الطبيب لمكتبه , نظر لها الطبيب قائلاً :
ـ ماذا عن دورتك الشهرية بالشهور السابقة ؟ ألم يكن بها آلام وكذلك كمية الدماء و عدد أيامها ؟

زفرت شمس وقد تلون وجهها من الحرج لأن عائلتها يراقبون مايحدث بتوجس , قالت :
ـ لي أربعة أشهر أعاني من آلام مبرحة خلالها لا تزول إلا بالأقراص المسكنة , والدماء كثيرة عن ذي قبل وكذلك عدد الأيام زاد عن المعتاد بشكل مبالغ .

صمت الطبيب للحظات , فبترت سعاد صمته قائلة بصوتٍ مهزوز :
ـ هل هي بخير , دكتور ؟

عدّل الطبيب الخمسيني عويناته ونظر لصديقه الذي لطالما ساعده في استرداد حقوقه ببعض القضايا , لم يشأ أن يكون وقت عرفانه بالجميل تلك اللحظات العصيبة التي سيخبره فيها بمرض ابنته الكبرى , لكنه بالنهاية طبيب ومن واجبه أن يوضح الأمر لكن بعيدًا عن تلك الضعيفة التي لن تتحمل أي كلمة تردي بنفسيتها لعمق أكبر داخل ظلمة ألمها , قال بجدية :
ـ سأكتب لها بعض الأدوية القابضة للنزيف ,والآن يمكنكم المغادرة باستثناء رجب.

أشار رجب بيده للجميع ليخرجوا , حثهم قائلًا :
ـ اسبقنني إلى السيارة .

لم يتزحزح أحد من مكانه وكأنه لم يقل شيء , حتى شمس اعتدلت في جلستها قائلة برباطة جأش تجلت على هيئتها المنهكة :
ـ إن كانت حالتي خطيرة , فليكن أنا أول من يعلم , دكتور .

انتقل الطبيب ببصره بين الجميع ثم عاد لشمس التي احتضنتها سعاد من ناحية ورنا من الناحية الأخرى على الأريكة البعيدة عن مكتبه بينما ظل رجب جالس على الكرسي المواجه له

, زفر الطبيب بضيق قائلًا وهو يطرق بقلمه على الورقة الساكنة أمامه :
ـ قبل أي شيء أذكركم أن علاج الأمراض تطور عن ذي قبل طالما استأنفتم العلاج باكرًا , لذا مهما كان المرض فلا داعي للقلق , ستشفين بأمر الله ..... صمت للحظات مرّت كالسنوات عليهم وهم يراقبونه بأعينهم حتى نطق أخيرًا بجملته التي خرجت بجمود من بين فكّيه : هناك كتلة داخل التجويف الرحمي ولمعرفة نوعها وحجمها لابد من إجراء تصوير بالرنين المغناطيسي .

ضيّقت سعاد عينيها متسائلة بعدم استيعاب :
ـ كتلة ؟ أنا لم أفهم شيء .... بينما تشبثت رنا بشمس وهي ترتجف قائلة :
ـ كل شيء سيكون بخير يا أختي ... ربتت على كتفيها تمنحها بعض الدفئ وقد نهشها التوتر بسبب كلمة رنين مغناطيسي فهو مرتبط في العادة بالأورام , أما شمس ظلّت صامتة بجزع ممتزج بقنوط لكنها لاتقوى على فعل شيء حتى النطق فقدته .

امتقع وجه رجب مصعوق فلم يكن يتوقع سوء الحالة على هذا النحو , نظر للأرض مطرقاً رأسه في أسف وضميره يجلده أن يكون هو السبب فيما حدث لابنته رغم أن الطبيب لم يوضح لهم بعد ماهية تلك الكتلة لكن يشعر أن الأمر تعدى الخطورة بعدة خطوات , خرج سؤاله من بين شفتيه بارتجاف : هل المرض له علاقة بالحالة النفسية ؟

ليس بالضبط .... تابع الطبيب بشكل أكثر رسمية : الحالة النفسية تؤثر في المؤشر العرضي للمرض , بحيث ان هناك من يتعرضون لحالات مشابهة بأعراض أقل لأن حالتهم النفسية أفضل و العكس صحيح .

زفر رجب بمرارة ولم يتمكن من التعليق فقد تخشب لسانه لأن ضميره أمسك بالسياط الأبوي ليجلده ... هتفت سعاد :
ـ أرجو أن توضح لنا أكثر ماذا كنت تعني بكلمة كتلة داخل الرحم ولتعذر جهلي , حاول الطبيب تهدئتها قائلاً :
ـ اهدأي من فضلك ... الموضوع سيكون بسيط لا تقلقي ...

ـ بسيط ! ... صاحت سعاد وقد جحظت عيناها المصوبة على الطبيب بارتياع ثم تابعت : لا أشعر بارتياح حيال إخفاءك الأمر عنا بهذا الشكل .

ـ من الأفضل أن تدعمي ابنتك نفسيًا ... تابع الطبيب بصرامة وهو ينقل بصره بين الجميع : أرجو أن تسمعوا ما سأقوله .

أشار رجب لسعاد حتى تهدأ ثم طلب من الطبيب استكمال حديثه , فأضاف :
ـ لقد كتبت لها أدوية قابضة على النزيف لوقفه , من أجل تصوير الرحم بالرنين المغناطيسي لمعرفة كل شيء .

كانت شمس واجمة تنظر للطبيب بجمود وبلا تعابير على وجهها , لم تسمع منه سوى كلمتين " كتلة ورنين مغناطيسي" .... تقافزت أمام عقلها ذكريات خلت منذ سنوات عدة عندما كانت بالمدرسة الثانوية , وانهارت صديقتها أمام عينيها لتقول وسط نهنهاتها لقد كشف لنا الطبيب عن الكتلة التي احتلت معدة أمي وأكد تصوير الرنين المغناطيسي أنها ورم سرطاني ... عندها غرقت بخيالها المرعب حول ثقافتها عن الموضوع من بعيد وكيف قد يصل بها الحال مع تلك اللعنة التي التهمت قطعة من جسدها ؟ وكأنها كانت بحاجة لصفعة تضيف لحياتها مرارة أكثر من فقدانها للاستقرار الأسري .

.....

تعنفنا الحياة على حين غرة عندما تداهمنا بقسوتها ظنًا منها أننا سننهار بسهولة , لكنها نسيت وجود العائلة التي ستحضن وتضمد لنقف في مواجهة تلك القسوة بكل قوة منحتنا إياها قلوب لا يهمها سوى راحتنا ..

كانا يجلسان متجاورين يتابعان التلفاز بشرود , بينما استسلمت ريم لفراشها باكرًا كما عودتها أمها , أما رغدة كانت تجوب الصالة ذهابًا وإيابًا بخطوات ملتهبة بانتظار جمال وكأنها تمشي على الجمر ... قطعت أمنية ذلك الملل قائلة :
ـ ها قد أكلت وشربت , هلا أخبرتني عما حدث معك هناك .

حاد مازن بعينيه ناحيتها وزم شفتيه مبتسمًا ثم ناغشها بشقاوة :
ـ توسلي إليّ أولًا .

ـ يا لظرافتك.... قالتها أمنية ثم لكمته في كتفه , فتأوه ضاحكًا , ثم قال ممازحًا : حسنًا , حسنًا سأخبرك بتقرير مفصل يا أستاذتي , ولكن من أين تودين أن أبدأ ؟

مطت أمنية شفتيها قائلة :
ـ من حيث تحب , ولكن فلتسرع من فضلك قبل أن يلتهمني الملل ...

قصّ مازن عليها كل شيء متبعًا حكايته بقوله :
ـ هه , يخطيء وعندما تلوميه يضربك , لم أجد أسخف من تلك الحكاية ...

ـ مهلًا مازن ... تابعت أمنية بجدية : ماهو تخمينك حول ضرب آدم لي ؟

ـ أيًا كان تخميني , لا يحق له ضربك... صك أسنانه مستكملاً : والأنكى أنه فعلاً مذنب .

ـ لكنك لا تعلم شيء , أخي .

ـ بلى ؛ أعلم ... تابع مازن والغيظ يستعر في عينيه : إنه خائن ... صمتت أمنية للحظات وهي تطالعه بعدم استيعاب ثم قالت وهي تنظر نحو أمها :
ـ من فضلك أخفض صوتك .

ـ لماذا اتهمته بذلك ؟ ... سألته أمنية وقد كست ملامحها أمارات الحزن .

التقط مازن هاتفه من على المنضدة ثم تحسسه حتى وصل لشيء ما , بعدها صوبه أمام ناظريها وهو يزفر بغضب .

أخذت أمنية الهاتف وحدقت بشاشته لدقائق ثم نظرت لمازن والخيبة احتلت عينيها وبعد ذلك عادت للشاشة التي تحمل صورة العلبة المخملية الحمراء وهي مفتوحة والخاتم الفضي يتلألأ بداخلها وعلى رأس المنشور عبارة ودودة تحمل اسم آدم , تنهدت بأسى قائلة :
ـ إذن كانت هديتها ...اعتصر الألم قلبه وهو يراها تتمزق من الحزن لرؤية ذلك المنشور المصور والمحفوظ على هاتفه , أخذ يربت على ظهرها بحنو ثم قال :
ـ هل رأيت ذلك الخاتم من قبل ؟ أومأت أمنية بلا ثم قالت :
ـ رأيت علبته الحمراء بأحد الأدراج عندي بالشقة عندما كنت أنظفها لكنه مالبث أن اختفى .... تابعت والعلقم يخرج من بين حروفها : وعندما سألته أنكر , بل ونفى الأمر برمته واتهمني بالتوهم .

ضرب مازن المنضدة بقبضته بعصبية هادرة ثم صاح :
ـ يا لوقاحته !

ـ من أين حصلت على الصورة ؟ سألته وهي لاتزال محدقة في الشاشة .

تنحنح مازن قائلاً :
ـ من موقع الفيس بوك , فقد ظهرت على صفحة زوجك الشخصية , لكنها لم تمكث ساعات حتى تمت إزالتها , لذا إن بحثتي عنها بالوقت الراهن لن تجدينها .

هزّت أمنية رأسها بتفهم ثم قالت :
ـ هلّا أريتني الصفحة الشخصية لصاحبة المنشور ؟

طالعها مازن بمزيد من الحرج والتردد ثم قال بخفوت :
ـ هل أنتِ جادة , أمنية ؟

أومأت برأسها موافقة وهي تمد يدها المرتجفة بالهاتف نحوه , التقطه منها ثم أخذ يعبث فيه لعدة لحظات حتى وصل لملف يحمل اسم شمس القاضي ولكن بالإنجليزية , حاد بوجهه ناحية أخته ثم غضن جبينه وهو يعطيها الهاتف قائلاً :
ـ هاهو .

ـ شكرًا لك ... قالتها أمنية وهي تلتقط منه الهاتف لتعاود التأمل فيه ولكن هذه المرة بمزيد من الإمعان , لترى صورتها الشخصية تلوح أعلى صفحتها بمزيد من الغرور في وقفتها الجانبية وهي رافعة ذقنها بشموخ , متبرجة بمساحيق التجميل المرسومة بعناية , وشعرها المسدل على كتفيها بخصله الملونة باللون البني الفاتح والمملسة بانسيابية لامعة ... همست أمنية قائلة :
ـ تبدو جميلة ومثيرة ... لامها مازن بحمائية قائلًا :
ـ على الإطلاق , أنتِ أجمل و أكثر براءة ... أي مجنون يتعلق بواحدة تأملها كل الرجال القاصي منهم والداني وعرفوا مفاتنها بدقة , رغم أنني لم أراها في حياتي لكن عرفت شكلها من صورها الفيسبوكية المثيرة .

لانت ملامح أمنية قليلاً وهي تتابع ملامح أخيها المدافعة عنها بشراسة واللائمة لما قالته , تداركت شعوره قائلة بكل هدوء :
ـ لكن هذا لا ينفي أنها حقًا جميلة , حتى أنت قلت بلسانك أنها مثيرة .

عادت للهاتف وهي تتابع منشوراتها , لاحظت أنها تغيبت عن العمل اليوم , فقد نشر أصدقائها على حسابها كيف يفتقدنها ويأملون أن تكون بخير , تمتمت وسط متابعتها :
ـ محبوبة أيضًا .. تملكها شعور بالغيرة على آدم وتسللت العبرات رغمًا عنها وهي تتذكر أنها قدمت له أعظم فرصة ليذهب لخطبتها بلا عوائق .

اقترب منها مازن ثم حاوطها بذراعه والألم ينخر جوارحه :
ـ لا تبكِ , أرجوكِ ... التقط منها الهاتف وهو يلوم نفسه :
ـ لم يكن عليّ إطلاعك على هذا , أنا حقًا آسف ...

قاطعمها وصول جمال , دلف ملقيًا السلام فركضت نحوه رغدة بارتباك شديد جعلها تتعثر فكادت تسقط لكنه تمكن من إسنادها والقلق قد ظهر جليًا على عينيه , قال :
ـ ماذا حدث, رغدة ؟

أمسكت رغدة بذراعه كمن يتشبث ببطل ينقذه من ظلمة حاكت اليأس حوله , قالت بحروف متوترة :
ـ الحقنا يا جمال ، لقد وقعنا بمصيبة كبيرة .

قبّل جمال رأسها ثم ربت على كتفها بحنو محبب محاولًا امتصاص ارتياعها البادي على هيئتها :
حسنًا , اهدأي حبيبتي , وسيكون كل شيء على مايرام .

سارا معًا نحو الصالة حيث كان مازن لايزال محيطًا أخته بذراعه , أشارت رغدة على مازن بغيظ قائلة :
ـ لقد تشاجر مع آدم وضربه يا جمال , ربت زوجها على كتفها هامسًا :
ـ اهدأي ... رفع مازن و أمنية رأسيهما نحو والديهما الذين اتجها لأقرب كرسيين , نظر مازن لوالده بحبور قائلاً :
ـ حمد لله على سلامتك , أبي .

ـ سلمك الله , مازن... تابع وهو ينقل بصره لأمنية يتفحص وجهها المجهد وعينيها المتعبتين : كيف حال , أميرتنا الجميلة ؟ ابتسمت أمنية بمرارة قائلة :
ـ الحمد لله ... تابعت بفتور : سأعد لك المائدة لتتعشى .

رفع كفه قائلاً :
ـ تناولته مع الأصدقاء ياحبيبتي , سلمتِ انتقل ببصره بين الجميع ثم قال : ما الذي حدث؟
أشارت رغدة بسبابتها على مازن ثم قالت :
ـ لقد أفسد كل شيء ... قطب مازن جبينه ومط شفتيه قائلاً :
ـ مجددًا .

ـ احكِ لي ماحدث , مازن .. قالها جمال بأريحية ليمنح ابنه الهدوء اللازم لقص كل ماحدث بوضوح .

حكى مازن ما قاله لأخته منذ قليل مستهلاً حديثه بمشهد أخته التي كانت تبكي ابنتها قبل أن يأتيها بها , لم يعلق جمال على ماسمعه مما زاد حنق رغدة فقالت :
ـ ظننتك ستوبخه أو تضربه على فعلته الشنيعة تلك .

التفت لها جمال قائلاً بتودد :
ـ لم أسمع باقي القصة بعد ... انتقل ببصره لأمنية ثم حثها على الكلام بطريقته الدافئة : هل

يمكنني أن أعرف ماحدث معكِ حبيبتي ؟ ... تابع وهو ينظر لرغدة ثم يعود لمازن : لن يقاطعك أحد .

بلعت أمنية غصتها بصعوبة وهي تنظر لأمها التي تعرف مسبقًا رد فعلها إن سمعت ماحدث , ترددت قليلاً لكن نظرات أبيها الحنونة شجعتها للمضي قدمًا بأحداث اليوم الأليمة , تكلمت بحروف متشنجة لدى تذكرها ضرب آدم لها , بينما كست وجوه الجميع أمارات الحسرة و الألم , لا سيما عندما انتقلت لأمر الورقة ومقابلة محمود بالحديقة , وعندما وصلت لاحتدام الكلام مع آدم حول أمر شمس واتهاماته له ... حينها ضرب جمال قبضته على ساقه بقوة وقال بعصبية :
ـ أخطأتِ .. أخطأتِ يا ابنتي .

صمت الجميع ناظرين لجمال بوجوم من هجومه عليها وهي الضحية , لينفعل مازن قائلاً :
ـ بل هو من أخطأ بعلاقته المشبوهة تلك ... لوّح بهاتفه نحو أبيه متابعًا : ومعي الدليل الذي ظن بحماقته أنه أخفاه .

ـ حتى وإن كان ... تابع جمال محاولاً السيطرة على غضبه : لم يكن هذا هو الوقت المناسب للومه يا أمنية ... لقد اخترتِ الوقت الخطأ بقولك هذا .

رفعت أمنية كتفيها مستهترة ثم قالت :
ـ لا يهم ... تابعت بتحدٍ واضح وشجاعة وشت بها قسماتها وهي تنظر للجميع : في جميع الأحوال لا أريد سوى الطلاق , فقد انتهى كل شيء .

الفصل العشرون

(دموع لا تنضب)

.....

يكفي دموعًا يا ابنتي

يكفي ألم ...

مزقتي قلبي حسرةً

والروح لازالت تئن..

يامن زرعتك وردةً

بجمالها تضاهي الفل

رويتها بالأمل

في بستان الحب

لتكون بين الأزهار

أميرة!

وتمر سنوات الصبا

في لحظة!

لأراك بين الهم

أسيرة!

وكأنني لم ألق يومًا حلوًا

بعذابك نسيت كل البهجة

لأسير بين أوجاعك

في دروب الحيرة

لكنني حتمًا , أمنيتي

لن أتركك ..

حتى تعودي للضياء منيرة

.....

مهما بلغ التحضر الأمومي واهمًا الأجيال بعدم وجود أوجه شبه بين أمهات اليوم وجدات الماضي , ستحدث معضلة تخلع الأقنعة مفصحة عن قسمات تشي بأن الفارق الوحيد بينهما هو الزمن ...

بلعت أمنية غصتها بصعوبة وهي تنظر لأمها التي تعرف مسبقًا رد فعلها إن سمعت ماحدث , ترددت قليلاً لكن نظرات أبيها الحنونة شجعتها للمضي قدمًا بأحداث اليوم الأليمة , تكلمت بحروف متشنجة لدى تذكرها ضرب آدم لها , بينما كست وجوه الجميع أمارات الحسرة و الألم , لا سيما عندما انتقلت لأمر الورقة ومقابلة محمود بالحديقة , وعندما وصلت لاحتدام الكلام مع آدم حول أمر شمس واتهاماته له ... حينها ضرب جمال قبضته على ساقه بقوة وقال بعصبية :

ـ أخطأتِ .. أخطأتِ يا ابنتي .

صمت الجميع ناظرين لجمال بوجوم من هجومه عليها وهي الضحية , لينفعل مازن قائلاً :

ـ بل هو من أخطأ بعلاقته المشبوهة تلك ... لوّح بهاتفه نحو أبيه متابعًا : ومعي الدليل الذي ظن بحماقته أنه أخفاه .

حتى وإن كان ... تابع جمال محاولاً السيطرة على غضبه : لم يكن هذا هو الوقت المناسب للومه يا أمنية ... لقد اخترتِ الوقت الخطأ بقولك هذا , لقد ظن أنك انتقمت منه بفعلتك وماجعله يصدق هو إخفائك للأمر.

رفعت أمنية كتفيها مستهترة ثم قالت : لا يهم ... تابعت بتحدٍ واضح وشجاعة وشت بها قسماتها وهي تنظر للجميع : في جميع الأحوال لا أريد سوى الطلاق , فقد انتهى كل شيء ...

شهقت رغدة وهي تضرب صدرها قائلة :

ـ يا مصيبتي !.... بينما فغر جمال ومازن فاهيهما وهما يطالعانها باندهاش ...

لم تكترث أمنية لرد فعلهم , بل أضافت بإصرار وهي تنقل بصرها بينهم :
ـ أرجو أن تتفهموا جميعًا رغبتي في الإنفصال .

ـ اصمتي يابنت... صاحت بها رغدة وهي تتوعدها بنظراتها المستاءة, فعض مازن شفته السفلى في غضب من طريقة أمه الفظة ... صمتت أمنية في حرج وقد احمر خديها فحاول جمال تدارك الأمر مخاطبًا زوجه بعينيه ولائمًا لها فأشاحت بوجهها بعيداً وهي تقول : ألم تسمع ما قالته ؟

هزّ جمال رأسه في أسف على ما وصل إليه حال ابنته وهو كالعادة مشغول , يتمزق قلبه لرؤية بضعة منه متألمة ومغلوبة على أمرها هكذا , لقد كان واهمًا خلال تلك الفترة الماضية أنها تعيش بسعادة مع زوج طيب وابن أصول , لم يكن بحسبانه أن حالها قد يصل لطريق مسدود طالبة الإنفصال , أطلق تنهيدة تحمل من الأنين ما سحب معه جزءًا من الروح فيضيف للعمر عمرًا .

ران على الجميع بعض الصمت , قطعه جمال وقد ترققت ملامحه وهو يطالع أميرته التي كانت مدللة في يوم من الأيام حتى وصل بها الحال لنقطة مظلمة في عالم قاسي :
ـ فكري في الأمر مليًا يا حبيبتي قبل اتخاذ القرار النهائي .

جُن جنون رغدة وهي تطالع زوجها برده اللين , فصاحت :
ـ هل تمزح ؟ لا نقاش بالموضوع ولا قرار سوى العودة ... تابعت والغضب يمضي بين كلماتها : لم تطلق أي من بنات عائلتينا , لتأتي به تلك المدللة فتجعل سيرتنا فاكهة المجالس تتشدق به نساء العائلتين .

ـ كفى رغدة ... نطق بها جمال محاولًا الصمود أمامها بشق الأنفس حتى لا يضيف لولديه ألم إلى الألم .

أمسك مازن بكف أخته وضغط عليه بحنو قائلًا :
ـ أنا معك أختي , وسأدعمك في أي قرار تتخذيه .

تأففت رغدة فقد استفزها رد مازن , رفعت سبابتها في مواجهته قائلة :
ـ ابتعد عنها بأفكارك الغبية , ستفسد حياتها بطيشك ... آثر مازن الانسحاب من ذلك النقاش المحتدم بسبب طريقة والدته متحججًا بالخروج لبعض الوقت لكنه أقسم أن يظل بظهر أخته لمؤازرتها مهما كلفه الأمر .

لم يجد جمال بد من وقف ثورة رغدة من خلال الابتعاد بأمنية قليلًا , حتى لا تشوش رغدة أفكارها بعصبيتها وتوترها الذي بلغ أوجه بسبب خوفها على مستقبل ابنتها الذي بات على المحك , نظر لابنته قائلًا :

ـ اذهبي لغرفتك واستريحي الليلة , لأنني سآخذك في نزهة غدًا .

ـ نزهة ! ...قالتاها رغدة وأمنية وهما يتبادلان النظر لبعضهما في حيرة , لكن رغدة هتفت به :

ـ نقول لك بيتها على وشك الخراب وتقول نزهة... تابعت وهي تشير بيدها : لما لا تأخذ الموضوع على محمل الجد ؟هدوءك هذا سيصيبني بالجنون .

لم يرد عليها , نظر لأمنية يحثها على النهوض قائلاً :

ـ هيا حبيبتي ، قومي لتستريحي .... طابت ليلتك .

قامت أمنية من مكانها وهي تحمد الله أنه خلصها من جدال لن يزيد إلا عذابها , اقتربت من أبيها ثم أحنت جذعها على رأسه قبّلتها قائلة :

ـ طابت ليلتك أبي .

ذهبت لغرفتها وما إن سمع صوت بابها يُغلق , حتى نهر رغدة بعينيه ثم قال :

ـ ألا يوجد للرحمة مكان بقلبك؟ ألا يبدو التعب على هيئتها لترحميها قليلاً فتستريح في فراشها ؟

ـ عن أي رحمة تتحدث وهي تطلب الطلاق ... تابعت وقد تسربت الدموع لمقلتيها : في كل مرة تتهمني بأني المخطئة .

زفر بضيق خنقه فأراد أن يتخلص منه قبل أن يودي به , قال :

ـ يكفي رغدة ، الصداع سيفتك برأسي ... قام متجهًا نحو غرفته متجاهلًا تلك العبرات التي لا تتعدى ذرة في بحر الدموع التي يبكيها قلبه على صغيرته التي كبرت قبل أوانها بتلك الهموم التي كست ملامحها .

.....

حين يغلبنا الشوق سنلجأ لاقتفاء أثر من نشتاقه من خلال ذكرى لطيفة أو حلم عابر لكن ماذا إن أهدانا القدر بضعة من ذكريات المحبوب , ألا يستحق حينئذ الشكر الجزيل لإسداء تلك الخدمة ؟

أحب الشوكولاتة المحشوة بالكراميل وكذلك مثلجات الشوكولاتة , مازن يهتم بأمر شوكولاتة الكراميل أما سحر فتحلق بي دومًا في عالم المثلجات , لا حرمني الله منهما .

ترى هل سيهتم زوجي المستقبلي بالأمرين معًا ؟ كم أود ذلك لكن دون أن أخبره , عليه أن يخمن ... قد تكون الفكرة سخيفة لكنني أشعر بالخجل من مجرد التفكير .

لا أعلم كيف سيكون شكله , لكن أظن عينيه ستكون جذابة للحد الذي سيجعلني أوافق على الارتباط به وأنا سعيدة بل وممتنة للقدر الذي سيجمعنا .

وقلبي سيعده بألا يُفتح لسواه , فبالرغم من كوني هادئة كما يدّعي من يعرفني , إلا أنني أظن نفسي رومانسية عنيدة , أتفنن في نسج خيوط الحب من دفئ روحي وطيب أنفاسي , أعاني حمائية اتجاه الحب والمحبين فانحاز لقصة أي بطلين متحابين برواية رومانسية , بل وأحلم بأن تكون لي قصة مشابهة بها من العشق مايجعلني أهيم معه وحده بدرب لا يعلم نهايته غيره , يكفيني مفاجأة تلك النهاية التي أتوق منذ الآن لرؤيتها .

ترى ماهو اسمه ؟ قلبي يحدثني أننا سنحمل نفس الحرف الأول من أسمينا , اممم وربما سيكون هناك حرف مشترك بيننا , أحاول تكهن اسم يليق بمن يمكنني حمل اسمه .

كان يلتهم السطور القديمة التي يبدو من حبرها الباهت أنها حُبست هنا منذ سنوات بشغف , وكأنه يسمع صوتها وهي تنطق بتلك السطور العذبة لتخرج كلحن شجي من بين شفتيها , شعر بحرارة غريبة أججت مشاعرة وهو يتذكرها وحنين يعيده لذاك الحلم الجميل , أخذ يتمتم :
ـ أعجبتني سطورك يا أمنية ، هنيئًا لكِ بتلك الذكريات الجميلة على عكسي تمامًا... ظننت أنني سأحاصر بالملل من قراءة مفكرتك لكنني كنت مخطىء .

عاد للقراءة مجددًا , يبتسم تارة ويقطب جبينه مشتاق تارة أخرى من ذكرياتها اللطيفة حيث تحكي فيها عن لحظاتها التي لم تخلو من التفاؤل و البسمة وكأنه تزوج وردة من البستان , أنّبه ضميره بشدة لإهمالها هكذا حتى ذبلت , أخذ يمسح على وجهه متأثرًا في صمت وقد تصاعد وخز الصداع في رأسه , نظر لساعة الحائط التي تخطت منتصف الليل بساعتين , ركن المفكرة على المنضدة ثم قام من مكانه ممددًا ذراعيه , اتجه للمطبخ لإعداد قهوة تقاتل صداعه بشراسة فتنتصر عليه , انتهى مما أراد ليعود أدراجه بين دفتي دفترها الدافئ وهو يرتشف قهوته .

.....

العشق كلمة ينبض الحب باسمها ناثرًا المتعة بين حامليها ليظل كل منهم يذكر عاشقه مهما طالت المسافات , لكن ماذا إن خرجت من الظلمة ذكرى مؤلمة تحرق معها ذلك العشق؟

داخل غرفتها المغلقة المجاورة للأخرى حيث ترقد أمها محتضنة الصغير كانت تكلم زوجها مكالمة مرئية , تضحك بتغندج من مغازلته المصوبة نحو أنوثتها فتذيبها .

ـ كيف حال والدتك الآن ؟ كان يسأل وداخله مغزى آخر .

ـ أفضل , الحمد لله ..

تهللت أساريره وشعّت ضحكته بأسنانه البيضاء ليقول :
ـ إذن متى ستعودي ؟ عبست برقة ثم تنحنحت قائلة :
ـ بصراحة ليس قبل الانتهاء من جرعات أمي , أي ليس قبل شهرين .

ـ ماذا ؟ قالها وقد تعكر صفو قسماته في لحظة , حاولت تدارك الأمر بابتسامة حانية لتقول :
ـ حسن ، أرجوك لا تغضب ، أنت تعلم جيدًا مدى تعلقي بأمي , ليس لها إلاي .

رد بامتعاض :
ـ أعلم , لكنني اشتقت لكِ كثيرًا ولم أعد أطيق بعدك , سحر.

تجهمت بعد سماع ذلك ولم تبدي أي ردة فعل , جال بخاطرها ذكرى أليمة حاولت قدر المستطاع تخطيها لكن لاحت لها بالأفق الآن , لا تعلم سبب مرورها على ذاكرتها في هذا التوقيت بالتحديد .

ـ سحر ... هتف بها حسن وهو يلوح بكفه أمام شاشة الهاتف ...

رمشت بعينيها لتعلمه أنها منتبهة , فتابع :
ـ من المفترض أن تكوني سعيدة بما أقوله لكِ ... أليس كذلك؟

صنعت بسمة مزيفة على فمها ثم قالت :
ـ بلى ؛ أنا أسعد الناس بوجودك في حياتي يا أمير قلبي .

ـ آه يا سحر من تلك الكلمة التي تسحقني تحت حروفها ... قالها ثم بعث لها قبلة أمام كاميرا الهاتف .

طالت الثرثرة حتى وقت متأخر من الليل , ما إن أغلقت الهاتف حتى ماج بصدرها مشاعر مختلفة , سعادة بحديثة الماتع وخوف من حدوث ماتخشاه , تقافزت الأفكار أمام مخيلتها

لتهمس قائلة :
ـ ألا زلت تحفظ عهدي يا حسن ؟ أم أن ... وقبل أن تكمل انسالت العبرات على وجنتيها رغمًا عنها ...

.....

هناك من لا ندرك قيمتهم التي تفوق كنوز الكون إلا في الشدائد و كأن الشدائد رغم قسوتها تأبى إلا أن تربت ببضعة منها حانية على قلوبنا لتقول : أن الرحمن أودع بين صفحاتها الرحمة ..

خرج الجميع من المشفى والتيه يعلو محياهم لكن شمس كانت خائفة بل مرتعدة من الموت الذي قد يطرق بابها في أي وقت , بلا استعداد منها أو زاد , وماذا سيفعل بها القنوط غير رميها بأعماق الجحود لبعد أكبر لا تعلم إلى أين يمكن أن يرديها , تشعر بالظلام الدامس في قلبها وكأن لون الليل البهيم اتخذ من قلبها ليزداد قتامة , شعرت بمن تتحسس كتفها بحنو وهي ممسكة ذراعها :
ـ ستكونين بخير يا صغيرتي .

نظرت لعينيها تستمد منها الأمان الذي فقدته منذ سنوات بغياب أبيها التي رغم تعلقها به لم يزداد إلا عنادًا وقسوة , رسمت بسمة حزينة على شفتيها و أسبلت أهدابها لتعلمها أنها ممتنة لوجودها في حياتها .

ضغطت رنا على ذراعها الآخر وهي تقول :
ـ لو أن بإمكاني مشاركتك ذاك الألم أختي , لما ترددت في أخذ كل مايضيرك لتكوني بخير وفي أحسن حال ... تابعت بأسى : افتقد شقاوتك كثيرًا ... التفتت لها شمس وشقت ابتسامة رضا ثغرها لصدق حبهما الذي خفف عنها الكثير .

كان رجب يسبقهم بعدة خطوات يرد على هاتفه الذي لم يكف عن الرنين بآخر جلستهم عند الطبيب , ليرد على زوجته الثانية التي تسأل عن مكانه فاعتذر لها بكذبة أنه في مقابلة هامة خارج المكتب مع أحد رجال الأعمال لتولي قضيته وأسرع بغلق الخط وكذا الهاتف قبل أن يترائى لمسامعها صوت إحدى ابنتيه أو سعاد , فمذ قالت لها سكرتيرته عن زيارة رنا له صارت تسأله عن مواعيده فقد ثارت غيرتها وحامت شكوكها حوله بأن يكون عقله زقزق ليحاول العودة لبيته النسوي الأول وهي من أنجب له الولد ، أمام البيت , ترجل الجميع سائرين

الهوينا مراعاة لتلك الضعيفة , استوقفهم رجب وقد خرج من سيارته مناديًا :
ـ سأصعد معكن .

ـ ماذا ؟ ... قالتها سعاد وهي عاقدة جبينها , فالتفتت لها رنا قائلة :
ـ لا تنسي أنه لايزال أبونا وزوجك .. فصمتت سعاد على مضض بينما قالت شمس بحشرجة لأبيها :
ـ مرحبًا بك أبي , إنه بيتك .

شعرت سعاد بالغيظ من تعلق شمس بأبيها هكذا رغم جفاءه , لكنها آثرت الصمت يكفيها ماحل بها , هي لا تعلم كنهه ولم تفهم من الطبيب شيء لكن تشعر أن هناك أمر جلل بانتظار ابنتها .

داخل البيت , دخل رجب كالغريب لأنه لم يأتي منذ سنوات , رغم بساطة هذا البيت عن نظيره الآخر إلا أن نظافته وترتيبه لمس قلبه بشيء ما , ظل يحدق بآيات القرآن المعلقة في إطارات ذهبية جذابة على الحوائط وكأن سعاد أرادت جعله معبد , لكنه لن ينكر أنه مريح للنفس والعين أيضًا ...زفر بارتياح مشتاق لذكريات خالية جمعته بذلك المنزل الضيق , مالت بسمة على جانب فمه الواسع وهو يطالع صور ابنتيه المعلقة على بابي غرفتيهما والتي ضمّت لقطات حفظت مراحلهما الدراسية المختلفة , تنهد وهو ينظر لورود بلاستيكية مُعلقة أعلى ستائر الصالة بطريقة مموجة متمتمًا :
ـ حتى في رغبتك بالتجديد , بسيطة .

.....

يضيق الصدر بكل الهموم التي لا طاقة لنا بها وننسى جملة واحدة كفيلة بالنجاة ألا وهي : لا ملجأ من الله إلا إليه ... فهلا وقفنا ببابه لعله سبحانه يحدث بعد ذلك أمرا ويخفف عنا المصاب ...

كاد عقلها ينفجر من التفكير بأمر ذلك المسكين الذي أغلق على نفسه شقته ورفض النزول لتشاركه ألمه , وكذا أمر ابنتها التي خسرت كل شيء بثرثرتها وانهار بيتها وكذلك علاقتها بأخيها الوحيد , غمغمت في حسرة و صدرها يعلو ويهبط والأنفاس المتحشرجة متلاحقة بغير اتزان , تشعر بأن جسدها يتقطع من الألم وعظامها ينخر بها الوجع لم تملك غير التأوه لعل الآهات تخرج كل ما يضيرها ..

علا رنين هاتفها , فهرعت نحوه لتجده يضيء باسم دينا , تجمعت العبرات مجددًا في عينيها لترد بصوتها الباكي مما أفزع دينا فقالت بتلعثم :
ـ ما بكِ أمي ؟ هل أنتِ بخير؟ استرسلت زينب في البكاء , فهتفت دينا : لقد هاتفتك كثيراً ولم تردي عليّ ... لماذا تبكين ؟

قصّت عليها زينب كل ماحدث بأنفاسها المتقطعة وسط بكائها المرير ومع كل جملة لا تسمع سوى صرخات دينا :
ـ يا ويحي ! يا إلهي!... وبالنهاية شاركت أمها البكاء وهي عازمة على المجيء إليهم في الصباح ، لم تذق زينب للنوم طعم وكذا نور , كل منهما حبس نفسه في غرفته يبكي حاله بعد نوم الصغيرين , قامت زينب من مكانها وهي تكفكف دموعها نحو دورة المياه لتتوضأ وتصلي ركعتين علّ الله يكشف عنهم تلك الكربة الشنيعة, استوقفها صوت نحيب ابنتها , حادت نحو غرفتها ثم فتحت الباب بهدوء و أطلت برأسها قائلة :
ـ كفى بكاءًا يا ابنتي .

ربتت على ذراعها محفذة إياها للقيام قائلة : هيا نصلي ركعتين لنكمل بكائنا بين يدي الله , عساه يغفر لنا ويرحمنا برحمته ....

لم ترد نور بل ارتفع صوت نحيبها , فلامتها زينب :
ـ ستوقظي ولديكِ هكذا ...التفتت نور لها وقالت وسط نشيجها :
ـ اسبقيني و سآتِ خلفك ... جلست على سجادة الصلاة بعدما انتهت من الركعتين , رفعت كفيها مواصلة البكاء ليس كذي قبل يغلب عليه القنوط والجزع , ولكن طامعة في فتح أبواب الرحمة لتهدأ نفسها وتطيب روحها , أخذت تدعو رافعة كفيها المرتجفتين لولديها يصلح حالهم الإله , تدعو بطريقتها وبكلام غير مرتب فقد تلعثمت في حروفه لكنه خرج من القلب الموجوع الذي أقرّ أخيرًا بخطأه , ظلّت هكذا حتى اطمأنت روحها وسكن قلبها وجف الدمع دعائها في الظلمة جعلها تشعر براحة لم تذقها من قبل وكأنها الوحيدة في هذا الكون التي وقفت بباب الملك الديّان ليقضي حاجتها ويسمع دعواتها وإلحاحها فيبعث السكينة لتضمد جروحها وهي على يقين بأن الله لن يضيعها طالما لجأت إليه , قامت نحو المنضدة حيث يوجد المصحف , أمسكته و أشعلت الإنارة لتقرأ ماتيسر لها من الآيات بكل أريحية , ولم تعد تذكر أن المصائب لازالت محيطة ببيتها من كل جانب .

.....

الدعم ليس محصورًا بأيادي الكبار , فقد يكون منبعه قلب أصغر شخص تتوقعه , لأنه فقط يحبك وبصدق .

أخذت سعاد الأدوية على عجل متجهة لغرفة شمس لم تود البقاء أمامه أكثر من ذلك تشعر بالاستياء من رؤيته فسارت مسرعة , لكن رنا استوقفتها ومدت ذراعيها لتأخذ الأقراص وكوب الماء قائلة :

ـ أنا سأقوم بتلك المهمة عنكِ أمي ..هزّت سعاد رأسها نافية ثم قالت :

ـ بل أنا من ستفعل ؛ لأنكِ ستذهبين إلى والدك للجلوس رفقته .

اقتربت رنا من أذن والدتها هامسة :

ـ أنتِ تحتاجين لمواجهته ولست أنا أمي .

عقدت سعاد مابين حاجبيها قائلة :

ـ ماذا تقصدين ؟ تنهدت رنا قائلة :

ـ يكفي استنزاف بحمل لقب لم يساندك يومًا .

لانت ملامح سعاد بعد ماسمعته من رنا وكأنها قرأت مايجول بفكرها وشعرت بحاجتها لمن يدعمها في مثل ذلك الموقف , صمتت للحظات لكن الدموع تحدثت بالكثير ... قالت وسط نشيجها :

ـ لكن حالة أختك لا تسمح بفتح ذلك الموضوع .

ـ هي في غرفتها الآن ... تابعت رنا محفذة : ولن نخبرها بأي شيء حتى تُشفى وستشفى بإذن الله لكن جرحك أنتِ أمي سيظل نابض يأبى أن يندمل .

كانت كلماتها حارقة كحرقة مطهر أقسم ألا يبتعد عن الجرح حتى يقوم بتعقيمة من الأعماق ساحقًا التلوث الذي داهمة بكل قسوة ... طالعتها بعينيها الدامعة ولم تنطق بكلمة , فقبّلت رنا كتفها ثم عانقتها قائلة :

ـ أنا معك أمي ، امسحي دمعاتك واخرجي واجهيه .

أخذت منها الأدوية وتركتها متجهة حيث كانت شمس , كفكفت دموعها وسارت بخطوات مرتبكة والتوتر يداعب قلبها بغير اتزان , تتقدم خطوة وتتراجع أخرى , تمتمت : حسنًا , سأواجهه وأتكلم .

كان واقف بالشرفة الصغيرة والوحيدة بالبيت التي لم تتغير مذ غادر يطالع الكون بشرود لذيذ وذاك النسيم المحبب يلفح ترهلات وجهه فيعيد معه ذكريات ولّت بحلاوتها رغم ضيق العيش , ينظر لإصيصي النعناع الصغيرين الذين اهتمت سعاد بزراعتهما كما كانت تفعل بالماضي متمتمًا وهو يضحك بحنين :

ـ لازلتِ عاشقة للشاي المعبق بالنعناع ياسعاد ، هه كانت أيام حلوة ... وخزه الشوق فرفع رأسه للسماء يطالع النجوم المتعلقة في ظلمة الكون كما كانت هوايته في الماضي عندما يحل المساء ... قاطعه طرقات على باب الشرفة , التفت ليراها واقفة تنظر للأرض باستحياء تطلب منه الدخول .

ابتسم لها وقد راق له حياءها الذي مهما مرت السنون سيبقى مميزها , أشار لها قائلاً :

ـ تعالي تأملي الكون معي .

ـ أريد التحدث معك بأمر ما .

ـ هلّا صنعتي لنا كوبين من الشاي المنعنع الذي تحبين صنعه بمذاق مميز ؟ ... قالها ثم ناولها عودي نعناع من الساكن أمامه .

أومأت بنعم ثم عادت للمطبخ وهي مستاءة من بسمته الغريبة في تلك الظروف العصيبة , همهمت :

ـ أي أب أنت ؟ تبتسم وابنتك يعتصرها الألم ؟.

كانت رنا جالسة على طرف السرير بجوار أختها التي اتكأت على الوسادة ساهمة فيما أخبرها به الطبيب , حاولت التخفيف عنها ممازحة وهي تمد لها كوب من اليانسون الدافئ:

ـ من أخذ عقلك يا أختاه فليهنئ به .

ابتسمت شمس بعبوس من مزحتها ولم ترد , فتابعت رنا وهي تمسح على وجنتها : ـ تبدين بحال أفضل الآن .

ـ بفضلكما ... قالتها وهي تنظر للأرض بخجل .

ـ بل بفضل قوة إرادتك , وصمودك لأجل التحسن ... تابعت رنا وهي تربت على كفها : لطالما عهدتك قوية

زفرت شمس بضيق من محاولات رنا المخفقة لرفع معنوياتها , ثم قالت :

ـ تزيدان عذابي بلطفكما معي .

رفعت رنا أحد حاجبيها وشاكستها بطريقة ساخرة :
ـ وهل لطفنا أمر مستحدث ياحضرة المهندسة ؟ أنا وأمي منبع اللطف في هذا العالم ولولانا لأصبح الكون قاتمًا .

ضحكت شمس من مزحة أختها قائلة :
ـ معك ... قاطعهما رنين هاتف شمس , ذهبت رنا لإحضاره وطالعت المتصل , فضيّقت عينيها مستفهمة من شمس التي ما إن وقعت عينيها على الاسم ابتسمت بامتعاض قائلة :
ـ مجنون .

ـ من هذا ؟

ـ رامي ، زميلي بالعمل .. تابعت شمس بعبوس : يتصل في هذا الوقت المتأخر.

ـ من الممكن أن يكون اتصل بكِ عدة مرات ونحن بالمستشفى , فقد نسيت هاتفك هنا ...
عادت شمس لهاتفها ثم لأختها مؤيدة :
ـ حدث بالفعل وبعض الزملاء ... شعرت بمرارة عندما وقع اسمه من قائمة المتصلين
فهمست لعقلها بأسى : لم يكن بيننا شيئًا من البداية , وكل ماتعلقت به كان مجرد وهم... نفضت عنها الغطاء لتذهب إلى الحمام فساعدتها أختها , ثم خرجت لأجل إعداد بعض الشطائر الخفيفة لتتناولها مع شمس فهي تضور جوعًا .

ـ على الجانب الآخر كان جالس في الشرفة ممسكًا بهاتفه , ينهشه القلق بسبب تغيبها عن الشركة دون إعلام أحد , يتمتم : هل هي حقاً مريضة ؟ أم تود معرفة قيمتها ؟ ... زوى ابتسامة على جانب فمه محدثًا عقله : تغيب المرح عن الشركة بغيابك ياشمس ... عاد لهاتفه ثم أرسل رسالة عبر موقع واتساب , كتب فيها :
ـ ألن تردي عليّ أيتها المريضة ؟

عادت لفراشها مجددًا ثم التقطت الهاتف وما إن فتحته توجهت للرسالة , ابتسمت بعبوس ثم قامت بعمل مكالمة فيديو وهي متكئة على الوسادة ليرد عليها في التو .

ـ أهلاً ب... لفت انتباهه شحوب وجهها لا سيما أنه خالي من مساحيق التجميل فقطع جملته ليطالعها باندهاش

ـ تأكدت الآن , أيها المتحذلق ...قالتها وهي تبتسم .

ـ لم أكن أقصد , اعذريني ... قالها رامي وعلى وجهه أمارات الحرج .

ـ لاعليك ... كيف حال الشركة في غيابي ؟

ـ سيئة جدًا ومملة ... غمز بعينيه قائلاً : أنتِ أيكونة البهجة فيها يا شمس .

ـ هل هذه شفقة ؟ أم مجرد مدح ؟ .. قالتها وهي تضيق عينيها .

ـ مدح صدقيني ... تابع وهو يرفع أحد حاجبيه : ماذا حدث لكِ ؟

لم ترد فتابع : كيف مرضتِ بتلك السرعة ؟

ـ ليس من شأنك ... قطبت حاجبيها وكتمت ألمها للحظات ثم همّت بإنهاء المكالمة قائلة : و الآن وداعًا , أود أن أنام .

ـ انتظري ... قالها لكنها أغلقت المكالمة قبل حتى إخباره بحقيقة مرضها الواضح أثره على قسماتها الباهتة , تمتم : مريضة ومجنونة ... لم يكن يتوقع أن تكون تلك المرحة التي تمزح مع الجميع بالشركة فتملئ المكان سعادة بهذا الضعف أمام أي مرض ... زفر قائلاً : أتمنى لكِ الشفاء ياشمس .

دخلت عليها رنا , وجدتها مستلقية وعيناها مفتوحتان , حفذتها للنهوض وهي تلوح بطبق الشطائر بيديها قائلة :
ـ هيا لنأكل ... التفتت لها شمس ثم عادت للفضاء تطالعه بشجن وتتذكر كيف أشفق عليها رامي كيف لو علم حقيقة مرضها , تشعر بغباءها لأنها هاتفته بالفيديو طال شرودها , فهللت رنا :
ـ هيي , قومي لتأكلي معي .

ـ لا أريد ... قالتها شمس وقد انعقد حاجبيها في ألم , فاقتربت منها رنا ثم أحنت جذعها هامسة :
ـ هل الألم يزداد ؟ هزّت شمس رأسها نافية , فقالت رنا :
ـ إذن هيا شاركيني الطعام لأنني جدًا جائعة وأخاف أن التهمك إن رفضتي ...ضحكت شمس وحاولت النهوض بمساعدة أختها .

.....

الكلمات ليست مجرد حبر على ورق بل مشاعر على صفحات تتأرجح معها القلوب فتحب تارة وتكره تارة , لكن ماذا عمن وجد مايلهب غيرته بين دفتي دفتر ؟ هل سيعرف بعد أن ينتهي منها طعمًا للراحة؟

بات ليلته يقرأ بكل جوارحه لعل تلك السطور تقوم بفك طلاسم عدة حول علاقته بها لا سيما أنها تحكي ماضٍ لم يكن معها فيه , استرعى اهتمامه ليلتها في حفل زفاف ابنة عمها الذي كتبت حوله .

لقد كان حفلًا رائعًا استمتعت فيه , لم يعكره سوى نظراته المريبة لي وكأنه يحاصرني أينما ذهبت داخل قاعة الزفاف , لقد فهمت مغزى مايحاول قوله لكنني أبدًا لن أوافق , فهو لن يتعدى حدود أخ أكبر .

ـ من هذا ؟ ... سأل باهتمام وهو يقرأ مما جعله يلتهم السطور جريًا حتى وصل لمبتغاه بعد عدة صفحات عندما كتبت فيها .

ـ بعث أيمن عمتي سيادة لطلب يدي من أبي , لكن أبي اعتذر بحجة أنني لازلت أدرس , حمدت الله من كل قلبي , فبالرغم من طيبته إلا أنه لم يحرك في مشاعري أي شيء لأفتح له قلبي ..

استعرت نار الغيرة في صدره وشعر بسخونة تخرج من قلبه فتحسس بيده الناحية اليسرى من صدره وهو يقول بأعلى صوته :
ـ أيمن ! .... طيبته ..

رفرفت بين طيات ذاكرته آخر مرة زار فيها منزل أهل أمنية ليفاجئ بوجوده مع الجميع وكانت ... وكاااااانت أمنية معه .... قالها بحنق وهو يضرب بيده على المنضدة ... تذكر عندما اقترب منه ليسلم عليه فباغته بنظراته الحقودة التي لم يكن يفهم مغزاها قبل الآن , أخذ صدره يعلو ويهبط بتوتر كنغمات مشوشة متقطعة وأنفاسه تخرج بسخونة الحمم , حدثه عقله : لهذا كان يطالعك بكل غل وكأنك غريمة .... كان يريد الزواج منها ... لعل سبب تأخره في الزواج أنه لا يريد غيرها .. وها قد أتيت له بها يا آدم على طبق من ذهب .

ثارت ثائرته وعقله يحدثه بلا رحمة عن كل ما يضيره ويؤلمة بل ويجلده مع سيل الذكريات التي كلها قد تكون لصالح ذلك الأيمن ... اعتصر قبضتيه في ألم وحسرة وأخذ يطرق بهما على المنضدة كمن فقد عقله وهو يقول :
ـ كيف لم ألاحظ ؟ ... لماذا لم أقرأ مذكراتها قبل الآن ؟؟؟ لماذاااااا؟

مسد صدره الذي كان يتأجج وحاول تجاوز ذلك ليكمل قراءة , فقد تأكد أن ما رآه كان رؤية وليس مجرد حلم ليصل لتلك المفكرة فيعلم من خلالها أسرار كانت طي الكتمان في عالم الورق بمنأى عنه , لكن هل يمكن تدارك كل هذا ؟ هل لازال الوقت معه لإصلاح ما حدث ؟

رحيلها سيجعله يُجن بعد قراءته لتلك السطور , سيظل يفكر كل دقيقة بما يحيكه ابن عمتها الماكر ليستميلها نحوه .

ـ استغفر الله العظيم ... ظل يرددها حتى يهدأ فقد شعر أن قلبه على وشك الانفجار , وكذا عقله الذي احتله الضجيج ففاق الصخب احتماله ... قام من مكانه وذهب ليتوضأ ليطفئ النيران المستعرة بداخله ويصلي ركعتين حتى لايموت كمدًا مما يعانيه .. وحتى في صلاته ظلت الكلمات تتقافز أمام عينيه وكأن الشيطان سحبها من الدفتر وأمرها بإلهاءه على هذا النحو المقيت والمثير للغيرة .

الفصل الواحد والعشرون

(ظلام)

.....

لو تسألوا..

من أين قد يأتي الظلام ؟

ولماذا تقتم عتمته ؟

سيرد قلبي حينها أنه منبعه ...

لا تعجبوا ...

جئت للدنيا غريبًا ...

ليحيط بي الليل المرير ...

فأكابد وحدي الوجع ..

انتظر شمسًا مشرقة

يأتيني معها الأمل

لكن شيئًا لم يكن

لأظل تائه بالظلام

حيران يأسرني الألم

فتشت عن نبعه كثيرًا

فوجدت قلبي منبعه ..

.....

يحتجزنا الشيطان في ركن الوقت ليزيد حسرتنا على ماضٍ كان بإمكاننا تغيره لكننا ضيعنا الوقت هباءًا متعلقين بحجج واهية وكل مايسعنا قوله لنسكت ضمائرنا هو قول : لو عاد بي الزمن لفعلت كذا, رغم أن التغيير وارد طالما هناك أنفاس تتسلل إلى أجسادنا وتخرج منها .

حملت سعاد صينية عليها كوبين من الشاي يتوسطهما كأس من الماء المثلج , سارت بخطوات رزينة حتى وصلت لباب الشرفة , فأشار رجب لتدخل , التقط منها الصينية و وضعها بحرص على حافة السور فهي عريضة بما يكفي لحملها .

استوت سعاد على كرسي بلاستيكي بجواره وقد بلغ توترها أوجه , تصدح الأفكار بذهنها عن الجملة الافتتاحية لموضوعها , بينما كان رجب يتابعها بإعجاب وكأنه يراها لأول مرة , لاسيما لمحة الارتباك العابرة بين قسماتها التي ذكرته بأيام خطبتهما , أخذ يرشف من كوبه رغمًا عن أبخرته المتصاعدة , وأشار على كوبها قائلًا :
ـ ألن تحتسيه قبل أن يبرد ؟

هيا قولي ... هيا واجهيه ... ظل عقلها يحفذها ليشحذ همتها وكلما نظرت لعينيه توترت , فناولها كوبها و البسمة لاتزال على ثغره ثم رفع رأسه للسماء ينظر للقمر قائلًا :
ـ يبدو جميلًا الليلة .
ـ ماهذا ؟ .. سألته وهي عابسة.

ـ القمر ... تابع وهو ينظر لعينيها : تعلمين ... يبدو مثلك تمامًا , رغم أنه محاط بالسواد إلا أنه مضيء لينير سكون الكون المظلم .

رفعت حاجبيها بحنق ثم أسبلت أهدابها بشيء من الملل من اعترافاته الليلية المتأخرة والتي انقلبت لغزل كريه , يذكرها بأيام الخطبة التي ودت لو عادت بها لقامت بفسخها على الفور .

ـ يكفي رجب ... تابعت وقد بدا العزم على ملامحها : وددت التحدث معك بشأن انفصالنا .

ـ لاتقلقي ... استكمل وقد اتسعت ابتسامته : سأقسم الليالي بينكما مناصفة , نصف الأسبوع عندك والنصف الآخر عندها ...

ـ ماذا ؟... قالتها وقد تلون وجهها باللون الأحمر ... أشار بيده قائلًا :
ـ سأحيك قصة محكمة لإقناعها بغيابي في تلك الليالي ... استفزتها الكلمة فشدت ملامحها بقسوة من كلامه الغريب عن مراعاة شعور زوجته الثانية وكأن سعاد لا تتعدى حدود شبهة يحاول مواراتها وتأليف القصص بشأنها كي لا يُكشف أمره .

ـ لقد أسأت فهمي ... هتفت به غاضبة .

ـ إذن ماذا تريدين ؟

ـ أريد الطلاق منك أيها المحامي العتيق ... ما إن قالتها حتى ارتعشت يده فسقط الكوب رغمًا عنه مبعثرًا قطعه على الأرض .

ـ هه , لقد أتقنت التأثر ببراعة هذه المرة يارجب ... قالتها سعاد بنصف بسمة ساخرة على شفتيها , فأخفض رجب بصره إلى القطع الزجاجية المنثورة على الأرض ثم عاد إليها بنظراته المصدومة والصامتة فقد أثارت حيرته من تغيرها مذ كانوا بالمشفى , ما الذي حدث خلال السنوات الماضية جعلها تتدعي القوة هكذا .

ـ ألن تفكري في ابنتيكِ ؟ ... نطق بها واهمًا أنه سيضغط على ذراعها الضعيف بقوته لتعدل عن قرارها .

ـ لأني فكرت فيهما جيدًا , طلبت الطلاق , حتى لا تحلم أي منهما بعودتك ... أراد أن يعيد عليها عرضه بزيارتهن خلسة فقاطعته قائلة :
ـ حتى وإن كانت سرقة , نحن لك البيت الأول ياسيد رجب , لا يجدر بك التعامل معنا كشيء عارض في حياتك فتحاول تدبر أمره بتأليف القصص حتى لا تغضب الأخرى .

ـ افهميني يابنت الحلال سا... قاطعته وقد تغيرت نبرة صوتها وازدادت شراسة : ـ أُمكث مع أم ابنك لآخر العمر, ودعني أعيش بسلام ما سيبقى من عمري , فأنا لست غانية عندما ازدانت في عينيك تقرر اختلاس ليالي لأجل هواك أنت ولست أنا.

مسح رجب على وجهه بكفيه والأفكار تتقافز في عقله حول كيفية استمالتها نحوه , فسألها :
ـ هل استشرتِ ابنتيكِ في مثل ذلك القرار المصيري ؟
أومأت بنعم ثم أشارت بإبهامها علامة الإعجاب قائلة :
ـ ويؤيداني بشدة .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ... قالها متأففًا .

أضافت أخيرًا وهي رافعة ذقنها بشموخ فخورة بقوتها في سيطرتها على الدموع وعدم التأثر بنظراته الكاذبة :
ـ عذبتني كثيرًا في الدنيا , وها قد جاء الوقت لأتخلص من بقايا حطامك في نفسي لأستريح في الدنيا وكذلك في الآخرة , فأنا لا أود أن تكون زوجًا لي في الجنة . اتسعت حدقتاه من ذلك

الكلام وبرزت فيهما الشعيرات الدموية و أخذت شفتاه ترتجفان ليقول :
ـ ما هذا الكلام , هل فقدتِ عقلك ؟!

هزّت رأسها نافية ثم ردت بكل ثقة أثارت غيظة وزادت رغبته بامتلاكها :
ـ بل استعدته تمامًا ولأول مرة , وأتمنى أن تنفذ ماطلبته منك بأسرع وقت كي لا ألجأ لرفع دعوى قضائية ضدك أيها المحامي فينفضح أمرك بين زملائك ومعارفك , رفرفت بيدها أمامه كما المذعور متابعة : وياويلك إن علمت أم ابنك أنك لا تريد طلاقي , أضافت بوضوح : ولتعلم أن حقوق ابنتيك المالية لا يمكن أن أتهاون فيها , فكما جعلت لابنك رصيد مصرفي لتأمين مستقبله , سيكون لابنتي مثله بالإضافة للملاليم الشهرية التي ترميها في وجوهنا مع أحد العاملين عندك وتذكر أنك لا تريد الفضائح ...استقامت واقفة ثم قالت : عن إذنك , سأذهب لأحضر المكنسة لألملم قطع الكوب الذي كسرته .

رحلت وتركت طيفها يخرج لسانه أمام عينيه ليغيظه فيذكره أنه ولأول مرة يتم رفض طلبه رغم قدرته على استمالة القضاة في أكبر القضايا وأصعبها , لأول مرة يشعر بالحنين اتجاهها لترد عليه بصفعة وهي من هي الضعيفة المكسورة الوحيدة , فركل السور بقدمه وأخذ يضرب عاليه بقبضته كالمهتاج قائلًا :
ـ كيف استطاعت ؟ هل كانت تحلم بوجود من هو مثلي في حياتها وهي بتلك البساطة والغلب... لو كانت أصغر سنًا لقلت أنها تعرفت على أحد الرجال ... حدثه عقله قائلاً : لا تنكر أنها لازالت جميلة وشابة أربعينية .

ود لو يزأر , فقد جُرحت ذكوريته الآن ويود الانتقام , لكنه تذكر أمر تلك المسكينة النائمة بمرضها في الداخل , فقال : يكفي ماسببته لها من ألم ومرض ... خرج وهو ينفخ بغضب و وجهه يغلي غليانًا , غادر المنزل صافقًا خلفه الباب بعصبية حتى كاد يكسره وكأنه بذلك سيأخذ حقه منها .. بينما كانت واقفة بالمكنسة بجوار المطبخ تتابع ردود أفعاله دون لفت نظره , وقلبها يتراقص من الفرحة لأنها أخيرًا تكلمت وواجهته .

.....

هناك ذكريات تخفف قسوة الماضي لتريح النفس كنسمة صيفية حلوة وهناك ذكريات تجلد الروح لتؤجج كل عذاب الماضي السحيق وتضاعف الكبت فلا ينتج إلا أمر واحد , ألا وهو الإنفجار ...

ارتديت فستان وردي اللون به بعض الوردات المتلألأة في ذيله الواسع مع حجاب أبيض يضاهيه , ثم حملت صينية العصائر وأنا متوجسة من السقوط بما أحمله بسبب خجلي , أشار لي أبي بالجلوس ففعلت لأكون في مواجهة ذلك الخاطب , حينما نظرت اتجاهه أسرتني عينيه وسوادهما الفاحم وكأنهما قطعة من الليل , واسعتان كحيلتان توحي بأن صاحبهما قوي وفارس كما هو حال أبطال بعض الروايات التي قرأتها , أما بسمته فكانت غامضة بعض الشيء أوحت لي أنه يعرفني رغم أنني متأكدة بكوني لم أراه قبل الآن , كل ماحدث لي في تلك المقابلة , أن قلبي كان يخفق .. يخفق .. يخفق وبشدة لدرجة أن خفقاته وصل صداها لحلقومي ...

"أنا آدم جابر"... قالها ليقطع صوت الأجراس المدوية في قلبي ثم استأنف التحدث عن نفسه بطريقة عادية لكنني رأيتها جذابة مع لغة جسده المتناسق و كتفيه العريضين وحركات يده التي أظنها أضخم من يدي كثيرًا وكذلك هو أطول مني بعض الشيء , فابتسمت بخجل ثم نظرت إلى الأرض قائلة :
ـ تشرفت , وأنا أمنية ... ثم حدثته عن نفسي ...

لا أعلم ما سيئول إليه أمر تلك المقابلة ، وإن كنت من النوع المتردد الذي يحبذ التفكير لفترة طويلة قبل المضي قدمًا بأي قرار ولا أظن أنني أود الزواج بهذه السرعة بزواج صالونات كهذا , لكنني متأكدة من أمر واحد فقط وهو أن هناك شيء تحرك بداخلي , لم أشعر به من قبل , هل يعقل أن يحدث ذلك من أول مقابلة لشخص لم أراه في حياتي ؟ أم أنه وسيم للدرجة التي تجعل النساء يتعلقن به هكذا ؟ ... سألت نفسي كثيرًا ، ترى كيف رآني بعينيه ؟ هل أعجبته ؟

زفر آدم باختناق لأن الشوق يحاصره مقسمًا ألا يدعه حتى يكبله بحبال الحنين ثم قال :
ـ أراك أجمل النساء يا أمنية... تذكر تلك الليلة وكيف كانت فاتنة بفستانها الوردي الذي يشبهها كثيرًا ويشبه نعومتها وبرائتها , أرخى جفنيه في جذل وهو يتذكر بسمتها الرقيقة ومحاولاتها للنظر له خلسة دون أن يشعر لكنه كان يحاصرها بنظراته , تتلاقى عيناهما فيبتسمان والقلوب تتقافز من أعينهما وخاصة عينيه التي رآها بها أول مرة وهو في طريقه للعمل كانت تسير برفقة صديقتها المقربة تعبران الطريق ممسكتين بالمثلجات , لفت نظره أنها تخجل استكمال تناولها أثناء سيرها ممسكة بمنديل ورقي تمسح مايسيل منها بسبب الشمس بينما كانت صديقتها تلتهمها ولا تأبه بالناس من حولها , أخذت عقله منذ تلك اللحظة بحياءها اللطيف الذي أنعش قلبه في حرارة ذلك اليوم الصيفي الجميل , مما جعله يتجه لأقرب محل مثلجات لتناول مثيلة ماكانت بيدها , كان الوقت قرب الامتحانات النهائية بالجامعات , لكنه عزم على أن يحاول

ارتياد ذاك الطريق في هذا الوقت الذي جعله يرى تلك الحسناء , علّه يراها مجددًا , وبالفعل حدث ركز على يديها الخاليتين من أي محابس خطبة فزفر بارتياح , حينها صف سيارته ثم ترجل منها خلفها دون أن تشعر به وسار خلفها حتى وصلت لبيتها وقد تعالت زغاريد قلبه لأنه عرف المنطقة والبيت وسيتمكن من السؤال عنها والتقدم لها في القريب العاجل .

ارتفعت حرارة قلبه بعد تلك الذكريات الأثيرة , وأخذ الحب يقلبه على نار الوجد فيلهب جانبيه وأنفاسه تتسارع ولايزال على جلسته شاردًا في تلك المفكرة العجيبة التي سيقضي ماتبقى من الليل بجوارها , عاد إليها والأنين يقطر من عينيه , أكل سطورها القديمة كلها حتى وصل لحروف كتبت منذ فترة وجيزة وحبرها لتوه جف , تمتم :
ـ إذن عادت للكتابة فيها هذه الأيام ... استرعى انتباهه معاناتها مع نور ومكائدها وكذلك والدته التي تقف لها على الأنفاس , قطب جبينه مغتاظًا لأجلها ومن نفسه لأنه لم يسمعها .

كلما استفزتني نور أشعر أنني أكرهك يا آدم بل ... أود قتلك , لكن عندما تعود وأنظر لعينيك أصمت وأنسى كل شيء , لا أظن أنني سأتمكن من مواصلة التناسي والتجاهل هكذا طويلًا لأنني حقًا تعبت ... أعاد قراءة تلك الكلمات بشفتيه المرتجفتين وهو يتمتم :
ـ تريدين قتلي يا أمنية ؟ تجمد الدم في عروقه من مجرد التفكير بالأمر لكن أفاقه صوت أذان الفجر .

نحى المفكرة قليلًا ليذهب لآداء صلاة الفجر , وفي نيته أن يدعو الله من كل قلبه يغفر له تقصيره ويصلح حالهما ويجمعهما على خير .

بعد عودته اتجه حيثما كان قبل قليل , ظلّ يقرأ وهو يتثاءب لكنه أبدًا لن ينام فهو يقرأ مصائب ومكائد تلقتها بقسوة من خلف ظهره , وكل ذنبه أن ثقته بأهله أعمت بصيرته فلم تمكنه من رؤية الحقيقة كما تراها هي , واصل القراءة فلم يعد سوى صفحات قليلة ... فجأة انتبهت حواسه لسطور بعينها هي سبب انقلاب حالها وتغيرها معه بهذا الشكل .

.....

إلى تلك الطيبة الغافلة ...

يؤسفني إعلان خيبتك مع تلك السطور التي تود أن تشي لكِ بأمر ما ...

لقد وجد زوجك ضالته مع أخرى غيرك , زميلته بالعمل واسمها شمس

" رسالة صغيرة على جوالي من رقم مجهول بعثرتني وشتتت الطمأنينة في نفسي , لا يسعني إلا تصديقها , فقد نطق لسانك بهذا الاسم قُبلًا يا آدم وظننتني لم أسمعك , لكن الاسم خرق أذني وأنا خلف الباب ليقرع ناقوس خطر محدق بعلاقتنا التي هي من الأساس واهنة ".

" كنت أصبر و أمنّي نفسي بقلبك مع كم الأذى النفسي الذي أتعرض له لأنني توهمت سيطرتي على قلبك , لكن مع بزوخ شمس قلبك هذه , أظن أنه لا شيء يستدعي بقائي في حياتك المؤذية فقد جرحت كبريائي كأنثى وظلمتني كزوجة , لكن الديان لا يموت " .

" لم يكن جسرنا قويًا يومًا , حاولت بكل حبي أن أرممه لكنك بعنادك أبيت إلا أن تحطمه , لكنني حقًا تعلمت الكثير في تجربتي المريرة معك وأقسمت ألا أكررها مع ريم حتى لو كلفني الأمر حياتي " .

انتهت سطورها عند الحروف التي حكت فيها ما قاله محمود معها بالحديقة وجسده يرتجف كالمختض , وجدران روحه تهتز بقوة فقد زلزلت حروفها شيئًا بداخله حلوًا بري حنينه اتجاهها وعلقم ببعدها , ظل يعيد قراءة الكلمات ولسانه يرتجف ليس خوفًا وإنما حزنًا لضياعها من يده بتلك السهولة , لم يشعر إلا وقطرة مائية تهبط على صفحة دفترها تبلله , ثم أخرى وهكذا تتابعت القطرات , فتحسس عينيه ليؤكد لنفسه أنه رجل عصي عليه البكاء لكنه كان مخطئ , فقد كانت تلك دمعاته , لم يصدق نفسه , ذهب إلى مرآة الحمام , فوجد الدموع تترقرق في عينيه , تحسسهما بأصابعه فجاءت غيرها وهكذا حتى انهمرت بغزارة , ضمّ قبضته ثم ضرب المرآة بقوة فتهشمت جارحة يده ليسيل منها الدماء وهو يصرخ :
ـ تعال أبي لترى حال ابنك الذي ظننته سيكون رجلًا لا يبكي كالنساء .. ها أنا أبكي.. تمزق قلبي وأشلاءه تتبعثر أمام عيني .

.....

أي صباح يمكن أن يضاهي ذاك الذي يبدأ بعناق أخوي يضمد الجرح من خلال هدية تحوي معها سعادة تخبرك أن هناك من يهتم بأمرك ولايريد سوى أن يراك سعيدًا .

استيقظت على أثر حركات أنامل الصغيرة على وجهها وهي تنادي :
ـ أمي... فقد كانت جائعة , قامت أمنية ثم احتضنتها بقوة وقبّلتها على خدها قائلة : ـ يانور عين أمك وقلبها وروحها

اتجهت لشباك الغرفة , نحت ستائره جانبًا ليتسلل الضوء إليها وعادت بعينيها إلى الفراش حيث تمدد الصغيرة ذراعيها في سعادة , لفت انتباهها وجود كيس كرتوني لهدية أعلى الكومود

, تمتمت بسعادة والبريق يطل من عينيها :
ـ هدية ! .. ركضت نحوه ثم التقطته ببهجة , مدت يدها بداخله فسحبت علبة هاتف جديد , ومن ثم أعادت الكرة لتجد بين أصابعها مفكرة جديد وفي المرة الأخيرة وجدت شوكلاتة الكراميل المحببة لنفسها ملتصقة بورقة كُتب عليها :
ـ أتمنى لكِ ياحلوة يومًا جميلًا كابتسامتك العذبة .

ضمتها لصدرها وقد ترقرت العبرات في عينيها , وعقلها يفكر أي شكر لله يمكن أن يوفي نعمة أخوة كهذه ؟ قارنت بين حال هذين الرجلين المتناقضين في حياتها , آدم بجموده ومازن بحنانه لترجح كفة مازن قائلة :
ـ ليس هناك وجه شبه من الأساس لأقارن , أي مجنونة تلك التي تترك الجنة كرمى لجحيم كحيل العينين , حاشا وكلا ... كانت ريم تطالعها باندهاش وهي رافعة حاجبيها من منظر أمها التي تكلم نفسها , فقلبت كفيها بطريقة طفولية تستفسر منها لمن تتحدث , ضحكت أمها من برائتها ثم أحنت جذعها لتقبّلها لكن رنين الهاتف قاطعهما , فاتجها بنظريهما نحو العلبة الجديدة التي تصدر ذاك الرنين .

التقطت أمنية العلبة وهي تقول بامتنان:
ـ لم ينس حتى أمر الخط ... فتحتها ثم تحسسته لترد , وما إن ردت حتى جاءها صوته مشعًا بالبهجة :
ـ ها قد استيقظتِ ، صباحك ورد .

ـ صباحك أجمل من كل الورد يا مازن ... تابعت وهي تبتسم : شكرًا لك بحجم السماء عن كل ما جلبته لي ... لكن متى أحضرت كل تلك الأشياء ؟ وأين أنت ؟

ـ عندما خرجت في الليل , وعدت لأجد الجميع نيام فحمدت الله لأفاجئك... تابع بشقاوة : وأرجو أن تكون مفاجأة سارّة ... أما بخصوص مكاني أنا بالغرفة المواجهة لكِ .

ـ طبعًا .. طبعًا ... إنها أجمل بداية ليوم مميز .. أدامك الله في حياتي مازن .

ـ وأدامك لنا يا أميرتنا الحلوة ... أنهت مكالمته اللطيفة ثم غيرت لريم حفاضتها و ملابسها و صففت شعريهما وخرجا إلى الصالة لتصلهم رائحة البطاطس المقلية من المطبخ فتثير جوعهما , اتجهتا للمطبخ حيث كانت رغدة تعد الفطور , التفتت لهما مبتسمة ثم قبلت ريم وهي تحييهما بصباحها .

تركت أمنية ابنتها على الأرض و أعطتها شطيرة صغيرة تسد بها جوعها حالما ينتهي الإفطار ثم سارت نحو الصنبور لتقوم بغسل الخضروات , قالت لها رغدة : ـ ستخرجي مع والدك اليوم بعد الإفطار لكن بدون ريم .

ـ لماذا ؟ من المفترض أنها نزهة أليس كذلك ؟ سألت أمنية وهي قاطبة جبينها .

ـ يريد أباك أن يتحدث معك وذهنكِ صافي وبلا مسئولية ركض خلف طفل يريد اللهو كما سيحدث لو أخذتِ ريم ... تابعت وهي تنظر للصغيرة التي تأكل بنهم :
ـ سيأخذها خالها ليحضر لها بعض الحلوى .

هزّت أمنية رأسها لموافقة رغدة ثم عادت للشرود في حالها وما سيئول إليه بعدما أعلنت رغبتها بالإنفصال أمام الجميع , هناك شيء في داخلها يشعرها بعدم الرضا رغم المثالية التي تعيشها في بيت أبيها , إلا أن ذلك الشيء الذي يعكر صفو قلبها مبهم ولا تعلم له حتى تسمية ولم تضع يدها على مكانه بعد , حاولت تغيير مسار السلبية الذي يتجه به حوار عقلها قائلة :
ـ كل شيء سيكون على مايرام طالما ابتعدت ونجوت بما تبقى من عمري , ولن أنظر خلفي مجددًا .

.....

قد تكون بيننا وبين السعادة مجرد خطوات لكن فرحتنا لا تجعلنا ننسى خفايا القدر التي يمكن تفاجئنا في أي لحظة لتحول بيننا وبين سعادتنا في غمضة عين ...

صف سيارته أمام البناية وقلبه يتراقص على وتيرة كلاسيكية كما هو حاله بمظهره الأنيق الذي يوحي لمن يراه أنه عاد من الماضي بشكله الوسيم الذي يناظر ممثلي الأفلام الرومانسية القديمة , صعد بحماس وكأنه على موعد مع السعادة وحينما وصل لمكتب السكرتيرة , وقف واجمًا على إثر سؤالها وهي تتفحص الأوراق الموجودة أمامها:
ـ عفوًا , هل لديك موعد ؟

لقد نسي تماماً أخذ موعد من رجب , فرحته أنسته كل شيء ومع ذلك لن يخرج من عنده قبل أن يكلمه ويعرف رأيه في ارتباطه بابنته , هزّ رأسه نافيًا وهو يبتسم ثم قال :
ـ لن آخذ من وقته الكثير ..

ـ لكن ... قبل أن تكمل قاطعها أيمن :
ـ أود التحدث معه بأمر هام ولن يعترض إن ابلغتيه بوجودي ...

أومأت السكرتيرة بنعم ثم قالت : حسناً , ولكن هو الآن برفقة أحد العملاء , لذا يرجى منك الانتظار لحين الانتهاء بعدها سأبلغه سيد ...

ـ أيمن ... قالها وعلى ثغره ابتسامة لطيفة زادته وسامة جعلتها تنظر له بإعجاب وهي تشير له بيدها ليجلس أمامها .

سألته ولازالت تطالعه بنظراتها المتفحصة الجريئة :
ـ ماذا تشرب , سيد أيمن ؟

ـ لا شيء, شكرًا لكِ .... تابع وهو يشير بيده صوب مكتب رجب : سأحتسي القهوة برفقة السيد رجب بإذن الله .

جذبها تحفظه واحترامه بالإضافة لرجولته التي ازدانت بمظهره الكلاسيكي , حاولت فتح موضوع معه قائلة :
ـ هل لديك قضية ما ؟

ـ نعم .

ـ هل ملفها موجود هنا ؟ أم أنها جديدة ؟ ... سألته بخبث , فهي تذكر جيداً ذلك الوجه الباسم وتلك القسمات الجذابة لكنه لم يكن في المرة السابقة أنيقًا هكذا , لذا ودت لو تعرف سبب مجيئة بلا موعد .

ـ جديدة ... رد باقتضاب

ـ اممم , ما نوعها ؟ ... تابعت وهي لازالت تطالعة بوقاحة وتزداد إمعان وإنجذاب كلما غض بصره .

ـ السيد رجب سيخبرني .... استكمل وقد استاء من تحقيقها معه : لا أجيد تصنيف القضايا , فأنا بالنهاية محاسب ولست محامي .

ـ تشرفنا , سيد أيمن ... قالتها وعلى ثغرها ابتسامة سمجة تشبهها بهيئتها التي تبدو كالمهرج بسبب ألوان الطيف التي رسمت بها وجهها .

ـ شكرًا لك ...قالها بنفور بسبب أسئلتها القميئة ونظراتها الوقحة , وقبل أن تعود بالثرثرة أمسك بهاتفه وادعى انشغاله بتصفح موقع التواصل الاجتماعي .

استغرق الأمر ساعة ورغم تلك الثرثارة لم يهتم إلا بالدخول لرجب لأجل التحدث معه , ويدعو ربه في سرّه ألا يرفض بسبب فارق العمر بينه وبين رنا .

غادر الرجل الذي كان يتناقش مع رجب حول أبعاد قضيته , وعينا أيمن معلقة به وهو يزفر بارتياح أنه أخيرًا سيصل لهدفه , فاتصلت سكرتيرته تخبره بانتظار أيمن لأجل قضية هامّة ... التفتت لأيمن وهي مبتسمة بفمها الواسع كالبلهاء وقد أرخت جفنيها وكأنها متيمة بذاك الأنيق الذي هبط عليهم من زمن سحيق ثم قالت وهي تشير نحو مكتب رجب :
ـ تفضل أستاذ أيمن , السيد رجب بانتظارك .

طرق على الباب ثم دخل , ليجد رجب يتوسط مكتبه بهيئته الضخمة وهو مستند بذراعيه على سطح مكتبه لكن هيئته كانت مرهقة للغاية , وكأنه لم ينم منذ ليالٍ , وجهه شاحب كمن لم يذق طعم الطعام منذ أيام .

شكله أصاب أيمن بالتوتر , اتجه نحو وسلّم عليه بحفاوة , ثم سأله :
ـ هل أنت بخير ؟

هزّ رجب رأسه نافيًا ثم قال : لا ؛ لست بخير .

شعر أيمن بخيبة كبيرة احتلت قلبه ومزقته فحدث عقله : ظننت النحس سيتركني أهنأ ولو ليوم واحد , ماهذا ياربي؟.. نظر لرجب نظرات أسف على ماحلّ به ولا يعلمه وما حلّ بقلبه الذي تحطم أمله فقال :
ـ أنا آسف لأجلك .. همّ بالنهوض قائلًا : سآتي في وقت لاحق للتحدث معك .

.....

يختلف الجرح باختلاف عمقه وفي جميع الأحوال سيأخذ وقته ليندمل ويتعافى , لكن ماذا عن جرح الروح ؟ كيف يُضمد وهو غير مرئي ؟ وكيف نؤكد وجوده والكلام عصي ؟

شقّ الصباح فاه السماء بنوره الذي رغم إشراقه لن يقضي على ظلام الصدور الواهنة المنهكة بالفقد والمعذبة بالذكريات الموجعة التي لا مناص من نسيانها فقد نُقشت في الروح منذ الصغر فصار نسيانها أمر عصي على العقل عمله .

انهار كليًا ولا يزال يزأر ويهذي بالكلمات والدماء تسيل من يده اليمنى بلا رحمة , وسيل الذكريات يموج بين صفحات روحه لتضاعف ألمه وهو يتذكر ضربات والده وصفعاته فقد

كان مكبوتًا مذ كان صغيرًا ممنوعًا من البكاء بفرمان أصدره أباه لكن رحل جابر ليتفاقم كبت ولده محدثًا انفجار قد تشعر روحه به وهو ميت لكن لا يسعه فعل شيء .

في هذه الأثناء سمعت زينب صوت الضجيج بالأعلى لا سيما أن النوم جافاها هي الأخرى , خرجت من شقتها لتصعد الدرج إلى شقة آدم وقلبها يرتجف من شدة الخوف على ولدها ... ما إن طرقت على الباب حتى هدء الصوت ثم اختفى , فأعادت الطرق بصوتٍ أعلى وهي تنادي باسمه وظلّت هكذا لكن دون جدوى فلا أحد يرد ولا الباب يُفتح , حينها ظنّت أن ماسمعته كان مجرد هلوسة بسبب عدم نومها , أخذت تمسح على الباب راجية أن يكون ولدها بخير والدموع انسالت على وجنتيها رغمًا عنها, حدثها عقلها : أن من الممكن أن ماشعرت به مجرد وهم بسبب انهاكها وأن عليها العودة حتى لا تزعجه إن كان نائماً لذا هبطت الدرج عائدة من حيث أتت .

قبل لحظات , أخفض صوته عندما سمع صوت طرقها لكن قلبه لن يتحكم فيه فقد كان يبكي بحرقه على ذلك الضعف الذي ينهشه مع ذكرياته المريرة , نظر لجرح يده اليمنى الذي لايزال الدم ينساب منه وكأنه يأبى التوقف , لم يتحرك من مكانه ولم ينبس ببنت شفة حتى سمع صوت خطواتها تهبط الدرج ... همهم بقنوط وهو يطالع الدماء العنيدة ثم فتح الصنبور ليغسل الجرح لكن الألم يتصاعد , انتهى ومازال الدم على حاله , فتحرك ناحية غرفة النوم يبحث بعدم تركيز على أي شيء يضمد به الجرح لكنه لم يفلح ولا يعلم أين حفظت أمنية أدوات الإسعاف الأولية , اضطر لفتح خزانته للبحث عن أي قميص قطني قديم يخصه وما إن وجده مزقه بأسنانه ثم لثم به كفه بغير ترتيب فالجرح في كفه الأيمن ولم يعتد عمل أي شيء بيده اليسرى , لذلك حاول جاهدًا ربطه لعل اندفاع الدم يهدأ حتى يتمكن من الخروج إلى أقرب صيدلية لتضمد جرحه بإتقان .

خرج من غرفة النوم إلى المطبخ أخذ المكنسة وكيس بلاستيكي ثم عاد إلى دورة المياه حيث قطع الزجاج متناثرة على الأرض لملمها بالمكنسة ثم جمعها في الكيس .

جسده يقطر انهاك وروحه تنزف ألم للدرجة التي جعلته لا يشعر بوجع كفه , ذهب إلى الصالة و ألقى بنفسه على الأريكة لكنه أبدًا لن ينام , كيف له ذلك والذكريات المقيتة قد اتفقت مع المفكرة لتحيكا مؤامرة ضد عقله فتحرمه النوم . تذكرأمرها فأمسك الهاتف ثم مسد شاشته حتى وصل لرقم والدها ليهاتفه .

.....

الفضفضة لا تحتاج إلا لقلب يسمع ومنظر بهيج يشجع على البوح , لكن هل كل مايباح سيخفف من وطأة الألم أم تذكره سيضاعفه ؟

على إحدى المقاهي المطلة على النيل كانت أمنية تجلس برفقة والدها , تنظر لصفحاته الخلابة وكأنها في خضم حلم جميل مع منظر النيل البديع ونسماته العليلة , ظلّت شاردة تتأمل ذاك الإبداع الربّاني الذي حباه الله لمصر وهي تتمتم : حفظك الله بلدي وأدام روعتك ... قطع جمال شرودها وهو يشير للمثلجات قائلًا :

ـ هيا , ألن تتناولي مثلجاتك المفضلة ؟

ابتسمت له وغضّنت جبينها في حرج لأنها لم تشعر بحركة النادل وهو يصفهما , قالت :

ـ لقد أنساني ذلك المنظر كل شيء يا أبي .

ـ لا عليكِ حبيبتي ، يكفيني متعتك به ،قالها واستأنف تناول مثلجاته محفزاً إياها للبدء... تنهدت بسعادة قائلة :

ـ تلك النزهة تشرح الصدر وتزيل الهم ... أمسكت مثلجاتها واستأنفت تناولها بنهم وكأنها لم تذقها قبل الآن , كان النسيم العليل يداعب صفحات وجهها الخجول لكن ومع كل تلك البهجة زارتها غصة نغزت قلبها وسط ذاك النعيم لتخبرها أنها نسيت أمرًا , حاولت معرفة كنهها لكن لازالت تجهل , حاولت لمس مكانها أو اقتفاء أثرها لكن لا دليل يرشدها , توقفت عن تناول المثلجات وعادت للنيل فابتهجت وحاولت تناسي مايضيرها ورفعت ذقنها لتواجه تلك النسمات فتخبرها أنها قوية مهما واجهت من ألم ومهما حاصرتها الذكريات الموجعة , أمسكت بكأس مثلجاتها ثم عادت لتناوله وهي تنظر للنهر تستمد منه البهجة والقوة .

قاطعهما رنين جوال جمال الذي ما إن نظر لهاتفه حتى رفع رأسه ونظر لابنته بابتسامة , ولم يرد فسألته وقد رفعت حاجبيها في حيرة :

ـ ألن ترد ؟

ـ ما رأيك ؟ .. تابع وهو لازال مبتسم : إنه آدم .

الفصل الثاني و العشرون

(بعض السكينة)

.....

أحيا بأمان وسكينة

مع عائلتي أبقى أميرة

يرعاني الحب ويشملني

مع أنفاسٍ تحمي روحي

الكل يربت ويضمد

جراح بالقلب أليمة

لاهم لديهم أوغاية

إلا أن يجدوني سعيدة

أعينهم تغمرني ود

فتخفف آثام ذكرى

بالشوق رمتني صريعة

لأجابه عالم قاسي

لكني لست وحيدة

حولي قلوب أثيرة

أخذوا بيديّ لأنهض

فأواجه بصمود حياتي

بشموخٍ ألقاها قديرة

وبدون تلعثم أتكلم

و أباري الكون وأتفاخر

أنّي بعائلتي قوية

.....

.....

عندما نتألم لا نحتاج سوى لروح تتعمق عبر أجسادنا لتربت على القلب , ومع ذلك هل ستهدأ النفس ؟ أم هي مجرد محاولة لتسكين الألم ؟

أمسكت بكأس مثلجاتها ثم عادت لتناوله وهي تنظر للنهر تستمد منه البهجة والقوة.

قاطعهما رنين جوال جمال الذي ما إن نظر لهاتفه حتى رفع رأسه ونظر لابنته بابتسامة , ولم يرد فسألته وقد رفعت حاجبيها في حيرة :

ـ ألن ترد ؟

ـ ما رأيك ؟ ... تابع وهو لازال مبتسم : إنه آدم .

ازدردت أمنية ريقها وشعرت برجفة خفيفة تسري في جسدها لدى ذكر اسمه , رفعت كفيها نافية ثم قالت بهلع :

ـ لالالالا .

ـ اهدأي حبيبتي ... قالها جمال ثم ضغط على زر جانبي للهاتف ليسكته ومن ثم وضعه على الطاولة بعد غلقه ، تنهدت أمنية بارتياح , فبادرها جمال بحنو :

ـ لم أشأ إفساد متعتك بتلك النزهة , لكن لابد أن نتحدث مليًا بشأن علاقتكما .

ـ لن تستمر ... تابعت أمنية وهي عاقدة مابين حاجبيها : أريد الطلاق أبي .

حط جمال كفه على راحتها ثم مسدها بلطف , قال :

ـ الطلاق أمرٌ جلل , يحدث بكلمة فيفرق أسر ويشرد أطفال ويدمر بيوت .

ـ ألم يدمر آدم بيتنا بما فعل ؟ ... قالتها وقد ترقرقت العبرات في عينيها لتذكر ذلك الألم , فناولها جمال منديلًا ثم رمش بعينيه راجيًا إياها أن تهدأ و قال :

ـ لأستكمل معكِ الحديث بشكل موضوعي , أرجو منكِ ألا تبكي .. أومأت أمنية بنعم وهي تمسح دمعاتها في مجاهدة منها للسيطرة على مآقيها , فسألها جمال :

ـ هل أنتِ بخير الآن ؟ .. هزّت رأسها موافقة , فقال لها جمال : سأتكلم معكِ كحكم بينكما وليس كأب .

همهمت أمنية لتعلمه بموافقتها , فقال :
ـ كلاكما أخطأ كما ذكرت سابقًا , هو بتسرعه وضربه لك وأنتِ بإخفائك أمر لقائك بزوج أخته ولومه على علاقة لست متأكدة من صحتها ... قاطعته قائلة :
ـ لكن مازن معه صورة المنشور حيث تتباهى زميلته بهديته أمام الجميع .

أشار بيده أن تهدأ حتى يكمل كلامه وما إن فعلت , قال :
ـ هل مواقع التواصل هي مصادرنا للتأكد من أي شك يعترينا ؟ ...قاطعته والغضب احتل قسماتها :
ـ لكنني سمعته ينادي اسمها في البيت .

ـ ولو ... تابع جمال وهو ينظر لعيني ابنته : هناك حلقة مفقودة في كل ماذكرتماه أنتِ ومازن , كما أنها زميلته بالعمل ويراها طوال وقت العمل ومن الطبيعي أن يذكر اسمها أما بخصوص هديته فمؤكد هناك سبب ما .

ـ ولماذا أخفى عني أمرها وعندما سألته عن العلبة التي رأيتها بالدرج , أنكر الأمر واتهمني بالتوهم ؟؟ ... صمت جمال لبرهة ثم قال بنبرة حادة :
ـ لنفس السبب الذي جعلك تخفين أمر لقائك بمحمود في الحديقة .

ارتبكت أمنية وخالجها التوتر فصمتت قليلاً ثم ردت :
ـ أنت مع من يا أبي ؟

ـ قلت لكِ سأتكلم كحكم بينكما ولست أب .

ـلم أجد الفرصة لأفتح معه الموضوع الشائك الذي يمس أخته المجنونة , ولم أود الوقوع معها وهذا ليس مبرر أبدًا ليشك بي ويضربني كما فعل .

زفر جمال بضيق وهو يمسد جبهته ثم قال :
ـ لكنكِ وضعتِ نفسك بموضع شبهات كما فعل هو حتى سمحتما لشياطين الإنس بالتلاعب في عقليكما ... تابع وهو يشبك أصابعه : هل تعلمين ماقيل له قبل أن يصعد ويضربك ؟ الشيطان يا ابنتي يجري منا مجرى الدم ويلوث عقولنا ويسممها بكلمة .

تجمدت نظرات أمنية نحو والدها واسترسلت ذاكرتها تلك الرسالة المجهولة التي حملها جوالها إليها , وكيف أثرت بها وغيرت شعورها اتجاه آدم , ظلّت واجمة حتى طرق جمال بيده على الطاولة قائلًا :

ـ أين ذهبتِ ؟ .. رمشت بعينيها لتخبره بإفاقتها ثم قالت :

ـ كنت أفكر في كلامك أبي ... فقد أتتني رسالة منذ مدة تخبرني أنه على علاقة بها.

ـ أنا رجل لكنني على علم بمكائد البشر , وأظن الرسالة لم تخرج من تلك الفتاة المعجبة به أو رجل حاقد على زوجك ... وأنتِ بسذاجتكِ صدقتيه وكذلك هو .

ـ وهل هذا يسوغ له ضربي ؟ .. هزّ جمال رأسه نافيًا ثم قال :

ـ لو لم يذهب مازن لضربه لكنت فعلتها أنا ... وبالنهاية ضُرب كما ضربك.

ـ وشرفي الذي طُعن ؟

ـ لم يقربه بنيتي ولن يجرؤ ... أضاف وهو يربت على كفها : كل ما أراده زوجك هو سماع الحقيقة التي امتنعتِ عن البوح بها ليهدأ ولو كنت مكانه لفعلت ما فعله .

ـ ماذا ؟!... قالتها أمنية مبهوتة , فابتسم جمال ابتسامة ودودة قائلًا :

ـ لا تحاسبي رجلًا يغار على محبوبته .

لوهلة انتابها الأسى من تفسير والدها للأمر , لكنها تجاوزت ذلك قائلة :

ـ أنا تعبت كثيرًا معه ومع والدته وأخته يا أبي .

ـ لو على أمر والدته وأخته ... تابع وهو يطرق بأصابعه على الطاولة : إن ابتعدتما ستنجح علاقتكما .

وضعت أمنية يديها على رأسها وكأنها ترفض فكرة العودة ثم قالت :

ـ لا أريد الرجوع , يكفي ما أخذه من عمري ، إنه إنسان متناقض يا أبي .. متنااااقض ...

تنهد جمال قائلًا :

ـ كلنا يحمل التناقض بين جنباته يابنتي ؟

هزّت رأسها نافية :

ـ ليته مثلك أبي ... لما تركته أبدًا .

أرخى جمال جفنيه بود وهو يتذكر شبابه ثم ابتسم قائلًا :
ـ تقولين هذا لأنكِ تنظرين لي كابنة بارة ومحبة , لكن التناقض يعلو صفحات شخصيتي أنا أيضًا وآدم يشبهني كثيرًا.

اتسعت عيناها في عدم تصديق ثم قالت :
ـ مستحيل .

ران عليهما بعض الصمت , قطعه جمال ليذيب الجليد الذي احتل نظرات ابنته وهو يتكلم بهدوء :
أنا أحبكم كثيرًا يا أمنية لكنني دائمًا مشغول حتى فاتني الكثير من حياتكما أنتِ و أخيكِ ... ألا يسمى ذلك تناقض ؟

لانت ملامحها وزمّت عينيها وكأنها تطلب منه عدم لوم نفسه , قالت :
ـ أبي

أطلق جمال تنهيدة تحمل كل الأنين الذي أخفاه السنين الماضية , أسند ظهره على الكرسي , ثم قال :
ـ هل سألتي نفسكِ ولو لمرة , لماذا لا تخرج والدتك لأي مناسبة اجتماعية تخص عائلتها ؟

ضيّقت أمنية عينيها وهي تتذكر أن ذاك السؤال بالفعل مرّ عليها , فقالت :
ـ لأنكما تحبان العزلة و الانطوائية .

هزّ رأسه نافيًا ثم قال وهو يشير على صدره :
ـ أنا من فرضها على أمك .

ـ ماذا ؟!

ـ كما سمعتِ .

ـ ولِما فرضت عليها ذلك ؟

وضع جمال ساق على ساق ثم شبّك كفيه على ركبته , صمت قليلًا لمرور تلك الذكريات على مخيلته ثم قال :
ـ كان هناك شخص بعائلتها يود خطبتها .

ـ كيف علمت بذلك ؟

ـ حكت لي بتفاخر أثناء خطبتنا وهي تسرد أمامي من تقدموا لخطبتها قبلي ...

ابتسمت أمنية وهي تطالع والدها مسترسل في ذكرياته ثم قالت :
ـ من كان ذلك الشخص أبي ؟

ـ لا يهم ... تابع وقد تغيرت نبرته وتسلل الغضب بينها : المهم أنني عرفته و وضعته برأسي بل وجعلته غريمي ..

ـ ولماذا ؟

ـ هه , قلت لكِ مسبقًا لا تحاسبي رجلًا يغار على محبوبته .

ـ لكن للغيرة حدود ...قالتها أمنية وقد قطبت جبينها , فرفع جمال سبابته قائلاً :
ـ لكنني وصلت معها للعشق .

احمر وجه أمنية خجلاً من عاطفة والدها لوالدتها و وضعت كفيها على فمها , ضحك جمال من منظرها الطفولي ثم قال :
ـ أعشقها , بنيتي وكذلك زوجك يفعل معك لكن الفرق بيننا أنني قرأت وعرفت نقاط ضعفكنّ فأصبت والدتك لذا صارت طوع أمري , أما زوجك فلا.

زفرت أمنية بمرارة ولم ترد , فواصل جمال :
ـ نعود لحديثنا عن الماضي , عندما علمت بأمر قريبها الذي كان يريدها زوجة , اشتعلت الغيرة في قلبي كالنيران للدرجة التي جعلتني أتمنى موته .

ـ يا إلهي ! ... تابعت وهي مصدومة : لهذه الدرجة ؟ ..هزّ جمال رأسه قائلًا :
ـ الغيرة في الرجال أشد وطئًا منها في النساء , لا سيما حينما يتعلق الأمر بالهوى لذا طلبت من جدك حينها عقد القران وتعجيل الزواج وبالرغم من ضيق ذات يدي في ذلك الوقت إلا أن والدتك كانت تعلقت بي و وافقت على الفور .

ـ يالها من قصة !

ـ مالم تعلميه حبيبتي ... أنني بمجرد الزواج فرضت عليها عدم الذهاب لأي مناسبة تخص عائلتها إلا و أنا معها وبعيدًا عن صخب الحفلات وكذلك فرضت عليها عدم العمل وأقنعتها أنها ملكتي أنا فقط ...

ـ وأمي وافقت بهذه السهولة ؟ ... سألته وهي رافعة أحد حاجبيها باعتراض

أومأ جمال بنعم , فتابعت أمنية :
ـ ولكن ألا تظن ذلك التصرف كان أنانيًا ؟ أرجو المعذرة فأنا أصف التصرف ولا أقصدك ...
رفع جمال كتفيه قائلًا :
ـ وإن كان ... بالنهاية هي وافقت ..غضّنت أمنية جبينها ومطت شفتيها قائلة :
ـ لم يعجبني الأمر ... ضحك جمال على شكل أمنية وهي غير مقتنعة ثم قال :
ـ ألم أقل لكِ أنني أصبت نقاط ضعفها , وسكبت في قلبها عشقي .

تنهدت أمنية وهي تطالع والدها بإعجاب ثم قالت :
ـ أنت رجل سخي العاطفة يا أبي , حفظك الله وأدام حبكما أنت وأمي .

ـ ورغم كل ذلك مررنا بصعوبات كثيرة خلال رحلتنا لكنا كنا سرّ بعضنا , لا نخفي عن بعضنا شيئًا ولا نخرج من بيتنا سرًا .... قالها جمال وهو ينظر لسنوات خلت مرت كالنسمة في عمره .

أجفلت أمنية النظر لوالدها وهي تنظر لبيتها المحطم وقلبها الممزق على صفحات ماء النهر وتستعيد ما فعله آدم وتقارن بينه وبين والدها , شعرت بالحنين لكنها قاومت ذاك الشعور بتذكرها ضربه وقسوته, ومع ذلك كان قلبها يئن و يتصاعد منه الألم , وضعت يدها على صدرها علّها تخفف ذلك الألم .

نظر لها والدها بأسى ثم قال :
ـ أعطي نفسك فرصة ... التفتت له وقد ضيّقت عينيها لتفهم مايود قوله , فتابع :
ـ لتقيّمي الأمور من جديد ... أطلقت تنهيدة مؤلمة ثم قالت :
ـ لن يتغير شيء أبي .

ـ بلى ؛ سيتغير كل شيء , لكن علينا أن نبدأ بأنفسنا بنيتي ... استكمل وهو يمد كفه ليربت على كفها : من جانبي أنا , سأقوم بشد أذنه ولن أرد عليه لعدة أيام , ومن جانبكِ أنتِ : أن تقومي بإعادة النظر في علاقتكما لتغييرها للأفضل مع بحث كل ماتودين عمله من أجل الإصلاح ليُقيد كشروط .

كانت تنظر له بانكسار جعل قلبه يتمزق , فقال :
ـ إن فعلت ماطلبته منك ووجدتِ أن لا سبيل سوى الطلاق , حينها لن أناقشكِ في الأمر مجددًا .

ـ حقًا ... قالتها وقد اتسعت ابتسامتها , فقال :
ـ بالطبع , أميرتي ... فأنا سأدعمك في أي قرار تتخذينه ولكن بعد تفكير عميق لتقييم كل شيء من جديد كما ذكرت آنفًا .

شعرت براحة نفسية عجيبة بعد ذلك النقاش المميز مع أب غير اعتيادي , يتوغل بإرادتها لأعماقها فينظر بعينيها لما يضيرها قبل إطلاق الأحكام عليها جزافًا ومع ذلك كبرياءها أقسم ألا يغير من قرارها شيئًا .

.....

لا شيء أقسى من الضعف الذي يعقبه شفقة النفس والمحيطين إلا فقدان الأمل بالتحسن , فلا شيء حينها يمكن أن يعيد ما فُقد ...

رنين وما من مجيب ... تأفف فحاول مجددًا لكن هذه المرة لم يسمع سوى صوت يخبره أن الهاتف المطلوب مغلق ... زفر بحنق قائلًا :
ـ تبًا

فجأة رن هاتفها من داخل الحقيبة الكبيرة اتسعت عيناه على اتساعهما ولوهلة ظن أنها هي فانشرح صدره وتهللت أساريره المنهكة ... تحرك من مكانه متحاملًا على تعبه حتى وصل إليها ثم أمسك بالهاتف ليجد اسم صديقتها سحر , أطلق تنهيدة تحمل من الخيبة مازاد همّه ثم أغلق الهاتف وأعاده للحقيبة .

علا رنين هاتفه فركض نحوه ممنيًا نفسه برائحتها المحببة لقلبه لكن الخزي دلى له لسانه بسخرية عندما وجد اسم دينا , لم يرد لكنها ألحت باتصالها عدة مرات حتى رد ... وما إن سمعت صوته عانقته بكلماتها الحنونة مطمئنة عليه وأخبرته أنها للتو وصلت وتود الصعود للإفطار معه وبجوارها والدتها تسترق السمع وأذنها بجوار الهاتف لتطمئن عليه , ريقها جف فقد كانت يقطر منها الإعياء متململًا بأعراض لم تفهم كنها ... حاول التملص بالحجج الواهية لكن ؛ لا مفر فقد كانت ملتاعة مما وصلها من والدتها بالأمس .

طرقات على الباب أفصحت عمن تود الاطمئنان عليه , فتحه ليجد والدته معها صينية الإفطار وجوارها دينا مشطتا هيئته المتعبة بأعينهما فإنسال الدمع من جديد لحاله الذي يرثى له ثم تبادلا نظرات الريبة حول جرحه الملثم بقطعة قطنية ممزقة مخضبة بالدماء , فقالت زينب والدموع لازالت تصرخ بمآقيها :

ـ ماهذا الجرح بُني ؟ أشاح بوجهه بعيدًا عنهما وهو يتذمر قائلًا :
ـ لذا لم أود رؤية أحد .

اقتربت دينا منه ثم أحاطته بذراعيها وهي تبكي حاله قائلة :
ـ سلامة الله عليك أخي ... ضمها آدم إليه وكأنه بذلك العناق يخفف من مصابه .

صفت زينب طعام الإفطار على المنضدة ثم عادت لولدها تتفحص يده ملتاعة , سألته :
ـ ماذا حدث ليدك ؟ .. رد آدم باقتضاب :
ـ لا شيء ؛ مجرد جرح بسيط .

ربتت زينب على كتفه وهي تطالعه بحنو ثم قالت :
ـ متى أُصبت به ؟ ولما لم تنادي علي لأضمده لك؟... حينها فقط أيقنت أن الضجيج الذي سمعته من شقته لم يكن وهمًا ... لكن إلى الآن لا تعلم كنهه وكيف حدث؟

ـ منذ قليل ... تابع وقد اتجه لأقرب كرسي : الموضوع بسيط , لا تقلقي أمي.

اقتربت منه دينا ثم جثت على ركبتيها في مواجهته وهو جالس , غضّنت جبينها قائلة :
ـ هلّا أريتني إياها لأضمدها لك .

تجمدت ملامحه ولم يرد , فألحت عليه مجددًا وهي ترجوه فهزّ رأسه موافقًا ثم مدّ كفه فاحتضنته بين كفيها برفق ثم أزالت لثامه الملطخ بلطف وما إن فتحت على الجرح الذي بدا فمه واسع على ظهر الكف ليظهر الجزء اللحمي بوضوح حتى شهقت زينب وضربت صدرها قائلة :
ـ ياويحي! ...أشارت لها دينا لتهدأ قائلة :
ـ من فضلك أمي ... التفتت لآدم قائلة والقلق بادي على محياها : جرحك عميق يا آدم ويحتاج إلى خياطة ... أشار بيده الأخرى قائلًا :
ـ لا ؛ لا يحتاج لشيء ... تنهدت دينا قائلة :
ـ حسنًا , سأخرج لأقرب صيدلية لإحضار الأدوات الإسعافية اللازمة وكذلك الأدوية ... نظر للأرض بحرج قائلًا :
ـ لا تتعبي نفسك أختي , أنا سأخرج الآن لل.... لم تمهله إنهاء جملته , فقد قامت من مكانها بسرعة وكأنها تخطو مع الريح لتحضر ما تحتاجه .

.....

مهما ألحت حاجتنا للإستقرار , لن ننكر تحرك القلب بخفقات تنادي باسم الحب لتقول أن الشخص الذي سلب الخاطر ماهو إلا شريك يهتف باسمه النصيب ليؤكد معنى الهوى ...

طرق على الباب ثم دخل , ليجد رجب يتوسط مكتبه بهيئته الضخمة وهو مستند بذراعيه على سطح مكتبه لكن هيئته كانت مرهقة للغاية , وكأنه لم ينم منذ ليالٍ , وجهه شاحب كمن لم يذق طعم الطعام منذ أيام ... شكله أصاب أيمن بالتوتر , اتجه نحو وسلّم عليه بحفاوة , ثم سأله :

ـ هل أنت بخير ... هزّ رجب رأسه نافيًا ثم قال :

ـ لا ؛ لست بخير .

شعر أيمن بخيبة كبيرة أحتلت قلبه ومزقته فحدث عقله : ظننت النحس سيتركني أهنأ ولو ليوم واحد , ماهذا ياربي؟.. نظر لرجب نظرات أسف على ماحلّ به ولا يعلمه وما حلّ بقلبه الذي تحطم أمله فقال :

ـ أنا آسف لأجلك .. همّ بالنهوض قائلًا : سآتي في وقت لاحق للتحدث معك .

لوح رجب بكفيه قائلًا :

ـ على رسلك يارجل ... أنا متعب لكنني سأسمعك وإلا لما أتيت برأيك طالما سأعتذرعن مقابلتكم ؟ .. تابع وهو يمسح جبينه : لماذا لم تأخذ موعد ؟

تنحنح أيمن في حرج قائلًا :

ـ فرحتي بالموضوع الذي أتيت لأجله أنستني , أعتذر منك .

ـ فرحتك ؟!... تابع رجب : ألم تأتِ لقضايا الشركة ؟...أومأ أيمن بلا ,فقال رجب : ـ إذن انتظر حتى تأتي القهوة لأركز معك ... هاتف السكرتيرة وطلب منها فنجاني قهوة .

بعد احتساء القهوة , نظر رجب لعيني أيمن بجدية وقد تحسنت حالته المزاجية بعض الشيء على إثر كافيين القهوة الذي سرى بدماءه للتو , قال :

ـ ها أنا أسمعك .

ـ بصراحة أنا جئت لأمر شخصي , ليس له علاقة بالقضايا وأرجو ألا تردني خائبًا.

كانت الدهشة تعلو محياه مما سمعه لكنه قرر مجاراته ليفهم فقال :

ـ طالما الأمر بيدي لن أردك خائبًا , بُني!

شعر أيمن بالارتياح بعد كلمة بُني , مما جعله يستأنف موضوعه بأريحية قائلاً : ـ لقد تعرفت عليّ منذ فترة وجيزة وكذلك خالي ، لكن أرجو أن تكون أيقنت بأني ابن كرام , توفى أبي منذ صغري فقمت على رعاية أسرتي المكونة من أمي وأخي الذي اقترب من التخرج من كلية الطب , أنا اعتبر نفسي من الطبقة المتوسطة , راتبي جيد جدًا الحمد لله والأمر لن يتوقف عليه , فأنا سأقوم بعمل مشروع خاص بي عن قريب حالما انتهي من جمع مبلغه ... قبل أن يكمل قاطعه رجب :

ـ وما شأني في كل ما ذكرت , أستاذ أيمن .

تنحنح أيمن والخجل قد أنار وجهه ثم قال :

ـ أود طلب يد الآنسة رنا .

ـ رنا ! ... قالها رجب وقد رفع حاجبيه في عدم تصديق , وكأنه نسي للحظة صلة رنا به ... بادره أيمن وقد ارتجفت روحه من رد فعله :

ـ أوليست ابنتك ؟

ضحك رجب من سخافته ورد فعله العجيب ثم قال :

ـ أرجو المعذرة من رد فعلي ,رنا ابنتي الصغرى لذا تعجبت أن تُخطب قبل شمس.

ـ لقد وعدتني ألا تردني خائبًا ..قالها أيمن وعيناه معلقتان علر رجب في رجاء .

أشفق رجب على ذلك العاشق الذي لا يعلم متى تعلق بابنته هكذا لكنه أجفل على ذلك الشيب الذي لون بعض الشعرات على جانبي رأسه فأدرك حاجته للاستقرار لذا ما إن رأى رنا لم يضيع فرصته لطلبها وكأنه لم يرى بنات قبل ذلك , تعجب من حاله و ود لو سأل عن سبب تأخر زواجه لا سيما أن حالته لا بأس بها ولايعاني الفقر , فقال :

ـ لماذا رنا بالتحديد ؟ هل رأيتها قبل المقابلة الماضية ؟

ـ لا ؛ مطلقًا ... تابع و العرق يتفصد من جبينه رغم برودة التكييف , لكنه شعر بالحرارة تخرج من جوفه على إثر ذكرها :

ـ حياؤها وحسن تربيتها عندما كنا بالمصعد شجعني للإرتباط بها .

هزّ رجب رأسه لموافقته وهو يشعر بالفخر للتحدث عن ابنته هكذا , فسأله :

ـ لماذا لم تتزوج طوال هذه السنوات ؟ اعذرنّي في السؤال لكنني أظنك أكبر منها بكثير .

امتقع وجه أيمن على ذكر فارق العمر , لكنه حاول تجاوز الأمر , فقال :
ـ كل شيء قسمة ونصيب .

ـ معك حق ... تابع رجب وهو يتفحص لغة جسده وقسماته : هل كانت هناك من تتمنى الزواج منها ؟ ... أومأ أيمن بنعم , فقال رجب :
ـ وماذا حدث ؟ ... ابتسم أيمن بمرارة على ذكر ذلك قائلًا :
ـ تزوجت رجلًا غيري وأنجبت وأنا لازلت على حالي حتى رأيت الآنسة رنا فطمحت للاستقرار .

ـ لكن ... قبل أن يكمل رجب قاطعه أيمن :
ـ سترجع في وعدك لي ؟... أومأ رجب بلا ثم قال :
ـ لابد أن نأخذ رأي صاحبة الشأن ووالدتها ... المشكلة أن الظروف حاليًا عصيبة بسبب مرض شمس .

ـ أنا آسف لأجلها ... تابع مطرقًا رأسه في أسف : أسأل الله لها العافية .

ـ شكرًا لك ... رد رجب وعلى محياه نظرات امتنان لذلك الوجه المريح الذي فرج عنه هموم الليل بابتسامته العذبة وقسماته الطيبة الأصيلة .

شعر أيمن بالأسى بسبب تلك الظروف الكريهة التي حالت بينه وبينها , فقال :
ـ والدتي كانت تطمح بأخذ موعد من والدة رنا وطلبت منّي أخذ رقم هاتفها للتحدث معها لكن يبدو أن الوقت غير مناسب ... ابتسم له رجب قائلًا :
ـ سأعطيك رقم أم شمس لكن لا تجعل والدتك تتصل بها قبل أن أكلم رنا أولًا لأعلم منها هل هي موافقة على مقابلتك أم ماذا ؟ سأهاتف رنا ثم أخبرك .

تهلل وجه أيمن وأشرق بابتسامته الرائقة وزاد بريق عينيه ثم قال :
ـ سأنتظر ردك سيدي .

شعر رجب بالحزن لأنه متعلق بشيء أقرب للوهم في تلك الظروف , فقال بنبرة حانية :
ـ تذكر أنني لم أعدك بأي موافقة لأن الأمر من الأساس بيد رنا وليس بيدي .

هزّ أيمن رأسه قائلًا :
ـ حسنًا حسنًا ... قام واقفًا ومد يده ليصافحه قبل أن يمشي بخطواته الرزينة مغادرًا ، المكان والأحلام الوردية ترفرف حوله رغم أنه لم يأخذ وعدًا بالموافقة بعد .

.....

تلهينا الحياة بمصاعبها عن أقرب الأشخاص لقلوبنا لكن هذا لا ينفي التقاء الأرواح بعيدًا عن الأجساد لمعرفة مايحدث وعلى إثر ذلك يعود الوصل ...

عادت من الخارج مبتهجة بتلك النزهة الجميلة التي أفضت للتخلص من هموم كانت مطبقة على قلبها, أعادها والدها للبيت وغادر لعمله , دخلت البيت ألقت السلام مبتسمة فبادلتها رغدة ابتسامة صافية ظنًا منها أن جمال تمكن من إقناعها بالعدول عن قرارها .

مسحت أمنية بعينيها المكان فلم تجد ريم , التفتت لوالدتها تسألها :
ـ أين ريم ؟

ـ خرجت مع خالها لشراء الحلوى ... تابعت رغدة وهي تشير على هاتف البيت : لقد اتصلت سحر على هاتف البيت للإطمئنان عليك .

رفعت أمنية حاجبيها قائلة :
ـ أووه , لنا فترة لم نتحدث ولا تعلم ماحدث معي .
أشارت رغدة بسبابتها وقالت بجدية :
ـ لا تخبريها بشيء .. قطبت أمنية جبينها قائلة :
ـ ولماذا ؟ ... عقدت رغدة ذراعيها أمام صدرها قائلة :
ـ حتى لا تعبث برأسك كما يحاول معك مازن .

ـ لكنني لست صغيرة ليعبث أحد برأسي ... قالتها أمنية وهي تطالعها بأسى .

ـ لستِ صغيرة لكنك .... تابعت رغدة وقد رفعت أحد حاجبيها : تتأثرين بمن حولك بسهولة ... زفرت أمنية بضيق قائلة :
ـ ليتني أتأثر بسحر فيصيبني بعضًا من السلام النفسي الذي تحياه .

رفعت رغدة صوتها قائلة :
ـ وأنا قلت لكِ لا تتكلمي .

شعرت أمنية بالاختناق فلم ترد , اكتفت بمطالعتها بنظرات الرهبة والاستياء من تحكماتها بها رغم أنها الآن أم لطفلة ... قالت :
ـ بعد إذنك أمي ، سأذهب إلى غرفتي .

أغلقت بابها عليها وشعور الخنقة لايزال ملازمًا لها , خلعت حجابها و ألقته على المزينة بغيظ وهي تتمتم :
ـ إلى متى سأظل أعامل هكذا ؟ متى ستفهمني ؟ لقد تعبت ،تعبت .

عادت إلى فراشها ثم أمسكت الهاتف بيدها وهي ترتجف من التوتر والغيظ ثم هاتفت سحر وانتظرت الرد لكن لم تجبها , ظلت تهاتفها وما من مجيب , تذكرت أن سحر لاترد على الأرقام الغريبة فأرسلت رسالة تخبرها عن تغييرها لرقمها .

ـ لقد أقلقتني عليك أمنية ... قالتها سحر والقلق بين حروفها .

ـ أنا آسفة حبيبتي ... لكنني الآن عند أبي ونسيت هاتفي هناك ... قالتها أمنية بصوتٍ خفيض حتى لا تسمعها أمها .

ـ هل أنتِ بخير ؟ ... سألتها سحر بتوجس وهي تشعر بأن رفيقتها أخفت عنها أمرًا عظيم .

ـ طمئنيني أولًا عن والدتك , كيف هي الآن ؟ .. حاولت أمنية تغيير الموضوع .

ـ بخير الحمد لله , وسيتحسن وضعها مع انتهاء الجرعات ... تابعت سحر بنبرة ودودة : ما الذي يحدث معكِ أمنيتي ؟ ... صمتت أمنية هنيهة ثم قالت :
ـ الأمر يطول شرحه .

ـ كلي آذانٌ مصغية يا جميلتي .

صمتت أمنية وشعرت بأن الكلام ثقيل على قلبها و لسانها لم يسعفها للنطق , فحفذتها سحر قائلة :
ـ لن يجدي حديث الهاتف , أنا قادمة إليكِ ... تذكرت أمنية فرمان والدتها منذ قليل , فقالت : سأخبرك بكل شيء .

ثرثرت أمنية بنفس الحكاية التي حكتها لأهلها أمس ومع كل تفصيلة تسردها تسمع شهقات سحر ونواحها وكأنها تشاهد فيلمًا وثائقيًا لضحايا للحرب العالمية الأولى ... فجأة علا نحيب سحر , فهتفت بها أمنية :
ـ ليتني لم أحكِ لكِ شيئًا .

ـ كيف يجرؤ على ضربك ؟ ...تابعت سحر بحمائية : كيف سولت له نفسه ؟ كيف؟

ـ اهدأي سحر .

ـ ألا يعلم من أنتِ ؟ وابنة من ؟ ... تابعت سحر وسط نشيجها : لقد آلمك كثيرًا , حسبيّ الله فيه وفي أمثاله .

ـ على رسلك , حبيبتي ... لقد انتهى الموضوع وسيتم الطلاق .

توقفت سحر عن البكاء قائلة :
ـ ماذا ؟

ـ سأطلب منه الطلاق ... وإن رفض سأرفع دعوى قضائية ضده .

ـ ياإلهي ! ... تابعت سحر وهي تصيح : سآتِ إليكِ خلال دقائق .

وقبل أن تنطق أمنية أغلقت سحر الخط مهرولة نحو غرفتها لتغير ملابسها وهي تكفكف دموعها , كانت أمها تراقبها في حيرة , سألتها :
ـ ماذا حدث يا سحر ؟

ـ مصيبة يا أمي .. قالتها ودخلت غرفتها فلحقت بها والدتها تعاود سؤالها بقلق :
ـ الشر بعيد يا ابنتي , عن أي مصيبة تتحدثين ؟

ـ أمنية في مأزق كبير وتحتاج وجودي بجانبها .

طأطأت والدتها رأسها في أسف قائلة :
ـ لاحول ولا قوة إلا بالله ، فرج الله كربها .

ـ أمي... استكملت سحر وهي ترتدي ملابسها : أعتذر منك إن كنت سأثقل عليكِ بإطعام محمد حالما يصحو .

ـ لاعليك يا ابنتي ، اذهبي واطمئني على صديقتك ، تابعت وهي ترفع كفيها عاليًا : أسأل الله لها العافية .

ـ يارب ، كثفي لها الدعاء يا أمي .

انتهت من ملابسها , التقطت حقيبتها وغادرت دون حتى النظر في المرآة فلم تضع أي من مساحيقها فقد أنساها الغم على توأمتها ذلك التبرج المحبب لها و كأن الألم أقسم على حصارها هذه الأيام , فلم تكد تتخلص من وخز عقلها بذكرى قاسية تدّعي دومًا نسيانها حتى علمت مصاب حبيبتها ، تمتمت : رحماك ربي! ...

.....

الفصل الثالث والعشرون

(بين طيات الذكريات)

.....

عودي بالذكرى يا أختي

علّي أرتاح على صوتك

ضمي قلبي بكلماتك

لكن ابتعدي عن الألمِ

يكفيني عذاب بالماضي

لازال يلوح في الحاضر

فيفتت روحي بلا رحمة

لازلت أعيش وأتنفس

جسدًا خاوي كما الموتى

هل يمكن حقًا أتجاوز ..

أزماتٍ هزّت أرجائي ؟

أم أعفو عن ماضٍ فانٍ ؟

لوّث بقسوته كياني ؟

.....

من كان طبعه الكتمان لن يبوح ولو مُزقت نفسه تمزيقًا , صعب المراس فلا يريح محبيه بالبوح ولا يريح نفسه بتخليصها من كل ذاك الهم , لذا فهو يؤذي نفسه قبل غيره ...

انتهت دينا من تضميد جرح أخيها ثم نظرت لوالدتها قائلة :
ـ نور تحتاجك أمي .

هزّت أمها رأسها لموافقتها ثم أشارت على الطعام وهي تنظر لوجه ابنها الشاحب قائلة :
ـ لم يأكل شيء يا دينا .

ـ سنأكل سويًا لا تقلقي ... ما إن قالتها دينا حتى هدأت نفس زينب فغادرت مطمئنة.

اقتربت دينا من أخيها ربتت على ذراعه بحنو ثم قالت :
ـ ألن تأكل شيء ؟

هزّ رأسه نافياً , فقبّلت رأسه قائلة :
ـ على راحتك أخي .. استقامت واقفة ثم تابعت : ألا تريد بعض القهوة؟

صمت ولم يرد ... فقالت :
ـ سأصنع لي ولك , فأنا أحتاج لقهوة ... ما رأيك ؟

أومأ بنعم , فاتجهت إلى المطبخ لتعد القهوة , مرت على الحمام في طريقها لتجد أثار الزجاج والدم , هالها المنظر ظلت تحدق بالمرآة المحطمة والدماء التي خضبت الأرجاء , كان قلبها يتمزق وهي تخمن ماحدث لكنها لم تفلح .. قامت بتنظيفه ثم سارت للمطبخ لإعداد القهوة ...

أتت دينا ومعها القهوة ,ناولته فنجانه ثم جلست بجواره لتستأنف احتساء قهوتها ... فجأة ابتسمت وكأنها تذكر شيء ثم قالت :
ـ تذكر يا آدم عندما كنت بالصف الثاني الابتدائي و أنا بالصف الرابع .

هزّ رأسه ولم يعلق , فتابعت : عندما قام أحد أولاد صفي بمعاكستي , وركضت إليك لأخبرك .. تذكر ماذا فعلت معه ؟

لم يرد لأن الأمر لم يسترعي انتباهه بل ظنه سخافة من أخته أن تقص ذكرياتهما الآن ,
ضحكت قائلة :
ـ حينها انتظرت حتى انتهاء اليوم الدراسي ثم انتظرت الولد خارج المدرسة و أوسعته ضربًا بصحبة صديقك حازم حتى تنالا منه لأنه كان يفوقكما في العمر .

مسحت على كتفه بحنو قائلة :
ـ منذ تلك اللحظة وأنا أعدك بطلي و فارسي الهمام ... التفت لها آدم وقد ارتسمت على شفتيه

نصف ابتسامة راضية بتلك الذكرى المشفقة على حاله , فأضافت دينا : ـ وسند أيضًا يا آدم , أنام قريرة العين لأن أنفاسك في الدنيا حفظك الله ورعاك .

ـ لا تبالغي دينا ... قالها وارتشف من قهوته ... هزّت رأسها نافية ثم قالت :
ـ أنا لا أبالغ يا أخي , صدقني ... استكملت ولازالت تمسد كتفه : ستظل دومًا بعيني أقوى وأفضل أخ بالعالم كله .

مالت ابتسامة متململة على جانب فمه وهو يطالعها بطرفي عينيه , قال :
ـ كفى دينا ...لا أحب الشفقة .

ـ أنا لا أشفق أخي ... أضافت وهي تبتسم : أنا أريد فقط أن أمسد على قلبك بذكريات تخبرك كم أنت قوي مهما قابلت من المحن .

حاد آدم برأسه للجهة الأخرى ثم تمتم :
ـ كنت ... أشارت بسبابتها لا ثم قالت : ولا زلت ... تابعت وقد ترقرت العبرات في مقلتيها : لقد كانت طفولتنا قاسية بعض الشيء , لكن تمكنا من عبور مرحلتها وها نحن ذا كبرنا وتزوجنا و... قاطعها قائلاً :
ـ وطُلقت أختك وأنا دُمر بيتي ، لقد انتهى كل شيء ... حاوطته بذراعها قائلة :
ـ لا تيأس أخي ، اجعل ظنك بربك جميلًا .... صمت على مضض فتابعت وهي تشير على يده : أخبرني عن سبب جرح يدك ... تأفف قائلًا :
ـ اعفيني من ذلك .

ـ إذن أخبرني عما حدث بالأمس .

ـ ألم تخبرك أمي في الهاتف ؟ ... وافقته بهز رأسها ثم قالت وهي تشير عليه :
ـ ولكني أريد سماعها منك .

شد قسماته بعصبية وقد اتسعت عيناه بالغيظ لينهر أخته بسبب إلحاحها دون أن يتكلم , رفعت دينا كفيها قائلة :
ـ حسنًا , اهدأ أخي .. هل تسمح لي بالذهاب لأمنية ؟

تجمدت ملامحه وعيناه معلقة على أخته لدى سماع الاسم , رفرف قلبه بين طيات الحروف التي أذى صاحبتها وتدفق الدم بغزارة في عروقه ليمد جسده بالحيوية فيتحامل على إنهاكه

وصدره يعلو ويهبط , ظلّ شاردًا بعبوس ولم ينبس ببنت شفة , فأعادت عليه دينا طلبها عليه وهي ترجوه بعينيها أن يوافق .

ـ ليس الآن ... قالها وقام من مكانه متجهًا نحو الشرفة .

ركضت دينا خلفه وما إن لحقت به سألته :
ـ لماذا ؟

ـ عليّ أن أكلم والدها أولًا ... أضاف وهو موليها ظهره : والآن اتركيني وحدي من فضلك .

لم تكف عن محاولاتها للوصول لأمنية , فقالت وقد كان آخر اختيار لها :
ـ إذن سأهاتفها الآن .

ـ هه ... ضحك ساخرًا من محاولاتها المخفقة لإنقاذ الموضوع ثم استدار وأشار على الحقيبة الكبيرة التي لازالت مجاورة لباب الشقة :
ـ ستجدينه هناك , ولن أرد حينها عليكِ .

زفرت بضيق وقد شعرت بأن الخزي حاصرها ونشب براثنه حولها فلم تقوى على الحراك لأي جهة تمكنها من مد يد العون لأخيها .... لم تجد حينها بد من تركه وحده كما طلب منها مجددًا .

.....

ما التقاء الأصدقاء إلا لتوطيد صدق المحبة بكل معانيها , مشاركة السعادة , مشاركة الحزن والتوغل لأعماق القلب لنفض آثاره وهل هناك أفضل من ذلك ؟

كانت ممسكة بعنقها , متشبثة بها وكأنها لم ترها منذ أعوام وسط ذهول رغدة التي بالكاد حاولت إخفاء امتعاضها من حماقة ابنتها ومخالفة أمرها بعدم إخبار أحد , تركت الغرفة مستاءة وهي حاملة ريم معها نحو الحديقة لتأكل حلواها وتلعب .

ـ سامحي تقصيري معك ... سامحيني .. قالتها سحر وسط نهناتها وهي متشبثة برفيقتها .

أخذت أمنية تربت على ظهرها وتود أن تضحك من الموقف العجيب الذي يجعلها هي من تربت رغم أنها أكثر من يحتاج ذلك بعد ماحدث لها ، قالت :
ـ لا عليكِ حبيبتي ، اهدأي ...

تركت سحر العناق وأمسكت وجه أمنية بكفيها تتحسسه بهلع :
ـ وجهك منهك وعينيكِ مجهدتين , يا إلهي!

طالعتها أمنية بامتنان على ذلك الحب والخوف البادي عليها ,ابتسمت بعبوس قائلة : ـ أنا أفضل حالًا من الأمس , لا تقلقي علي... جذبتها لتجلس على السرير ثم قالت : ـ سأعد لكِ عصيرًا طازجًا .

ـ لا ؛ ليس قبل أن نتحدث ... قالتها سحر وشدت ذراعها لتجلس قربها .

ـ بشرط واحد .. قالتها أمنية وهي ترفع سبابتها , فأومأت سحر برأسها لتوافقها على أي شرط .

ـ أن تتفهمي رغبتي ولا تصري على رأيك كما تفعل أمي معي .

ـ لكِ ذلك .. قالتها سحر وهي تشير بيدها لتحفذها على استئناف الحوار .

ران عليهما بعض الصمت , قطعته سحر قائلة :
ـ كيف الحال هنا ؟ ... تنهدت أمنية وهي ترمش بجفنيها في ألم قائلة :
ـ بخير طالما ابتعدت .

ـ تظنين ذلك ... تابعت سحر وهي تنظر لعينيها : لم يمر عليكِ هنا سوى يوم .

جعدت أمنية جبينها , فواصلت سحر : مع مرور الأيام ستشعرين بالغربة صدقيني .

بادرتها أمنية وهي تطرق على ساقها :
ـ وهل تشعرين بذلك الآن ؟ ... أومأت سحر بنعم ثم استأنفت :
ـ أي مكان أبعد فيه عن زوجي يحاصرني بالغربة يا أمنية حتى وإن كان بيت أمي.

ـ يا لعاطفتك الجياشة ... تابعت أمنية وهي تغمز لها : هنيئًا لحسن بكِ .

احمرت وجنتا سحر وابتسمت بمرارة وهي تستعيد ذكرى مؤلمة تخص علاقتها بزوجها قائلة :
ـ وأنتِ كذلك يا توأمتي لكنكِ مازلت مشوشة بسبب صدمتك كما أنكِ لم تمضي هنا كثيرًا من الوقت لتشعري بالفرق .

عقدت أمنية مابين حاجبيها وهزّت رأسها نافية ثم قالت :
ـ لا أظن ذلك , لم أرى الراحة قبل الآن منذ ثلاث سنوات ،ولن أعدل عن قراري .

ـ لكنكِ ... تنحنحت سحر مضيفة : شاركتِ آدم في الخطأ .. رددت ماقاله لها أبيها وكأنه أوكل إليها ذلك للضغط عليها من أجل العدول عن قرارها .

ـ شششش ...قالتها أمنية وقد وضعت كفيها على رأسها لتسكت سحر, فطالعتها سحر باستغراب قائلة :
ـ هل قال لكِ أحد هذا الكلام من قبل ؟!

ـ أبي ... قالتها أمنية وهي تهز رأسها بنعم .

ـ ولما لاتأخذي كلامنا على محمل الجد ؟

ـ لأنّني أنا من عانيت وليس أنتما .. لقد تجرعت الألم على دفعات منذ زواجي ... تابعت وقد لمعت عيناها بقطرات عنيدة : وحملي بريم جعلني أصمت فظنني آدم وكذا أهله ضعيفة ، وواصلوا استنزافي وحينما أتتني الفرصة للخلاص لم أجد أحد يقف إلى جواري غير أخي , حتى أنتِ سحر!

ربتت سحر على كتفها بحنو قائلة :
ـ أنا امرأة مثلك و أشعر بكِ لذا لا أريد لكِ حمل لقب مطلقة , ولا تنسي أننا بمجتمع شرقي يتلصص رجاله لمن تحمل ذاك اللقب .

ـ لقد تغير الوضع حاليًا مع زيادة نسبة المطلقات .

ـ فكري بريم ... قالتها سحر في محاولة أخيرة من أجل الضغط عليها .

أشاحت أمنية بوجهها حتى لا تلتقي بعيني رفيقتها وقالت :
ـ مسؤلية ريم ستكون أخف وأنا مطلقة منها في حالة وجود مزيد من الأطفال .

.....

هناك مشكلات يمكننا مناقشتها مع شطرنا الآخر لإيجاد الحلول المناسبة , وهناك أخرى لابد من مواراتها بعيدًا عن الأعين والأنفاس لأنها ستؤذي أقرب الناس ...

حبست نور نفسها في الغرفة ورفضت التحدث مع دينا , لم تواصل دينا الضغط عليها آثرت الانسحاب لتنعم أختها بالهدوء الذي لابد أن تحياه بعد مصابها , بينما ظلّت زينب جالسة على الأريكة مسندة صدغها على كفها في جزع , وقد غارت عينيها في وجهها من الحزن تفكر في كل تلك المصائب التي وقعت على رأسها بدون مقدمات .. تئن روحها على حال ابنتها التي

انعزلت بغرفتها ومنظر ولدها الجريح المنهك ... اقتربت منها دينا , جلست بجوارها و مسدت كتفها فالتفتت لها زينب والبؤس يعلو محياها ...

ـ هوني عليك أمي ... لم ترد زينب , فتابعت دينا وهي ترفع كفيها للأعلى :
ـ ليس لنا إلاه , نطرق بابه فيصب علينا رحمته صبّا .

أومأت زينب برأسها توافقها ولسان حال قلبها يتمتم بالدعاء ... استأذنتها دينا للخروج للحديقة لتقوم بمهاتفة زوجها ... وهناك بادرها بالسلام بصوته الحاني الممتزج بلمحة غضب بسبب سفرها بدون سابق إنذار .. سألها :
ـ كيف حال من عندكِ ؟ ومالذي حدث لتسافري وحدك بهذا الشكل ؟

زفرت دينا بمرارة قائلة :
ـ نور طلقها زوجها يا كامل ، الأمر لم يحتمل انتظارك أبدًا .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ... تابع كامل بأسف : ما سبب الطلاق ؟ ياله من متهور؟

صمتت دينا ولم ترد , فتابع كامل : وماذنب الولدين وأختك في تصرفه الأهوج ؟

ـ إنها مصيبة وحلّت على رأس أمي المسكينة .

ـ هل آتِ إليكم الليلة للذهاب مع آدم إلى محمود لمحاولة الإصلاح ؟

ـ لالالالا ... هتفت بها دينا كالمحمومة لم تود إخباره أي شيء عن السبب الحقيقي للمشكلة وكيف تورطت فيها زوجة أخيها المسكينة ...

ـ لماذا ؟ ألا تودون الصلح ؟

ـ لا ... استكملت بمرارة : لأنه مخطىء ... سيتزوج عليها الشهر القادم .

ـ ماذا ؟

ـ إنها الحقيقة يا كامل ، محمود رجل نذل .

ـ لقد فقد عقله .... يهدم بيته ويضيع ولديه لأجل أخرى ؟

حاولت تغيير دفة الحديث قائلة :
ـ أردت أن استأذنك في المكوث هنا لعدة أيام .

ـ طبعًا حبيبتي , هذا واجب عليكي .

ـ وجنى ؟ ... سألته بحرج .

ـ سنتدبر أمرنا أنا وهي , لا تقلقي بشأننا .

ـ شكرًا لك كامل .. تابعت بامتنان : لا حرمني الله منك .

ـ ولا منكِ ياحبيبتي .

انتهت المكالمة وقد انشرح صدرها بعدما اطمئنت أنه ليس غاضب منها بسبب سفرها المبهم , حمدت الله أنه تفهم صعوبة الوضع رغم أنها لم تقص عليه منه إلا النذر اليسير , عادت لهاتفها مجددًا لتهاتف إحدى زميلاتها بالعمل لتأخذ إجازة ممتدة لأيام .

.....

لكل علاقة جانب مظلم لا يعرفه سوى طرفاها , فمهما بدت مثالية لن تصل إلى الكمال , يكفي أن يحظى صاحباها بالسعادة حتى ولو نُسجت بين ذكرى مفجعة ...

قامت أمنية من مكانها متجهة إلى المطبخ من أجل إعداد عصير طازج لتخفف من وطأة الجدل الذي احتدم بينهما , وعندما عادت بالكأسين , وجدت سحر جالسة على السرير محتضنة ساقيها والألم يقطر من محياها , فغضنت أمنية جبينها قائلة : ـ هوني عليكِ رفيقتي .. أظنكِ تأثرتي أكثر مني ..تتابعت ضحكاتها لكن سحر لازالت على وضعها ... قربت منها كأس العصير وهي تمازحها :
ـ انتبهي حتى لا تبقعي الفراش وتحاسبكِ أمي حساب عصير .

انزوت بسمة على جانب شفتي سحر , أخذت كأسها ولم تعقب , فقطبت أمنية حاجبيها قائلة :
ـ ماهذا ؟ ألا يفترض أنكِ أتيتِ للتخفيف عنّي ؟ تنهدت سحر قائلة :
ـ لكل منا جانب مظلم في حياته يا أمنية .

ـ لم أفهمك ... قالتها أمنية وقد ضيّقت عينيها في عدم فهم ثم احتست من العصير ،

زفرت سحر بضيق ولم ترد لأنها كانت مشغولة بحوار عقلها :
ـ لقد أثرتِ بذلك الحوار ذكرى مؤلمة تخصني .

قطبت أمنية جبينها وهي تطالع صديقتها مستفهمة عما يجري معها , قالت :
ـ أنا آسفة إن كنت ذكرتك بشيء يزعجك حبيبتي .

ـ لاعليكِ .. قالتها سحر بشفتيها المرتجفتين ثم تناولت من عصيرها علّها تهدأ

ـ هل .. هل يمكنني أن أعرف ما حدث معك؟ ... تابعت أمنية وهي تمط شفتيها : ولماذا أخفيتِ عنّي؟ ... تنهدت سحر و قالت راجية :
ـ أرجو أن تعفيني من الكلام يا أمنية .

واصلت شرب عصيرها وكذا أمنية فعلت ثم أخذت الكأسين إلى المطبخ وعادت لرفيقتها التي كانت على حالها لكن مغمضة جفنيها وكأنها تسترجع شيء ما .

صعدت أمنية وجلست القرفصاء بجوار رفيقتها ثم حاوطتها بذراعها , وجدتها ترتجف , فسألتها بفزع :
ـ هل أنتِ بخير ؟

أومأت سحر بنعم وهي ترتجف , فهتفت أمنية وهي ملتاعة :
ـ لكنكِ ترتجفين ... ثم تحسست جبينها الذي أكد أنها ليست مريضة , عانقتها حتى هدأت .

ـ أنا بخير ... لا تقلقي عليّ .

ـ ألهذه الدرجة مؤلمة تلك الذكرى ؟ ..سألتها أمنية وهي تتفحص قسماتها التي تبدلت من القوة للضعف في لحظة ... هزّت سحر رأسها ثم قالت :
ـ آلمتني كثيرًا .. ربتت أمنية على كتفها قائلة :
ـ ولماذا لم تشاركيني ألمك ؟ لماذا ؟ لقد أغضبتني منك .

لم ترد سحر فقد كانت مشغولة الفكر , لقد عاهدته على حفظ سرّه لتأتي صديقتها وتطلب منها خيانة عهدها بهذا الشكل ... أتخبرها أنه وقع بالخطيئة مع أخرى ؟ كيف تهز صورته في عيني صديقتها ؟ كيف تعريه أمام الناس وهو استأمنها على ذنبه ؟ كيف ؟ كيف ؟... ظلّ يرددها عقلها ليجعلها تصمد ولا تقع بخطيئة من نوع آخر إن باحت لأمنية .

عادت بذاكرتها للعام الماضي عندما كانت ترضع صغيرها بهيئتها المنهكة كحال أي أم حديثة عهد بذاك الوضع ... دخل عليها بوجهه الوسيم الذي تسلل الحزن والهم بين قسماته على غير العادة وكأن هناك أمر جلل ... طالت اللحظات المقفرة بينهما وعيناها تسأله ولازال محتفظًا بصمته المضني حتى نطق أخيرًا مطأطئًا رأسه بندم : أنا آسف... أرجو أن تسامحيني ... لقد نهشني ذنبي اتجاهك ولا أعلم كيف أكفر عنه ؟

ـ ذنب؟! ... قالتها بتوتر فسقطت من يدها رضعة ولدها على الأرض ولم يبكِ الصغير لأنه كان بالفعل استسلم للنوم .

جثى على ركبتيه أمامها ثم التقطها وثبتها على المنضدة , التفت لها يرمش بعينيه في توسل ولازال جاثيًا على ركبتيه ...
ـ ابتسمت له بود ثم قالت : هون عليك يا حسن .

أطلق تنهيدة تحمل من الألم مالا يطاق ثم استقام و أخذ منها محمد ليعيده إلى سريره , وعاد إليها ثم جلس أمامها وقد حاوط وجهه بكفيه في هم .

ضيّقت عينيها تطالعه متعجبة من شكله , لقد لاحظت تغيره معها بسبب إهمالها له وقد طال الوضع وهي على حالها لكن لم تتوقع أن هناك ماهو أسوء ... قامت من مكانها مشفقة على حالته المزرية ثم حاوطته بذراعيها قائلة :
ـ ماعاش ولا كان من يجعلك تجلس هكذا !

ـ تصعبين البوح عليّ هكذا ... قالها بتحشرج , فربتت على كتفه بحنو قائلة :
ـ لا تقلق من أي شيء .

ـ عديني .. قالها وهو ينظر لعينيها ... قطبت جبينها تسأله :
ـ بماذا ؟

ـ أنكِ لن تتركيني .

ـ أتركك ! ... قالتها غير مستوعبة لما يحدث ، فألح عليها وهو يضغط على كفها : ـ عديني .

ـ أعدك ... قالتها بدون تفكير .

زفر بارتياح ثم بدأ في سرد علاقته الجسدية مع أجنبية , إحدى قريبات زوجة رئيس مجلس الإدارة , حضرت الحفل السنوي للشركة وتعرفا هناك , حاول الابتعاد لكنها جذبته إليها بانفتاحها وجرئتها حاصرته بتواجدها في كل مكان يذهب إليه وكأنها تراقبه حتى وقع بشراكها عندما دعته لحفلتها الصغيرة في بيتها ومنذ تلك اللحظة يشعر أنه رهن ذلك الذنب , كلما نظر لسحر تضاعف ألم ذلك الذنب أكثر و أكثر, لم يستطع التحمل أكثر فلم يجد بد من البوح ...
بعد تلك الفضفضة المؤلمة , ران عليهما بعض الصمت المطبق قطعه حسن بتوسل :
ـ لقد وعدتني ياسحر .

أومأت بنعم وقد كسى الحزن ملامحها ومع ذلك ابتسمت مدّعية القوة لتقول :
ـ أنا لا أملك إلا أن أسامحك ياحسن .

ـ حقا! ... هزّت رأسها ثم قالت بصوت مخنوق :
ـ لأنني أحبك .

قام من مكانه ثم قبّل يديها واحتضنها بقوة معتذرًا بكل عبارات الأسف ليضيف :
ـ وأنا أعاهدك ألا أعود لدرب الخطيئة ماحييت .

لمست صدق كلماته فصمتت على مضض رغم بشاعة ماحكاه الذي جعلها تشعر برغبة في التقيؤ , لكنها عزمت على أن تبقى إلى جواره لترمم الجزء الذي دّمرته الخطيئة من روحه , لم تقنط ولم تجزع ... وتذكرت أنه في النهاية بشر معرض للابتلاء وماحدث له محض ابتلاء يحتاج لمن يكون بجانبه ليساعده على النهوض مجددًا , ولن تنسى أنها لم تذق طعم السعادة إلا بقربه لذا ابتعادها عنه ظلمًا لها قبله ... ومنذ تلك اللحظة انقلبت حياتها رأسًا على عقب لتكون على ماهي عليه الآن .. كل ما أدهشها في تلك الذكرى قوتها وعدم بكاءها رغم كل ماقيل , ظنت أنها تجاوزت الأزمة حتى حدثت مشكلة أمنية لتهيج كل ماخبأته بقلبها من جديد مخبرة أنها للأسف لم تتجاوز وكل مافعلته في الفترة السحيقة كان محض ادعاء لا أكثر .

انسالت الدموع منها رغمًا عنها , فأشفقت عليها أمنية لتعانقها وهي تقول :
ـ لا تحكِ شيئًا سحر , فقط ابكِ لترتاحي ياحبيبتي ... طال نحيبها يشكو مرارة أيام كثيرة عاشت محتجزة تلك الذكرى بحناياها غير عابئة بألمها حتى انفجرت هنا على فراش صديقتها رغم أنها أتت لتربت وتضمد لا تبكي .

اعتدلت سحر في جلستها بعدما استعادت توازنها النفسي وكفكفت دموعها ثم ابتسمت لأمنية التي سألتها :
ـ ألا زلتِ مصرّة على عدم البوح ؟

أومأت سحر بنعم , فابتسمت لها أمنية قائلة :
ـ حسنًا , أرجو أن تكوني تجاوزتِ كل مايضيرك , حبيبتي .

حاولت سحر تغيير دفة الحديث قائلة :
ـ لقد نسينا موضوعك تمامًا .

ـ ليس هناك موضوع ... أشاحت أمنية بيديها متابعة : قلت لكِ لا حل غير الطلاق .

قرصت سحر وجنة أمنية مما جعلها تتأوه ثم قالت :
ـ لن يحدث , ستضعفين وتعودي لأسره عندما ترينه .

امتعضت أمنية وهي تمسح على خدها , قالت :
ـ ومن قال لكِ أنني سأراه .

ـ ماذا ؟

ـ كما سمعتِ ... تابعت أمنية وهي رافعة أحد حاجبيها : لن أقابله أبدًا , سأجعل أبي هو الوسيط بيننا للانتهاء من أمر الطلاق بأسرع ما يمكن .

ـ يالكِ من عنيدة ... أضافت سحر وعلى ثغرها بسمة رقيقة : وجود والدك في الأمر يطمئنني , حفظه الله لكِ ... قالتها وعدّلت هندامها ثم غادرت .

.....

الرغبة بالارتباط بشريك للحياة تحركها المشاعر لكن ماذا عمن وأدت رغبتها لأجل الهروب من الظلام المحيط بها ؟

كان ينقر بأصابعه على المكتب وهو يرشف فنجانه الذي لا يعلم رقمه بين الفناجين الأخرى التي احتساها منذ الصباح في محاولة منه لمنازلة الصداع الذي يفتك برأسه بسبب عدم نومه البارحة , لازال أمامه عشر دقائق قبل وصول مدّعي آخر ممن أخذوا مواعيد لهذا اليوم , زفر بضيق كلما تذكر سعاد وقسوتها الغير منطقية لعقله , كيف تحولت هكذا ؟ ومن تمكن من العبث برأسها ؟ هل تعرفت إلى صديقات ؟ لكنها لا تخرج من الأساس لتتعرف على أحد .... مجرد غمغمات علت ضجيج عقله تذكر على إثرها أمر رنا وخاطبها الطيب الذي يفوقها عمرًا , كان يعلم أن مصير ذلك الموضوع الرفض لكنه فضّل سؤالها أولًا , التقط هاتفه ليحدثها بالأمر وما إن سمع مبادرتها بالسلام , ابتسم وانشرح صدره بذاك الصوت الهادىء.

ـ كيف حالكم بنيتي؟.. قالها بحنو .

ـ بخير، أبي .

ـ وشمس ؟ ... تابع بحرج : هل تحسنت ؟

ـ الحمد لله , صحتها أفضل الآن ... تابعت باستغراب : لما لم تهاتفها ؟ هي مستيقظة الآن .

ـ لقد أردت أخذ رأيك بأمر يخصك.

ـ يخصني أنا ؟ ... قالتها بتوتر فهي على علم بما حدث بينه وبين والدتها بالأمس ولم تظن أنه اتصل لأجلها هي .

ـ لقد أتاني منذ قليل خاطب .

ـ لي أنا ؟ ... قالتها مشدوهة فلم تكن تتوقع مجيء خاطب لها في ذلك الوقت بالتحديد

ـ نعم يا رنا ، طلب الزواج منك ... صمتت ولم ترد , فقال : هل أبلغه رفضك .

ـ لا ياأبي ... تابعت وقد تجلت الشجاعة بين حروفها : خذ منه موعد .

ـ ماذا ؟ ... استكمل وقد اتسعت حدقتاه : هل أنتِ جادة ؟!

ـ نعم , أبي .

ـ فكري مليًا ياحبيبتي .

ـ لم أراه بعد لأفكر .

ـ وماذا عن مرض أختك ؟ هل يمكنكم استقباله خلال تلك الظروف ؟

ـ وما المشكلة ؟ سنستضيفه بغرفة الجلوس وليس في غرفتها .

صمت هنيهة فقد ألجمه إصرارها على مقابلة الخاطب , حدثه عقله باستياء : ألهذه الدرجة متلهفة للزواج ؟ لن تصبر حتى تشفى أختها ولم تهتم حتى بنفسيتها .. شعر بإحباط من سقوط براءة رنا من عينه , فقال :
ـ سأعطيه رقم والدتك لتهاتفها والدته .

ـ حسنًا شكرًا لك أبي ... قالتها على الجانب الآخر وأنهت المكالمة بلا تعابير على وجهها , لم تفرح و لم تحزن , وكأنها تفكر بأمر آخر وكأن الزواج ليس إلا صفقة تود منها شيئًا محددًا , اتجهت لغرفة شمس لتجدها تضحك وهي تثرثر بالهاتف , انتظرت حتى انتهت ثم اقتربت منها قائلة :
ـ اضحكيني معك .. وضعت شمس الهاتف بجوارها ثم قالت والبسمة على شفتيها : ـ لا يكف عن إطلاق النكات .

ـ من هذا ؟ ... سألتها رنا وقد ضيقت عينيها

ـ رامي ؛ زميلي بالشركة .

ـ امم ,صرت اسمع اسمه كثيرًا مؤخرًا .. قالتها رنا والخبث قد تجلى على محياها .

لكمتها شمس قائلة :
ـ مجرد صديق أيتها البلهاء .. مطت رنا شفتيها ورفعت حاجبيها بضيق قائلة :
ـ لا تعجبني كلمة صديق ... رفرفت شمس بكفها أمام وجهها قائلة :
ـ وفري نصيحتك لنفسك .... لقد أنساني المرض بنكاته الظريفة ..قالتها وتذكرت من تسبب بكسر قلبها فصمتت لتسترجع كلام الطبيب بالأمس , فحدثها عقلها بأسف تمنيتِ الزواج من رجل متزوج وها قد أتتك الفرصة على طبق من فضة , فلن ينظر لوجهك أي أعزب بعدما تستغني رغمًا عنك عن أمومتك .

قطعت رنا صمتهما وهي تنادي باسمها :
ـ شمس .. التفتت لها شمس , فتابعت رنا : هل ستحزني إن جائني خاطب .

عقدت شمس حاجبيها قائلة :
ـ ولماذا أحزن ؟ أنا يأتيني كل يوم خاطب وأنا أرفضهم بإرادتي ..اقتربت منها ثم حاوطتها بذراعيها لتشاكسها : البلهاء ستصبح عروس ؟

تضرج وجه رنا بالحمرة القانية , فعضتها شمس من خدها مما جعلها تتأوه وتبعدها عنها , فصفقت شمس وهللت قائلة :
ـ يا ويح من سيتزوجك ، سيجف ريقه حتى يأخذ منك قُبلة .

وضعت رنا كفيها على وجهها في حرج وصاحت بها :
ـ يالك من وقحة .

دلفت سعاد الغرفة على صوتهما المرتفع وقد بدا وجهها مشرق على غير العادة , طالعتهما بابتسامة حنونة وهي تسأل :
ـ ماذا يحدث هنا ؟ ... أشارت شمس على رنا قائلة :
ـ أختي ستصبح عروس يا أمي ... تجمدت ملامح سعاد لتقول بنبرة جادة :
ـ هل هذه مزحة منكما ؟

أشارت شمس بسبابتها لا , بينما أطرقت رنا برأسها للأرض في خجل وقالت :
ـ لقد هاتفني أبي للتو يا أمي ، وقال لي أنه سيعطي رقم هاتفك لوالدته للتصل بك .

ـ والدة من ؟ .. همست رنا بحياء :
ـ والدة من تقدم لخطبتي ... وضعت سعاد كفيها على رأسها وصاحت :
ـ هل جُن أبوكِ ليفعل ذلك في هذا الوقت ؟ ألهذه الدرجة لم يدرك أن أختك الكبرى مريضة ؟
...زاد احمرار وجه رنا لتقول بصوت خفيض :
ـ أنا من وافق يا أمي وليس هو .

ـ يا سلام ... تابعت سعاد بغيظ : وأين رأيته أيتها المؤدبة ؟

ـ لم أره أمي ، أقسم لك ... قالتها رنا وهي تشير بكفيها .

اقتربت شمس من والدتها قائلة :
ـ حتى وإن رأته , ما الضير في ذلك ؟ لماذا تصرين على قمعها لتعيش قصة حياتك يا أمي ؟
... تخصرت سعاد ورفعت أحد حاجبيها قائلة :
ـ ومابال قصة حياتي أيتها المحترمة ؟

ردت شمس بأدب لم تعهد نفسها به قبل الآن :
ـ أنا آسفة, أمي ، لكن قصدي أننا من جيل يختلف عن جيلك .

رفعت رنا ذراعيها وهي تصيح قائلة :
ـ لكنني لم أقابل أو أتعرف على أي أحد , لقد ذهب لأبي يطلب يدي وأنا أبلغته موافقتي بمقابلته .

وضعت شمس كفها على صدرها لتقول بمزاح :
ـ وأنا أيضًا موافقة ... نظرت لسعاد متابعة : وأظن أن أمي لا مانع عندها أيضًا , أليس كذلك ياسعاد؟

كانت سعاد تغلي من الغيظ , شعرت أن رجب قام بذلك لينتقم منها فيتم تأجيل الطلاق , احتقنت الدماء في قلبها وكأنه على وشك الإنفجار , همست لعقلها قائلة : ـ كلا يارجب , لن أعدل عن قراري وأقسم لك بذلك, خرجت من الغرفة والدخان يتصاعد من أذنيها وهي تتمتم : تظنني سأتصل بك لأناقشك في الأمر لكنني لن أفعل , ومهما بلغت مكائدك لن أتأثر .

.....

الفصل الرابع والعشرون

(خطايا)

.....

لم أرى أبدًا هناء ...

إذن ثقلت ذنوبك فعميت بصيرتك ولم تر النور

بل ذنوب من حولي هي من أعمتني و ضيعتني...

وهاهم تألموا بضياعك ... لكن بإمكانك التغيير ..

فقط ... ضع يدك على أول الخطايا لتتمكن من محوها بالتوبة ..

يزداد سواد القلب مع كل مكيدة يظلم بها غيره حتى يُحاصر بقتامة ظلام هو من صنعه بغباءه , فلا يقوى على الرجوع ولا يعلم حقيقة ظلمه لنفسه ....

طرقت دينا على باب غرفة نور ثم دخلت لتجدها ممدة على فراشها وكأنها تأبى الاستيقاظ , كانت موليا الباب ظهرها لكن جسدها يرتجف من البكاء الذي سيقضي على عينيها , توقفت عنه منذ ساعات وعندما سمعت صوت دينا عادت له من جديد , لم تود رؤيتها وهي بهذا الضعف , لا تريد مزيدًا من الجلد على تصرفها الأحمق الذي نتج عنه خسارتها لبيتها ولأخيها أيضًا ، اقتربت منها دينا ثم جلست بجوارها .

ـ نور... همست بها دينا وهي تربت على كتف أختها .

ـ ماذا تريدين ؟ ... قالتها وسط نهنهاتها .

ـ قومي حبيبتي ... أريد أن أتكلم معك ..

لم ترد نور ... فتابعت دينا : البكاء لن يعيد ما مضى .

ـ ولا الشفقة ستربت على قلبي ... قالتها نور وعلا صوت بكاءها .

ـ ولما لا تسمينها مشاركة لألمك ؟

لم تعلق سوى بمزيد من البكاء ... فواصلت دينا :
ـ العسر يأتي على إثر خطاه اليسر لكن ماعلينا إلا الصبر .

ـ أين ذلك اليسر ؟ ... قالتها نور ثم قامت جالسة في مواجهة أختها لتكمل بعصبية وكأن فتيل عقلها اشتعل ليفجر ماستقوله :
ـ أنا لم أر في حياتي سوى العسر يادينا , مذ كنت صغيرة وكان أبي يضربني على أي شيء ، والسبب أنني أنا الكبيرة الواعية لكنكما لازلتما صغيرين , حتى أمي كانت تعدني خادمتها المطيعة ، وعندما كبرت وجاء من يخطبني سلمني أبي لأول من دق الباب وكأن حملي أثقل كاهله , لأكون بالنهاية مطلقة ولكن بعد ماذا ؟ بعد موته ، فلا أجد من يساندني في تلك المحنة اللعينة التي أقف فيها أمام وغد خائن .

ابتلعت دينا غصتها بصعوبة , قالت :
ـ كلنا عانينا يانور من قسوة أبي , لكن هذا لا يسوغ لنا اتهام الناس بالباطل دون تحري الحقيقة ... هتفت بها :
ـ لم ير أحد مثلما رأيت ، عن أي معاناة تتحدثين أيتها الدكتورة الجميلة ؟ هل ذقتِ مرارة المسئولية منذ نعومة أظفارك كما فعلت أنا ؟

ـ اهدأي أختي .. قالتها دينا وهي تربت على ذراعها , فنفضت نور يدها بعصبية قائلة :
ـ وهل قمت بخدمة غيرك بلا مقابل ؟ فقط لأجل حماية نفسك من بطش والديكِ وحتى عندما سنحت لي الفرصة للهروب , هربت مع إنسان قذر جبان لأعود من حيث أتيت , بل للأسفل فقد تخطيت الصفر بمراحل وبالنهاية تتوج قصتي بفضيحة .. صرخت بها وقد جحظتا عيناها الحمراوين : وتقولين كلنا عانينا .
نظرت دينا لعينيها ولم ترمش حتى تظهر لها إصرارها على مواصلة النقاش,قالت : ـ لماذا تنظرين دومًا للنصف الفارغ من الكوب ؟ هناك الكثير والكثير ممن قاموا بكل مافعلته وبطيب خاطر لكنهم يحمدون الله على نعمة العائلة , الأمان , الأخوة والكثير من النعم التي لا يسعني حصرها لكِ , لما لا تنظرين للأطفال المشردين بلا مأوى الذين يتعثرون أمامنا في كل طريق ليؤكدوا لنا طيب عيشنا وأننا حقًا بخير مهما واجهنا من مصاعب ؟ لماذا رفضتِ احتواءنا أنا وآدم كأم ثانية ؟ حينها لن يسعنا إلا تقبيل يديكِ في كل حين هل تظنيني كنت سعيدة ببعد أختي عني ؟ كنت أتعذب في كل مرة أرى فيها أصدقائي برفقة أخواتهن وحينما آتِ إليكِ لا أجد منكِ سوى الجفاء بجملة " أنا لست صغيرة مثلك لألعب معك" ، حتى الفضيحة التي أنهيتِ بها قصتك , من افتعلها وأشعل حروفها بيننا غيرك ؟ .. تابعت دينا بشجاعة أصرت عليها لتفيق أختها من الظلام الذي حاصرها بهمومه منذ الصغر : قبل أن تحملي من حولك ذنوبك وأخطائك , تذكري قول الله في كتابه :" وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون" .

ـ إن كنتِ جئتِ للشماتة ... تابعت نور وسط بكائها : هنيئًا لكِ بكل ماحدث لي .

ـ حاشا وكلا أختي .. قالتها دينا وهي تضم أختها إلى صدرها وتمسح على رأسها : ـ أردت أن تعترفي بذنوبك وتقرّي بخطئك حتى تتمكني من وضع يدك على الطريق المؤدي للنجاة .

علا نحيب نور داخل حضن أختها لكن هذه المرة كانت ترتاح مع كل دمعة تذرفها ، ومع كل آه تخرج منها، وكأن ذلك العناق كان بمثابة الترياق المسكن لحالتها والمضمد لقلبها , قبّلت دينا رأسها قائلة :
ـ أنا أحبك كثيرًا, أختي ، وأرجو أن تتجاوزي كل ماحدث وتعلمي أننا كلنا هنا إلى جوارك ولن نتركِكِ أبدًا.

.....

جدال يتبعه دلائل وبراهين بين أي شخصين يحاول كل منهما إثبات صحة وجهة نظره , لكن من ياترى سيفوز؟ ومن ستتحدث عنه تجربته المريرة لتؤازره في ذلك النزال ؟

كانت تقفز على سريرها مثل الأطفال في غيظ , تريد إحراق شيء ما لكن لا تعرف ماهو , كلما تذكرت حالها كالمعلقة زاد حنقها وكذلك ماحدث لسحر ورغبتها في عدم البوح أثار غيظها أكثر لتصيح :
ـ لماذا تصر على الكتمان ؟... لعل زوجها أغضبها ، لو حقًا فعل ذلك إذن عليها ألا تعود حتى يعترف بخطأه ... قطع حديث عقلها طرق الباب , ففتحت رغدة ومعها ريم التي ما إن رأت والدتها تقفز على السرير حتى صفقت وصعدت إليها لتفعل مثلها .

ـ هل جننتِ ؟ ... تابعت رغدة وهي تشير بيدها : ستسقط الألواح الخشبية للسرير بسبب قفزك .

ـ لا تقلقي أمي ... تابعت أمنية وهي لازالت تقفز وتشاركها ابنتها : أنا لست سمينة ، لو لم أفعل ذلك سأموت كمدًا .

ـ ماذا ؟ ... سألتها رغدة وهي قاطبة جبينها .

ـ كما سمعتِ, أمي... صاحت وهي تقفز : أنا جداااا غاااااضبة وأريد تفريغ طاقة الغضب هكذا ... ظلّت تقفز وريم تقفز معها وتصيح مبتهجة .

شعرت رغدة بالشفقة عليها , فقد ظنّت أنها تحن للعودة لزوجها , فقالت :
ـ هوني عليكِ حبيبتي , كل شيء سيكون على مايرام وستعودي لبيتك .

توقفت أمنية عن القفز وصاحت :
ـ لاااااا

ـ ألا تريدين العودة ؟ ... هزّت رأسها نافية ثم قالت :
ـ أنا متمسكة بقراري .

ـ قرارك ؟ ... قالتها أمها وهي ترمقها بنظراتها وقد رفعت أحد حاجبيها .

ـ أي نعم، الطلاااااق ... ما إن نطقت بها حتى قذفتها أمها بإحدى الوسائد ففقدت توازنها وسقطت على السرير جالسة تضحك وكذا ريم فعلت بينما كانت رغدة تغلي من اللامبالاة التي تضحك بها ابنتها فقالت :
ـ خسئتِ وخسئت قراراتك أيتها الغبية .

مثلت أمنية أنها منزعجة من كلام أمها , فغضنت جبينها قائلة :
ـ تدعين عليّ يا أمي وأنا ابنتك الوحيدة ؟

ـ لأنكِ مستفزة ... صاحت بها رغدة .

نظرت أمنية لأمها ثم لابنتها وقد رفعت حاجبيها مدّعية الحزن , قائلة وهي تشير على نفسها :
ـ أنا مستفزة؟ ... مطت رغدة شفتيها قائلة :
ـ أراكِ تعلمتِ بسرعة طريقة مازن السمجة وظرافته البغيضة .

أشارت أمنية بسبابتها قائلة :
ـ تقصدين أنني أنا من علّمه , أنسيتِ أنني الكبرى .

ـ لطالما عهدناكِ هادئة يا كبيرة .

ـ أووه .. كان هذا في الماضي ... استكملت أمنية وهي ترفرف بأصابعها للوراء : ـ لكنني الآن تغيرت... كمشت رغدة نصف وجهها قائلة :
ـ في غضون يوم وليلة ؟

ـ لا ؛ بل في غضون دقائق ...قالتها وتسطحت على سريرها وهي تضحك .

اقتربت منها رغدة وبدت أكثر جدية :
ـ لا تسمعي لأفكار أخيكِ يا أمنية ؛ إنه طائش .

ـ ومن قال أنني أفعل ؟ ... تابعت ولازالت مستلقية على ظهرها : أنا أعيد حساباتي أنا وأسمع أفكاري أنا يا أمي ... جلست رغدة بقربها وقالت :
ـ لن تجد المرأة راحتها إلا بقرب زوجها يا ابنتي .

ـ لكنني وجدتها هنا يا أمي ... هزّت رغدة رأسها نافية ثم قالت :
ـ شعورك هذا مؤقت بسبب صدمتك من المشكلة التي حدثت بينكما , لكن لن تلبثي أيام وسيبدأ الحنين بوخز قلبك , صدقيني .

ـ لا ... قاطعتها رغدة قائلة :
ـ كل البيوت ملئ بالمشاكل ولو كل من تعرضت لأزمة قررت الطلاق مثلك لخربت نصف بيوت العالم يا ابنتي.

اتكأت أمنية على وسادتها وطالعت أمها مبتسمة ثم قالت :
ـ ولو سار نساء العالم بمبدأك سيزداد الرجال تجبرًا وقهرًا لهن يا أمي .

حركت رغدة رأسها باستياء قائلة :
ـ زوجك جنتك ونارك يا أمنية , إن أطعتيه راضاكِ الله بالجنان وإن ...قاطعتها أمنية قائلة :
ـ أعتذر عن المقاطعة ولكن ألا يفترض لنا النساء أن نكون أيضًا لأزواجنا جنة ونار؟

ـ لكنهم قوامون علينا يا ابنتي ... مطت أمنية شفتيها وهي تعبث بخصلاتها وقالت : ـ حتى هذه لا يفعلها معظم الرجال , والإعلام كل يوم يأتينا بنماذج لسيدات قوامات على بيوتهن بعد هجر أزواجهن لهن .

ـ لكن هذه مجرد حالات استثنائية يا ابنتي ... استكملت رغدة وهي تنظر لعيني ابنتها : والطبيعي وجود رجال قوّامون كما ذكر الله في كتابه ولاتنسي أن الرسول أكد عظم حق الزوج ولابد لنا من السمع والطاعة .

أومأت أمنية لموافقتها ثم قالت :
ـ لا تنسي أمي أيضًا أن آخر وصايا الرسول ـ صلّ الله عليه وسلم ـ هي "رفقًا بالقوارير " ، ولكل منّا حقوق و واجبات .

ران عليهما بعض الصمت قطعته أمنية قائلة :
ـ ماذا سيكون رد فعلك لو عاد بكِ الزمن وضربك أبي؟ أعتذر عن كلامي لكن أود أن تشعري بي .

امتقع وجه رغدة بالصمت لأنها لم تتوقع مباغتتها بهذا السؤال , فتابعت أمنية :
ـ وكيف سيكون الحال لو اكتشفتِ أنه يهادي امرأة غيرك ومعجب بها ؟

ازدردت رغدة ريقها وسرت رجفة في أوصالها ونهشتها الغيرة لمجرد التخيل , فهي تعشق زوجها ولم تحسب حساب لتخيل موقف بشع يكسر قلبها هكذا , ردت بصوت خفيض :
ـ لن أقول لكِ إلا أن تفكري في ريم قبل اتخاذ أي قرار .

قبل أن ترد أمنية علا رنين هاتفها فقامت من مكانها لتأخذه من المنضدة بينما كانت رغدة متحمسة لتعرف من يتصل بها وهي تدعو في سرّها أن يكون هو .

ـ أهلا بالمشاكس .. قالتها أمنية وهي تضحك , فامتعضت رغدة وأشاحت بأصابعها في تذمر ثم قامت من مكانها لتغادر الغرفة مسرعة الخطى , فتبعتها ريم بخطواتها المتعثرة .

ـ كيف حالك الآن ؟

ـ بخير , طالما معكم .

ـ أين ذهبتِ مع أبي ؟ وماذا فعلتما ؟

ردت عليه وهي تجعد إحدى خصلاتها بأصابعها :
ـ لن أخبرك ... ضحك مازن من طريقتها الطفولية في الرد , فقال :
ـ ولماذا , أيتها المدللة ؟ ... مازحته قائلة :
ـ لأنه سر .

ـ يا إلهي! ... تابع وهو يدّعي المفاجأة : أنا لا أطيق الانتظار لمعرفة الأسرار .

ـ امم .. لا تحتاج لإخباري أيها اللص ... تابعت مستاءة : لطالما عهدتك تتلصص لمعرفة الأسرار ... ناغشها قائلاً :
ـ لقد أخطأتِ يا فتاة ، صححي معلوماتك المغلوطة ، أنا مجرد محقق لحل القضايا.

ـ الله .. الله ... تابعت وسط ضحكاتها : تعجبني ثقتك ومحاولاتك المستميتة لتحسين صورتك , شارلوك هولمز .

ـ فقط هذا مايعجبك فيّ ؟ .. قالها وهو يدّعي الحزن .

ـ هل تمزح ؟ ... أنت أروع أخ في الدنيا كلها .

صاح مازن بمرح :
ـ أجل... هل تسمحي لي يا أميرتنا بدعوتك الليلة على العشاء؟

ـ ممم , دعني أفكر .

ـ تفكري ؟ إذن دعيها لوقتٍ لاحق ... هتفت به :
ـ ألن تلح عليّ ؟

ـ لا ... تأففت أمنية قائلة :
ـ كلكم مجرد أوجه لنفس العملة .

ـ امم , إذن لا دعوة ولا عشاء .

ـ انتظر ... تابعت وهي تسحق أسنانها : لا تلغِ العشاء يافتى .. لم يرد فزمجرت : ـ لماذا لاترد ؟ سنخرج أليس كذلك ؟ ... انفجر مازن ضاحكًا , فصاحت به أمنية : ـ يالك من سخيف وسمج .

ـ اهدأي ... قالها وسط ضحكاته .. كنت أمزح معك وحسب لكن من الواضح أن أمي سكبت عليكِ بعضًا من شخصيتها الصارمة .

انتهت المكالمة ورغم حنق أمنية من مزاحه إلا أنها ظلّت تضحك كثيرًا بعدما أغلقت الهاتف , ممنية نفسها بأمسية لطيفة رفقة أخيها .

على الجانب الآخر كان آدم لا يزال ممسكًا بهاتفه وهو حانق من عدم استجابة جمال لمكالماته التي لم يعد قادرًا على حصر عددها , أخذ يتجول في الشقة وهو خائر القوى تمامًا والألم يفتك بكل جوارحه , عاد للأريكة وما إن لمسها حتى احتضنته مجددًا ليغطس في نومٍ عميق يسكن كل أوجاعه بشكل مؤقت خلال تلك الغيبوبة .

.....

لا شيء أفضل من لقاء غير مرتب له , فتحكي القلوب على أثره قصة تعلق لمعت من النظرة الأولى ..

بعد يومين حيث تتجمع أسرة رنا في غرفة الجلوس لضيافة أيمن ووالدته بحفاوة , كل شيء كان أقرب للمثالية باستثناء قلب سعاد الذي حاول كبت غيظه من تصرف رجب فلا زالت تظن أن كل مايحدث الآن ماهو إلا إحدى مكائده للتقرب منها , كانت ملامحها واجمة

تبتسم لسيادة بين الفينة والأخرى وتستمع لحكاياها عن ذكريات ولدها البطل الهمام وكأنها أتت للدنيا بفارس لم يشهد العالم نظيره, بينما كان رجب يتحدث مع أيمن الذي لم يخفي سعادته بتلك المقابلة الودية .

كانت رنا جالسة أمام المزينة وأختها تقوم بوضع اللمسات الأخيرة لمكياجها الهادئ , قلبها يدق من شدة التوتر , أما شمس كانت تغني أغنية رومانسية متناسية تمامًا أمر مرضها لاسيما أن النزيف توقف بالفعل , مما جعلها تتحسن نفسيًا وتشعر أنها شُفيت ... ظلّت رنا تتأمل نفسها في المرآة وتطالع هيئتها البراقة التي تبرز رقتها والأحاسيس المختلطة تتقافز داخل صدرها , أخذت ترتب حجابها وسط امتعاض شمس التي لامتها قائلة :
ـ لماذا ترتدينه في تلك المناسبة؟ ... التفتت لها وابتسمت قائلة :
ـ لأنني محجبة ... مطت شمس شفتيها قائلة :
ـ لكن من حقه يطمئن على جودة المنتج وشعره ال... لكمتها رنا في ذراعها قبل أن تكمل ثم قالت لها :
ـ كفي عن طريقتك المزعجة في الكلام ...تأوهت شمس ثم ردت لها الضربة قائلة : ـ أدبك الجم هذا لن يفلح مع عريس الغفلة الجالس بالخارج .

رفعت رنا كتفيها باستهتار قائلة :
ـ إن كان يريد الوقاحة مثلك , فلا أريده وسأرفضه .

ـ أهلًا .. تابعت شمس وهي تعوج فمها يمينًا ويسارًا :
ـ إذن ؛ لن يكتمل موضوعك .

دخلت سعاد تستعجل رنا وتطلب منها اللحاق بها نحو المطبخ لحمل صينية العصائر كي تدخل حيث يجلس الجميع , نظرت رنا لشمس قائلة :
ـ ألن تأتي معي ؟

هزّت شمس رأسها نافية , فقطبت رنا جبينها متابعة :
ـ أشعر بالارتباك والتوتر وأحتاجك معي , هيا بدّلي ملابسك ... استكملت محفذة إياها : ألا تودين رؤيته ؟

ـ ومن قال لكِ أنني لن أراه ... تابعت وهي تغمز : سأتلصص عليكم من خلف ستائر الصالة , لذا لاتغلقوا باب غرفة الجلوس ، وقد أعذر من أنذر .

أخرجت رنا لسانها قائلة :
ـ سأغلقه .

ـ إذن سأدخل لكم بمنامتي هذه .

ـ مجنونة وقد تفعلينها ... تابعت رنا : حسناً لن أغلقه ... نهرتها سعاد وهي تجذبها من ذراعها :
ـ هيا الجميع ينتظرنا , أيتها الغافلة .

.....

كانت تمشي الهوينا عندما أوكلت لها سعاد التقدم بالعصائر نحو الغرفة , وضعت الصينية على المنضدة فقامت لها سيادة تسلم عليها بحرارة وتعانقها قائلة :
ـ يالجمالك! حفظكِ ربي وحماكِ من العين ... بينما اكتفى أيمن بنظرات الإعجاب بحياءها وأدبها ودفات قلبه تصدر ألحان رومانسية استأنفتها مذ رآها للوهلة الأولى رغم شعوره بكونه رآها من قبل إلا أنه لن ينكر انجذابه لها ... أشار لها والدها لتجلس في مواجهة أيمن فاتجهت نحوه والخجل ينهشها , ظلّت تطالع الأرض كمن يبحث عن شيء ضائع , مشاعرمختلطة تموج في صدرها مزيج من الخوف , السعادة , التوتر وشيء آخر لم تعرف كنهه لكنه ينخر بالقلب فيزيد خفقانه بغير هدى , تمتمت لعقلها قائلة : اهدأي وسيكون كل شيء بخير , لا داعي للتوتر .. أريد رؤيته عن كثب لكنني خجلى .. ماذا أفعل ؟ .. انظري الآن .. هيا .. هيا .

رفعت رأسها لتنظر له فوجدته يطالعها مبتسمًا ضيّقت عينيها في محاولة منها لتذكره وهاقد نجحت حدثها عقلها : ذاك الذي ركب معك المصعد ودلف معك مكتب والدك , فعادت للأرض مجددًا ، وقد شع وجهها بالاحمرار وكأن حرارة قلبها خرجت عن طوعها لتداعب وجنتيها المكتنزتين .

بعد انتهاء المقابلة , ظلّ رجب جالس مكانه يمسد ذقنه يتبادل مع سعاد نظرات لم تفهما البنتان معناها , شعرت سعاد بالاستياء من تلك النظرات التي لن تكلف نفسها عناء ترجمتها ألا يكفي توريط ابنته الصغرى بتلك الزيجة , حادت بوجهها نحو رنا قائلة :
ـ يبدو أنه أكبر منك بكثير يارنا ... وافقتها شمس على ذلك قائلة :
ـ معك حق يا أمي ، لقد لمحت شعيرات بيضاء في جانبي رأسه .

التفتت رنا لأختها قائلة :
ـ أنا العروس وكنت في مواجهته لم ألاحظ .. هل كان معكِ منظار أم أن الستائر بها عدسات مكبرة ؟ ... ضحكت شمس من كلامها ثم ردت :
ـ رغم أن فارق العمر بينكما كبير إلا أنه وسيم ... تابعت وهي تزم شفتيها : شكله الكلاسيكي هذا يشبه ممثل قديم لا أذكر اسمه .

هزّت رنا رأسها موافقة ثم قالت :
ـ أظن ذلك ، كان يعرض لذلك الممثل فيلم منذ أسبوع ... التفتت لسعاد تسألها :
ـ رأيته معكِ يا أمي .

ـ شكري سرحان ... نطقت بها سعاد فصفق البنتان وهتفا في نفسٍ واحد :
ـ أجل .

كان رجب يتابع الكلام بلا تعليق , يشعر أنه يشاهد مسرحية هزلية أعدتها ابنته الصغرى لتلفت الانتباه لها , قرر التخلي عن قناع الصمت هذا برمي جملته :
ـ أظنك سترفضين يا رنا بعدما لفتت والدتك وشمس انتباهك لفارق العمر بينكما ، هو بالفعل أكبر منك بأربعة عشر عامًا .

طرقت سعاد بيدها على صدرها لكنها كتمت شهقتها بوضع كفها على فمها , ورفعت شمس حاجباها في دهشة فقد ظنت أنها توهمت تلك الشعيرات البيضاء , أما رنا قالت :
ـ سأصلي استخارة .

ـ هل تمزحين معنا ؟ ... سألها رجب بجمود , حينها فهمت سعاد أنه لم يرتب لحدوث كل ذلك .

ـ اهدأ أبي ، من فضلك ... قالتها شمس وهي تشير بكفيها .

أشار رجب لشمس لتصمت ثم تابع :
ـ ظننتكِ تودين التسرية عن أختك بذلك العرض المزيف وكأننا داخل مسرح , وهاهي المسرحية انتهت ... قطبت رنا حاجبيها قائلة :
ـ لكنني لم يكن بنيتي ماذكرت يا أبي ، ألا يحق لي الزواج ؟

رفع رجب صوته :
ـ هل نسيتي أنكِ لازلتِ تدرسين ؟

ـ لا لم أنس ، لكنها بالنهاية حياتي .. صمتت هنيهة ثم قالت : وأنا من أقرر .

طالعتها شمس بإعجاب , ودت لو تصفق وتطلق صفير على تلك الشجاعة التي لا تعلم من أين جاءت بها أختها .... حاولت التدخل قائلة :
ـ اتركها يا أبي تفكر وتقرر بعدها .

ـ وماذا عن مرضك ياشمس؟ ... تابع رجب والغضب يعلو صفحة وجهه : ماذا إن وافقت ؟ هل ستقام لها حفلة خطبة وأختها مريضة ؟

مطت شمس شفتيها قائلة :
ـ لاتتحججوا بي ... أنا المريضة شخصيًا وموافقة ، ولا يهمني إلا سعادتها أينما كانت .. لا تعلم كيف ساهم ذلك الخبر في تعديل حالتي المزاجية يا أبي ... تابعت ممازحة : لي فترة طويلة لم أرى مسرحيات ... ترى كيف ستكون إن كان بها شكري سرحان بنفسه ؟ لكمتها رنا بغيظ فتأوهت وسكتت .

رجع رجب بظهره للوراء , رفع رأسه شاخصًا بصره للأعلى لم يود الرحيل يشعر أن هناك مغناطيس يجذبه لهذا البيت لذا لم يدخله منذ سنوات , حنين يتأرجح بين حناياه يضخ لعقله ذكريات من ماضيه حاول نسيانها ليواكب تحديثه رفقة زوجته الجديدة لكن أنى له وقد سحبه مرض ابنته لحلقوم ذلك البيت مطبقًا عليه فكيه فلا يقوى على فتح فمه للرحيل ولا يقدر على النسيان .

ران على الجميع بعض الصمت قطعته رنا قائلة :
ـ أرجو ألا يتصرف أحد حيال ذلك الموضوع بدون الرجوع إلي ... قامت من مكانها مستأذنه لتنام , قامت خلفها أختها فقد كان هاتفها ينادي باسم رامي الذي لا يفتر عن مهاتفتها بكثرة هذه الأيام وكأن غيابها طرق على قلبه ليعلمه قدرها الحقيقي عنده , لم يظن يومًا أن يتأثر بعدم وجودها بالشركة لعدة أيام كما حدث معه ... لطالما ظنّها صديقة يمزح , يمرح .. يطلق النكات فتضحك عليها حتى اعتاد صداقتها إلى أن غابت فوخزه قلبه ليخبره أن الأمر لم يكن أبدًا عادة ، حتى وقت تقربها لآدم لم يبدي أي ردود أفعال سوى المراقبة من بعيد لأنه ظن أن علاقتهما لن تتعدى زمالة كما يحدث معه وأسامة لكن اليوم الذي عاد فيه من المطعم نهشه شعور لم يفسره ولم يعتد عليه ولا يعرف له تسمية، رغم أن الأمر بالنسبة له ولشمس جدًا طبيعي , الخروج رفقة زميل لتناول الطعام أمر لا يثبر أي ريبة ، لكن ماحدث له حينها جعله يتعجب حاله الذي انقلب بعدها مؤثرًا المراقبة عن بعد ... وعندما مرضت لم يجد بد من الوصل الذي أكد له حقيقة مشاعره اتجاهها .

.....

بين صفحات الحياة لحظات مبهجة تبرز معنى الاستقرار بكل ألوانه لتخبر من هو مقدم على الزواج أنه سينتقل من استقرار عام لاستقرار أكثر خصوصية...

كانت السعادة تزين الأجواء , سيادة تجلس على الكرسي وهي تربت على ساق أيمن بحنو , غمزت له قائلة :

ـ لقد أعجبني ذوقك يا ولد .

ابتسم ملئ شدقيه واحمر وجهه ليس خجلاً و إنما من حرارة تذكرها , فقد كان ينبض بقوة والدماء تسري حارة لتشعل كل جوارحه بهجة برؤيتها .. تابعت سيادة : ـ يبدو عليها البراءة والهدوء اللذان أضافا لجمالها جمالًا من نوع آخر ...اسم الله عليها ، رقيقة ... هزّ رأسه لموافقتها ثم قال :

ـ نعم هي كذلك .

ـ حتى والدتها امرأة طيبة ولطيفة ، لكن ... التفت لها أيمن يسألها بقلق :

ـ لكن ماذا ؟

ـ والدها ... تابعت سيادة وهي قاطبة جبينها : لم أرتح له أبدًا .

ـ وما المشكلة ؟ ... أضاف أيمن : ألم تقولي من قبل المهم الفتاة أما من حولها فلا أهمية لهم .. أومأت سيادة برأسها قائلة :

ـ معك حق .. أسال الله أن يتمم لكَ على خير يا حبيبي .

قاطعهما دخول أدهم مهللًا بذراعيه :

ـ أين بطاقة الدعوة خاصتي ؟

ضيّق أيمن وسيادة أعينهما ونظرا لبعضهما ثم عادا له يسألاه :

ـ أي دعوة ؟ ... لوى أدهم فمه قائلًا :

ـ الزفاف ؟ ... ضحكت سيادة قائلة :

ـ سمع الله من فمك يا أدهم .. أما أيمن تمتم :

ـخفيف الدم يا أخي لكنني لن أضحك .. التقط جهاز التحكم وأشعل التلفاز ثم قام التنقل عبر قنواته .

اقترب أدهم من أخيه ومازحه بلكنة تحاكي لكنة والدتهما :
ـ بريق عينيك فضحك يا غالي .

دعس أيمن على أصابع قدمه فتأوه أدهم ثم قال :
ـ مزاحك ثقيل يا أخي ، كان الله في عونها .

ـ من تقصد ؟ .. سأله أيمن وهو يرمقه بطرف عينيه .

رفع أدهم كفيه قائلاً :
ـ لا شيء صدقني ... سأغادر قبل أن تقضي علي .

قامت سيادة على إثر أدهم لتخلد للنوم , تركا أيمن يدّعي متابعة التلفاز فقد انشغل عقله ليس فقط بعروسه بل بأمرٍ آخر أضاف لليلته الهانئة لمحة شجن , لا يعلم سر تذكر ذلك الآن لكنه نظر للهاتف تذكر رسالة قد تكون تسببت بكسر قلب إحداهن و لايمكنه حتى البوح أو الاعتذار ... نفض عن عقله الفكرة وهو يستغفر عن حماقته بتلك الفعلة رغم أن نيته حينها أن تعلم مايحدث حولها .

.....

علينا ألا نأمن مفاجآت النفوس طالما آثرنا البعد عنها , فكل يوم كفيل بتغير بضعة منها فكيف بمن تغيب لسنون مكتفياً بنصف حياة ؟

كانت سعاد تنظر لساعة هاتفها ممتعضة , تشعر بالضيق بسبب مكوثه الغير مبرر , فقد انتهت مهمته برحيل خاطب ابنتها ولايزال جالسًا بل شاردًا في فضاء الغرفة الضيقة , ودت لو تصرخ فيه لتطرده خارجًا لكنها تذكرت أن أي تصرف أحمق منها قد يكون له تأثير سلبي على مرادها , بالكاد حاولت السيطرة على لسانها لكن باطن عقلها يتمتم : لماذا لازلت جالس؟ ألم تنهي مهمتك ؟ أم أن لعبة الرجوع راقت لك عندما تمردت عليك؟ .. إذن كمّل ليلتك وحدك بالغرفة ... قامت من مكانها لتدخل غرفتها مقسمة على أن تغلقها على نفسها , لا تريد أي شيء يثبّط من عزيمتها للمضي قدمًا بالطلاق ويالها من خطوة كانت أبعد مايكون عن ناظريها كسعاد الضعيفة المسكينة التي تحملت الويلات في صمت حتى اعتاد زوجها على ذلك ، ولم تعمل لانفجار كبتها حساب وقد تمادى ذاك الانفجار على إثر مرض شمس التي انكسرت شوكتها مضيفة لها بعضًا من قوتها لتجابه بها ماضٍ لازال متشبثًا ببراثنه في حاضرها ليضاعف حسرتها على سلبيتها , تشعر وكأنها سكبت داخل أنوثتها رجولة تمكنها من الركض مع ابنتها بين أروقة المستشفيات ولم يكن بحسبانها أن ماسكبته سيؤثر على قراراتها الخاصة,

كلما تذكرت وقوفها أمامه ودت لو تضحك على تلك الشجاعة الغريبة التي انتابتها فجأة لكن الأمر راق لها لتكمل ما بدأته بشغف لمعرفة النهاية التي لن تكون سوى ما أرادتها هي .

ـ انتظري ... قالها لتتوقف مكانها .

استدارت لتسأله وهي رافعة أحد حاجبيها :
ـ ماذا تريد ؟

ـ تعلمين ما أريده ... قالها وهو يطرق بأصابعه على يد الكرسي الخشبية .

لوت شفتيها بتذمر قائلة :
ـ وقولت لك لا ، هل عليّ أن أعيدها على مسامعك كلما رأيتك ؟

ـ اجلسي , سعاد ... قالها وهو يشير للكرسي المجاور له .

ـ حتى هذه ، لا أريدها .

زفر رجب بنفاذ صبر محاولاً السيطرة على غضبه , قال :
ـ لا تجعلي صوتي يرتفع فنزعج الفتاتين وكذلك الجيران .

رفعت كتفيها غير عابئة بغضبه , قالت :
ـ لا يهمني ... لطالما أزعجناهم في الماضي .. تابعت وهي ترمقه بطرف عينيها : أم أنك نسيت ؟

تمكن من رسم ابتسامة على شفتيه بشق الأنفس , ليمتص غضبها , قال :
ـ كيف تغيرتِ هكذا ؟ ... أشارت بسبابتها عليه قائلة :
ـ الفضل يرجع لك أيها المحامي القدير , فما قمت بكبته داخلي خلال السنوات الماضية لم يجد بد من الانفجار لتكون أنت أول ضحاياه .

تزايد نقره على اليد الخشبية وكأنه يبث توتره عبر ذلك الجماد الذي ليس له ذنب إلا أنه حمله على متنه , قال:
ـ أقصد لماذا تأخرتِ كل ذلك الوقت ؟ لماذا تصرين على طلبك في هذا الوقت العصيب ؟

ـ أعتذر عن غفلتي ... تابعت بسخرية : كنت نائمة خلال السنوات الماضية وها أنا استيقظت .

ـ اجلسي ... أعادها على مسامعها بصوته الأجش .

ظلّت واقفة مكانها ترمقه بعينيها الغاضبة ووجهها الذي رسم الغيظ بين قسماته فاحمرت وجنتاها وارتعشت شفتيها لأنه يستنفذ هدوءها بإصراره على التحدث معها رغمًا عنها , همست لعقلها : دائمًا تستهر بمشاعري حتى مع أبسط حقوقي الذي هو بالفعل واقع أعيشه منذ سنوات , وعندما أردت أن يكون الانفصال رسميًا اعترضت , وكأنني لا أصلح إلا معلقة ، تعودت أن تأمر ولا تجد مني إلا التنفيذ .. إلى متى ؟ لقد تعبت ... تعبت ياربي ... سأموت من أفعاله المقيتة ... وكأني كلما تمردت اقترب أكثر ليكسر شوكتي وكأنه لم يكسرني من قبل .

قاطع حديث عقلها قهقهات رجب مما زاد حنقها وجُن جنونها كان صدرها يعلو ويهبط أخذت تفرك كفيها وتطقطق أصابعها وكأنها ستخلعهم من مكانهم لكنها سيطرت على مآقيها حتى لا تجعله يشمت بها , ضحكاته تتزايد حتى سعل وهو يرفع كفيه قائلاً :
ـ أعتذر منك .

كانت تريد سبّه بألفاظ تسمعها في مشاجرات الشباب لكن لا تعلم معناها , لكن عوضًا عن ذلك قالت :
ـ لا عليك ،تعودت منك على ذلك ... انزوت ابتسامة حزينة على جانب شفتيها بعدها استدارت مستكملة : عن إذنك .. تعبت و أريد النوم ... البيت بيتك .

تركته فاغرًا فاهه من طريقتها المستجدة في التعامل معه , يقسم لنفسه أنه انبهر للمرة الثانية من تحولها الذي أعجبه وحفذه لعدم الإنصياع لرغبتها , تمتم لنفسه وهو يحك ذقنه :
ـ لن أتركك يا سعاد , لقد أثرتِ فضولي لمعرفة سر تغيرك .

الفصل الخامس والعشرون

.....

الشدة رغم قسوتها تبين لنا على حين غرة قيمتنا عند الأحباب لتبرهن أن الجمال قد ينبع من أكثر الأشياء سوءً ..

اتجهت برفقة الجميع للمشفى لأجل إعادة الفحص والتصوير بالرنين المغناطيسي وداخلها رعب من مجرد التخيل , ذرات جسدها تنتفض رغم الحنان الذي أحاطتها به والدتها وهي جالسة قربها بالأريكة الخلفية بالسيارة , أما رنا فكانت تقرأ من المصحف بالكرسي الأمامي

المجاور لرجب ، كانت الأجواء فيها من التوتر ما يمزق القلوب ويبعثر أشلاءها ، لكن لا حل سوى الصبر لحين معرفة كل شيء وبعدها لا خيار إلا الرضا بالقدر .

عقب جلست الرنين , غادروا المشفى وشمس منهكة نفسيًا وجسديًا فقد أتتها كل الكوابيس وهي داخل ذلك القبر الذي يصور الجزء المتضررمن الجسد داخل الظلام .. لقد شعرت لوهلة أنها بالفعل ميتة وتنتظر الحساب كانت اللحظات تمر ببطيء ، لتضاعف خوفها فلا تقوى على الحراك ليترسخ بداخلها إحساس الوفاة , عاد بهن رجب للمنزل ثم اتجه للمحكمة وعقله شارد بحال ابنته وكذا أمها التي تغيرت بشكل مثير للإهتمام , قاطع شروده رنين هاتفه , ابتسم حالما رأى الاسم .

ـ أهلًا أيمن ... قالها رجب وعلى ثغره ابتسامة .

ـ كيف حالك أستاذ رجب ؟

ـ بخير ... تنحنح أيمن قائلاً :
ـ وددت سؤالك بخصوص موضوعي ... ضحك رجب قائلاً :
ـ امهلني أسأل ابنتي ثم أرد عليك .

ـ حسنًا , أعتذر عن الإزعاج .

ـ لا تعتذر بني .

انتهت المكالمة بتغير مزاج رجب للأفضل , لا يعلم سر مايحدث معه بعد الكلام مع ذلك الأيمن , تمتم عندما تذكر أسلوبه المهذب : لديك من الأدب والأخلاق مايكفيان لجعل ابنتي توافق بكل سلاسة .

على الصعيد الآخر كانت تجلس أمام المزينة , منهكة , روحها تخرج على دفعات مع أنفاسها المتلاحقة , تنظر لنفسها عبر المرآة وذلك الشحوب البادي على وجهها الخالي من المساحيق , رفعت أصابعه إلى شعرها وأخذت تشعث شعرها وتقوم بشده وهي تتأوه ثم تساقطت الدموع من عينيها وهي تتذكر الفحص الذي قامت به منذ قليل , فتحت درج المزينة ثم التقطت منه مقص وقالت :
ـ في جميع الأحوال سيسقط من العلاج .

دلفت رنا على صوت نحيبها , لتجدها تبكي وهي ممسكة بالمقص ويدها ترتجف , ركضت نحوها ثم أخذت منها المقص والهلع ينهشها , سألتها :

ـ ماذا حدث ؟ ... رفعت شمس رأسها لأختها قائلة :
ـ قصي شعري يارنا .

ـ لماذا ؟! ... سألتها وقد اتسعت حدقتاها مرتعبة .

ـ حتى لا يكون فقده عظيمًا عندما .... قبل أن تكمل وضعت رنا كفها على فمها حتى تسكت ثم قالت :
ـ لن تخسريه ، وكل شيء سيكون على مايرام أختي ... وضعت المقص داخل الدرج ثم عانقت أختها تشاركها البكاء وهي تقول :
ـ أرجوكِ شمس , لا تزيدي حزني .

ـ ومن أنا لتحزني ... قالتها شمس وسط نشيجها وهي داخل حضن أختها .

هتفت بها رنا :
ـ أنتِ كل شيء ؛ حياتي , عمري , أختي الكبرى و أمي ... ليتني آخذ من مرضك لأخفف عنك ، لقد تشاركنا الدم والروح أختي ، أم أنك نسيتِ ؟

زاد نحيب شمس وأختها لازالت متشبثة بها داخل عناقها , فتابعت :
ـ ستكونين بخير حتى أكون بخير لأنني لن أقوى على متابعة الحياة بدونك , لم أعرف الحياة إلا بوجودك معي , حتى وإن اختلفت طريقتنا في الحياة ستبقين أفضل أخت في العالم كله .

دلفت سعاد فهالها منظر ابنتيها فتغير الغضب المرسوم على وجهها لشفقة , اقتربت منهما , تسأل :
ـ ماذا حدث ؟ ... التفتت لها رنا قائلة :
ـ لا شيء , شمس تريد فقط معرفة قيمتها عندي ... مطت سعاد شفتيها قائلة :
ـ هناك من يسأل عنها بالخارج .

ـ من ؟ سألت رنا .

ـ زميلها بالعمل واسمه " رامي" .

ـ لا ؛ لن تقابل أحد ... قالتها رنا , فهتفت شمس :
ـ لا سأقابله , سأغسل وجهي و أخرج .

مسحت شمس دموعها ثم اتجهت لدورة المياه , غسلت وجهها وبعدها وضعت القليل من مستحضرات التجميل لأجل عينيها المتأثرتان بالبكاء ثم اتجهت لغرفة رنا أخذت منها حجاب

وضعته على شعرها وسط ذهول أختها التي فغرت فاها وعقدت حاجبيها متسائلة :
ـ هل ...؟

أومأت بنعم ثم رتبت الحجاب أمام المرآة وخرجت من غرفة أختها التي لازالت واقفة مشدوهة .

داخل غرفة الجلوس , كان جالساً ينتظرها وبين يديه باقة زهور بيضاء أنيقة , حالما رآها وقف مبهورًا بمظهرها الجديد , رافعًا حاجبيه في دهشة وقد زم شفتيه , فضحكت من ردة فعله ثم مدت يدها تصافحه وهي تقول :
ـ لماذا تنظر لي هكذا ؟

ـ هل تحجبتِ ياشمس ؟ .. قالها وهو يقدم لها باقة الزهور .

أومأت بنعم ثم جلست على الكرسي المجاور له ,التقطت منه الزهور , وقربت منها أنفها تشتمها ثم ابتسمت قائلة :
ـ يا لجمالها ! .. شكرًا لك رامي.

ـ لن تكون أجمل منك يا شموسة ... قالها وهو يغمز فلكمته في ذراعه فضحك ثم تابع : ألهذا تغيبت كل هذه الأيام ؟

هزّت رأسها نافية ثم قالت :
ـ كنت مريضة و ... لازلت ..غضّن جبينه سائلاً :
ـ ومانوع المرض ؟

ـ وهل عليّ إخبارك ؟ ... تابعت وقد رفعت أحد حاجبيها : أم أن أمري يهمك لهذه الدرجة ؟
... ابتسم بود وهو يفرك كفيه قائلاً :
ـ نعم أمرك يهمني كثيرًا ... عوجت فمها قائلة :
ـ ومنذ متى , أيها المخادع .

وضع سبابته على رأسه يحكها وكأنه يتذكر ثم تنحنح قائلاً :
ـ لا أذكر الوقت بالتحديد , تعلمين أن عندي معه مشكلة وأنسى التواريخ ... حاول تغيير الموضوع : هل أتى لزيارتك باقي الزملاء ؟ ... أومأت بنعم قائلة :
ـ معظمهم , ألا تعلم أنني محبوبة بالشركة .

نظر لعينيها يكتسب منها بعض البريق ثم قال :
ـ بلى ؛ أعلم , لكنك لا تعلمين ... ضربته على كتفه قائلة :
ـ ما تلك الألغاز أيها المعلم ؟ لم أعد أفهمك ... ابتسم برزانة قائلاً :
ـ بل تفهمي كل شيء وتدعي الغباء , أيتها المهندسة .

أشارت بكفها تسأله :
ـ إلام ترمي يا رامي ؟

أمسك كفها ونظر لعينيها مباشرة وقد اشتعل شيء ما في قلبه ليؤكد له أن غيابها أثار بداخله الكثير , مشاعر هاجت مع رؤيتها بذلك الزي المختلف الذي رغم حشمته فتنه ليطلب ودها , حينها حكت العيون بالكثير , تورد خديها وشعرت بالخجل الذي لم تعتد عليه لتقول بارتجاف وبصوتٍ خفيض أقرب للهمس :
ـ رامي !.. ماذا تفعل ؟

لم يرد وظلّ قابضًا على كفها بأصابعه مما زاد ارتباكها ليس لأنها أول مرة يمسك كفها وإنما لأن إحساسه وصلها لكن بالوقت الخطأ فقد كانت أمها واقفة أمام الباب عاقدة ذراعيها أمام صدرها وعلى وجهها أمارات الغيظ , سألت بغضب :
ـ ماذا يحدث هنا ؟

.....

قد يكون الطيف مجرد خاطر يجول بين رجل وامرأة حالت بينهما الظروف والمسافات لكن هل محاولاته لإيقاظ الشوق ستجدي نفعًا ؟؟

بنيت على قلبي جسرًا

يمر بين حناياك

لعل روحي تتسلل

لتبحث عني هناك

ـ أنا .... تردد الصوت في أرجاء المكان , صوت يألفه ويحبه ... كان للصوت صدى وكأنه في مكان خالي , قام على إثره ليجد من تدور وهي ممسكة بفستانها الواسع الوردي , ابتسم لرؤيتها ثم ركض حيث كانت ونار الشوق تكوي قلبه على مهل , أمسك بخصرها وعانقها مطولاً , لكن هذه المرة كانت لطيفة جدًا فقد استسلمت لعناقه بل وبادلته الشوق بتلك الكلمات

التي رتبتها في قصيدة لتكمل ما استأنفته "أنا تلك الأمنية التي دومًا تهواك ... أنا الكون برمته حين تزدان دنياك, بدت كنجمة متلألأة حلّت سماءه لتنير صحاري ظلمته المقفرة ".

ـ اشتقت لكِ , أمنية .

ـ وأنا أيضًا ... قالتها وهي تبتسم ثم مالت برأسها على صدره , فعلا ضجيج قلبه وكأنه يحتفل برؤيتها ... فجأة ابتعدت ثم أمسكت بمعصمه وقالت :
ـ لك عندي مفاجأة .

ـ مفاجأة ! .. قالها في عدم تصديق , فأومأت برأسها ثم جذبته من يده قائلة :
ـ اغمض عينيك .

سار معها مغمضًا عينيه كما طلبت لكن الحرارة المشعة من صدره توهجت لتنير له درب حب لا نهاية له , فجأة قالت :
ـ افتح عينيك .

فتح عينيه ليجد نفسه في غرفة المكتب , ابتسم قاطبًا جبينه لأنه لم يستوعب بعد نوع المفاجأة , التفت لها لكن للأسف رحل طيفها وأظلم فضاء الغرفة من حوله .

ـ أمنية ... هتف باسمها بعد انتهاء الحلم على غير رضاه ثم قام من مضجعه كالملتاع يبحث عنها في الشقة , لم يجدها .. حينها أدرك أنه كان يحلم , عاد للصالة فوجد ساعة الحائط تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل ..أخذ يتثائب ويفرك فروة رأسه وهو يقول :
ـ مجددًا .. كلما نمت أتتني في أحلامي وكأنها صنعت تعويذة برحيلها لتحرمني النوم ، وكأنني أنعم به في غيابها ... تعبت يا أمنية ... تعبت .

مر أسبوع ولازال الحال كما هو , بل أسوء بكثير فقد بات يشعر بالفقد لبعدها وغيابها وكأنها كانت الحياة لهذا البيت , حتى عمله تغيب عنه وأخذ إجازة مفتوحة حتى لا يراه زملائه بهذا الانهزام والضعف , يريد ترتيب كل سطور حياته ، لكن لا يعلم من أين يبدأ ؟

ذهب لغرفة المكتب الذي لم يقربها مذ رحلت ثم ضغط على زر الإضاءة ليجد الغرفة محاطة بقصاصات الورق ... غلفت الجدران بالقطع الصغيرة ... اقترب من أحد الحوائط ثم تلمس تلك القصاص وهو يمشطها بعينيه ففغر فاهه و سرت رجفة بأوصاله من قراءة الورقة , فقد سطّرت الكلمات التي سمعها تخرج من بين شفتيها بالحلم .

سار بمحاذاة الجدران يلملم الورق الملتصق بفعل الشريط اللاصق و يقبّله ثم يقبض عليه في راحته وبعدما انتهى اتجه للمكتب توسطه ثم صف الأوراق عليه ليعيد القراءة بصوته الأجش ...

بنيتُ على قلبى جسرًا يمر بين حناياك

لعل روحى تتسلل لتبحث عنّى هناك

أنا تلك الأمنية التى دومًا تهواك

أنا الكون برمته حين تزدان دنياك

فيهديك قلبًا بكرًا سكناه يداك

على أمل أن تأويه تحت سماك

ليسمع لحن أشواقٍ تغنت به شفتاك

لم أعهد الحب قبلك , فهلا جدت بهواك ؟

ألا ياسيدى تشعر بقلبٍ يهفو لرؤياك ؟

أما آن أن تلحظ حبًا يسرى بدماك ؟

قلبًا ينبض اسمك به الرب حباك

ألا تخشى رحيل فؤاد بات يحلم بلقياك ؟

وإن رحل ..... فلن تلقاه أبدًا عيناك

فلن أمضى فى دربٍ لم تطأه قدماك

ومهما كنت كريمة لن أطيق استنزاف

يبعثر من كرامتى و يكسرنى بجفاك

لم يتحمل جروح قلبه الدامية مع كل حرف يقرأه, أعاد القراءة ومع كل مرة يزداد الألم, فغادر متجهًا نحو الشرفة , استوى على كرسي ثم رفع رأسه للسماء يطالع النجوم والقمر الذي بدأ في التراجع مع انكماش الليل , زفر نفسًا عميقًا يخرج بآهات الفؤاد ثم قال :

ـ يارب اصلح حالي واجمعني بها عن قريب, لم أكن أعلم أنني أحبها هكذا حتى غادرت ، لقد أيقنت أني أعشقها يارب ... أعشق روحها ومتيم بهواها يااااارب .

أخذه عقله حيث هي وريم , وهل هما نائمتان الآن ؟ .. تمتم قائلاً :
ـ هل حقًا أتاكِ نوم يا أمنية كل تلك المدة بلا أرق ؟ ... مزقه الوجد من مجرد التخيل أن تكون سعيدة بذاك البعد الذي فرضته عليه وكان هو جزء منه ... ظل يردد : معقول يا أمنية !

عاد للداخل ليتوضأ ويصلي حتى يؤذن للفجر وهو عازم على عدم النوم بعد ذلك لأجل ترتيب كل أولوياته وتنظيم كل أموره .

على الجانب الآخر , كانت تتقلب على فراشها والأرق يفتك بها , قامت تتفقد ابنتها التي غطت في نومها منذ ساعات , تحركت بهدوء حتى خرجت من الغرفة دون إصدار أي صوت ثم خرجت للحديقة لأنها تشعر بانقباض في صدرها , كان صدرها يعلو ويهبط ولا تعلم سبب مايحدث لها فهي تحيا أجمل أيام عمرها مع عائلتها التي تتفانى في تدليلها ومع ذلك هناك ألم نابض من قلبها لا تعلم سببه , تنهدت قائلة :
ـ لماذا يراودني هذا الشعور ؟ لا أريد العودة لكن .... لكن الحنين يكاد يقتلني ... جال بخاطرها آدم , رفعت رأسها للسماء وطالعت النجوم المتفرقة تمتمت :
ـ لعلك تنعم بالسعادة مع شمسك منذ رحيلي ؟ ... تساقطت العبرات على خديها رغماً عنها لتكمل : ليتني لم أوافق على الزواج منك .

.....

كلمات الغزل ماهي إلا طلقات نارية يسهل تسديدها نحو أنوثة المرأة فتؤتي ثمارها نفعًا بنسيان أي ذكرى من الماضي السحيق ...

كانت تتثائب وهي تتحدث معه بمكالمته المرئية المعتادة , وترد عليه برسمية غير معهودة منها لكنها منذ ذهبت لرفيقتها وقد انفتق جرح قلبها من جديد ساكبًا الحمم مع الدماء فيغلي كبرياءها غليانًا , كانت تظن أنها تخطت الأزمة بنجاح، لكنها أيقنت منذ أسبوع أنها أخفقت ولا تعلم كيف تواجه زوجها فقد باتت تكره مكالماته وتكره بعده , امتلئ صدرها بكم لا بأس به منه المتناقضات ، تارة تريد رؤيته وتارة أخرى لا تطيق سماع اسمه لكنها تعلم شيء واحد فقط ؛ ألا وهو أنها لا تكون سعيدة إلا بقربه فربما ماحدث لها نجم عن البعد المجبرة عليه بسبب مرض والدتها ظلّت في ذلك الصراع الداخلي الذي لا يعلم حدته إلا الله ولا سبيل للتحدث معه بالموضوع لا سيما أنها وعدته أنها بالفعل تجاوزت الأمر .

أطبق الصمت إحكامه عليهما للحظات , قطعها حسن قائلاً :
ـ ماذا بكِ سحر؟ ... رفعت عينيها لثقب الكاميرا وابتسمت قائلة :
ـ لا شيء , أنا بخير ياحبيبي .

ضيّق عينيه وهو يطالع ردة فعلها المرسومة على الشاشة ثم قال :
ـ بل هناك شيء , لا أعلم ماهو لكنك ستخبريني .

ـ بماذا أخبرك ؟ ... صدقني أنا بخير.

ـ هناك شيء تخفينه عني .

ـ وماهو ؟ .. ردت عليه وهي رافعة أحد حاجبيها ...رفع كتفيه قائلاً :
ـ هذا ما أود معرفته منك .

ـ حسن ... تغندجت باسمه متابعة : أرجوك لا تكبر الموضوع , مجرد إرهاق لا أكثر .

ـ ولما لا تحضري واحدة تساعدك يا عمري .

لانت ملامحها قليلاً لتقول :
ـ الموضوع بسيط ولا يحتاج صدقني ... هزّ رأسه نافيًا وأشار لعينيه ثم قال :
ـ لو نظرتي بعيني لنفسك , ستعلمين حينها أنه يحتاج .

ابتسمت برقة فقد راقت لها كلماته ثم قالت :
ـ ألهذه الدرجة تحبني ؟

ـ اسكتِ سحر أرجوكِ ...تابع وهو ممتعض : أنتِ تعذبينني بهذا السؤال ؟

مطت شفتيها قائلة :
ـ لكنني أريد الجواب .

ـ إذن الإجابة لا ... قالها فقطبت سحر حاجبيها وارتعشت شفتيها قائلة :
ـ ماذا قلت ؟ ... اتسعت ضحكته ليقول :
ـ قلت لا أحبك ؛ بل أعشقك يا كل حياتي .

وضعت كفها على فمها ثم انسالت الدموع على وجنتيها وقد تمت إصابتها بنجاح , رفع حاجبيه في دهشة من ردة فعلها ثم قال :
ـ ألم أقل لكِ , هناك شيء ... لم ترد فتابع : لماذا البكاء الآن ؟ تزيدين عذابي هكذا... تكلمت

وسط نهنهاتها وهي ترمش بعينيها :
ـ لأنني أحبك ... كثيرًا .

انتهت المكالمة بينهما لكنه ظل مشغول البال على تغيرها , قرر مفاجئتها بأمر ما داعيًا الله أن تكون حقًا على ما يرام ولا يكون هناك شيء تخفيه عنه .

.....

مهما طال الظلام لابد من بزوغ الفجر حاملاً معه نسائم الصباح المحملة بالأمل ليؤكد أن العسر دائمًا و أبدًا يتبعه اليسر ...

تنفس الصبح ليبعث الأمل في نفس آدم , لم ينم مذ داهمه الأرق ورغم ذلك ود لو يشكره على ايقاظه ليعيد ترتيب شؤونه على نحو أفضل, تناول إفطاره ثم بدّل ملابسه متجهًا نحو عمله وفي الطريق أمسك الهاتف واتصل بوالدها مجددًا وهذه المرة رد عليه ... لم يصدق أذنه فصمت للحظات مدهوشًا حتى قاطعه صوت جمال بالسلام .

ـ أهلا عمي .. كيف حالكم ؟ ... سأله والحرج يقطر من جبينه .

ـ أظنك تعلمه يا أبا ريم ... قالها جمال والعتب واضح بين حروفه .

صمت آدم هنيهة لا يعلم كيف يتدارك شعوره بالندم ولا يعلم كيف يرد عليه , قال : ـ هل يمكنني مقابلتك عمي؟ ... صمت جمال , فتابع آدم :
ـ أنا جدًا آسف بشأن كل شيء وأود مقابلتك لتوضيح كل شيء .

لازال الصمت مطبق إحكامه على جمال , فواصل آدم :
ـ أرجو أن توافق , فأنا جدًا أحتاج مقابلتك ... تنهد جمال قائلاً :
ـ حسنًا , سأنتظرك الليلة في البيت الساعة التاسعة مساءً .

تهللت أسارير آدم ليرد والفرحة بين كلماته :
ـ سآتِ في الموعد إن شاء الله .

انتهت المكالمة على خير لتتسع ابتسامة آدم ويشع النور بين قسماته ,وهو يتمتم :
ـ أخيرًا سأراكِ أمنية ، كان قلبه يتراقص من مجرد ذكر اسمها وعقله يخطط منذ الآن لما سيرتديه , رفع رأسه لينظر لوجهه عبر مرآة السيارة فقطب جبينه قائلاً وهو يمسد ذقنه وشاربه :
ـ لابد أن أحلق شاربي و ذقني .

لم يفكر ماذا سيجلب لها خلال تلك الزيارة كي يقنعها بالعودة , فقد مرّ أسبوع لكنه يراه سنة , فكر بأمر ريم لذا مؤكد سيشتري لها لعبة جميلة بعد عودته من العمل , أما هي فقد قام بتوصية أحدهم على هديتها قبل حفل جنى وقد جلبها في طريق عودته في اليوم المشئوم الذي غادرت فيه لتكن هي رفيقته في تلك الأيام المقفرة بعيدة عن صاحبتها .

صف سيارته أمام الشركة ثم ترجل منها وما إن دلف حتى رحب الجميع بعودته متظاهرين أنهم افتقدوه رغم عدم مهاتفة أحد أو حتى محاولة التواصل معه ... اتجه نحوه أسامه ثم جلس أمام مكتبه .

ـ حمد لله على سلامتك ... ابتسم له قائلاً :
ـ سلمك الله ... تنحنح أسامة قائلاً :
ـ شمس لها أسبوع متغيبة وقد مدت الإجازة .

لم يرد آدم , فتح حاسوبه مدعيًا الانشغال , فواصل أسامة :
ـ إنها مريضة , ألن تسأل عنها ؟

حرك آدم رأسه بعيدًا عن الشاشة ثم نظر لأسامة وهو رافعًا أحد حاجبيه قائلاً :
ـ وهل سأل عني أحد ؟... ابتلع أسامة غصته ثم قال :
ـ لكنك غامض ولا يعلم عنك أحد أي شيء .

لوح آدم بكفه الأيمن الملثم أمام ناظريه قائلاً :
ـ وها قد كنت مريضًا ولم يسأل عني أحدكم .

ضمّ أسامة شفتيه في حرج ثم غضن جبينه قائلاً :
ـ أعتذر منك , سامح تقصيرنا جميعًا في حقك ... ابتسم له آدم قائلاً :
ـ لا عليك .

غادر أسامة تاركًا آدم منشغلًا بعمله ولايزال مبتسمًا فقد انشرح صدره بعد مهاتفة جمال , لم يحب إفساد بهجة يومه بأي خبر قد يعكر صفو مزاجه لذا لم يعطي اهتمام لكلام أسامة وتلميحاته المبطنة .

.....

أي ذكرى قاسية تسببت في جرح الكرامة لن تندمل بشكل كامل ليظل جرحها جرسًا للكبرياء يخبر صاحبها دومًا أن مهما ناداه الشوق لن يضعف أبدًا...

طرقات على غرفتها بعدها دخلت رغدة , كانت تقرأ رواية , ابتسمت لرؤية والدتها ثم أغلقت الكتاب ونحته جانبًا لتسمعها , اقتربت منها رغدة ثم جلست على الفراش ... ران بعض الصمت قطعته أمنية قائلة :
ـ هل أساعدك بشيء من أعمال المنزل أمي ؟

هزّت رغدة رأسها نافيًا ثم زوت ابتسامة واهنة على شفتيها قائلة :
ـ أردت معك التحدث بشأن أمر يخصك فقد هاتفني والدك منذ قليل لأخبرك .

ضيقت أمنية عينيها قائلة :
ـ ولما لم يهاتفني ؟

ـ ظنك لازلتِ نائمة , فقد خرج لعمله باكرًا .

ـ وما ذلك الأمر الذي بعث التوتر بين قسماتك أمي ؟

اقتربت رغدة أكثر ثم أخذت تمسد كتف ابنتها , قالت :
ـ آدم سيأتي الليلة ... اتسعت عينا أمنية و دق قلبها بقوة لتقول :
ـ ماذا ؟ ... أومأت رغدة بنعم لتضيف :
ـ في تمام الساعة التاسعة .

أشاحت أمنية بوجهها بعيداً ورفعت ذقنها في إباء قائلة :
ـ لن أقابله ... شهقت رغدة قائلة :
ـ ليس من شيم بنات الأصول الإعراض عن أزواجهن يا ابنتي .

عقدت أمنية جبينها وشعرت بالغضب بسبب دقات قلبها التي تحرجها بهذه الطريقة وتعصي كبرياءها , قالت :
ـ أبي سيقابله , لكنني لن أفعل ولن أغير رأيي .. زمجرت والدتها :
ـ أمنية !

رفعت كفيها قائلة وقد تسللت خيوط الدموع على وجهها :
ـ أتمنى أن تشعري بي ولو لمرة يا أمي , ضربني وأهانني بقسوة وجعلني أخرج من بيتهم تائهة حتى كادت عربة تصدمني لولا ذلك الشيخ الذي لا أعرفه لكنه أشفق على حالي من هيئتي وشكلي , أخذني من موت محقق وساعدني لأكون هنا بينكم .. أضافت وهي ترفع سبابتها : حتى المال لم يكن معي ولولا ذاك الرجل الطيب لما تمكنت من ركوب سيارة أجرة .

طأطأت رغدة رأسها في أسف لإعادة ذلك الكلام على مسامعها مجددًا , ربتت على كتف أمنية قائلة :
ـ حسنًا , اهدأي حبيبتي ... سأخبر والدك برغبتك ولن يمانع .

اندهشت أمنية من ردة فعل أمها الغير متوقعة فرفعت حاجبيها قائلة :
ـ حقاً ! ... هزّت رغدة رأسها توافقها ثم ضمتها لصدرها وعقلها يقول :
ـ لقد تحملت مالا تطيقه امرأة يابنيتي , كان الله في عونك , لابد أن تأخذي وقتك لتضمدي جراح قلبك وأرجو أن تتمكني من تجاوز كل ما حدث لكِ .

.....

لا شيء يمكن توقعه مع الشخصيات المزاجية التي تبدع في التنقل بين الأدوار ليصبح تحركها أمر وارد في منعطف المشاعر ...

كانت سعاد واقفة تضرب بقدمها على الأرض وهي عاقدة ذراعيها أمام صدرها تتابع ذلك الذي يمسك بيد ابنتها على مرأى ومسمع منها دون اعتبار لحرمة البيت الذي دخله , تميز الغيظ بصدرها لوقاحة ابنتها وعدم احترامها وهي لازالت على قيد الحياة , جذت على أسنانها بغيظ من ذلك المنظر المقزز .

التفتا الإثنين لتلك الواقفة وابتلعا غصتهما ثم شدت شمس يدها من أصابع رامي المتشبثة بها , فدخلت سعاد ورمقتهما بنظراتها الملتهبة قائلة :
ـ ماذا تفعلان ؟ ...امتقع وجه شمس وقامت من مكانها مسرعة نحو أمها لتقول بصوت مرتجف :
ـ لا شيء , صدقيني أمي .

قام رامي من مكانه والتوتر يبعثره ثم قال :
ـ أريد خطبة شمس , خالتي .

ـ وهل هكذا تتم الخطبة يا ابن الأصول ؟ ... قالتها سعاد وهي مطبقة فكيها بغيظ .

غضّن رامي جبينه في حرج ليضيف :
ـ أنا آسف , لقد كنت .... رفعت سعاد صوتها قائلة :
ـ لا يهمني ماذا كنت , من يود الزواج يذهب لوالدها لطلب يدها ولا يتصرف بصبيانية كما فعلت ... التفتت لشمس متابعة : وأنتِ عودي غرفتك .

تحرك رامي ناحية الباب الخارجي وهو يردد عبارات الأسف ويعدها بأن يتجه لمكتب والدها لإخباره بكل شيء .

خرجت شمس بسرعة عائدة لغرفتها ثم دلفت غرفتها بلا دموع أو بكاء , كانت سعيدة للدرجة التي أنستها لوم أمها لها منذ لحظات , ظلّت تضحك وتنظر لنفسها في المرآة وتقول :
ـ ليست كل الهموم مبكية ... ياله من مجنون لكنه ... أعجبني ... لم تلحظ من كانت متكئة على وسادة السرير وتنظر لها بطرف عينيها علّها تفهم مايجري .

ـ هيبي .. نحن هنا .. قالتها رنا مهلّلة

استدرات شمس وعلى وجهها حمرة على غير العادة , ابتسمت بهدوء ولم ترد , فقامت رنا من مكانها ورفعت أحد حاجبيها قائلة :
ـ هل أنتِ بخير ؟

ـ جدًا .. جداااااا ... قالتها شمس وهي ترفع إصبع الإبهام بسعادة وتناست تمامًا أمر الفحص الذي عادت منه منذ قليل وكأن شيئًا لم يكن .

.....

كل محنة تتشبث براثنها بالنفس تؤخر مدة تجاوزها , ولا يمكن معرفة إن كان الشخص قد تخطاها أم لا.. إلا عند نطق اسم صاحب الجرح على مسامعه ...

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة بربع الساعة ولازال الجدال يتقافز بين جمال وابنته , يحاول إقناعها بالعدول عن قرارها وتأبى , يسترضيها لمقابلة آدم وترفض بشراسة وكأنه آتٍ لقتلها .

ـ لا يجدر بكِ الإصرار على عدم لقاءه هكذا يا ابنتي ! ... قالها جمال وهو جالس على كرسي في مواجهة أمنية التي انكمشت على سريرها مهمومة , بينما فضّلت رغدة الانسحاب مع ريم إلى الصالة لمشاهدة التلفاز .

ـ أرجوك أبي ... قالتها أمنية وهي تزم عينيها باستعطاف .

زفر والدها بضيق ليردف :
ـ حبيبتي , لابد من المواجهة لتحققي هدفك أيًا كان , قلت لك مسبقًا لن أناقشك في الأمر طالما قمت بالنظر فيه ... رفعت كفيها مهللة :

ـ لالالا , اعفني من تلك المواجهة ... مسح على ساقها بحنان قائلاً :
ـ اهدأي بنيتي .

ران عليهما بعض الصمت قطعه جمال قائلاً :
ـ لماذا ترفضين لقاءه بهذا الشكل ؟

استأنفت أمنية البكاء وقد جال بعقلها آخر مشهد لها ببيته وهو يضربها ويخرجها من الشقة خاوية الوفاض ,اقترب منها أبوها ضمّها إليه في محاولة لتهدأتها , فقالت وسط نشيجها :
ـ أنا لم أتجاوز الأمر , أبي .

ـ حسنًا , أفهمك ... تابع وهو لايزال محتضنها : أنا سأكون معك بالداخل ما الذي سيجري إن دخلتِ وقلتي ماتريدينه منه بكل صراحة .

ـ قلها أنت , أبي .. واعفني أرجوك من تلك المهمة ... هتف جمال قائلاً :
ـ أنتِ شريكته يا حبيبتي وزوجته لذا لابد لكِ من مقابلته .

ـ أخاف أن أضعف فلا أتمكن من الكلام ..... تابعت وهي ترتجف : أشفق علي يا أبي .. هزّ جمال رأسه متفهمًا ثم قال وهو يربت على ظهرها :
ـ حسنًا , ماذا أقول له عندما يأتي ؟

ـ قل له أني لا أريد سوى الطلاق .. تابعت وهي تكفكف دموعها : ولا يقلق بشأن ريم سيراها وقتما شاء هو وأهله .

ـ حسنًا , هل من شيء آخر ؟ ... قالها وهو قاطب جبينه وقلبه ينفطر من رغبتها التي لم يود سماعها يومًا لكن لايد له في شيء , هي بالنهاية حياتها .

ـ لا , شكرًا أبي ...قالتها وتوقفت عن البكاء فقد هدأت نفسها تمامًا وارتاحت بعدما تركها والدها تنفذ ما طلبته .

على الجانب الآخر كان آدم قد انتهى من حمامه الدافئ وقد اعتنى بحلاقة ذقنه ليبدو أكثر وسامة ثم ارتدى قميصًا غامق اللون كانت تحبه أمنية عليه , أخذ يصفف شعره أمام المرآة و هو يبتسم ثم أمسك قارورة العطر لينثر عبيرها على هيئته البهية التي زانتها نبضات قلبه المتواترة وكأنها تعزف ألحان الحب , فهاهو على موعد معها لا تفرق بينهما إلا دقائق معدودة .

نظر لكفه الأيمن وقد قطب جبينه , أراد خلع لثامه لكن الجرح لم يندمل بعد فقد كان عميقاً , حدث عقله : لا يهم , لعلها تشفق علي بسبب منظره وتعود بسهولة .

انتهى من هندامه ثم خرج متجهًا نحو الدرج ليهبط درجاته بخطوات ثابتة , والبسمة تعلو ثغره , سار للباب الخلفي حتى لا تراه دينا فتتشبث به وتلح عليه بالمجيء , أراد أن يتناقش معها بأمرهما دون تدخل أحد .

استقل سيارته وهو يسابق الريح ليصل كي يراها ويملي عينيه منها فقد بلغ منه الوجد مبلغًا لا بأس به حتى فاض من حناياه , والقلب تتراقص دقاته على نغمات مجسمة تداعب روحه ليطلق تنهيدة تحمل من الشوق مايصهر جوانحه .

الفصل السادس والعشرون

(عودي إليّ)

.....

أتيت بالأشواق حاملاً المُنى ...

من بهجة الأحلام زينت الدُنا ...

الحب شيعني بضياء الهوى ...

ليمحو حزن حاصر بظلمته الدجى!

فيداوِ جرحًا منه الفؤاد قد اكتوى

وظننت أني قد شفيت !

صدقت كلمات قلبي ...

ونسيت آلام الأنين

وها أنا على أعتاب الحنين أنادي

هل من مجيب ؟

هل لي بوعدٍ صادقٍ

يمحو جفاءً فاق السنين ؟

عودي إليّ حبيبتي

ولتغفري آثام قلب

لم يلق بعدك غير الجوى

فيفيض من عينيه ظلمًا

يحكي أوجاعًا فاقت بقسوتها الألم

عودي إلي واجعلي حلمي حقيقة !

ودعي السراب لمن أضناه الأمل !

ويقيني دومًا أن وقت الحقيقة قد اقترب

.....

عندما تحاصر النفس بالسياج الأمومي اللائم فلا سبيل للفرار إلا عن طريق اللهو بالمحيطين بكل احتراف تحت راية الفراق , فتتحدث عندها المآقي بالحب عوضًا عن اللوم ...

دلفت سعاد كالسهم المحترق غرفة شمس لتجدها جالسة تثرثر مع أختها , جذبتها من ذراعها بقوة فانتفضت وكذا رنا التي هتفت :

ـ ماذا حدث ؟ ... رفعت سعاد صوتها قائلة :

ـ أنا من عليه أن يعلم ماذا حدث ؟ ... نظرت رنا لشمس قائلة :

ـ ماذا فعلتِ ؟ ... خلصت شمس ذراعها من قبضة سعاد وأخذت تمسده ثم أشاحت ببصرها بعيدًا قائلة :

ـ لم أفعل شيء ... ثارت سعاد بسبب استهتارها لتقول :

ـ كيف تجعلينه يمسك يدك هكذا ؟ هل جننتِ ؟

شهقت رنا و كممت فمها بيدها كالمصعوقة , قالت :

ـ زميلك أمسك يدك ؟!

ضحكت شمس من ردة فعلهما و رفعت أحد حاجبيها قائلة :

ـ أنا دائمًا أمزح مع أصدقائي في العمل هكذا , ليس ذنبي أنكما من عالم آخر لا يستوعب معنى الانفتاح و التحضر .

ـ عن أي انفتاح تتحدثين ؟ .. تابعت سعاد وهي تصرخ :

ـ طالما أردتِ الانفتاح لماذا ارتديتِ الحجاب ؟ .. كانت رنا تتابع في صدمة ولم تعقب على ما قيل ... مطت شمس شفتيها قائلة :

ـ استعدادًا للمرحلة القادمة .

قطبت سعاد حاجبيها ونقلت بصرها بين ابنتيها لتعقب :

ـ لا تحدثيني بالألغاز يا بنت .

حاولت رنا تهدئة الوضع فوقفت أمام والدتها تقول :
ـ شمس لا تقصد ماتفعله , أمي .. أنسيتِ أنها مريضة ؟

اقتربت شمس نحو والدتها , قامت بإبعاد رنا من طريقها ونظرت لعيني والدتها ثم تنفست بعمق قائلة :
ـ إلى الآن لم تعلمي نوع المرض الذي داهمني يا أمي ... صمتت هنيهة ثم تابعت : ـ الكتلة التي أخبرنا الطبيب بها ولم تفهمي معناها ، ماهي إلا ورم ... وررررررم داخل رحمي .

ازدردت سعاد ريقها وارتجفت شفتيها وهي تطالع ابنتيها بهلع , لتقول :
ـ كاذبة ... هزّت شمس رأسها نافية ثم قالت :
ـ ستتأكدي بعد غد عندما نتسلم صورة أشعة الرنين .

التفتت سعاد لرنا وقد اتسعت حدقتيها قائلة :
ـ أختك تكذب يارنا , أليس كذلك ؟

قطبت رنا جبينها وأطرقت رأسها تطالع الأرض ولم ترد , فصاحت سعاد :
ـ أنتما تكذبان ولا أساس لصحة ما قالته شمس ... هل علي تصديق فتاتان لا تعلمان عن الطب شيء؟

ـ اهدأي , أمي ... قالتها شمس ولازالت عيناها معلقة بعيني والدتها الملتاعتان بينما استأنفت رنا البكاء بنشيج عالي ... هتفت بها سعاد وهي تشير بذراعيها :
ـ أهدأ؟ أنا سأذهب بنفسي الآن لطبيبك لأتأكد منه .

ربتت شمس على ذراعها بحنو لتضيف :
ـ لن يغير ذهابك شيء إلا مزيدًا من العذاب , لابد أن نتأقلم جميعًا مع التغيرات التي ستطرأ عليّ وتتقبلوني .

التفتت رنا لشمس وقالت وسط نهنهاتها :
ـ لماذا تصرين على أن مابك خبيث ؟ يقيني بالله يجعلني أتوقع أن يكون مجرد ورم حميد ولن يحدث ما تخشين .

ـ ألهذا ارتديتِ حجاب ؟ .. قالتها سعاد بصوت خفيض وعيناها جامدتان والصدمة قد كست وجهها .

أومأت شمس بنعم , فصمتت سعاد وقد امتقع وجهها , شعرت بأن الأرض تميد من تحتها , كانت ستسقط لولا أن ابنتيها هرعا إليها لإسنادها ليجلساها على السرير , ولازالت تطالعهما بتيه وكأنها فقدت الذاكرة ولم تعد تتعرف إليهما و أنفاسها المتلاحقة تمزق روحها شيئًا فشيئًا على غفلتها لجهلها بنوع مرض ابنتها الذي لم يكن ليخطر على بالها في أسوء كوابيسها وأكثرها رعبًا .

رغم كل هذه الدراما التراجيدية المحيطة بها لنحيب والدتها وأختها بهذه الطريقة المؤلمة , كانت روحها تنتشي لأن والدتها نسيت تمامًا أمر الخاطب المجنون الذي تشبث بيدها منذ قليل وتوغل لأعماقها بداية من عينيه ليفصح لها عما هاج بداخله , تمتمت لعقلها : لقد تأخرت كثيرًا أيها المجنون .

.....

مهما حاول الخيال رسم أجمل توقع للحقيقة مقسمًا أنه سيسامي الحلم , فقد كذب لأن الحقيقة نبتت من قسوة الواقع الذي مهما بلغت حلاوته ستظل محاطة بالألم ....

وصل آدم ومعه هديتي زوجته وريم , رن الجرس ليفتح له جمال وعلى وجهه أمارات الأسف وتوتر آدم لدى رؤيته هكذا لكنه لم يترك ابتسامته , دلف معه نحو الداخل حيث غرفة الجلوس ليستوي على كرسي في مواجهته .

نظر جمال لكفه الأيمن رافعًا حاجبيه بدهشة ثم أشار عليه قائلا :
ـ ما بال كفك ؟

ـ مجرد جرح بسيط .. رد آدم باقتضاب ففهم جمال أنه لا يود البوح بالتفاصيل فآثر عدم سؤاله عن سبب إصابته , قال له بهدوء :
ـ سلامة الله عليك ... ابتسم آدم قائلاً :
ـ سلمك الله ..

أتت رغدة بكأسين من العصير ومعها ريم التي ما إن رأت والدها حتى ركضت نحوه مهللة :
ـ أبي .

فتح آدم ذراعيه وضمّها لصدره الذي كان يعلو ويهبط من فرحته بمرآها والصغيرة تضحك ملئ فيها لرؤيته وتقبّل وجنته ,مرر شفتيه على خدها بحنو وهو يقول :
ـ لقد أوحشتني يا ريم كثيرًا , ألم تشتاقي لي ؟ غضّنت الصغيرة جبينها وزمّت شفتيها وكأنها

فهمت مايقول ثم أدارت رأسها نحو باب الغرفة المطلّ على الصالة وأشارت بإصبعها الصغير قائلة :
ـ أمي ...همس في أذنها قائلاً :
ـ بلغيها سلامي وأنني بانتظارها .. ضحكت ريم من همسه وكأنه يدغدغها فقبّلها آخر قبلة ثم أنزلها على الأرض وقدم لها كيسين بكل يد واحد قائلاً :
ـ هذا لكِ والآخر لوالدتك , صفقت ريم وقفزت فرحة .

وضعت رغدة العصير على المنضدة ثم اتجهت لآدم تصافحة وتسلم عليه بلا تعابير على وجهها ثم التقطت منه الكيسين وغادرت الغرفة رفقة ريم ومعهما غادرت روحه لم يكن يتخيل أن يكون لرؤية ريم مفعول السحر على نفسه هكذا , ظلّ يتابعهما حتى اختفى طيفهما من أمامه والقلب يخفق بألم .

عاد الهم لملامحه من جديد مضيفًا توتر قاسي , لمحه جمال فحثه لتناول العصير حتى يهدأ توتره البادي على قسماته .

رشف آدم من العصير والارتباك لم يتزحزح قيد أنملة وجمال يتفحصة بنظراته الدافئة ويبتسم بين الفينة والأخرى ليس مجاملة ولكن شفقة فحاله يستدعي ذلك , نحى آدم الكأس جانبًا ففهم جمال أنه يود الحديث بالموضوع لذا هزّ رأسه ليعلمه أنه منتبه له بكل جوارحه ... كانت الكلمات ثقيلة على آدم ثقل الجبال , تأبى أن تتحرك بين فكيه , واقفة في حلقومة تكاد تودي به خنقًا , لا يعرف من أين يستهل حديثه لكنه قرر البدء ليقول :
ـ أنا آسف .

ابتسم له جمال ابتسامة ودودة ولم يعقب , فاستكمل آدم بعدما أخذ نفسًا عميقًا :
ـ أعلم أنني أخطأت خطئًا جثيمًا في حق أمنية لكنني أرجو أن تفهم ما حدث لي ..نظر لعينيه يستدر عطفه متابعًا :
ـ أنت رجل وستفهم ماحدث لي يا عمي ... رمش جمال بعينيه وحرك يديه ليردف : ـ هات ماعندك , بني .

قل ارتباك آدم بعدما هدأه جمال بسماحة وجهه وسعة صدره , فشرع في مواصلة حديثه :
ـ وددت أن تخبرني عن كل ماحدث معها لكنها فضّلت الكتمان مما جعل الشيطان يعبث برأسي ... استوقفه جمال قائلًا :
ـ يعبث برأسك فتشك فيها , ألا تعلم تربيتها يا آدم ؟

تفصد جبين آدم بالعرق وشعر بالحرج من سؤال جمال , فأومأ نافيًا :
ـ بلى ؛ أعلم , لا عشت ولا كنت إن اتهمتها بأي شيء .

ـ ألم تتهمها بالخيانة ؟

صمت آدم للحظات قد ود أن تنشق الأرض وتبتلعه ولا يعلم كيف يخرج من مأزقه , فباغته جمال ليخفف من وطأة حرجه :
ـ أعلم أن ابنتي أخطأت بكتمانها وباتهامك أنك تواعد أخرى , لكن مهما سمعت لايعميك غضبك عن تحري الحقيقة .

ـ معك حق ... زفر آدم متابعًا : أنا أغار عليها يا عمي , أكاد أموت من الغيرة عليها .

حرك جمال رأسه ليوافقه ما قال وكأنه شعر به ورأف بحاله , فواصل آدم بصوته الأجش الحزين :
ـ بخصوص اتهامها لي , أقسم لك بالله أنني لا ولم أحب غيرها و ليس بيني وبين زميلتي بالعمل أي شيء ... سأله جمال بطريقة رسمية :
ـ ولماذا إذن تهاديها ... رفع آدم سبابته قائلاً :
ـ لم تكن سوى هدية واحدة , أعطيتها إياها لرد وليمة كانت قد دعت الشركة لها بمناسبة تعيينها , فأعطيتها هدية بمناسبة ذكرى مولدها في الشركة ولم أحضر حفلتها .

ـ وماذا عن صداقتكما على الفيس بوك ؟

تململ آدم من ذلك التحقيق الذي أجاده جمال وكأنه يعمل مع فريق استخباراتي محترف , لكنه لم يجد إلا الإجابة بكل موضوعية وصدق , فلا منجى إلاه , قال :
ـ لقد أنشأت الشركة منذ عدة أعوام صفحة لها على الفيس بوك وقامت بتوزيعنا على مجموعات بناءًا على الأقسام وبالتالي من الطبيعي أن يكون معي في المجموعة كل الزملاء والزميلات العاملين معي بنفس القسم ومن ثم إن أتاني طلب إضافة من إحدى الزميلات لن أرفض لأننا بالفعل نعمل معًا كما أننا بنفس المجموعة الفيسبوكية .. رفع آدم كفه ليضيف بنبرة جادة : لكنني وأكرر لم ولا أكن لها أي مشاعر تدفعها لتصرفاتها الحمقاء معي , كما أنني قمت مؤخرًا بحظرها من قائمة أصدقائي .

همهم جمال وهو يحرك رأسه متفهمًا ومقتنعًا بما قاله آدم بخصوص زميلته , فقال : ـ أقنعتني بخصوص زميلتك , أما بخصوص ضربك لها لا .

صمت آدم على مضض وشعر بالغضب بسبب حصار جمال الذي قطع صمته قائلاً: ـ أنا أشعر بك تمامًا , ولا أعلم لو كنت مكانك كيف سيكون تصرفي لكن أود لفت نظرك لأن من يحب لن يقوى على لمس حبيبه بأي أذى ... تنهد جمال متابعًا وسط حرج آدم وأسفه : و أنت تسببت بأذى أمنية جسديًا ونفسيًا .

على ذكر اسمها التفت آدم يمينًا ويسارًا علّه يلمح طيفها , لكن لم يرى أحد , ففهم جمال مايجول بخاطره لذا وفر عليه عناء السؤال بقوله :
ـ لن تأتي .. رفع آدم حاجبيه في دهشة ليقول :
ـ لماذا ؟

مسّد جمال جبهته وقد آلمه كثيرًا الخيبة البادية على وجه آدم , قال :
ـ لم تتجاوز الأمر بعد .

تنهد آدم حسرةً من ذاك الخزي الذي أعلن النصر عليه ليقر الأول باستسلامه , قال: ـ لابد أن نتحدث ياعمي , أحتاج أن أوضح لها كل شيء .

ـ لا أظن لقاءها سيسعدك, بني .

ـ لماذا ؟ ...زفر جمال بضيق مجيبًا عليه بألم وهو يطأطأ رأسه :
ـ لأنها تريد الطلاق .

فغر آدم فاهه واتسعت عيناه بالسواد وهو يطالعه بعدم تصديق ليقول لسانه : مستحيل! ... عاد الضجيج لعقله من جديد ليشعل فتيل ماقرأه بالمذكرة , ترى هل راسلها ابن عمتها مجددًا ؟ لكن هاتفها لايزال بالبيت .. طال شروده و جمال يطالعه بحزن مشفقًا عليه من تلك الصدمة المتجلية على وجهه ولم ينبس ببنت شفة , لا يعلم أي العبارات مناسبة لمواساته ولا يعرف مايجول بعقله لتبدو حالته مريعة هكذا .

.....

ترك جزءًا منه لأنه حمل نون النسوة ونسي أمر القدر الذي أصر على جمعه بهن بأقسى طريقة ممكنة ليدرك حينها أن لا مفر من الاعتراف بهن ...

كان يجلس بالمقهى متوترًا بسبب ماحدث معه داخل بيتها , خشي أن يكون تسرع بطلب يدها بتلك الطريقة الغريبة , لكنه علم مايكنّه لها بعدما غابت هذه الفترة عن العمل , هل هو مجرد اعتياد على رؤيتها ؟ أم أنه حقًا يحبها ؟ تذكر يدها عندما كانت بين أصابعه , لطالما

اعتادا على المزاح بطريقة صبيانية لكن هذه المرة كان الأمر مختلف , لقد تحرك شيء بداخله , عزف غريب للحن لم يعهده من قبل يداعب قلبه فيخرج صداه عبر عينيه لعينيها مباشرة ف... تخجل ... نعم شمس لأول مرة تشعر بالخجل أمامه , لم يعهدها إلا جريئة , منفتحة , وقحة لكنها لذيذة بنكهة جميلة ... سرت حرارة لطيفة في أوصاله لذكر ماحدث منذ قليل ليزفر نفسًا ساخنًا وهو يقول :

ـ سأتزوجها .

أمسك هاتفه لكنه شعر بالخيبة عندما تذكر أنه لايملك رقم والدها , اتجه لبرنامج الواتساب راسلها طالبًا رقمه فردت عليه في الحال والبسمة تنير وجهها ثم بعثت له الرقم و أعقبته بصورة قلب نابض .

ـ أجل ... صاح بها رامي وهو يرفع ذراعه اليسرى للأعلى , فالتفت له الرجال من حوله يناظرونه باستغراب , فابتسم لهم قائلاً :

ـ اعذروني ... سأتزوج قريبًا .

ضحك الجميع ثم عادوا لما كانوا يفعلونه من تناول الأراجيل , لعب النرد و مشاهدة التلفاز ومعظمهم يردد :

ـ قلوبنا معك يافتى ... لا تفرح فأنت موشك على الهلاك .

لم يسمعهم رامي فقد كان منشغل بجواله , ينتظر رد رجب عليه .

ـ مساء الخير ... قالها رجب برزانة .

ـ مساء النور ... تنحنح رامي متابعًا : هل يمكنني مقابلتك الآن ؟

ـ مقابلتي ؟ ... تابع رجب ممتعضًا : لماذا لم تهاتف السكرتيرة لأخذ موعد ؟

ـ لأنني أريد سيادتك في أمر شخصي .

ـ لم أفهمك .

ـ أريد القدوم لطلب يد شمس .

ـ من ؟؟ ... سأله رجب مصدوم , يشعر بأن مزاح بيته النسوي لن ينتهي .

تفحص رامي هاتفه ينظر للرقم الذي ظن لوهلة أنه خطأ , فرد :

ـ ألست السيد رجب القاضي ؟

ـ بلى ؛ أنا هو .

ـ إذن , هل ستعطيني موعد لأجل التحدث بالأمر وستحضر معي عائلتي ؟

تنهد رجب قائلاً :
ـ امهلني فقط يومين و سأرد عليك .

ـ حسنًا .... شكرًا لك ... أنهى رامي مكالمته وتهللت أساريره من أخذ تلك الخطوة التي لم يخبر عنها أي أحد من أفراد عائلته فقد جاءت بسرعة لم يتوقعها هو .

على الجانب الآخر كان رجب يغلي مطبقًا فكيه بغيظ من كل تلك الأحداث السخيفة التي تحدث معه بسبب بيته الأول الذي لطالما عهده هادئًا كطبيعة قاطنيه , مسح على الهاتف بيده ثم وضعه على أذنه حتى أتاه صوتها الطفولي مبتهجًا رغم سوء حالتها الصحية , حينها تأكد من صدق ما سمعه .

ـ كيف حالك الآن , شمس ؟

ـ بخير أبي ... تنحنح قائلًا :
ـ هل تعرفين شخص اسمه رامي ؟

ـ نعم ؛ أعرفه .. صمتت هنيهة ثم قالت : يريد خطبتي .

ـ خطبتك ؟ ... تابع حانقًا : هل اتفقتن عليّ هذه الأيام ؟

ـ لماذا تقول ذلك , أبي؟

ـ هل تعقلين أنتِ , أختك أو أمك مايحدث معك ؟ .. تتصرفن بغرابة وكأن مصابكنّ هين .

ـ لا تقلق , أبي، نحن نعلم جيدًا ما نحن مقدمات عليه ... تابعت بهدوء : لماذا جمعت أمي معنا ؟ ... تأفف رجب قائلًا : ألم تخبرك أنها الأخرى تريد الطلاق ؟

ـ ماذا ؟ ... قالتها شمس مصدومة وقبل أن يعلق والدها حاولت تدارك الأمر قائلة : ـ بلى ؛ أخبرتني و... أنا معها في أي قرار تتخذه .

ـ هكذا إذن .

ـ لا تنظر لما يحدث على أنه مؤامرة يا أبي .

ـ وماذا تسمين أفعالكنّ الصبيانية ومحاولتكنّ لشغلي عن حياتي وعملي ؟

ـ أولسنا ضمن حياتك يا أبي ؟

زفر رجب بغضب ليرد بنبرة حادة :
ـ كفي عن كل ذلك ودعينا نعد لموضوعك , هل يعرف ذلك الشاب حقيقة مرضك ؟

ـ لا؛ ولن أخبره !..... قالتها والحزن بين حروفها فصمت رجب للحظات غير مستوعب ما سمعه .

ـ وأين أمانتك في موضوع شائك كهذا ؟ أم ظننتِ أنني سأوافقك بلا تفكير ؟

حاولت شمس السيطرة على دموعها كما اعتادت دائمًا , بلعت غصتها لتقول :
ـ أنت تعلم جيدًا ما ينتظرني , أنا أعيش أيام يا أبي والقادم منها أمر مما مضى , لذا دعني أستمتع بشعور أني مرغوبة قبل أن يسحقني المرض فيحولني مسخ لا شكل له .

كلامها أدمى قلبه ومزق حناياه فرق لحالها و لان جانبه ليقول بهدوء :
ـ سيعلم الحقيقة ياشمس .

ـ لا يهم ، حينها سأكون قضيت بعض اللحظات اللطيفة قبل أن يتركني .

طرق رجب على مكتبه بعصبية , فوصلها صدى تلك الضربة عبر الهاتف , قال : ـ أي منطق ذاك الذي تتعاملين به يا ابنتي ؟

ـ لا منطق مع ما أنا مقدمة عليه يا أبي وأرجو منك ألا تخبره ... قالتها وأنهت المكالمة تاركة والدها يحاول فك شفرات عدة حول شخصيتها الغريبة والمبهمة وبالنهاية لم يفلح , وخز رأسه الصداع فهاتف سكرتيرته لتأتي له بالقهوة التي أدمنها مذ أتت إليه رنا وكأنها جلبت المصائب معها بمجيئها إليه , لم ير الخير من يومها و الأشد غرابة مشروعيّ الخطبة الغير اعتياديين الذين على وشك الحدوث رغم كم البؤس الموجود حول الموضوع , ظل يتسائل :
ـ أي أحمقين هذين الرجلين ليتقدما لابنتيّ في تلك الظروف المقيتة ؟

.....

لاتنتهي صدمات الدنيا , فكلما انتهت من واحدة أتت بالأخرى وكأنها موكلة باختبار صبر النفوس حتى تزكيها من كل آثام الماضي !

كانت جالسة على الأريكة وجهها باهت وقد جف حلقها ولا تعلم ما ألم بها , طلبت من دينا إحضار كوب ماء , وما إن أتتها به تفحصتها بارتياع قاطبة جبينها ثم سألتها :
ـ هل أنتِ بخير , أمي ؟

ـ لا ... تابعت زينب وسط أنفاسها المتلاحقة : لست بخير أبدًا .

اقتربت نور منهما ثم التفتت لدينا قائلة :
ـخذيها إلى الطبيب , دينا ... هتفت بها زينب :
ـ لا , الأمر مجرد ضغط عصبي بسبب ماحدث مؤخرًا .

مسحت دينا بعينيها قسمات والدتها والقلق ينهشها ثم قالت :
ـ سنذهب إلى معمل تحاليل ومنه سنعرف إلى أين سنتجه .

ـ لن أذهب لأي مكان ... قالتها ثم قامت متجهة إلى دورة المياه , اقترب الصغيران من نور يسألانها :
ـ هل جدتي مريضة ؟

ـ اصمتا ... واصلت وهي تنهرهما بنظراتها : عيبٌ عليكما قول ذلك .

لامتها دينا وقد غضّنت جبينها :
ـ اهدأي أختي , لم يخطآ لتقولي لهما ذلك .

عمّ الصمت للحظات , قطعته نور وهي تسأل دينا :
ـ فيما تشكين بخصوص أمي ؟ ... تنهدت دينا بألم وقد قفز لعقلها ماتوقعته سائلة الله أن يكون محض تخمين , طال شرودها فهللت نور :
ـ هيييي , ألن تردي عليّ ؟

نظرت دينا لعيني أختها ولم ترد , فقالت الثانية وعلى وجهها أمارات الفزع :
ـ ألهذه الدرجة الوضع خطير ؟

ـ خير... تابعت دينا بقلب راض : كل شيء سيكون بخير إن شاء الله .

.....

مهما تصنعنا اللا مبالاة لإخفاء مشاعر تهفو بين جنبات الروح , لن نجيد ولن تنطلي تلك المحاولة أمام محبينا لأن أعيننا ببساطة ستفصح عن كل شيء ...

فتحت باب غرفتها أخيرًا بعدما علمت أنه غادر , لوحت لها ريم بدميتها الجديدة بينما قدمت لها والدتها الكيس الذي يحمل هدية آدم لها , قطبت جبينها تسأل :
ـ ماهذا ؟ ... تنهدت رغدة قائلة :
ـ هدية ؛ أحضرها لكِ زوجك مع لعبة ريم .

عادت أمنية لفراشها مدعية اللامبالاة تاركة هديتها بجوارها , فأشارت عليها والدتها قائلة :
ـ ألن تفتحيها ؟

هزّت أمنية رأسها نافية وعيناها ذابلتان رغم كل الهناء الذي تحياه مع عائلتها , اقتربت منها ريم ومعها دميتها ذات الشعر الأشقر التي تغني بالإنجليزية , ابتسمت وقربتها لأمها فربتت على رأسها وقالت بوهن :
ـ لعبة جميلة يا ريمي , تستحقينها ، هيا اذهبي والعبي بها .

ما إن خرجت ريم تقفز بلعبتها , حتى اقتربت رغدة من أمنية ثم جلست بجوارها , نظرت لعينيها بحزن من محاولاتها المستميتة للبعد الذي فرضته على نفسها لتردف:
ـ لقد كان كفه الأيمن ملثمًا ... لم ترد أمنية , حادت ببصرها بعيدًا , فتابعت رغدة : ـ يبدو أنه جُرح فيه , كما أن وجهه باهت و ...

ـ يكفي أمي ... قالتها أمنية وهي قابضة أصابعها لتحاول التحكم في مشاعرها حتى لا تنجرف باتجاهه ... ربتت رغدة على ذراعها بحنو لتضيف :
ـ بل أنتِ من عليها أن تكف عن ادعاء اللامبلاة , هل ظننتِ محاولاتك المخفقة تلك لتجميد عاطفتك ستنطلي عليّ .

زفرت أمنية بحسرة لأن والدتها مسدت جرحها فعاد إليه الألم التي توهمت شفاءه رغم قصر المدة , قالت بصوت مرتعش :
ـ إن أخفقت الآن , ربما أنجح مع مرور الأيام , لكنني لن أعود .

ـ لكنك تقسين على نفسك يا ابنتي .

حاولت أمنية كبح دمعة عنيدة لكنها لم تفلح فانسالت رغمًا عنها على وجنتها ثم تبعتها دمعات أخرى , قالت :
ـ دروس الحياة لن تُفهم إلا بالقسوة ، حينها لن نكرر أخطائنا .

طرق جمال على الباب ثم أطل برأسه يطلب منهما الانضمام للحديث , فأسرعت أمنية بكفكفت دميعاتها الصغيرة ثم التفتت له مبتسمة , اقترب وجلس على كرسي في مواجهتهما ثم قال :

ـ هل أنتِ بخير , أمنية ؟

أومأت بنعم , فاستطرد :

ـ لقد أفصحت لزوجك عن رغبتك في الانفصال ... شهقت رغدة و وضعت كفها على خدها قائلة :

ـ يامصيبتي !

اتسعت عينا أمنية بدهشة و ألم , لم تكن تتوقع اقتناع والدها بتلك السهولة , تمزق قلبها رغم أنها من أراد ذلك لكن تشعر بشيء يؤلمها ولا تعلم كيف تسكنه , حاولت السيطرة على حالها قائلة :

ـ حقًا ؟

ـ ألستِ من أصر على ذلك ؟ ... سألها وهو ينظر لعينيها التي بالكاد تخنق انفجار على وشك الحدوث .

ـ بلى ... همست بها بانكسار ثم صمتت , أدرك جمال مايحدث معها فلم يرد تأنيبها حتى لا يزيد عذابها ,بينما استأنفت رغدة وصلة بكاء مع العويل على ما سيؤل إليه حال ابنتها بعد أخذ اللقب الذي لطالما عهدته مشئومًا .

بنبرة هادئة قال جمال :

ـ ألا تريدين معرفة ما قاله لي بالداخل ؟ أشاحت بوجهها بعيداً ولم ترد , فواصل جمال : كان كالمصعوق عندما أفصحت له عن رغبتك, يا ابنتي .

التفتت له أمنية وقد أثار اهتمامها حديث والدها عن رد فعل آدم , همهمت لتخبره أنها تريد سماع المزيد , فاستكمل مخبرًا كل ماحكاه آدم وكل ما رواه عن علاقته بزميلته , فتهللت أسارير أمنية وابتسمت لكن كبرياءها ضربها لتستفيق فتلاشت ابتسامتها ليعم الحزن من جديد .

ـ ياله من مسكين ... قالتها رغدة وسط بكاءها ثم تابعت : يستحق فرصة أخرى يا أمنية أظنه نادم كثيرًا على ما فعل ... هزّ جمال رأسه مضيفًا :

ـ حاله يرثى له يا ابنتي ... كلنا نعلم أنه أخطأ لكن لا تنسي أنه بالنهاية بشر مثلنا جميعًا نخطئ ونصيب .

اهتزت جوانب روحها وهي تطالع ردود والديها , شعرت أنها دُفعت داخل دوامة لا نهاية لها , دوار خفيف طاف عقلها لتغمض جفنيها متفكرة في كل ماقيل أمامها لكن كبرياءها عاد من جديد ليقف عاقدًا ذراعيه أمام صدره ينهرها بنظراته المكفهرة ثم فك ذراعيه ليبرز سياطه الغليظ الذي لا يرحم ... طال صمتها وهي على نفس الحال فاقترب منها جمال يمسد كتفها وهو يناديها بحنو ...

فتحت عينيها لتستفيق بعدما ضربها ذاك العنيد بسياطه الغليظ لتقول :
ـ لن أعود ... ازدرد جمال ريقه قائلًا :
ـ خذي وقتك بالتفكير ولا تردي الآن .. أما رغدة علا صوت نحيبها وهي تغادر الغرفة حتى لا تنفجر بابنتها العنيدة التي ستدمر بيتها بصلابة موقفها .

تركها والداها وأغلقا عليها الباب , فقامت على أثرهما تؤكد غلقه بالمفتاح ثم عادت للسرير محتضنة الوسادة التي لم تبثها أي من الدفء الذي أرادت , حينها فقط لم تجد مفر من الانفجار باكية لكن بلا صوت , مجرد أنهار من الدموع الساخنة التي تخرج من قلبها لتنتقل عبر مآقيها منسالة على وجهها الذي تصبغ بلون الدماء من الضجيج المرفق بعقلها , صدرها يعلو ويهبط بالتزامن مع أنفاسها المتقطعة , كل ذلك كان من صنع الشوق الذي غلف قلبها على حين غرة لتحن على ذكر ماحكاه والداها عنه ودفاعهما الذي راق لقلبها كثيرًا فتستعيد لحظات رومانسية جمعتهما معًا في حالة استثنائية خلال أعوام زواجهما الثلاثة الخالية .

.....

ليس هناك أسوء من فرض حظر رؤية من ينادي باسمه القلب , لكنه بالنهاية لم يحدث سدى , فكله نتاج ما اقترفت يداك أيها الموجوع...

استقل آدم سيارته بعد تلك المقابلة المنهكة التي عاد منها بخفي حنين , لم يحقق شيء غير مزيدًا من التعاسة المغلفة بالوجع , أطلق تنهيدة تحمل من الهم مايكفي لقبض صدور الكثير , كان يتجول في الشوارع بغير هدى يفكر بكل ماحدث معه منذ قليل , شعر بوخز في قلبه يوجعه كثيرًا ولا يموت ... اختناق داهمه كلما تذكر قول جمال بأنها تريد الطلاق .

مسّد جبهته التي نطقت بالحرارة النابعة من عقله بسبب تفكيره في الأمر على هيئة حبات عرق محملة بكل مايضيره من ألم ، تمتم :
ـ لن أفعل يا أمنية .

ساقته سيارته حتى المقهى الذي كان شبه ممتلئ بالرجال , ترجل باتجاهه ليجد من يلوح له مبتسمًا , عندما رآه ود العودة للسيارة ليرحل رغم أنه يعلم طيبته جيدًا لكن خشي أن يرى ذلك الخبيث المقيت معه ... اتجه ناحيته بلا تعابيير على وجهه ثم نظر حوله وعندما لم يلحظ وجود هيثم زفر بارتياح ثم جلس ونسي حتى إلقاء السلام .. نظر له سمير نظرات حملت الكثير من المعاني ليقول متهكمًا :
ـ وعليكم السلام .. لكنه أشاح بوجهه ناحية حازم الذي لازال مبتسمًا وحاول تدارك الأمر ملتفتًا لسمير ليعاتبه :
ـ اهدأ يارجل وعد لأرجيلتك .

عاد سمير لأرجيلته يسحب منها نفسًا عميق وهو يرمق آدم بنظراته , لكن الأخير حاد ببصره نحو التلفاز ليمحو توتره .

التفت حازم يبحث عن النادل وما إن رآه , نادى عليه ثم طلب شاي لآدم , وبعدها عاد لآدم قائلًا :
ـ لقد طالت غيبتك يارجل... لعل المانع خير .

لم يرد آدم , فلمح حازم كفه , قال :
ـ سلامة الله عليك , كيف أصبت به يا صديقي ؟ ... تنحنح آدم قائلاً :
ـ مجرد جرح بسيط من قطعة زجاج حادة .

ـ سلامة الله عليك ... قالها سمير ولازال يطالعه بريبة , فنظر آدم لعينيه بتحدٍ ولسان حاله يطلب منه البوح بما يدور في عقله ... وها قد فعلها سمير متابعًا :
ـ هل علمت ماحدث لهيثم ؟ عقد آدم حاجبيه سائلاً :
ـ لا , لي فترة مريض و لم أخرج من البيت قبل اليوم ... أشفق حازم عليه وهو يشعر أن مصابه أكبر من ذاك الجرح , ربت على كتفه قائلًا :
ـ آسف لأجلك .

هزّ سمير رأسه متفهمًا ليضيف :
ـ لقد حدث الكثير خلال فترة وجيزة وأرجو أن تأخذه عبرة .

صك آدم أسنانه من تلميحاته المبطنة ليهتف به :
ـ إلام ترمي يا سمير ؟

حاول حازم تهدئة الشجار الذي على وشك النشوب قائلاً :
ـ لا يقصد شيء يا آدم , اهدأ .

ـ إن كان هيثم شوه سمعتي بشيء فلتعلم أنه كاذب ... تابع آدم وهو مصوب بصره على سمير والغيظ مرسوم بين قسماته : عليك أنت أن تعتبر بما حدث لذلك الفتان المفتري الذي افترى علي بهتان لا علاقة لي به .

ازدرد سمير ريقه من السهام التي ألقاها آدم في وجهه , فأخذ نفسًا عميقًا من الأرجيلة قبل أن يبدأ بقص ماحدث مع هيثم متلاشيًا تمامًا ما قاله آدم .

الفصل السابع والعشرون

(كانت!)

.....

وماظننا بالأب ؟

إلا أنه سند ينطق الدفئ والقوة بين جنباته ...

لذا لا تلوم من ينفطر قلبه لذكر سنده ..

زد على ذلك إن رحل السند وهو على قيد الحياة .

تختلف ردود فعل البشر اتجاه الصدمات باختلاف طباعهم وقوة تحملهم , لكن ماذا عمن هاجمته الصدمة وهو بعمر الطفولة ؟ ... أيمكن حينها الصعود عدة سنوات ليكون بعمر الصدمة ؟ أم تناسيها ليكون بلا شعور؟

كانت تجلس على الأريكة شاردة في كل المآسي التي داهمتهم مؤخرًا والتي كانت هي سببًا رئيسي فيها , لم يكن في البيت غيرها والولدين بعدما خرجت زينب رفقة دينا منذ ساعتين لعمل الفحوصات اللازمة لأجل الإطمئنان عليها .

ـ متى سنعود بيتنا ؟.... قالها عمر وهو يلعب المكعبات مع أخيه .

لم ترد عليه , فقام من مكانه متجهًا نحوها ليعيد سؤاله وهو يطالعها بتحدِ .

ـ ليس لنا بيت غير هذا يا ولد ... قالتها نور ممتعضة وهي تنظر له بطرف عينيها.

ـ بلى؛ لنا بيت آخر ... تابع عمر بحمائية طفولية :
ـ بيتنا حيث أبي يأتينا بالحلوى ويأخذنا لجدتي الأخرى وعمي فنلعب مع بنات عمي ... على ذكر ذلك قام علي من مكانه نحو والدته ثم قال :
ـ أريد أبي ... صاحت نور وهي ممسكة برأسها :
ـ أغربا!!! عن وجهي... هل راق لكما ذلك التحقيق المقيت ؟

استأنف علي البكاء وهو يصيح :
ـ أريد أبي ... بينما اقترب عمر من والدته أكثر يسألها :
ـ لماذا لا تريدين العودة ؟

اتسعت عينا نور مخبرة باقتراب خطر محدق , لكن ذلك لم يوقف عمر الذي تابع : ـ لنا أسبوع هنا , ألا يكفي بُعد ؟ لقد اشتقنا لأبي .

ـ لن نعود ... ألا تفهم ما أقول يا ولد ؟ ... صرخت بها نور في وجهه مواصلة : سيتزوج أبوك بأخرى ويتركنا للأبد .

امتقع وجه عمر واتسعت عيناه من هول ماسمع , فبالرغم من صغر سنه إلا أنه استوعب ماسمعه , أصابه البكم لعدة ثواني ثم نطق :
ـ هل سيتزوج خالتي أمنية ؟

ـ من ؟

ـ زوجة خالي آدم ؟

ـ لاتقل ذلك ياغبي... قالتها وصفعته على وجهه لتترك أصابعها آثارًا على وجنته .

ـ أنتِ من قال ذلك و لست أنا ... قالها عمر وسط نهنهاته وهو يمسد صدغه متابعًا : لقد سمعتك و أنتِ تتشاجرين مع خالي في اليوم الذي جئنا فيه إلى هنا .

سحبته نور من كتفه الصغير بقوة فارتجف الصغير خوفًا مما سيلاقيه على يديها بينما ركض علي نحو غرفة زينب ليختبئ فيها , لكن النجدة وصلت أخيرًا بقدوم دينا وزينب للتو لتسئلا في نفس واحد :
ـ ماذا يجري هنا ؟

استطاع عمر التملص من قبضة والدته هرعًا نحو جدته ليمسك بعبائتها قائلاً :
ـ تريد ضربي لأني قلت الحقيقة .

ـ كاااذب ... صاحت بها نور فارتعد الولد .

احتضنته زينب لتخفف من هلعه , ثم نظرت لنور قائلة :
ـ عيبٌ عليك ماتفعليه , أولست أمه لترفقي به ؟ هل فقدتِ عقلك ؟ ليتني أخذته و أخيه معنا ...

أخذت دينا الولد ثم قبّلت رأسه , لتسأله:
ـ احكِ لي ماحدث يا عمر .

تردد الصغير مع نظرات أمه المتوعدة , فأخذته خالته في غرفة أخرى وأغلقت الباب ثم أعادت عليه السؤال مجددًا , فحكى لها كل ما حدث مما جعل الحسرة تعلو محياها على تشوه طفولته بفعل أحداث ليس له دخل فيها .

ـ حبيبي ، والدك سيتزوج امرأة أخرى اسمها أمنية ، ليست زوجة خالك .

ـ إذن لماذا رحلت خالتي أمنية وريم بعد وصولنا ؟

فكّرت دينا عمّا يجب عليها قوله , صمتت للحظات تحاول ترتيب ماحدث لأمنية لتصل بسهولة لدماغ طفل , زفرت بألم قائلة :
ـ هناك مشكلة صغيرة في بيت خالك وحالما يتم حلها ستعود زوجته وابنته .

ـ وماهي تلك المشكلة التي تخص البيت ؟ ... أشار بكفيه متابعًا : هل تعاني البيوت من المشاكل كما يعاني الناس ؟

ـ قصدت أن مشاكل الناس تؤثر على حياتهم بالبيوت .

فغر الصغير فاهه غير مستوعبًا ... قرر تغيير دفة الحديث قائلاً :
ـ أريد العودة لبيتنا ، أريد رؤية أبي .

احتضنته دينا وقد تأثرت بكلامه ... فتابع عمر وهو داخل حضنها :
ـ أريد حتى مهاتفته ياخالتي ، أرجوكِ .

شعرت دينا بالحزن يمزق قلبها شفقة على عمر , فقالت :
ـ حسنًا ياحبيبي .

ـ حقًا ... أومأت بنعم قائلة :
ـ لكن أود منك ألا تذكر أمك بسوء ... أشارت له ليجلس ريثما تحضر الهاتف ، وحالما التقطته مسحت عليه حتى وصلت لرقم والده ضغطت عليه ثم ناولته الهاتف , فتهللت أسارير الصبي ممتنة لصنيعها معه , وضع الهاتف على أذنه منتظرًا الرد .. تركته دينا وحده لينعم ببعض الخصوصية .

حالما جاءه الرد على الجانب الآخر , صاح بنبرة تشي بالسعادة :
ـ أبي ... تهدج صوت محمود لسماع صوت عمر , قال :
ـ حبيبي عمر ، أوحشتني كثيرًا ... بكى الصغير قائلاً :
ـ لو كنت أوحشتك حقًا ؛ لكنت أتيت لرؤيتنا هنا .

ـ أنا آسف , بني .

ـ خذنا من هنا أبي ، أريد العودة لبيتنا أرجوك .

كان قلب محمود يتقطع مع كل حرف ينطق به ولده فلم يقوى على الرد , شعر بالحزن على ماحدث والذي كان هو جزءًا منه بالتأكيد ومع ذلك لن يتغير أي شيء بخصوص زواجه الجديد .

ـ هل ستتزوج يا أبي ؟

ـ نعم .

ـ وأمي ؟

ـ لقد طلقتها بناءًا على رغبتها .

ـ ولن نراك أبدًا ؟

ـ لا ؛ سآتِ لرؤيتكم حالما أسترد عافيتي ، فأنا متعب قليلاً .

تنهد عمر وقد شعر بالخيبة ولم يعلق , فتابع محمود :
ـ بإمكانكم العودة للبيت , حبيبي .. فهو بيتكم .

ـ وما نفعه إن لم تكن أنت فيه ؟

ـ حينما أقابلك ياعمر سأوضح لك كل شيء ، وحتى تلك اللحظة أريد منك ألا تسيء فهمي ... انتهت المكالمة بغير رضا عمر الذي دخلت عليه خالته لتجده واجمًا بلا تعابيير على وجهه فاندهشت من شكله الذي لا ينم أبدًا على السعادة بمهاتفة والده , لم تكن تعرف أن صدمته كانت أكبر من عمره فإما أن يوازيها ليكبر قبل أوانه وإما أن يتجاوزها ليقرر العيش بلا شعور في هذه الدنيا .

.....

عقيدتك بأن الصمت هو دائمًا المنجي قد تهتز عندما تسمع لمن يحبك ويفهك , حينها ستعلم أن البوح قد يكون أحيانًا منجي إن كان لمن يستحق ...

داخل المقهى المعبق بروائح الأراجيل المنكهة والأدخنة المتصاعدة من أفواه الرجال الذين يقضون وقت الليل بصحبة رفاقهم سائلين المتعة أن تداعب تلك اللحظات الأثيرة من الليل لينسوا على إثرها متاعب النهار التي أرهقت كاهلهم .

استأنف سمير حديثه عن هيثم وماحدث معه خلال الأيام الماضية , نفث دخانه ليردف :
ـ لقد وقع هيثم مع لِصة جميلة .

تأتأ حازم وقد كسا الغضب ملامحة ليقول :
ـ لا داعي لفتح هذا الموضوع يا سمير ، سل الستر له .

نقل آدم بصره بين صديقيه في عدم استيعاب قائلاً :
ـ أنا لم أفهم شيء .. لم يرد حازم , حاد بوجهه ناحية التلفاز للانشغال به عوضًا عن الثرثرة في حق هيثم .
ضحك سمير متابعًا :
ـ كان يواعد امرأة جميلة تعرف إليها عبر موقع فيس بوك , نصبت شباكها حوله باسم الحب وما كان منه إلا الاستسلام .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ... قالها آدم في أسى ثم التقط كوب الشاي يرشف منه .

عاد سمير لأرجيلته , أخذ منها نفسًا لذيذًا ثم نفثه دخان وتابع :
ـ الحق يقال ؛ المرأة جميلة جداا لقد أراني صورتها عندما كان في بداية طريقه معها ، لكن ...

طالعه آدم بعينيه محفزاً إياه لاستكمال القصة , فهزّ سمير رأسه قائلاً :
ـ لقد وصلت علاقتهما للحد الذي جعله يتعلق بها ومن ثم خضع لشروطها التي من ضمنها إعطائها مبلغ مالي كبير ... عقب متهكمًا : لا أعلم أين كان عقله , ذلك الأحمق ؟ لقد أعلن إفلاسه على إثر فعلته الهوجاء كما أنه تسبب في خراب بيته وهاهي زوجته طلبت الطلاق .

ـ لا إله إلا الله ... تابع آدم مطأطئًا رأسه : فرج الله كربه .

ـ كفا عن الخوض في حقه .. قالها حازم متأففًا , فنظر له آدم في حرج وهو يبرر موقفه :
ـ أنا لم أكن أعرف ماحدث له ... أما سمير انتهى من أرجيلته ثم التقط مفاتيحه و جواله وقام ملوحًا لهم ليغادر المقهى .

نظر حازم لآدم وابتسم ثم قال :
ـ هل أمورك على ما يرام ؟

صمت آدم فقد شعر أن موضوعه أكبر من أن يتم تناوله على طاولة مقهى , شعر حازم بمغزى صمته فحفذه للكلام قائلاً :
ـ لو كان المقهى غير مناسب للكلام دعنا نتجول في الشارع سيرًا على الأقدام ونتسامر في كل ما يضايقك ... تنهد آدم قائلاً :
ـ لا أظن أنه سيفلح .

ـ جرّبني يا صديقي واحكم بعدها ... تنحنح آدم قائلاً :
ـ كيف علاقتك بزوجتك ؟

ـ ماذا ؟! ... قالها حازم مندهشًا من سؤاله الغريب .

رفع آدم كفه ليقول :
ـ أنا آسف ، لم أكن أقصد ، أنا فقط قصدت شيئاً آخر لكن التعبير خانني .

ضحك حازم من الحرج الواضح على هيئة آدم , قال :
ـ لا عليك , فهمت قصدك ، أنا زوج عادي أعمل وأنفق ، أتشاجر و أصالح ؛ لكنني أسمعها ، أفهم ماتحتاجه .

ـ كيف تفهم ماتحتاجه ؟ .. سأله آدم وهو رافع حاجبيه كتلميذ ينهل من معلمه العلم .

طرق حازم على الطاولة أمامه قائلاً :
ـ بمعنى أنني احتويها لأحاصرها بحبي ، ليس فقط من خلال الكلام المعسول ؛ لكن أيضًا الأفعال التي تؤكد ذلك ، فأجعل كرمتها من كرامتي وقيمتها عند عائلتي من قيمتي .

هزّ آدم رأسه و جوارحه كلها منتبهه لحازم , ليكمل الأخير :
ـ حينها يا آدم ستعلم أن لا مفر مني إلا إليّ.. تابع وهو مبتسم بود : النساء مرهفات الحس ويسهل التعامل معهن ياصديقي .

زفر آدم بحسرة وهو يتذكر حاله ويقارنه بحال حازم ثم أرجع ظهره للوراء رافعًا ذراعيه ليشبك أصابعه خلف رأسه , ماج بمخيلته كيف سيكون حاله لو أصرت زوجته على الطلاق ؟ لماذا كان مغيب طوال الثلاث سنوات الماضية ؟

طال شروده وهو على ذلك الحال , فأفاقه حازم قائلاً :
ـ هييي , أين ذهبت يا رجل ؟

ـ ليتني تناقشت معك بتلك الأمور منذ زمن يا حازم ... قالها آدم والبؤس يلوح بين حروفه ...
أشار حازم بيده قائلاً :
ـ ما الذي يحدث معك ؟ قطب آدم جبينه ليرد :
ـ أنا وزوجتي على وشك الإنفصال .

رفع حازم حاجبيه موسعًا عينيه في صدمة قائلاً :
ـ يا للهول !

حرك آدم رأسه في أسى ليضيف :
ـ لقد دُمر بيتي يا صديقي ... مسّد حازم ذقنه قائلاً :
ـ هل ما قاله هيثم عنك جزءًا من المشكلة ؟

ـ لا ؛ لم يعد كذلك .... تابع آدم في حرج و الألم ينخر في وتينه على ذكر ماحدث : لقد تشاجرت معها وضربتها .

ـ أووه ... تابع حازم وهو يهزّ رأسه وكأنه ينفض عن أذنيه ماسمعه للتو : لقد أجرمت يا آدم .

ـ لقد أيقنت أخيراً أنه جرم .... ازدرد ريقه مواصلاً : لكن بعد ماذا ؟ لقد ضاع كل شيء ، كل شيء يا حازم .

ـ لا تقل ذلك ... قالها حازم والحزن رسم ملامحه .

نظر آدم لعينيه يسألهما بعض الأمل , فتابع حازم :
ـ طالما فيك النَفَس لا تجزع أبدًا و لا تيأس .

ـ كيف يا حازم ؟ كيف ؟

ـ اهدأ فقط وفكر في الأسباب التي جعل زوجتك تطلب ذلك ... تابع حازم وقد ضيّق عينيه : أظنها ذاقت الكثير قبل ضربها يا رجل ... اعذرني إن قلت ذلك .. لكنها لن تجرؤ على الإقدام على هذا الأمر وبينكما طفلة إلا إن انهارت العلاقة بينكما قبل حتى الضرب .

أسبل آدم أهدابه في وجع وتسلل الألم إلى قسماته وهو يستعيد ما كتبته أمنية في مفكرتها عن علاقتها بوالدته و نور , تزايد الألم في رأسه فقبض عليها بكفيه وهو يقول رأسي تؤلمني من الصداع .

ـ هل أطلب لك قهوة ؟ ... سأله حازم فأومأ آدم بنعم .

بعد احتساء القهوة , نظر حازم لهيئته المنهكة قائلاً :
ـ يبدو عليك التعب .

هزّ آدم رأسه موافقاً كلامه ليضيف :
ـ لا أنام جيدًا ، تعبت ، طيفها حولي في كل مكان .

ـ أين كانت كل تلك المشاعر قبل أن ترحل ؟ ... سأله حازم

ـ أي مشاعر ؟ ...قالها آدم غير مستوعبًا قصده .

ابتسم حازم قائلاً :
ـ لن يرى الأطياف والأحلام المعبرة غير مرهفي الحس يا رجل , ويبدو أنك كنت كاتمًا عليها حتى انفجر البئر مخرجًا كل ما كان رهن اعتقالك .

ـ لا مزاج لي لذلك المزاح يا حازم .

ـ أنا لا أمزح صدقني ... تابع حازم وقد أسند ذراعيه على الطاولة ليقول :
ـ تأثير الحب علينا أشد وطئاً منه على النساء لذا لا ضير إن بحنا به , بل أظنه أفضل لأنهن يقدرن هذا جدًا .

مسح آدم على وجهه ممتعضًا , قال :
ـ لكنني لا أجيد حلو الكلام , أيها الشاعر الظريف .

ضحك حازم من مزحته ليضيف :
ـ قلت لك ليس شرط , الأفعال قد تغني , يبدو أنك لاتجيد هذا ولا ذاك .

ـ امم , أحكي لك لتململني بعتابك ... زمّ آدم شفتيه متابعاً : أنا المخطئ لأنني أخبرتك .

هلل حازم بكفيه قائلاً :
ـ على رسلك يارجل ،نحن نتحدث ونتناقش ، وحتى تعلم أين يكمن خطؤك لابد أن تسمع .

طالت ثرثرتهما , وحازم يسأل وآدم مرة يجيب وأخرى يصمت , فيعط له الأول أمثله حيّة من حياته وكذا إخوانه فيتعجب آدم من لطفهم الزائد مع زوجاتهن , حينها فقط أدرك أنه كان غافل كل تلك السنوات , ظلا هكذا حتى تخطت الساعة منتصف الليل بساعتين ... عندئذ قرر كلاهما الرحيل على وعد باللقاء في الغد لبحث أفضل السبل المودية للنجاة .

.....

لم تكن الدنيا يومًا على هوى أحد , فما نتوقع حدوثه يختفي ليأتي مالا نتوقعه ... لكن ماذا إن حجبت بيننا وبين الأسوء مما نخشاه ؟ ..أليس هذا أجمل ما تقدمه ؟

شق الصباح فاه السماء ليتوجهوا للطبيب بعد مماطلات عديدة استنزفت أيام كثيرة بسبب خوف شمس ومعهم صورة أشعة الرنين , أقدامهم ترتعش , يقدمون خطوة ويتراجعون أخرى لكن لا مفر من مقابلته ... كان وجه شمس مصفرًا وعيناها ذابلتان وكأنها على موعد مع ملك الموت , قلبها يتفتت مع تخيلها لما هو منتظرها , تود لو يداهمها الموت الآن حتى ترتاح لا سيما أنها ذاقت طعمًا مشابهًا عندما كانت داخل جهاز الرنين المقيت ذلك الذي أحاط بها كما القبر , لتتخيل أسوء الكوابيس الممكنة داخله .

بيد مرتجفة قدم رجب الملف الذي يحوي الصورة ليطلع عليها الطبيب , التقطها منه ثم فتحها وسط أنفاس متقطعة من الجميع الذين يطالعونه بهلع لاسيما سعاد التي كانت تبكي بحرقة وكأن ابنتها ماتت بالفعل , وكذا رنا التي كلما كفكفت دموعها تساقطت غيرها .

ابتسم الطبيب وهو يطالع الأشعة ملئ شدقيه , فقطب رجب حاجبيه سائلاً :
ـ هل أنت بخير , دكتور ؟

ابعد الطبيب رأسه عن الصورة ثم نظر للجميع قائلاً :
ـ وشمس أيضًا ستكون بخير .

توقف الجميع بشكل لحظي عن حمى الهلع ليطالعوا الطبيب بنظرات مستفهمة , فقال :
ـ إنه مجرد ورم ليفي ياشمس ... عادت سعاد لنحيبها وهي تقول :
ـ ها قد قلت ورم ، يا ويلك ياشمس ، صغيرة على الموت ياحبيبتي .

أشار لها رجب وهو يرمقها بنظراته لتسكت , ففعلت وعادوا جميعًا بأعينهم للطبيب الذي واصل :
ـ الورم الليفي ليس خبيثًا , كما أن التخلص منه أصبح هينًا مع التطور الطبي هذا الأيام .. تابع برسمية : يمكننا استئناف العلاج من الغد .

رفع رجب حاجبيه من المفاجأة , تهللت أسارير شمس لتشع بسمتها سعادة وكذا رنا التي احتضنتها، بينما كانت سعاد فاغرة فاها لأنها لم تستوعب بعد مايقوله الطبيب , فحاول الطبيب تبسيط الأمر عليها مما جعلها تخر ساجدة لله أمام الجميع فقطب رجب جبينه وصك أسنانه لأنه يشعر بالحرج البالغ , اقترب منها وجذبها من ذراعها قائلاً :
ـ افعلي هذا بالبيت يا امرأة .

أطلقت شمس تنهيدة ارتياح تأخذ معها كل الألم الذي اعتلى روحها خلال الفترة السابقة واضعة يدها على صدرها الذي كان يرتج مع زوال كل ماكان مطبقًا عليه .

أشار الطبيب بيديه منهيًا حديثه الذي كان يشرح فيه ماهية المرض وطريقة علاجه : ـ للتخلص منه سنلجأ لقسطرة الرحم , تعد أحدث ما وصل إليه المجال الطبي للتخلص من الأورام الليفية بدون جراحة , كما أنه مناسب للفتيات الصغيرات اللاتي لم يسبق لهن الزواج .

ـ وماذا عن الأمومة ؟ ... تابع رجب وهو يمسد ذقنه : هل سيؤثر ماحدث على الحمل حال زواجها ؟

احمر وجه الفتاتان مكن سؤال والدهما المباغت , فرد الطبيب بشكل موضوعي :
ـ إطلاقاً ... لا تقلق ستكون بخير وستعيش حياة طبيعية بعد تماثلها للشفاء .. ابتسمت شمس على إثر كلام الطبيب وحدثها عقلها :
ـ لاتلومي نفسك بعد ذلك على عدم إخبار رامي ، ولاتفكري بفعلها أبدًا .

خرج الجميع من المشفى وحالهم مغاير لنظير دخولهم , وكأن القدر أراد أن يضمد أوجاعهم ليعلموا أن الحياة دائمًا وأبدًا ستكون مخالفة لتوقعاتهم ... يسيرون عبر رواق المستشفى مغادرين رجب يسبقهن ببضع خطوات , وسعاد رغم أنها تمشي رفقتهما إلا أن الفرحة جعلتها تتمتم بالحمد والشكر لله .

كانت رنا مشبكة أصابعها بأصابع أختها وضحكاتها تملئ الأرجاء بهجة تنظر لأختها بين الفينة والأخرى نظرات ودودة مليئة بالارتياح فجأة توقفت عن الضحك وعلقت ببصرها بحجاب شمس ولم تعقب ففهمت شمس مايجول بخاطرها , فقالت والبسمة على ثغرها :

ـ لا تقلقي ؛ لن أخلعه ... رفعت رنا حاجبيها بإعجاب قائلة :
ـ حقًا .

هزّت شمس رأسها موافقة ثم قالت :
ـ أشعر أنني هكذا مرتاحة أكثر، لكن .

ـ لكن ماذا ؟

زوت شمس ابتسامة شقية على جانب شفتها وغمزت لها قائلة :
ـ لن أعدك بأن أتخلص من جنوني وشقاوتي

ـ لا يهم ... تابعت رنا وهي تضغط بأصابعها على أصابع أختها : هذا مايميزك أختي وأنا أحبك كيفما كنت ... همست شمس مناغشة :
ـ وشكري سرحان ؟

توترت رنا و تورد خديها لتقبض على أصابع أختها بقوة قائلة :
ـ كفي عن طريقتك السمجة تلك .

مطت شمس شفتيها قائلة :
ـ ألم أصارحك منذ قليل أنني لن أفعل , وأيدتني وغازلتني بل وصارحتني بحبك أيتها الجميلة .

ـ شمس ... زمجرت بها رنا وقد اتسعت عيناها , فضحكت شمس قائلة : حسنًا , سأصمت .

اقتربت منهما سعاد مبتسمة لتسأل :
ـ أضحكاني معكما ...

أمام السيارة كان رجب بانتظارهن , وما إن اقتربنّ , قال :
ـ سأخذكنّ لتناول الغداء في مطعم راقي .

ـ أووه , يالها من دعوة ... قالتها شمس وهي ترفع إبهامها علامة الإعجاب , بينما تململت سعاد وتسلل الغضب عبر محياها لترد ممتعضة :
ـ إذن دعوني أذهب أنا للمنزل ... التفتا لها ابنتاها , يسألاها :
لماذا؟

ـ تعلمان أن جو المطاعم والأماكن العامة لا يروق لي أبدًا ... ردت بحشرجة وهي تتحاشى النظر لذلك الذي يحدجها بنظراته المريبة وعلى ثغره بسمة تكرهها .

ـ إذن لن نذهب ... قالها رجب وقد ضيّق عينيه ورفع أحد حاجبيه ليتمعن أكثر في لغة جسدها المرتعد والذي أفصح عن ضعف تحاول جاهدة مواراته .

ـ لاااا ... صاحت بها الفتاتان عاقدتين جبينيهما , ثم اقتربتا من سعاد تلحان :
ـ أرجوكِ أمي وافقي ، لنا سنوات لم نتجمع بأي مناسبة أو مكان لطيف .

أشاحت سعاد بوجهها بعيدًا ولم ترد , فهتفت شمس راجية :
ـ اعتبريها دعوة بمناسبة الاطمئنان عليّ يا أمي،أم أنكِ غير سعيدة بما قاله الطبيب؟

ـ بلى ؛ سعيدة يافتاة ... تابعت سعاد وعلى وجهها لمحة ارتباك من نظرات رجب : ـ لكن دعينا نحتفل في البيت .

شعر رجب بالضجر من عنادها , ففتح الباب الأمامي وركب ثم أدار المفتاح , قال : ـ هيا ؛ سأقلكنّ إلى البيت .

جذبت الفتاتان أمهما من ذراعيها يتوسلاها :
ـ بالله عليكِ أمي ، وافقي ... أومأت بنعم على مضض , فهتفت ابنتاها :
ـ أجل .

ركب الجميع متجهين إلى المطعم الذي دعاهم رجب لتناول الغداء فيه , وعينيه تتلصص بها عبر المرآة الأمامية بين الفينة والأخرى وكلما التقت أعينهما حادت ببصرها بعيدًا في غضب من محاولاته المخفقة لاستمالتها , فبعد الاطمئنان على شمس تشعر أن موضوعها سيتم بشكل أسرع مما كانت تظن لكن حصاره لها هكذا سيصعب الأمر كثيرًا ... حدثت عقلها قائلة : سيتم الطلاق يارجب مهما فعلت .

.....

تتملك الكآبة النفوس لتنثر حزنها عبر حنايا الوجدان , فيضيق الصدر و يقل خفقان القلب بلا ذكر اسم المحبوب , وتفصل المسافات بين أي شوق يحاول نغز الوتين من جديد فلا ينتج إلا حواجز جليدية بين المحبين ... ومع كل ماسبق بكلمة حب واحدة سيذوب كل الجليد واعداً بوصل أثير ...

كانت جالسة واجمة اختطفها الشرود بعيدًا عن والدتها التي تهدهد الصغير وكأنها أقسمت على مشاركة صديقتها وجدانيًا , فاستدعت الحزن ليحتل جنبات روحها على مرأى ومسمع منها ولا تقوى حتى على الرفض , ذراتها مشتتة بين الماضي والحاضر ، محاصرة بذكرى لم تكن فيها لكن كينونتها الأنثوية تشعل حمائيتها لتنفث فيها الغيرة بعد أن تغلفها بالشك فتدور بها في رحى التيه , لتكون فريسة سهلة للكآبة , فتغلق هاتفها معلنة أنها لا ترغب في الوصل .

هللت والدتها لتلفت انتباهها , فرمشت بعينيها وهمهمت لتعلمها أنها استفاقت , ابتسمت والدتها قائلة :

ـ من يشغل عقلك يا جميلة الجميلات ؟

ابتسمت سحر بعبوس وأشاحت ببصرها قائلة :

ـ لا يشغله سواك يا ملكة النساء ...

توقفت والدتها عن هدهدة الصغير وصمتت للحظات تتأمل لغة جسد ابنتها التي طغى عليها الارتباك , قالت :

ـ وضعي تحسن كثيرًا يا سحر ولا ينبغي أن تبقي معي أكثر من ذلك .

التفتت لها سحر تطالعها بنظرات حانية تحتضن تلك التجاعيد الملتفة حول وجه أمها , لترد :

ـ وجرعاتك أمي .

ـ سأتدبر أمرها يا ابنتي....واصلت وهي تبتسم : ستأتي معي أختك أو حتى إحدى الجارات .

تنهدت سحر بأسى وكأن خيارات أمها الواهية زادت ألمها لتؤكد أن لا غيرها مخول لتحمل مسؤلية مرضها , هزّت رأسها نافية قائلة :

ـ لن أتركك أمي حتى أطمئن عليكِ , أم أنكِ سئمتِ وجودي وإزعاج محمد ؟

رفع الصغير ذراعيه ينادي سحر والضحكة ملئ فيه لسماع اسمه , فلاحت ابتسامة صغيرة على فمها بينما أحنت الجدة رأسها لتقبله بين عينيه , بعدها رفعت رأسها لابنتها تكمل حديثها :

ـ أنتما نور عيني و هدية الله لي بعمري هذا ،إنها معجزة ... صمتت هنيهة وكأنها تذكرت شيء ثم أردفت : حملت بكِ يا سحر بعدما تجاوزت الأربعين بخمس سنين , لم يكن على خاطري أنا ووالدك أبدًا لكنها مشيئة الله بعد انقطاع سنوات عدة .

حركت سحر رأسها تتابع الحوار وعيناها تبتسم لتحفز والدتها على مواصلة الحديث , وها هي تابعت :

ـ تعلمين , لقد حزنت كثيرًا عندما علمت بحملي ... قطبت سحر جبينها سائلة :
ـ بسبب العمر ؟
ـ هذا سبب ... لكن في الحقيقة كنت متأزمة نفسيًا بعد موت توأم أختك لذا عزفت عن الإنجاب بعدها رغم رؤيتها تتألم لعدم وجود أحد يشاركها اللعب .

ضحكت سحر لدى ذكر أختها , لتقول :
ـ لذا فرغت كبتها بعد زواجها بإنجاب خمسة أطفال خلف بعضهم البعض , فقط فترة الحمل هي الفاصل بينهم .

تتابعت ضحكات أم سحر حتى سعلت , حاول محمد تقليدها بطريقة طفولية مضحكة , فعادت للضحك وهي تربت على ظهره وكذا أمه التي نسيت ما كان يشغلها لتشع ضحكتها بالبهجة ، حاولت تمثيل أنها غاضبة لتقول :
ـ إذن ؛ وجودي في حياتك أحزنكِ ... اممم .

لوحت والدتها بسبابتها نافية لتضيف :
ـ حالتي النفسية لم تكن على ما يرام ولم أكن تجاوزت فقد أخيكِ بعد , لكن وجودك هو النعمة التي مهما صليت لن أوفي شكر خالقي عليها , من لايحلم بوجود أنيس له في الكبر كما حدث معي بل وقلب يخفق باسمه وروح تهفو بحبه كما تفعلين يا ريحانة عمري و ... توقفت عندما وضعت سحر كفيها على وجهها وأعلنت النشيج , أنزلت الصغير من على حجرها ثم تحاملت على نفسها لتنهض واقتربت منها وعلى وجهها أمارات القلق , تلمست أصابعها وحاولت إزاحتها عن وجهها لترى وجهها مغلف بالدموع فشهقت قائلة :
ـ يا ويحي! .. هل أزعجك ما قلت ياروحي.

هزّت سحر رأسها نافية , فمسحت أمها الدموع بأصابعها الدافئة ثم قالت :
ـافعلي هذا عندما أموت , لكن طالما أنفاسي تحيطك ؛إياكِ البكاء يا حبيبتي إنه يأخذ نور العين .

انسالت الدموع بغزارة على وجنتيها رغمًا عنها بعد كلام والدتها وكأنها فتحت صنبور لا ينضب , قالت :
ـ الشر بعيد عنكِ أمي ، أسأل الله أن أم... وضعت أمها سبابتها على فمها كي لا تكمل ماتقوله ثم احتضنتها قائلة :
ـ احكِ لي مايشغلك ويقهرك هكذا ، أنتِ لست على طبيعتك يابنيتي .

ـ لا أحتاج غير حضنك أمي ، ضميني بقوة ... قالتها سحر وهي تنغمس داخل حضن والدتها لعل السكينة المعبق بها صدرها تصيبها فتهدأ .

ـ بسم الله أرقيكِ ، من كل عين حاسده ... تمتمت بها أمها وقد غمرتها بحضنها لتكمل رقيتها وهي تمسح بيدها اليمنى على شعر ابنتها التي قلّ نحيبها شيئًا فشيئًا و أغمضت عينيها تستمتع بذاك الدفئ الذي لا يعوض مهما كافئتنا الحياة بعطاياها لتظل الأم هي الحلم الذي لن نود الاستفاقة منه أبدًا .

على الجانب الآخر كان القلق ينهشه وهو يتصل بها للمرة ال...., لم يعد قادر على العد لكن قلبه يخبره بأن هناك مشكلة كبيرة وقعت لسحر لذلك تتهرب منه ... لم يكن أمامه إلا مهاتفة والدتها .

رنين الهاتف جعلهما تنتبهان وخاصة سحر التي ارتعدت أوصالها رغم أنه هاتف أمها لكن قلبها أخبرها أن هذا الاتصال لأجلها هي , همّت أمها بالذهاب نحو الهاتف وهي تمشي الهوينا وما إن أمسكته حتى عقدت جبينها قائلة :
ـ إنه زوجك ! .. ردت عليه بلهفة وكذا هو , وفجأة التفتت لابنتها وقد ضيّقت عينيها لتقول بنبرة لائمة : هاتفك مغلق ياسحر , لعلكِ نسيتي شحنه .

أشاحت سحر بوجهها ولم ترد , فقربت منها أمها الهاتف وهزّت كتفها لتستجيب , فردت بنزق :
ـ أهلًا حسن.. أخذت والدتها الصغير، ودلفت غرفتها لتأخذ سحر راحتها .

صمت حسن للحظات يستوعب طريقتها الغريبة في الرد ثم قال :
ـ قلقت عليكِ يا عمري .

ترققت ملامحها ولان جانبها من طريقته الفتاكة في امتصاص غضبها , فقالت :
ـ أنا آسفة , نسيت شحن هاتفي .

ـ ونسيتيني أيضًا ... تنهدت قائلة :
ـ لن يجرؤ قلبي على فعلها .

ـ لكنكِ فعلتها .

ـ اعذرني ... تابعت بتلعثم خلفه التوتر : أنا جدًا متعبة .

ـ سلامة الله عليكِ ، اذهبي للطبيب حبيبتي ... صمتت هنيهة ثم قالت :
ـ متعبة نفسيًا .

ـ يا إلهي ! ... تابع حسن بود : الأمر هنا أصعب ، أين صديقتك المقربة ؟

زفرت سحر بضيق قائلة :
ـ بها ما يكفي من الألم والوجع ولن تحتمل المزيد .

ـ اممم , لعل مصابها لمسك بشيء ما ؟

ـ لا أعلم.. قالتها بصوت متهدج يتخلله الحنين

طالت ثرثرتهما وسحر تارة تجيب على تساؤلاته وتارة تبتسم , انتهت المكالمة بتخفيف شيئًا من الوجع الذي داهمها , تنفست بعمق ورغم ذلك لايزال هناك عوالق كآبة متشبثة بنفسها تأبى الخروج مع الأنفاس ثم قبّلت الهاتف متمتمة :
ـ أحبك .

.....

مهما أحاطتنا السعادة بكل ماتحمله من بهجة و فرح لتنسينا ذكريات مؤلمة شكّلها الواقع بإتقان ؛ ستظل في الفؤاد بضعة تئن رغمًا عنّا لتذكرنا بما حاولت السعادة بتره من مخيلتنا لتؤكد أن مفهومها قاصر بكل مايحمله من سرور ...

كانت تجلس بالحديقة شاردة , تفكر في كل ماحدث معها حتى عادت بالنهاية لبيت أبيها ومعها طفلتها , عادت البضعة المذبذبة من قلبها للأنين مجددًا , تحسستها بأناملها على جانبها الأيسر حتى تهدأ لكن لا استجابة رغم مرور أيام كثيرة على مكوثها هنا ، تجاوزت الشهر تقريبًا؛ إلا أنها لا تعلم كيف تكيف تلك البضعة , تمتمت بوجع : ما الذي ينقصني ليئن قلبي هكذا ؟ الوقت يمر وحالي راكد لا أعمل , لا أتطور حتى همهمة فؤادي المؤلمة لازالت تصدح ... قاطعها صوت دخول مازن وريم التي تحمل كيسًا من الحلوى ... التفتت لهما مبتسمة , فركضت ريم نحوها وقدمت مابيدها , فقالت :
ـ مرحى... وضعت الكيس على المنضدة ثم أخذت منه اثنتين واحدة لها والأخرى لريم ورفعت رأسها لمازن قائلة :
ـ شكرًا لك .

بادلها بابتسامة ودودة ثم جلس على الكرسي المقابل لها , بينما استقلت ريم حصانها الصغير تتأرجح به وهي تقضم من البسكوت .

ـ أشعر أن وزني قد زاد كثيرًا مما تجلبه لنا كل حين ... قالتها أمنية وهي تلوك الشوكولاتة...

ضحك مازن ملئ فيه ثم قال :
ـ هنا لا قوانين , لا ملل , لالالالا شيء سوى المتعة .

تنفست ابتسامة لطيفة على ثغر أمنية ثم هزّت رأسها موافقة له ،وعادت بنظرها للكون الجميل الذي تلون بالأحمر مع غروب الشمس .

ـ أراكِ تحنين إليه ... نطق بها مازن فانتفضت حواس أمنية لتلتفت له وعلى نظراتها أمارات التيه ...أشارت على نفسها قائلة :
ـ أنا ؟ ... لوحت بسبابتها متابعة : بالطبع لا .

لم يعلق , اكتفى بمتابعتها بعينيه لمراقبة ردود أفعال قسماتها وجوارحها , فاستكملت وهي تحاول الهرب من عينيه المتفحصة :
ـ أنا فقط أريد عمل شيء عوضًا عن مكوثي بالبيت هكذا .

ـ لماذا تنفين حنينك ؟ أهو شبهة ؟

أومأت بنعم , فحرك رأسه نافيًا ليتابع :
ـ مشكلتك يا أمنية كحال جميع بنات هذا العالم , تخفون مشاعركنّ ورغباتكنّ مدّعين القوة رغم أن الضعف هو أجمل مايميزكنّ .

رفعت أمنية أحد حاجبيها قائلة :
ـ هل تقرأ الكتب من ورائي يا ولد ؟ ... تتابعت ضحكاته ثم غمز قائلًا :
ـ بل أنا من يكتبها، أم تظنينني هينًا ؟

صفقت بيديها في حركة طفولية ثم مازحته قائلة :
ـ هلّا وقعت لي على أحدهم من فضلك , أيها الكاتب العظيم؟

صدحت ضحكاتهما تملئ الحديقة بهجة فتضحك على أثرها ريم وهي لاتزال ممطية الحصان الهزاز ,ثم أطبق الصمت إحكامه عليهما , قطعه مازن قائلاً :
ـ رأيته بالأمس .

ـ من تقصد ؟ ... نظر لعينيها قائلاً :
ـ آدم .

مرت لمحة ارتباك بين قسماتها , سرت رجفة خفيفة بداخلها لدى سماع اسمه , حاولت السيطرة على قسماتها لتبدو واجمة ،ومع ذلك رأى مازن كل شيء , أشاحت بوجهها بعيدًا ولم ترد ... فتابع :
ـ كان يقود سيارته شاردًا , لم يراني ... صمت هنيهة ليكمل : وجهه ذابل كثيرًا يا أمنية ... تعلمين ؛ رغم اختلافي معه إلا أنني أشفق عليه مما طرأ عليه في غيابك .

ـ ألازالت يده ملثمة ؟ ... سألته بصوتٍ خفيض .

ـ لم انتبه عليها ... مؤكد حل وثاقها , لقد مر شهر على مقابلته بأبي .... تابع وقد ضيّق عينيه : ألم يطلب رؤيتك مجددًا خلال تلك الفترة ؟

ـ بلى ؛ طلب ، يتصل بأبي يوميًا ... أشار بكفيه قائلاً :
ـ ولماذا ترفضين ؟

رفعت حاجبيها مندهشة من سؤاله لترد :
ـ يبدو أنك مللت وجودي هنا !

ـ لا يا أختي ، أنا أتكلم بجدية ، ماسبب رفضك رؤيته و إصرارك هكذا ؟

ـ ألا يستحق ؟

تنهد مازن ولانت ملامحة وكأنه رق لحال آدم ليقول :
ـ أنا رجل وأشعر به , وأراك أدبتيه بما فيه الكفاية , لماذا لا تقابليه وتناقشيه بما تريدين ؟

ـ ما أريده لا يحتاج لنقاش ، وأبي طلبه منه لكنه رافض ومصمم على العودة .

ـ يالكِ من عنيدة ... تابع وهو يشير على قلبها : لماذا تنكرين حبه يا فتاة؟

زمجرت باسمه وقد اتسعت عيناها , فرفع كفيه قائلاً :
ـ اهدأي ، كل ما أريده هو أن أراكِ سعيدة .

ـ وأنا بالفعل كذلك ... قالتها وقد رفعت ذقنها في شموخ .

ـ أرجو ذلك حقًا ... قالها وقام مغادرًا ثم عاد من جديد وكأنه تذكر شيء ليسألها إن كانت ستأتي معه ووالدهما لحفل خطبة أيمن لكنها رفضت فسار مودعًا إياها ، شيعته بنظراتها الحزينة حتى غاب طيفه وهي تفكر في كل ماقاله وكيف تسلل لأعماقها رغمًا عنها لكن كبرياءها عاد لجموده ليقف إلى جوارها قائلاً : لا تسمعي له ؛ هو طائش لن يستوعب ما حدث معك لأنه لم يجرب ... أومأت بنعم توافقه تمامًا فأعاد على مسامعها ماحدث معها خلال السنوات الثلاث الماضية لتخرج عن طوعها دمعات عنيدة تبلل جفنيها بحرقة وقهر فيشد الكبرياء وثاقه عليها متناسيًا أنها بالنهاية أنثى بشرية .

أمسكت هاتفها لتنظر للهاتف فأبصرت تاريخ اليوم الذي بات يشبه ماسبقه لكنه حمل أرقام لها ذكرى في حياتها , فاسترسلت دماعتها أكثر وأكثر وعينيها معلقة بالتاريخ المرفق أعلى شاشة الهاتف لتقول :

ـ لم أعد بداخله، لم أعد،هي مجرد ذكرى لم يعد لي بها صلة .

الفصل الثامن والعشرون

(ليست أرقام)

.....

أرقامٌ تحمل ذكراي

قد كانت في يومٍ أغلى

قلبتها الدنيا للأسوء

فتمزق قلبي وتبعثر

زفرات تأخذ روحي

لترتل لحظات الوجع

أتقلب معها على مهلٍ

يحرقنى الشوق بآهاته

فيضاعف آلام الذكرى

دمعات العين لا تنضب

و أنين القلب لا يصمت

أشتاق حقاً .. لن أنكر

لكني ؛ أخشى من العودة

وأخاف حنيني يضعفني

لأعود من حيث أتيت

إنسانة من غير كرامة

لا الوصل أتاني بروية

ولا البعد خلصني بالقوة...

.....

كيف يمكن لمجرد أرقام قلب حال إنسان وتعكير صفو ذاكرته ؟ ... إلا إن كانت تحمل بين طياتها ذكرى أثيرة لنفسه باتت مع الأيام مؤلمة ....

أمسكت هاتفها لتنظر للهاتف فأبصرت تاريخ اليوم الذي بات يشبه ماسبقه لكنه حمل أرقام لها ذكرى في حياتها , فاسترسلت دماعتها أكثر وأكثر وعينيها معلقة بالتاريخ المرفق أعلى شاشة الهاتف لتقول :

ـ لم أعد بداخل ذلك القفص ، لم أعد ، لم يعد لي به صلة .

" الثالث والعشرون من شهر يوليو" ، كتبت هذه العبارة على هيئة أرقام أعلى الشاشة , لتخبرها بذكرى زواجها , أغمضت عينيها لتعود بالذاكرة حيث أخذها آدم من قاعة الزفاف إلى بيته وعندما صعدا افترش سجادتين إحداهما تسبق الأخرى ثم اقترب منها , قبّل رأسها بحب مشيرًا إليها نحو السجادة الثانية حيث ستقف لتصلي خلفه ركعتين لاستهلال ليلتهما الأولى سويًا ... كان لطيفًا , جذابًا ، وصامتًا ، لم يتحدث كثيرًا , لطالما عهدته يحب الصمت لكن تعترف أنها أحبته كما هو , بلا كلام معسول أو مزح جيد، صكّت أسنانها لدى تذكرها لتفتح عينيها قائلة :

ـ كنت حمقاء، لا أعلم لماذا أحببته ؟ ... تقول ذلك وقلبها يتقلب على نار الشوق على مهل , فترتعد ذراتها ولهة بتلك الذكرى المميزة التي باتت أليمة .

حدثها عقلها قائلاً :

ـ ألن تفتحي هديته التي جلبها منذ مدة عندما أتى لوالدك ؟ ... قامت من مكانها قبل أن ترد عليه ثم توجهت مسرعة نحو غرفتها , فتحت الخزانة لتخرج منها ذلك الكيس المنسي وعادت للسرير، كانت قد دسته بين ملابسها القديمة لذا نسيته تماماً , أخذت تعبث بمحتواه لم تجد سوى علبة صغيرة من القطيفة , فتحتها لتجد قلادة ذهبية محفور عليها اسمه بالانجليزية, بحركة لا شعورية منها ضمتها لصدرها الذي بات يعلو ويهبط على إثر التصاق الاسم به هكذا , ذابت

ذراتها في حنايا طيفه وهي تتخيله لتتساقطت دمعات مترقرقة على وجنتيها , قربتها نحو أنفهما تشتم رائحته فيها فوجدتها , ظلّت هكذا متيمة حتى أفاقها الكبرياء , ففتحت عينيها قائلة :
ـ كيف يحفر اسمه على قلادة ؟ أي جنون هذا ؟

اتجهت للمرآة ثم ارتدتها , فلمعت حروف اسمه على جيدها , ابتسمت متمتمة :
ـ ما أروعها ! .. لم تلحظ من كانت واقفة على باب الغرفة تطالعها بدفئ والبسمة على محياها , نظرت لها أمنية عبر المرآة والتوتر سرى في أوصالها لتقول :
ـ أمي .

اقتربت منها أمها ثم قالت :
ـ تليق بكِ كثيرًا ، مبارك عليك يا ابنتي ... احمر وجه أمنية لتسأل :
ـ منذ متى وأنتِ هنا ؟

ـ مذ كنتِ أمام المرآة ... تابعت بحنو : ذوقه جميل .

ـ سأخلعها ... قالتها أمنية و تحسست بأصابعها مكان القفل , فجذبت رغدة يديها قائلة :
ـ بالله عليكِ اتركيها .

نظرت أمنية للأرض بخجل , فتابعت رغدة :
ـ لأجل خاطري يا ابنتي .

هزّت رأسها موافقة ولم تعلق ، لكن رغدة كانت سعادتها لا توصف فقد شعرت أن بارتداء تلك القلادة سيتغير كل شيء، وسيكون الشرارة الناطقة بعودة الهناء لابنتها , اقتربت منها وضمتها بأمومية ثم قبّلتها قائلة :
ـ أسأل الله أن يريح بالك ويسعدك يا أمنيتي .

ران صمت لطيف بينهما قطعته رغدة قائلة :
ـ الليلة سيقام حفل خطبة أيمن ابن عمتك سيادة .

رفعت أمنية رأسها لتقول والبسمة تزين وجهها :
ـ مازن أخبرني ، أنا مسرورة جدًا لأجله .

أومأت رغدة بنعم ثم ابتعدت قليلاً لتجلس على الكرسي , قالت :
ـ لقد هاتفتني عمتك بالأمس لتؤكد علينا المجيء .

ـ وما شأني أنا ؟

ردت رغدة باقتضاب وقد بان الحرج على وجهها :
ـ هي تعلم أنكِ هنا ... اتسعت عينا أمنية في حزن لتقول :
ـ لماذا يا أمي ؟ لم يكن عليكِ إخبارها أبدًا .

ـ هي من سأل لأنها اتصلت على هاتفك كثيرًا؛ ووجدته مغلقًا ،عمتك تحبك يا أمنية ولن تتمنى لكِ السوء .

ـ ولو ... زفرت أمنية بضيق متابعة : حالي لا يسر العدو ولا الحبيب .

ـ الشر بعيد عنك يا ابنتي ، كل شيء سيكون على مايرام بإذن الله .. واصلت رغدة محفذة إياها : لن أذهب إلا معك ، ماذا قلتِ ؟

ابتسمت أمنية بمرارة قائلة :
ـ إذن؛ لا ذهاب للحفل .

ـ لماذا ؟ ستكون فرصة مناسبة لتبتهجي يا ابنتي .

هزت رأسها نافية لتصر على موقفها , لكنها تذكرت شيئًا فبادرت سائلة :
ـ من أي عائلة تلك الفتاة التي سيتزوجها أيمن ؟

ـ تقول عمتك أن اسمها رنا القاضي .

ـ القاضي ؟ .... حكّت أمنية رأسها في محاولة لتذكر ذلك الاسم الذي سمعته من قبل لكنها لم تفلح , تمتمت : أشعر أنني سمعت هذا الاسم من قبل .

.....

ليس هناك شيء أكثر ألمًا من وجود طفل أضناه الشوق لأبيه وهو على قيد الحياة .

بإحدى الحدائق العامة حيث كان جالسًا ومعه الحلوى والألعاب في انتظار قدوم ولديه كما اتفق مع آدم , لمح طيفهما من بعيد رفقة جدتهما , ما إن رأياه حتى تملصا من قبضة زينب راكضين باتجاهه وهما يصيحان :
ـ أبي .

أحنى جذعه فاردًا ذراعيه والبسمة على فمه , ارتما الولدين بحضنه , ضمهما في دفىء أبوي ، وقد تبعثرت ذراته لمرأى حالة البؤس البادية عليهما بسبب غيابه وخاصة عمر الذي بكى بنحيب عالي .

ـ عمر... تابع محمود وهو يضغط على كتف ولده : أنت رجل , لا تبكِ أبدًا .

لم يسمعه الولد واستكمل نحيبه , فقطب علي جبينه قائلاً :
ـ إنه سيء يا أبي , أليس كذلك ؟

ـ لا ؛ بل رجل مميز , يحب أباه ويشتاقه .

أشار علي على نفسه ليردف بطريقته الطفولية :
ـ وهل أنا سيء لأنني لم أبكِ ؟

قرّبه محمود منه ثم طبع على جبينه قُبلة ليجيب :
ـ لا يا حبيبي ؛ أنت أيضًا رجل مميز .

اقتربت زينب منهم وهي تلهث رغم أنها كانت تمشي الهوينا , استقام محمود لدى رؤيتها ثم مد يده لمصافحتها , صافحته على مضض ثم اتجهت لعمر تسأله :
ـ لماذا تبكِ ؟ ألم تكن متلهف لتلك اللحظة ؟

كفكف عمر دموعه ثم قال :
ـ أريد الذهاب مع أبي ،لا أريد العودة معك .

شهقت زينب وعقدت حاجبيها في غيظ بينما انتقل محمود ببصره بينها وبين عمر وداخله يسأل ما الذي يحدث لولديّ عندكم ؟ ... تداركت زينب تلك النظرات قائلة : ـ كلنا نهتم بهما، ونقوم على رعايتهما , أليس كذلك يا علي ؟

أومأ الصغير بنعم , فصاح عمر :
ـ لكنني أريد العيش مع أبي .

ضمّه محمود لصدره بأبوية ليقول له وهو يربت على ظهره :
ـ اهدأ , عمر .

ـ لا ؛ لن أهدأ ... تابع عمر وهو يصرخ : لقد حُرمنا من بيتنا , حُرمنا منك وتريد مني أن أهدأ ؟

ـ بإمكانكم العودة للبيت ... قالها محمود وسط ذهول زينب .

ـ حقًا ؟ .. قالها عمر وعيناه معلقة بوالده .

أومأ محمود بنعم , فسألته زينب :
ـ ألن تقطن فيها مع زوجتك الثانية ؟

هزّ محمود رأسه نافيًا ليضيف :
ـ ستعيش في بيت العائلة حيث أمي و أخي .

ازدردت زينب ريقها وشعرت بغصة لدى تذكر أمنية و آدم , لم تتمكن من الرد أو حتى المباركة له وكيف تبارك وابنتها تضررت من تلك الزيجة .

ـ سأقوم بتسجيل البيت الجديد باسم نور ... تابع وهو ينظر لولديه : أظن هكذا سيمكنها العيش فيه وهي مطمئنة , و إن وافقت على الرجوع بدون تغيير شيء مما حدث لها ذلك .

انزوت ابتسامة مريرة على جانب فم زينب وعقلها يحدثها :
ـ ما الذي فعلته معك ابنتي لتهرب بهذا الشكل ؟ وما الذي قلته للأخرى لتقنعها بالمكوث معك كزوجة ثانية في بيت عائلة ؟

ـ أريد العيش معك في بيت العائلة يا أبي ... تابع عمر راجيًا وهو ممسك بمعصم محمود : سألعب مع بنات عمي , ولن أزعج زوجتك يا أبي .

احتضنه محمود ثم مسّد شعره قائلًا :
ـ والدتك تحتاجك ياعمر ، أنت الآن رجلها وسندها ، أيعقل أن تتهرب من مسؤليتك بهذه السهولة ؟

ـ لكنني أريد رؤيتك كل يوم .

ـ لك ذلك .

ـ حقاً ؟... قالها عمر وقد اتسعت ابتسامته .

أومأ محمود بنعم , ثم قدّم له هاتف ليقول :
ـ وسنتواصل أيضًا عبر الهاتف .

ـ هل هذا لي ؟ ... هزّ محمود رأسه , فصاح علي :
ـ وأنا؛ أليس لي هاتف ؟

جذبته زينب من ذراعه , فأشار لها محمود لتتركه ثم قال :
ـ أحضرت لك لعبة أفضل .

انتهت الزيارة بعدما أعطى محمود زينب نفقات الولدين مع بعض الألعاب و الحلوى والكثير الكثير من الحب الدافئ الذي نال رضا الصغيرين .

.....

كلمة أخوة لا تعني نسخ عدة من نفس الشخصية , علينا ألا ننسى أن اختلاف الطباع يبلور نمط الشخصية ويميزها ، ومع كل الفروق سنجد لكل منها شريك يميل لبضعة ميزت هذه عن تلك .

داخل غرفة الجلوس حيث اتخذ الجميع أماكنهم احتفالًا بالخطبة السعيدة مما جعل الغرفة مكتظة وكأنها على وشك الانفجار, والوجوه تعلوها البسمة و الزغاريد تتقافز بالأرجاء , كل شيء كان ملائمًا تمامًا لتلك المناسبة، ومع ذلك كانت شمس ممتعضة؛ لأن أختها رفضت استخدام الأغاني لإحياء تلك الليلة مما جعلها تشعر وكأنها باجتماع عائلي رتيب , كانت لاتزال بفترة النقاهة بعد التخلص مما أصابها.

كانت رنا جالسة على الكرسي المجاور لأيمن ترتدي فستانًا لونه ذهبي زادها ألق ، ولم تضع إلا القليل من المساحيق تحت ضغط شمس , يرفرف قلبها مع نظراته الدافئة فيتدفق الدم منه إلى خديها فيتلونا بالأحمر القاني فتزداد جمالًا ... صمتا فتحدثت عيونهما بالكثير مما عجز اللسان عن البوح به لكنها حادت ببصرها خجلًا من تحديقه فيها بهذا الشكل .

قامت سيادة من مكانها متجهة نحوهما ثم ناولت أيمن علبة مخملية حمراء , التقطها وأخذ منها خاتم رنا ثم مد يده لتقرب كفها الأيمن فيلبسها إياه لكنه اعترضت قائلة :
ـ هاته وأنا سأضعه بإصبعي وارتدِ أنت خاتمك .

رسم ابتسامة جذلى على فمه من حياءها الجم وهو يهمس :
ـ مبارك يا أجمل عروس .

ابتسمت وأشاحت ببصرها بعيدًا فقد كان الخجل ينهشها , أمّا شمس كانت تغلي من كم الغرابة التي بدا فيها الحفل وكأنها مدعوة لدى قبيلة عربية قديمة ، قامت من مكانها نحو الشرفة , ثم هاتفت رامي .

ـ أهلا شموسة ... ردت بامتعاض :
ـ ماذا تفعل ؟

ـ كنت بصدد جلسة عائلية لمناقشة الأمور المالية المتعلقة بارتباطنا الذي تعده أمي الحلم المنتظر باعتبار أني ولدها الوحيد وكأن قطار الزواج سيفوتني .. ضحك وحده فلم ترق لشمس مزحته ,ران عليهما بعض الصمت قطعه رامي سائلاً .. ماذا بكِ ؟

ـ لا شيء ، أشعر بالملل فقط .

ـ لماذا ؟ أيعقل أن تقول شموسة هذا الكلام ؟... تابع متهكمًا : ألا يفترض بكِ التواجد مع أختك بحفل خطبتها ؟

ضحكت شمس من كلامه ولان لسانها لتتحدث بأريحية عما يحصل بالداخل وكيف تبالغ أختها في التحفظ مع خاطبها ...كان رامي ينصت لها بكل جوارحه ولم يعلق , فهتفت به شمس :

ـ مارأيك فيما يحدث ؟

ـ وما شأني لأقول رأيي ؟

ـ أقصد ؛ألا يحق لي الملل ؟

ـ لو كان والدك وافق على أن تحدث خطبتنا معهما لما شعرتِ بالملل .

زمجرت شمس :

ـ رااامي .

ـ أنا حقًا متضايق جدًا ، لماذا يتم خطبة الصغرى قبل الكبرى ؟

ـ لا تكن سخيف ، مجرد أيام ونحتفل بخطبتنا نحن أيضًا .

تنهد رامي قائلاً :

ـ آه , لكم أتوق لذلك اليوم .

ـ لقد خرجت عن الموضوع يا رامي ولم تخبرني رأيك .

ـ هل تريدين رأيي بصراحة ؟

مطت شمس شفتيها قائلة :

ـ أشجني يا فصيح

ضحك رامي من كلامها ليرد :
ـ أنت حر مالم تضر ، فما بالك بمن تحب المحافظة؟ أظنّها مميزة يا شموسة أليس كذلك ؟

اشتعلت الغيرة بصدر شمس فصكت أسنانها بغيظ لتقول :
ـ مممممميزة ؟

فهم رامي ماحدث فحاول تدارك الأمر قائلًا :
ـ لم أقصد يا حبيبتي ، قصدت تصرفها صدقيني ، لا تسيئي فهمي يا حياتي .

لانت ملامحها قليلًا لتسأله :
ـ أنا لاأحب ذلك يا رامي ،أنا أحب الصخب والمرح و...

قاطعها قائلاً بنبرة دافئة :
ـ وأنا أحبك كما أنتِ ولم أطلب منكِ التغيير يا شموستي، وحتى من قبل ارتدائك للحجاب .

ـ حقًا ؟

ـ ألم تخبركِ عيناي ؟

صمتت شمس قليلاً فقد علا ضجيج قلبها وروحها تتراقص على أنغامه , تسللت عبرات الفرح عبر مقلتيها لتمسح معها أي ألم لاقته خلال الأيام السابقة مع أحد يفهمها ويحبها كما هي .

أنهت المكالمة مبتهجة على عكس حالها عندما استأنفتها كلماته كان لها تأثير السحر على نفسها , أخذت تدندن بأغنيتها المفضلة وتهز كتفيها بجذل مع طقطقة أصابعها كما لو أنها على مسرح لعرض المواهب الغنائية .

.....

يهفو القلب للعودة , لكن ماذا بعد ؟ ... غير تكرار ما اقترفته يداه من أخطاء ليعلن بعدها الندم ..

كان يجلس بالحديقة يتحدث بالهاتف كانت تتابعه والدته من الداخل مبتسمة رغم أنها لم تسمع شيء ظنت أنه يحدثها لأجل العودة، تحركت نحو إحدى الرفوف الخشبية الخارجة عن المكتبة التقطت دواءها ابتلعته ثم ذهب للمطبخ و قامت بإعداد الشاي ، عندما أنهى حواره ؛

خرجت ومعها كوب الشاي , وضعته على المنضدة ثم جلست أمامه , ابتسم لها قائلاً :
ـ شكرًا أمي .

ـ هل كنت تحدثها ؟ .. سألته وهي تنظر لعينيه .

ابتسم بمرارة قائلاً :
ـ لا ؛ كنت أتحدث مع والد كامل .

ـ لماذا ؟

ـ هناك مشروع سيجمع بيننا .

ـ أي مشروع ؟.. سألته باهتمام وقد ضيّقت عينيها .

ـ حالما أتدبر أمره ؛ سأخبركِ أمي .

طالعته بنظرات حانية ثم عادت بدفة الحديث إليها :
ـ ألم تقابلها ؟

هزّ رأسه نافيًا والتقط كوب الشاي يرشف منه , فقالت :
ـ دينا ستأتي غدًا لتذهب إليها .

رفع كتفيه غير عابئ بالنتيجة , فتابعت زينب :
ـ ألا تحبذ ذهابها ؟

ـ لن يجدي نفعًا ... تابع وهو يقلب في هاتفه : قصدي أن أمنية لن تأتي معها .

استأنفت وصلة البكاء لتقول وسط نهنهاتها :
ـ روحك منهكة يا ولدي ،ليتها روحي لتحيا أنت بسلام .

ـ اهدأي أمي أرجوكِ .

ـ كيف اهدأ ؟ واصلت بنشيج : أنا أموت كل لحظة وأنا أراك بهذا الحال .

ـ قدر الله وماشاء فعل ، أنا من ظلم نفسي يا أمي وعليّ تحمل العواقب .

ـ سأذهب مع دينا لأتحدث معها .

ـ كما تشائين أمي ... قالها و صمت، ظلّت تطالعه بحسرة على أيامه التي تمضي بلا أي تقدم بشأن عودة زوجته وابنته , كفكفت دموعها وهي تدعو الله أن يصلح حاله و حال أخته التي انعزلت بغرفتها كمن فُرض عليها حجر صحي كي لا تختلط بالبشر الطبيعيين، وقد ظنّت أن خبر تسجيل الشقة الجديدة باسمها سيسعدها , لكن شيئًا لم يكن لتظل مصممة على العزلة رافضة الرجوع لزوجها والبيت .

بتر صمتهما قائلاً :
ـ ستأتي أم بركة بعد دقائق لتنظيف شقتي .

ـ أم بركة ؟

ـ نعم؛ لقد سألت جارنا أن يساعدني بالوصول لإحداهن؛ لأن شقتي عمتها الفوضى ومن حسن الحظ أن المرأة لاتزال عندهم تنجز بعض الأعمال وحالما تنتهي ستأتِ .

قطبت زينب حاجبيها لتقول بنزق :
ـ هاتفه وأخبره أنك لست بحاجتها ،أنا سأنظفها يا آدم .

هزّ رأسه نافيًا ، وقبل أن يرد قاطعهما صوت جرس الباب ، قام من مكانه نحو الباب وما إن فتحه برقت عيناه لتلك الهزيلة الموكل إليها تنظيف الفوضى بالأعلى ... همس لعقله : إنها تحتاج لمن يساعدها , يا إلهي!

ابتسمت له أم بركة بود ثم ألقت السلام , فرد عليها آدم ثم دعاها للدخول , اتجهت زينب ناحيتها بفتور ثم نظرت لآدم قائلة :
ـ اذهب أنت حيثما تريد وأنا سأصعد معها .

كانت أم بركة تمشط المكان بعينيها المنكمشتين وكأنها تبحث عن أحد , رمقها آدم ببعض الريبة ثم سألها :
ـ هل هناك شيء ؟

ـ هل السيدة أمنية بخير ؟ ... قالتها أم بركة والبسمة لازالت على ثغرها فنظر آدم لوالدته يطالعها مستفهمًا، كيف تعرفت تلك المرأة على أمنية رغم أن والدته لا تحب جلب معاونات للمنزل , عاد إليها وقبل أن يتكلم ردت زينب بعصبية :
ـ نعم نعم ؛بخير ،هيا لنستأنف العمل .

ـ انتظري أمي ... تابع آدم بقليل من الهدوء وكأنه أراد التحدث مع المرأة بشأن ذاك الاسم الذي نطقت به منذ قليل :
ـ هلا أعددتي لها الشاي ؟

ـ شاي ! هل أتت لنضايفها أم لتنظف شقتك ؟

ازدردت المرأة ريقها في حرج ولم ترد , فقال آدم :
ـ أمي ، من فضلك .

ـ حسنًا ... قالتها زينب وهي تشيح بذراعيها منزعجة ثم انصرفت على مضض .

أشار آدم للمرأة بالتوجه رفقته نحو الحديقة ثم الجلوس , وما إن فعلت نظر لعينيها سائلاً :
ـ هل تعرفين أمنية؟

أومأت المرأة بنعم والبهجة كست ملامحها لترد :
ـ إنها أميرة البنات... تابعت مبتسمة : رأيتها مرتين , المرة الأولى عندما جئت هنا منذ فترة كبيرة لتقديم المساعدة ؛ لكنها أخبرتني أن والدتك لا تحب ذلك .

هزّ آدم رأسه ثم قال :
ـ والثانية ؟

ـ والثانية , أتتني هي في منزلي برفقة أخيها .

ـ برفقة أخيها !.. قالها آدم موسعًا عينيه فقد ظنّ آدم أنها زارتها بعد رحيلها فسألها : متى كان ذلك ؟

ـ منذ شهر تقريبًا أو أكثر ..تنحنحت المرأة متابعة : أنا لا أذكر جيدًا فقد باتت الذاكرة على المحك ياولدي .

شرد آدم في كلامها وهو يتمتم :
ـ إذن زارتها قبل رحيلها ، لماذا لم تخبرني ؟ كلما مرّ الوقت انكشفت لي دروب غامضة في علاقتنا يا أمنية ... قاطعته أم بركة سائلة :
ـ هل هناك شيء يا بني .

نظر آدم لعينيها سائلاً :
ـ لماذا زارتك ؟

نظرت المرأة للأرض وقد علا الحرج ملامحها لتضيف بصوت خفيض :
ـ لتساعدني ببعض المال .

شعر آدم بالغباء من طرح سؤال أي طفل يعلم إجابته , فأطبق الصمت إحكامه عليه لكن أم بركة سألته :
ـ أين هي ؟

ـ ليست هنا .

ـ كيف حالها ؟

ـ بخير .

ـ هنيئًا لك بها ... تابعت المرأة بلطف : إنها أطهر قلب رأيته في حياتي .

كانت كلماتها تنزل على قلبه كما السيوف لتمزقه إربًا ؛ لأنها علمت من مجرد مقابلتين ما لم يعلمه خلال ثلاث سنوات .

.....

أي صبح يمكن أن يضيء من سار بإرادته في درب العتمة ؟ ستبصر العيون النور لكن القلوب ستظل كفيفة حتى تقررالروح العودة للمسار الصحيح ..

انتظرت بزوغ نور الصبح , لتخرج إلى الإدارة التعليمية من أجل إنجاز أوراق النقل لمدرسة أخرى حيث لا يعرفها أحد ولتبتعد عن أي بقعة تجمعها بطليقها ، خرجت كالسهم المحترق تمشي بخطى واسعة ومع ذلك تعرفت عليها إحداهن متدثرة بنقابها؛ كانت تعمل معها بالمدرسة كأخصائية نفسية , استوقفتها تسلم عليها , فرمقتها نور بغضب ولم ترد السلام .

ـ كيف حالك أستاذة نور ؟ لقد ألقيت السلام للتو ولم تردي هل أغضبتك في شيء ؟

ردت نور بغيظ :
ـ وما شأنك في التعرف لحالي وخبري ؟ أم أنني بت سيرة المجالس الآن ؟

شعرت المرأة بالحرج من ردود نور الوقحة وكأنها سكبت عليها دلو من الماء المثلج حد أن نقابها ابتل من فرط حرجها , لكنها مدركة تمامًا سبب هجومها ، لا سيما بعدما ذاع خبر طلاقها , فعذرتها لتقول :
ـ أعتذر عن إزعاجك أختي؛ لكنني وددت إعلامك بشيء .

ـ هاتِ ماعندك بسرعة ... قالتها نور بغضب .

ـ هناك فرصة عظيمة لتلقي العلوم الشرعية وأحكام التجويد لتلاوة القرآن , من خلال دورة تدريبية ستبدأ بعد أسبوعين بمصلى النساء الموجود بالطابق الثاني من مسجد الرحمة .

عوجت نور شفتيها وهي تحدج المرأة بنظرات تنذر باقتراب خطر محدق , فهتفت بها :
ـ ومن قال لكِ أنني أحتاج لذلك ؟ لعلكِ ظننتِ أنكِ ضمنتِ الجنة لأنكِ ترتدين تلك القماشة الموجودة على وجهك ؟

حاولت الأخصائية السيطرة على دموعها قدر المستطاع وهي قابضة على حقيبتها بقوة وكأنها تبثها توترها لترد بهدوء :
ـ لم يخطر ببالي كل ذلك , صدقيني ؛ كل ما في الأمر أن أختي ستكون من ضمن المعلمات وأنا أعلم قدرتها العظيمة واجتهادها لتوصيل المعلومة , كما أن المسجد يقع بجوار منزل والدتك، أرجو المعذرة , لم أقصد مضايقتك ... قالتها وانصرفت تاركة نور مستاءة من غباءها في التعامل مع إنسانة ودودة مثلها , هادئة امتصت كل غضبها بسعة صدر لم تعهدها على أحد قط .

سارت بخطوات متثاقلة تجر معها خيبات عدة , وكأن أوجاع الكون تجمعت في شخصها لتقطع روحها إربًا , بكى قلبها وعيناها لازالت جامدة حتى لا يشمت بها أحد من المارة , تمتمت : يارب ارحمني برحمتك ... لقد تعبت .. لو كان الموت أفضل لي أمتني يا إلهي لأرتاح من كل هذا العذاب .

.....

لا شيء أكثر ملل من حصار النفس برتابة روتين العمل اليومي , ومع ذلك لن يجرؤ على تخطي ذلك إلا شخصين ؛ أحدهما اعتاد الوضع والآخر قرر الرحيل بشجاعة متجهًا لدربه الخاص ...

خرج لعمله بآلية , وحالما وصل اتجه لمديره ليصدق على قرار له شهر يأتي مكتبه ذهابًا و إيابًا لأجله ، ومع ذلك المدير مصمم على الرفض ،ألقى السلام , جلس على الكرسي المواجه لمديره ثم وضع على المكتب ورقة .

نظر له المدير الخمسيني من فوق عويناته المتدلية فوق أنفه الكبير ثم أشار بسبابته على الورقة , قائلًا :
ـ مجددًا .

رفع آدم حاجبيه و أومأ برأسه ... عقد المدير جبينه متابعًا :
ـ ألن تمل التلويح بتلك الورقة التي اهترأت من إلحاحك على تقديمها لي ؟

هزّ آدم رأسه نافيًا ، لاحظ الرجل أن الحدة لن تجدي ثمارها نفعًا , فقرر أن يلين ويستميله بطريقة ودية , فقال :
ـ إن أردت أخذ إجازة حتى تتأهل نفسيًا للعودة ؛ لك هذا يابني .

صمت آدم , فتابع الرجل سائلًا :
ـ هل ضايقك أحد الزملاء هنا ؟

ـ إطلاقًا، كلهم إخوة وأخوات ؛لكن ... صمت مسندًا مرفقه على سطح المكتب .

ـ أنا هنا مكان أبيك يا آدم ... خلع نظارته متابعًا بشيء من الجدية الدافئة :
ـ احكِ لي مايحدث معك بني .

هزّ آدم رأسه موافقًا على جعله مكان أبيه ؛ لكنه لن يفصح عن السبب الرئيسي , حاول بتر محاولاته العنيدة لاستمالته للرجوع عن قراره قائلًا وهو يشير بسبابته على الورقة :
ـ لو تعدني ابنك بالفعل ؛ امضِ على تلك الورقة .
تأفف الرجل بنفاذ صبر،طالت ثرثرتهما لكن بلا تغيير , فقد كان مصممًا على ما عزم عليه بلا رجعة , مما جعل مديره يستسلم لرغبته في النهاية .

اتجه لمكتبه؛ لأخذ كل مايخصه من أوراق , فرآها هناك بنفس زينتها , مزاحها الغريب مع رامي وباقي الزملاء لكن الفرق الوحيد هو وجود قطعة حرير على رأسها ، تبادلا النظرات للحظات ثم عاد كل منهما لما كان يفعله ، بعدها غادر الشركة في رحلة ذهاب بلا عودة مخلفًا ذكريات لا يريد تصنيفها ولا حتى تذكرها ، انطلق إلى البناية التي تقطن بحي راقي لكنه قصي بعض الشيء عن مكان منزله حيث اتخذ فيها مكان واسع لعمل مكتبه الجديد ؛لإدارة الفرع القاهري لشركة والد كامل ، كان العمال يعملون عليها لتكون جاهزة خلال أيام تحت إشرافه .

خرج للشرفة وقف أمام السور عاقدًا ذراعيه أعلاه يتجول بعينيه بين المباني الشاهقة , فلاحت أمامه لوحة تعلن عن مكتب عقاري , تعلق بصره بتلك اللوحة لعدة دقائق , ليسأله عقله

:
ـ ألم يحن الوقت ؟ .. مسح هاتفه بأصابعه ثم حفظ الأرقام المدونة على اللوحة وعاد لشروده مجددًا , لكن هذه المرة كان يفكر فيها , يشتاقها و يضنيه الحنين لبعدها , تحسس الجوال ليطلب رقم والدها يطمئن عليها ويأخذ موعد للقائها .

.....

مهما حاولت تلك البضعة النسوية التحفظ مبتعدة عن الحصار الذكوري ,سيأتي من يجعلها تعلن ضعفها على مرأى ومسمع من كبرياءها ضاربة بقوانينه عرض الحائط.

كانت مشغولة بترتيب المنزل بعد حفلة الأمس ووالدتها تساعدها , كلما تذكرته ابتسمت ونظرت للأرض بخجل , انتبهت أمها لحركاتها الطفولية فابتسمت بمرارة ثم اتجهت نحوها تسأل :
ـ لماذا وافقت عليه ؟

انتفضت جوارح رنا فبدت فزعة ؛ لأن أمها باغتتها بالسؤال على حين غفلة وهي شاردة .. نظرت لوالدتها والبسمة لاتزال على ثغرها ، فأعادت سعاد السؤال على مسامعها .

ـ ماهذا السؤال أمي ؟

جذبتها سعاد من ذراعها نحو الأريكة ثم جلستا متقاربتين , فبادرتها :
ـ ألا ترينه كبيرًا يا ابنتي؟

هزّت رنا رأسها نافية بعبوس , فواصلت سعاد :
ـ لازلتِ صغيرة والعمر أمامك لاختيار الرجل المناسب , لا تقترفي خطأي وتفعلي كما فعلت .

ـ لا يا أمي! ... تابعت وقد اتسعت عيناها معاتبة : أيمن غير أبي ولا يمت لشخصيته بصلة .

أطرقت سعاد رأسها في حسرة قائلة :
ـ تظنين ذلك يا مسكينة ؛لكنهم كلهم مجرد صور لنفس الرجل.

أومأت رنا برأسها نافية ثم قالت :
ـ وأنا أقول لكِ أيمن مختلف تمامًا .

ـ ومن أدراكِ ؟ ... تنهدت رنا قائلة :
ـ قلبي وعقلي .

نظرت لها سعاد بطرف عينيها متابعة :
ـ لكنكِ لازلتِ صغيرة، لماذا تورطين نفسك بمثل تلك المسؤلية ؟

تنحنحت رنا وهي تطالع الأرض لتقول :
ـ بصراحة ؛ أردت سند .

ـ ماذا ؟ ... قالتها سعاد وقد جحظت عيناها بجمود .

ـ أردت رجلًا في حياتي يدخل ويخرج بأريحية دون مبررات أمام الجيران .. تابعت بنبرة حزن : رجل يتفهم وضعي ووضعنا جميعًا في بيتنا النسوي هذا ،فيكون ابنًا لكِ أمي .

انتهت فوجدت أمها مسترسلة في البكاء , اقتربت منها ثم حاوطتها بذراعها بحنو لتسألها :
ـ لماذا تبكين يا أمي ؟ ... أجابتها وسط نشيجيها :
ـ ضحيتِ بنفسك لأجلنا ، حسبي الله عليك يا رجب ، أنت السبب في كل مايحدث .

ـ لا تقولي ذلك أرجوكِ ... قالتها رنا وهي تربت على ظهرها .

ـ ستقضين على مستقبلك بسبب تلك الزيجة ؛ وتطلبين منّي ألا أتكلم .

ـ إن بحت لكِ بالأسباب السابقة لإقدامي على مثل ذلك القرار ؛ فقد نسيت أمرًا آخر يا أمي .

التفتت لها تطالعها بعينها الحمراوين , سائلة :
ـ وماهو؟

تورد خدي رنا في خجل , ونظرت للأرض قائلة :
ـ أنني حقًا ارتحت لأيمن ، وخفق قلبي له .

عوجت سعاد فمها باستياء مما ظنته هبل تحاول الصغيرة نسجه ليكون دراميًا بلمحة رومانسية , قاطعهما رنين هاتف رنا , فاتجهت رنا نحوه مسرعة، وما إن رأت الاسم حتى احمر وجهها ، دخلت غرفتها و أغلقت عليها الباب لتتمكن من الرد ومع ذلك ستظل متحفظة .

ـ صباح الورد يا وردتي.... قالها أيمن بنبرته الدافئة .

صمتت رنا هنيهة ورسم العبوس ملامحها، فظن أيمن أنها لم تسمعه بسبب عيب في الشبكة , لكنها فاجئته قائلة باقتضاب :
ـ صباح الخير.

ـ هل أنتِ بخير؟

ـ نعم ؛ بخير ... تابعت برسمية : لا داعي للكلام المعسول خلال فترة الخطبة يا.... أيمن .

سكت مبتسمًا من براءتها وتحفظها المحببان لقلبه , فواصلت :
ـ أنا لا أحبذ أبدًا العلاقات القائمة على الغزل و...

قاطعها قائلاً :
ـ لكنها ليست غزل يا رنا، أنا أقول الحقيقة فأنتِ لخصت روعة الكون في شخصك.

ـ عدنا مجددًا ....

ضحك أيمن من طريقتها الطفولية للإعراض عنه , لكنه تفهم مايدور بخلدها فقال : ـ ماذا لو تم تعجيل موعد عقد القران ؟ هل ستغيري تعاملك معي ؟

ـ عقد القران ؟

ـ ألا تودين أخذ تلك الخطوة ؟

ـ أشعر بالخوف من تلك السرعة ؟

ـ معي ستكونين بأمان ؛ لا تقلقي ... ما إن قالها أيمن حتى زاد احمرار وجهها و أخذ صدرها يعلو ويهبط قاطعًا سبيل الأنفاس، فوضعت كفها على فمها حتى لا يصله مايحدث معها .

طال صمتها , فهتف أيمن :
ـ رنا .. هل أنتِ على ما يرام ؟

ـ لا ... قالتها بتهدج فوصله الشوق عبر ذبذبات الهاتف مما جعله يبتسم ... تابعت : أيمن .. راعي أنني حديثة عهد بالارتباط ولم ...

ـ أكملي ، أنا أسمعك بقلبي قبل أذني .

شهقت بابتسامة خجلى ثم قالت :
ـ لم يدق ال... قلبي قبل الآن .

ـ ما الذي لم يدق قلبك يا أميرة الكون .

ـ ال .... حب .

ـ يا إلهي ! .... تابع أيمن مناغشاً إياها : أنا أنصهر مع هذان الحرفان المحظوظان بخروجهما من بين شفتيك .

ـ يكفي أيمن أرجوك ، أرفق بي .. قالتها بحشرجة مقاومة خفقات القلب التي تتراقص بين جنباتها .

ـ لا أعلم من عليه أن يرفق بالآخر ... قالها ثم تتابعت ضحكاته الرجولية .

انتهت المكالمة ولازال قلبها يتراقص , رمت بنفسها على السرير ثم احتضنت الوسادة وهي تتنهد مغمضة عينيها لتستعيد كلماته الفتّاكة .. بينما كان أيمن شاردًا بها وهو جالس على مكتبه , يمسد ذقنه ويفكر بعقد القران، ثم تمتم :
ـ بل تعجيل الزفاف .

.....

كانت تتوسط سريرها عندما سمعت صوت الضجيج بالخارج , فضولها حفذها للخروج ومع ذلك التصقت بالفراش فلم يعد لديها الشغف للتحري عن أي شيء ، لكن والدتها قطعت عليها خلوتها لتطل برأسها من خلف الباب قائلة :
ـ هناك من ينتظرك بغرفة الجلوس يا أمنية ،هيا بدلي ثيابك والحقي بي .

عقدت أمنية حاجبيها ولم تتحرك , فحفذتها رغدة قائلة بطريقة صارمة :
ـ هيا انهضي .

الفصل التاسع والعشرون (الأخير)

(هلا جدتِ بالوصل؟!)

.....

طلبت الوصل ياعمري

وجئتك حاملًا قلبي ..

بين يدي..

طرقت الباب على عجلٍ

فهلا فتحتي أوصاده ؟

لأدخل للحنايا بسلام ..

فأمكث بين أضلعكِ

فيهتف باسمي نبضك

وأرشف عشقك بهيام

سألتك الغرام , أمنيتي

فهلا جدتِ يا حُبي

بما يسكن القلب والروح

فأواصل الحياة بهناء

ولسان القلب لا يطلب

سوى الوصل ياعمري

.....

ابتعدت فآلمها الشوق و حاصرها الحنين , وعندما أتتها الفرصة للتفكير بالعودة , تمنعت وقالت بأعلى صوتها لاااا... هل هو تناقض ؟ أم مايدور برأسها لن يفهمه غيره ؟

كانت تتوسط سريرها عندما سمعت صوت الضجيج بالخارج , فضولها حفذها للخروج ومع ذلك التصقت بالفراش فلم يعد لديها الشغف للتحري عن أي شيء ... لكن والدتها قطعت عليها خلوتها لتطل برأسها من خلف الباب قائلة :

ـ هيا بدلي ثيابك والحقي بي لغرفة الجلوس .

قطبت أمنية حاجبيها ولم تتحرك , فهتفت بها رغدة :

ـ إنها حماتك ودينا يا ابنتي

ـ دينا ! ... قالتها واعتدلت في جلستها .

ـ هيا ؛ بدلي ملابسك واخرجي للقائهما ... قالتها رغدة ثم أغلقت الباب فما كان من أمنية إلا تنفيذ ما طلبته رغدة بكل أريحية بعدما سمعت اسم دينا .

داخل غرفة الجلوس كانتا تنتظرانها بتوجس خشية أن ترفض لقائهما كما فعلت مع آدم , كانت زينب محتضنة ريم لتهمس والدموع تترقرق من عينيها :

ـ لكم افتقدتك يا ريم .

دلفت أمنية وعلى إثرها رغدة بالعصير وقطع الكيك , قامت زينب ودينا تسلمان على أمنية باشتياق واحدة تلو الأخرى .

انهمرت الدموع بغزارة من مقلتي زينب فنظرت رغدة لأمنية التي قامت على الفور متجهة لحماتها , تربت على كتفها بود وقد هالها ضعفها فقد نحفت عن ذي قبل :

ـ لماذا تبكين ؟ اهدأي من فضلك .

غضّنت دينا جبينها لتردف :

ـ لقد أصيبت أمي بداء السكري يا أمنية .

طأطأت أمنية رأسها في أسف وكذا رغدة لتردا :
ـ سلامة الله عليها , شفاها الله وعافاها .

واصلت زينب نحيبها , فقالت دينا :
ـ بعد طلاق نور وتيه آدم لبعدك عنه نهشها المرض .

أشاحت أمنية بوجهها مستاءة من طريقة دينا التي يغلب عليها شجن التوسل , لا سيما أن قلبها تأثر بكلامها لكنها رفضت الخنوع لتقول :
ـ كل شيء قسمة ونصيب يا دينا .

علا نحيب زينب مما سبب الهلع لريم فقفزت من حجرها متجهة لرغدة التي قامت من فورها لتقدم للأولى مناديل ورقية , ثم ربتت على كتفها :
ـ وحدي الله يا أم آدم ، سيكون كل شيء على مايرام؛ لكن المسألة تحتاج وقت لا أكثر .

ـ لقد شارف الشهر الثاني على الانتهاء ولم يحدث جديد .. قالتها زينب وسط نهنهاتها .

نظرت رغدة لأمنية ثم عادت ببصرها لزينب لا تعلم كيف ترد عليها , فقالت دينا : ـ آدم يحتاجك يا أمنية , يتعذب كل لحظة ببعدك عنه .

توترت أمنية قليلًا ؛ لكنها حاولت السيطرة على انفعالاتها قائلة :
ـ في الأول فقط ؛ لكن مع الوقت سيعتاد لا تقلقي .

ـ وريم ؟

ـ سترونها وقتما شئتم لا تقلقوا ، فأنتم بالنهاية أهلها .

نظرت دينا لعينيها قائلة :
ـ لكنه يحبك يا أمنية .

ـ هه ؛ يحبني... زفرت أمنية بألم لتتابع : ضعي نفسك مكاني يا دينا , ماذا سيكون رد فعلك إن ضربك دكتور كامل ؟ كيف سيكون شعورك إن علمتِ أنه ينادي باسم أخرى بل ويهاديها ؟

ـ من تلك الأخرى ؟ ... قالتها دينا وقد ضيّقت عينيها ؛لأنها لا تعلم أي شيء وكذا زينب التي توقفت عن البكاء .

ـ زميلته بالعمل ... قالتها أمنية باقتضاب .

أشارت دينا بكفيها قائلة :
ـ هناك سوء فهم يا أمنية , يستحيل أن يفعل آدم كل ذلك .

رغم أن آدم شرح كل شيء لوالدها , لكنها أرادت التخلص من إلحاحهما بشأن العودة ... نظرت لدينا لتصيبها بسهم يسكتها :
ـ هل ستتغاضين عن ذلك يا دينا لو حدث معكِ أمر مشابه ؟

زمجرت رغدة وهي تتوعدها بنظراتها لتهتف :
ـ أمنية ... لكنها لم تهتز ولم تحرك ساكنًا من تلك النظرات؛ بل ظلّت معلقة بصرها بدينا .

ازدردت دينا ريقها ، وزاغ بصرها ساهمة من مجرد التخيل الذي سيقتلها إن حدث , فصمتت وهي تحدث عقلها :
ـ لكِ حق ، لكِ حق ، لقد عذبك أخي سامحه الله .

ـ مجيئكما على رأسي؛ لكنه لا يعني رضوخي لإلحاحكما بشأن العودة ... تابعت وهي تنقل بصرها بينهما : أنا آسفة، لقد انتهى كل شيء .

رفعت رغدة أحد حاجبيها وهي تحدث عقلها : لم أعد أفهمك أيتها المجنونة، ألم يفتك بكِ الحنين في الأيام الماضية ؟ لماذا تصرين على إدّعاء اللامبالاة ؟ .. نظرت لابنتها حتى تسكت ثم ابتسمت لزينب ودينا بحرج قائلة :
ـ لا تأخذا كلامها على محمل الجد ؛هي فقط متأزمة نفسيًا ،وحالما تكون بخير سيجتمع شملهما من جديد .

استشاطت أمنية غضبًا من كلام والدتها , فردت بغيظ :
ـ من فضلك أمي؛ أنا لا أمزح فيما أقول ،كلامي واضح ، كما أنني لست متأزمة نفسيًا .

كلماتها ألجمت رغدة رغم أنها تود صفعها , لكن وضعت الضيفتان بعين الاعتبار فصمتت لحين رحيلهما؛ فتوسع ابنتها توبيخ على عدم احترام كلمتها أمامهما.. قالت دينا :
ـ اعطِ نفسك فرصة أخرى ياحبيبتي .

لم ترد , فقالت زينب بصوتها الباكي :
ـ فكري مجددًا يا ابنتي .

ابتسمت أمنية لهما على مضض لتقول بشكل قاطع :
ـ أعتذر منكما ، وأرجو أن تضعا نفسيكما مكاني.

انتهت المقابلة لتعود المرأتين خاليتان الوفاض , فلم يحققا هدفهما المرجو؛ ليحاصرهما البؤس خاصة إن قابلاه فسألهما عما فعلاه لأجله .

.....

أعظم أحجية في العالم هي محاولة فك شفرات أفكار مبعثرة بعقل أحدهم , مهما اجتهدنا لحلها لن ننجح , وإلا لماذا يضطر لحفظها داخل رأسه من الأساس ؟

دلف المنزل ليجد والدته ودينا تبكيان بحرقة , اتجه لأقرب كرسي جلس عليه وظل يطالعهما وحاجباه مرفوعان دهشة , سأل :
ـ ما الذي يجري هنا ؟

نظرت زينب لدينا ثم عادا لآدم الذي زمّ شفتيه قائلًا :
ـ لا أظن المصيبة اليوم تخصني ؛ فلم يعد معي شيء أخسره .

علا نحيب زينب , فربتت دينا على ظهرها قائلة :
ـ اهدأي أمي أرجوكِ .

مطّ آدم شفتيه ليقول بامتعاض :
ـ ألن يخبرني أحد ؟ نظر حوله يبحث عن الوحيدة المخول لها تلك المهمة فسأل : ـ أين نور ؟

ـ خرجت مع ولديها للتنزه ... قالتها دينا ثم صمتت هنيهة وبعدها تكلمت : لقد ذهبنا لأمنية .

ـ حقًا !

هزّت رأسها موافقة , لكن الخيبة كست ملامحها الجميلة وقد زوت مابين حاجبيها في ألم ووالدتها تكفكف دمعاتها الساخنة وقد تورمت عيناها .

ـ لكن... قالتها دينا .

هتف بها آدم وقد نهشه القلق :
ـ لكن ماذا ؟ أليست بخير وريم ؟

ـ بلى ؛ بخير ، لكنها رفضت العودة .

زفر آدم بارتياح ليرد بكل برود :
ـ لا مشكلة .

تبادلت دينا وزينب نظرات الريبة ثم عادا لآدم وقد تسللت لهما الشكوك حول الموضوع الذي فتحته أمنية حول علاقته بزميلته , فقالت زينب بنشيج :
ـ إذن ما قالته عن زميلتك كان صحيح .

تأفف آدم وهو يشير بيديه :
ـ زميلة .. زميلة، وكأنها لعنة كلما اتجهت لمكان حاصرتني ، لاعلاقة لي بها ، كما أنني استقلت من الشركة .

شهقت زينب و ضربت صدرها قائلة :
ـ يا ويحك ! ... أما دينا كممت فمها بكفها مشدوهة من قراره الطائش .

ـ على رسلكما ، الأمر لا يستدعي ردود الأفعال المبالغ فيها تلك .

ـ بل يستدعي ... تابعت زينب وهي تصيح : من أين ستنفق على بيتك الأول و تتدبر أمر بيت جديد إن أردت الزواج بعد طلاق أم ريم ؟ هل فقدت عقلك ؟

ـ لن أتزوج و لن أطلق ... تابع وهو يحك رأسه : أما بخصوص العمل فلا تحملي همّه .

قطبت زينب جبينها غير مستوعبة ما يقوله وقبل أن تتكلم , قالت دينا :
ـ هو يعلم ما يفعله يا أمي , بالنهاية هي حياته ولا أحد يعلم ماينوي فعله غيره .

ـ بالضبط ، هذا تمامًا ما أريد سماعه يا دينا ... قالها آدم ثم قام من مكانه نحو الدرج ليصعد شقته تاركًا زينب تتميز من الغيظ على عدم فهم أحجية ابنها الغريبة .

.....

داخل القلب المتألم تموج كل الذكريات التي تنغزه لتدميه، وسيظل على حاله حتى يلقى من يفهمه ويحتويه , حينها سيرتمي بين أحضانه ولن يفعل سوى البكاء علّ الذكريات التي تضيره تخرج مع الدموع ..

طرقات على الباب متتابعة , جعلتهما ينظران لبعضهما باستغراب ويتسائلا :
ـ من ياترى ؟ لا سيما أن اختلاطهما بالجيران قليل ، اتجهت سحر لغرفتها لترتدي الحجاب ثم

خرجت نحو باب الصالة , وما إن فتحت الباب؛ صرخت بصوتٍ عالي ، فهرولت أمها ومعها الصغير تتحامل على مرضها لتسير وقد تملكها الفزع من صرخة ابنتها .

قبل دقائق , عندما فتحت الباب وجدت من يمسك باقة زهور حمراء بيديه رفعها في مستوى رأسه ليخفي وجهه ثم قال :
ـ اشتقت لك .

صرخت بصوتٍ عالي ثم قفزت وهي تنادي :
ـ حسن ... ثم رمت نفسها عليه لتتساقط الدموع بغزارة للدرجة التي أفزعته , فضمها بقوة وهو يربت عليها قائلًا :
ـ أنتِ لست بخير أبدًا يا عزيزتي .

لم تسمعه , اندست داخل صدره والدموع تجري كالسيول حتى أن قميصه ابتل , شعر بالألم لأجلها ولم يتزحزح من مكانه منتظرًا إياها تهدأ , اتجهت نحوه أمها وهي مبتسمة، والصغير يهلل معها برؤية والده , ومع كل ذلك كانت سحر لاتزال مخدّرة غير واعية أن والدتها وابنها واقفان خلفها مباشرة .

طال البكاء و النحيب بصوتٍ أعلى ، فغضّنت والدتها جبينها حزينة على حال ابنتها التي ما إن وجدت زوجها انهارت كليًا هكذا تمتمت :
ـ حبيبتي يا سحر ؛ كل هذا الألم بداخلك و تدعين الهدوء , غادرت المكان برفقة محمد نحو غرفتها , أما حسن كان لايزال على وقفته وقلبه يتمزق مع كل دمعة ونهنهة تبوح بها زوجته ليقول :
ـ اطلقي سراح كل ما يوجعك حبيبتي ، لو أعلم أن الأمر هكذا لما تأخرت بالمجيء أبدًا يا عمري، ابكِ ولا تتوقفي حتى ترتاحي .

.....

الشيطان لا يحتاج لمعارك كي يفرق بين الناس , يكفي وجود جرح بالقلب ،وذكرى مؤلمة بالعقل؛ فتتقلب الأوجاع على مرأى ومسمع من الشيطان وهو ينفث دخان الغضب بعد مزجها بالذكرى؛ ليمسد الجرح من جديد فيعاود النزف ...

داخل منزل جمال , حيث تجمعت العائلة أمام التلفاز لمشاهدة إحدى المسرحيات المعاصرة التي تضفي مزيدًا من البهجة , يضحكون من قلبهم باستثناءها فقد شردت بعيدًا مع حالها كالمعلقة، وزوجها لايزال مصرًا على العودة رافضًا الطلاق ، والأيام لا تفعل شيء

سوى الركض بسرعة للدرجة التي جعلتها لا تستوعب كيف سينتهي الشهر الثاني على قدومها وهي لا تزال على حالها .

كان مازن يتحدث عن خطبة أيمن الغريبة ومخطوبته الأكثر غرابة , وكيف رفضت أن يلبسها الخاتم , علق وهو يمط شفتيه :
ـ تبدو أصغر منه بكثير، لكنها منطوية وغريبة الأطوار بعض الشيء .

ـ هذا جيد ... تابعت أمنية بنصف ابتسامة : أظن ذلك مايبحث عنه أيمن
رفع مازن حاجبيه متعجبًا من رأي أخته وتعابير وجهها الذي بات حزينًا مؤخرًا, قال:
ـ لكن أختها أظنها مألوفة، أشعر أنني رأيتها من قبل .

ـ ألم تلتقط لهم صور بالحفل ؟ ... التفتت له أمنية سائلة .

ـ بلى .. قالها مازن وتحسس هاتفه ثم قلّب في الصور المحفوظة عليه , ليهتف :
ـ هاهي .. ثم ناولها الهاتف .

تمعنت أمنية في الصور جيدًا ،عقلها يقول خاطبة أيمن اسمها رنا القاضي , وأختها تشبه فتاة كانت لها يد في كسر قلبك , فصاحت :
ـ إنها شمس القاضي ..

ـ من تقصدين ؟ .. سألها مازن وقد ضيّق عينيه والفضول ينهشه .

ـ أقصد الفتاة التي لوحت بهدية آدم على الفيسبوك منذ مدة .

هزّ مازن رأسه نافيًا ليضيف :
ـ الأخرى غير محجبة ...مطت أمنية شفتيها ، ورفعت أحد حاجبيها قائلة :
ـ أنت سطحي يا هذا ، ويسهل خداعك .

صمت مازن للحظات يستوعب تخمين أمنية ثم أخذ منها الهاتف ليمعن في الصورة أكثر وهو يقول :
ـ حقًا , كلامك منطقي ...
شدّت منه الهاتف بعصبية , فزمجر قائلًا :
ـ لماذا فعلتِ ذلك ؟

ـ كي تغض بصرك يافتى، ماذا دهاك ؟ تحدق بها وكأنها تخصك ... قالتها ثم مسحت الصورة من جواله , فرفع صوته :
ـ من سمح لكِ بهذا ؟

ضحكت أمنية وعلى إثرها ضحك والداها بعدما تركوا المسرحية وانشغلوا بنظيرتها التي يمثلها مازن , فبلغته عدوى ضحكهم ليضحك هو الآخر متناسيًا مافعلته أخته .

هدأ الجميع , فالتفتت أمنية نحو أخيها تسأله :
ـ هل لاحظت ؛ أي محابس خطبة بيدها ؟

عقد مازن حاجبيه مبتسمًا بمشاكسة وهو ينظر لعيني أخته مجيبًا :
ـ لقد مسحتِ آخر دليل يوصلنا للحقيقة يا شيخنا الفاضل .

زمّت أمنية شفتيها وقد داعبها الاستفزاز لترد حانقة :
ـ أنا لا أمزح يا ظريف ، رد عليّ .

ـ على رسلك أختي ، يؤسفني قولي بأنني لم أنتبه على أصابع تلك الفتاة ال... "مثيرة" ... قالها وهو يغمز بعينه , فقذفته بوسادة صغيرة من الوسائد المصفوفة على الأريكة .

التقطها وتابع ضحكاته بينما كانت تتميز من الغيظ وعقلها يضخ الأفكار السلبية حول شمس وسبب ارتدائها للحجاب , تمتمت :
ـ لعله خطبها ، وأقنعها بالحجاب... كانت تمتمتها مسموعة للدرجة التي جعلت جمال ينتبه لها فيسأل :
ـ من ذلك الذي يخطبها و يقنعها ب... ؟

ـ أقصد آد... قاطعها انهمار دموعها فقامت رغدة من مكانها نحوها لتهدأها وكذا مازن الذي تعكر صفو قسماته وهو يتسائل :
ـ ماذا حدث ؟ كلما جاءت سيرتها استأنفتي البكاء ؟

أما جمال ظل مكانه ولم يحرك ساكنًا , راقب دموعها في صمت وانتظر حتى هدأت ثم سألها :
ـ هل يهمك أمره ؟ .. نظرت لعينيه ثم أشاحت ببصرها بعيدًا ولم ترد , فتابع جمال: ـ لو تعلمين مايفعله لأجلك؛ لسامحتيه على الفور يا ابنتي .

عقدت أمنية حاجبيها لترد :
ـ لم أفهمك يا أبي ... أما رغدة ومازن تبادلا نظرات مستفهمة عما سمعاه وعادا لجمال يسألاه أيضًا لكن بأعينهما , فهزّ رأسه نافيًا أن يعطيهم إجابة شافية وقال :
ـ ستعلمون كل شيء في وقته , وحينها أنا من سيقف في وجهك يا أمنية إن اعترضتِ .

كفكفت دموعها وحاولت الابتعاد عن ذاك الموضوع الذي يستنزفها , قالت :
ـ أريد التقديم للدراسات العليا , ستبدأ السنة الدراسية قريبًا , وددت الإنضمام لهم .

ـ لا مشكلة .. تابع جمال وهو مبتسم : لكن استشيري زوجك أولًا .

ردت ممتعضة :
ـ لكنك تعقد الأمر هكذا يا أبي... فوافقها مازن ... رفع جمال سبابته ليضيف :
ـ أنا فقط اتبع الأصول يا حبيبتي .

هزّت رغدة رأسها قائلة :
ـ والدك معه حق يا أمنية .

ـ حسنًا ... قالتها بقهر فتمزق قلبه لكنه أبدًا لن يتزحزح عما قاله ليبتر أي سبيل للفرار من الواقع ، وهو على علم بكل شيء يحدث حوله .

.....

تتعدد النعم والعطايا مؤكدة أن ما من باب يُغلق إلا ويُفتح غيره مصدرًا المزيد والمزيد من المنح , علّنا نتذكر العاطي الوهاب الذي يبعث لمجروحي القلوب من يربت على قلوبهم على هيئة شخص ناضج مهمته الاحتواء حتى الارتواء من نهر قلبه الذي لا ينضب ...

بإحدى القاعات الفخمة تلألأ حفل خطبة شمس , كان به من الصخب ما يجعل المارين بجوار القاعة يفترسهم الصداع, رقصت مع رامي على الأغاني ورددها بشكل احترافي متناغم جدًا مع تبادل العناق على مرأى ومسمع من الجميع , أما رنا جلست بركن قصي مع سعاد والخجل قد اتخذ منها مبلغًا، والحرج يقطر من عينيها أمام أيمن على حركات شمس التي وجدتها مبالغة لحد لا يُحتمل كان يطالعها بشغف , فيتورد خداها .

كان رجب يتابعهما شاردًا بكل ماحدث ولا زال يحدث من ابنتيه وزوجته, جلس مع زملاءه وأصدقاءه الذين تجمعوا على طاولات الصفوف الأولى , كلما تذكر كيف وافق رنا على عقد قرانها بتلك السرعة شعر بالغضب ... تمتم : أي أب غافل الذي يعقد قران ابنته التي لم تنهي

دراستها بعد خطبتها بشهر ؟ وهاهي الكبرى مؤكد ستطلب تعجيل زواجها ؟ ... حدثه عقله : لكنه أفضل لك ولسعاد , فبعد زواجهما ستكون وحيدة ولن يكون أمامها خيار غير العودة .... عليّ أن أشكر أيمن و رامي على إسداء تلك الخدمة العظيمة ... عادت ابتسامته من جديد على ذلك الحديث الماتع والمحفز من عقله ليعاود تلقي المباركات ممن حوله .

لم تجد رنا نفسها مرتاحة في هذا الحفل المليء بالضجيج , تأففت وأخذت تعبث بهاتفها فلمحها أيمن فربت على كفها بدفء مما جعلها تسحب يدها بسرعة وهي تنظر لوالدتها التي لم تلحظ ماحدث ثم عادت بنظرها له غاضبة ,

ـ فقال : مابالك ؛ لقد عقدنا قراننا منذ أيام ، أم أنكِ نسيتِ ؟

ـ لم أنس ؛ لكننا أمام الناس يا أيمن ... تابعت وقد احمر وجهها : لا يصح مافعلته أبدًا.

تتابعت ضحكاته ليقول مناغشًا إياها :

ـ سأصبر عليكِ هذا الشهر فقط .

عقدت رنا حاجبيها لتسأل :

ـ تصبر عليّ هذا الشهر ؟ ... غمز لها قائلاً :

ـ ألم نتفق على أن يكون الزفاف في الشهر القادم ؟

ـ لكنني لم أقرر بعد ، كما أنني ...

ـ ماذا ؟

ـ لم أنهي دراستي يا أيمن ... رقّص حاجبيه قائلاً بمشاكسة :

ـ سأساعدك في المذاكرة , لا تقلقي.

ـ أيمن... زمجرت متابعة : كف عن ذلك ... التفتت لوالدتها التي كانت تقاوم النعاس بكل ما أوتيت من قوة فأخذت تتثائب كل حين لتفتح جفنيها بعند حتى لا تنام ... قالت لها :

ـ ما رأيك أن نعود يا أمي ؟

ـ ياليت يا رنا ، يغلبني النعاس كثيرًا وأشعر بالصداع يفتك برأسي ... صمتت لبرهة ثم قالت وكأنها تذكرت شيء : لكن أختك وخاطبها سيذهبان لتناول العشاء وقد أكدت علي أن ، نشاركهما.

ـ يكفيها وجود أبي .

ـ لكنها ستحزن يا ابنتي ، لا يفترض بنا تركها في ليلة كهذه .

ـ ونحن لم نتركها بالفعل .. تابعت رنا وهي تضغط على ذراع والدتها محفذة : وها قد انتهى الحفل ، والعشاء خاص بالعروسين لذا من الأفضل أن نرحل .

صمتت سعاد و نظرت لرنا تسألها بعينيها :
ـ أحقًا شمس لن تحزن ؟ ... لكن رنا تركتها واتجهت لشمس التي كانت تتلقى المباركات من أصدقائها , أخبرتها برغبتهم في الرحيل وتركتها قبل أن تعلق على هذا عائدة نحو والدتها وأيمن .

ـ هيا بنا ... قالتها رنا ونظرت لأيمن الذي قام على الفور ليقلهما للبيت .

التفتت له سعاد قائلة :
لا تتعب نفسك يا بني ؛ سنستقل سيارة أجرة ... قبل أن يتفوه بكلمة , قالت رنا :
ـ نستقل سيارة أجرة وهو موجود ، تجرحين مروءته هكذا .

ابتسم أيمن قائلاً :
ـ معها حق خالتي .

عادوا للمنزل وحالما دلفوا توجهوا لغرفة الجلوس أما سعاد ذهبت لغرفة نومها بعدما استأذنت منهما قائلة لرنا :
ـ أعدي له العشاء يارنا , لا تجعلينه يغادر قبل أن يأكل .

قامت رنا من مكانها وقد تخللها التوتر عندما سمعت صوت غرفة والدتها يُغلق , همّت بالخروج لكنه لحق بها وأمسكها من ذراعها بحنو , فاستدرات له موسعة عينيها لتقول :
ـ سأعد لك العشاء .

ـ لا أريد عشاء ... قالها وهو ينظر لعينيها بوقاحة ,فاحمر وجهها ونظرت للأرض.

ـ ماذا تريد ؟ .. قالتها بصوتٍ خفيض به لمحة ارتباك .

ضمّها لصدره بقوة قائلًا :
ـ هذا تمامًا ما أريد؛ لكنك تمانعين رغم أنني الآن زوجك يارنا .

ـ أيمن... قالتها داخل أسره ثم ذابت كليًا من دفئه ، وانصهرت ذراتها منادية باسمه لتتوحد في ذراته فيصبح كياناهما عبارة عن مزيج لكيان واحد ، ارتجفت فأخذ يربت على ظهرها حتى

هدأت , ظلا هكذا لدقائق كثيرة , تملصت من عناقه وعينيها بها عبرات حيية , كان وجهه يشع بابتسامته الودودة , مرر أصابعه على عينيها يمسح دمعاتها ثم اقترب من وجهها ليقبّلها بين عينيها قائلاً :
ـ لا تبكِ وأنتِ معي أبدًا .

أومأت بنعم , فاقترب من أذنها قائلًا :
ـ أحبكِ كثيرًا يارنا، وأريدك قوية لا تخشي شيء وأنا معك .

غادر مخلفًا مزيج من الحب والشوق مع بعض العشق تتقلب بهم على نار الشغف , رغمًا عنها استرسلت دمعاتها معبرة عن الفرح بظهور ذلك الإنسان المعبق بالرجولة في حياتها المقفرة , ودت لو تشكر القدر الذي جمعها به , وتحمد الإله الذي كافئها لتضمد جراح قلبها الذي سببها تفكك أسرتها , خرّت مكانها ساجدة والدموع تجري كالأنهار تتمتم : الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات .

بمجرد وصوله منزله هاتفها ليقضي ماتبقى من الليل رفقتها وطالت ثرثرتهما على وتيرة رومانسية هادئة وهذه المرة كانت تستجيب برقة ونعومة لغزله الصريح مما زاد سعادته ليطيل وقت المكالمة أكثر وأكثر حتى سمعت صوت غلق الباب الخارجي , حينها أدركت عودة أختها فاضطرت لإنهاء المكالمة.

تجولت شمس بالشقة وعندما لمحت ضوء غرفة رنا , انطلقت نحوها , دلفت بلا طرق على الباب لتجدها تبتسم وهي جالسة ممدة ساقيها على السرير , قالت :
ـ مبارك عليك يا شمس ، أسأل الله أن يتمم لكِ على خير.

ـ آمين .. آمين ... تابعت شمس وقد مطت شفتيها : لما لا تتبرآن مني أنتِ وسعاد بالمرة ؟

عقدت رنا حاجبيها مستفهمة , فواصلت شمس :
ـ لو كنتما بحفل أحد الجيران لتفاعلتما بشكل أفضل حتى العشاء تملصتما منه ... أشاحت بيديها في عصبية قائلة : جالستان وكأن على رأسيكما الطير كما لو أنني دعوتكما لمأتم ،لم يرقص معي غير زملائي بالعمل و أقارب رامي ،هل هذا يُعقل ؟

حاولت رنا إمتصاص غضبها لترد بهدوء :
ـ إهدأي , أيتها العروس الشقية ، من المفترض أنكِ تعلمين طبعينا أنا وأمي، ليس لنا في هذا الصخب ... تابعت مشاكسة : لا أعلم من أين جئتِ بكل تلك الصحة للرقص يا فتاة ، أضيفي

على ذلك الغرة التي تبرأ منها حجابك الذي ليس له ضرورة فقد بدى وكأنه قبعة صغيرة ،كنت أود صفعك حينها .

ـ صفعي ؛ بل أنا من يود فعل ذلك الآن .

قامت رنا من مكانها لتقف أمام شمس ثم مدت عنقها تنغاشها قائلة :
ـ هيا افعلي ، أنتِ الليلة عروس وطلباتك أوامر .

اتسعت عينا شمس فقلدتها رنا بطريقة فكاهية مما جعلهما ينفجران بالضحك ، فعانقتها رنا وهي تبارك لها مجددًا وتضيف اعتذار عن رحيلهما باكرًا .

ـ حسنًا ، عفونا عنكِ يا صغيرة ... قالتها شمس بطريقة مسرحية .

زفرت رنا بارتياح , فباغتتها شمس قائلة :
ـ أوصلكما شكري سرحان ؟

ـ اسمه أيمن ياشمس ... ردت رنا باقتضاب .

ـ هل جاء إلى هنا ؟

ضيّقت رنا عينيها غير مستوعبة ماترمي إليه أختها ، ثم قالت :
ـ وما المشكلة ؟

ـ ومتى نامت سعاد ؟

ـ بعدما عدنا مباشرة ، هل أنا في تحقيق أم ماذا ؟

لوت شمس شفتيها وأشارت بيديها قائلة :
ـ نامت وتركتكما تصنعان المجد ، ياويحك يا سعاد !

احمر وجه رنا من تلميحات اختها المبطنة لترد :
ـ أنسيتِ أنه زوجي ؟

ـ اممم , إذن صنعتما الكثير في غيابي ، ها قولي لي ماذا فعلتما أيتها الشقية الصغيرة ؟ ...
ردت رنا بانفعال :
ـ لم نفعل شيء ، عيبٌ عليكِ ياشمس .

أشارت شمس على وجه أختها قائلة :
ـ أووه هنا أثر قبلة يافتاة ؛ واضحة جداااا.

امتقع وجه رنا وأخذت تتحسس جبهتها وهي تقول :
ـ تقصدين هنا .

تتابعت ضحكات شمس بصوت عالي لترد :
ـ يا فرحتي بهنا ، هذا آخركما أيها المؤدبان .

ـ وقحة ... صاحت بها رنا ثم دفعتها خارج الغرفة، ولازالت شمس تضحك وهي تتوسل لها أن تخبرها بما حدث لكن رنا أغلقت الباب على نفسها , وركضت نحو المرآة تنظر لوجهها الأحمر وتتحسس جبهتها بجذل ثم تنهدت قائلة :
ـ ليتها تركت أثر ؛ لأباري الكون بها ... استفاقت عندما أتاها صوت أختها من خلف الباب وهي تقول :
ـ أنا أسمعك .. فصاحت بها :
ـ يا قليلة الأدب .

.....

أي نعيم دنيوي أثير ذاك الذي يرتوي من قلب عاشق يجرع معشوقته الأمان مع العشق ؟ ... ليخبرها ألا تخشى شيء طالما أنفاسه تحيط بها وترعاها .

في حنايا منزل كامل حيث كانت دينا تنظر من نافذة غرفة نومها بشرود , تفكر في حال آدم وكيف رفضت زوجته العودة متناسية ريم تمامًا، أوجعها قلبها كثيرًا عندما تذكرت قولها "ضعي نفسك مكاني" ، أجفلت ولم تلحظ من حاوطها بذراعيه وهو يقف خلفها ثم أحنى جذعه مقبلًا رقبتها , متسائلاً :
ـ من أخذ عقلك غيري ؟

ابتسمت وهي تتلمس أصابعه المتشبثة بخصرها لترد بحشرجة :
ـ لن يأخذ عقلي وقلبي وكل كياني غيرك يامن كمّلت حياتي وجمّلتها بالنعيم .

ـ يا إلهي ! ما كل هذا الكلام ؟ .... تابع ممازحًا : يجدر بكِ الاتجاه للشعر .

ضحكت بمرارة , شعر بها فسحب يديه من خصرها ليمسك كتفيها ثم أدارها لتكون أمامه وجهًا لوجه , سألها :
ـ مابكِ دينا ؟ لكِ قرابة الشهرين وأنتِ تخفين عنّي شيئًا .

بلعت غصتها بصعوبة وهي تنظر لعينيه , حاولت السيطرة على دموعها لكنها لم تفلح , تساقطت العبرات على وجنتيها , فمرر أصابعه يمسحها بحنو وقد غضّن جبينه متأثرًا بها , عانقها وهو يربت على ظهرها حتى هدأت , جذبها من ذراعها نحو السرير , جلسا على طرفه ثم بادرها :
ـ احكِ لي مايشغلك .

ـ آدم ... نطقت بها رغم أنها كتمت عنه ما حدث معه ومع ذلك تمكن كامل من جعلها تبوح .

ـ ما به ؟

ـ أمنية ستتركه ولا تود الرجوع له ... قالتها بنشيج .

ـ لماذا ؟ .. قالها كامل وقد عقد جبينه

نظرت له بتوسل ترجوه :
ـ اعفني من ذكرها يا كامل , أرجوك .

ـ حسنًا ... قالها وأخذ يمسح على ظهرها لتهدأ

ـ أيمكن لهما العودة مجددًا؟... سألته وهي تنظر لعينيه تسألهما بث الأمل في نفسها.

ـ لو كانت حقًا تحبه؛ ستعود .... تابع بنبرة أكثر جدية : هي تحتاج فقط لوقت لتتجاوز ما أغضبها .

ـ حقًا ؟ ... أومأ بنعم ثم تابع :
ـ ماذا ستفعلي لو كنت مكانها ؟

انتفضت جوارحها و شخصت عينيها عليه بوجوم لترد :
ـ لا؛ لن أكون مكانها .

ابتسم كامل بحنو قائلاً :
ـ حبيبتي , قصدت أن تشعري بها ... ضيّق عنيه مكملاً : يبدو أن ما فعله أخوك عظيم ...

رفعت كفيها قائلة :
ـ بدون التطرق لما فعله ، من فضلك .

ـ حسناً , هل ستسامحيني لو فعلت ما فعله ؟

انسالت الدموع وقد مزقها الألم من مجرد التخيل ولم تتمكن من الرد , فضمّها كامل لصدره مطمئنًا إياها :
ـ اهدأي أرجوكِ، ما قصدته أن الحب يستدعي الغفران يا دينا، وهذا لا يسوغ أبدًا فعلة أخيكِ أيًا كانت... تابع وهو يربت على ذراعها : زوجة أخيكِ ستعود طالما تحبه .

توقفت عن البكاء ثم رفعت رأسها تنظر له وقد احمر جفنيها :
ـ أنا أحبك كثيرًا، ولن أتحمل كسر قلبي يا كامل؛ سأموت إن فعلتها .

أعاد رأسها لصدره وهو يربت عليها قائلًا :
ـ لا عشت ولا كنت إن فعلتها يا حبيبتي ، وهل هناك من يكسر روحه ؟
هدأت نفسها كثيرًا، وتنهدت بارتياح مغمضة عينيها داخل تلك الجنة الدافئة التي يرويها كامل من حناياه .

.....

نظن أن كل الأبواب موصدة , فلا نبصر غير الظلام الذي يزداد قتامة مع بعد كل من ننتمي إليهم , حتى ينبثق شعاع أشبه بخيط من نور آتٍ من داخل القلب يخبرنا أننا ولأول مرة ربحنا أنفسنا ...

داخل منزل جابر , انتهت نور للتو من إطعام ولديها تاركة إياهما يلعبان بالحديقة ؛ ثم بدلت ملابسها وسط استغراب زينب التي لاحظت مؤخرًا سلامها النفسي الغير اعتيادي مع حالتها , انتظرت حتى خرجت من غرفتها مرتدية عباءة سوداء وعليها حجاب داكن اللون ومعها حقيبتها .... عقدت زينب حاجبيها سائلة :
ـ ماذا تفعلين هذه الأيام يانور ؟ لكِ فترة تخرجين في نفس الموعد وكلما سألتك غيرتي الموضوع .

لم تود إخبارها بالحقيقة ؛ فصمتت .. لكن زينب عزمت على معرفة مايجري , فقامت من مكانها معترضة طريقها لتقول :
ـ لن تذهبي حتى أعرف .

ـ اتركيني أمي .

مطت زينب شفتيها قائلة :
ـ هل اتجهتي للدروس الخاصة ؟ زوجك يدفع لنفقتكم مبلغ لا بأس به يا ابنتي .

هزّت نور رأسها نافية وداخلها صراع فهي لاتريد أن يعرف أحد أمرها , تخشى أن يقللوا منها إن علموا , أو يضعوها بركن المثالية الذي لم ولن تنتمي يومًا له , فبالرغم من ذهابها للمسجد لمرتين فقط ؛ إلا أنها تشعر بأن حالها كالسابق لم يتغير فيه شيء سوى بزوغ القليل من الرحمة التي انبثقت من قلبها ناحية ولديها قد تكون لحظية لتتلاشى حال وقوعهما بخطأ ما؛ لكن هذا أفضل من لا شيء , أما ماتضمره لمن تكرههم لم يتقهقر قيد أنملة .

ـ ستخبريني الآن بالحقيقة يانور.

عقدت نور حاجبيها وحدجت زينب بنظرات مغتاظة ولم تنبس ببنت شفة .

تأففت زينب وقد كاد صبرها ينفد , هتفت بها :
ـ لماذا تخرجين بدون ولديكِ ؟

زفرت نور بضيق من محاولات زينب المستميتة لمعرفة سرّها , قالت متذمرة :
ـ ألا يحق لي التنفس في وقت مستقطع لي وحدي بعيدًا عنهما ؟

ـ ولقبك الجديد ؟ ... تابعت زينب وهي تحاول استدعاء الهدوء بكل ما أوتيت من قوة :
خروجك من البيت أصبح محسوبٌ عليكِ بنيتي .

اتسعت حدقتا نور منادية الدموع , ولم تتمكن من الرد فقد تبعثر كبرياءها مع التصاق اللقب بها , ألقت حقيبتها على الأرض وهي تصرخ :
ـ استريحي أمي ؛ لن أخرج ... اتجهت للكرسي حيث استوت عليه تقضم أظافرها وهي تحدث نفسها وسط تقطع أنفاسها ودموعها الحارة :
ـ الفشل أقسم على محاصرتي في كل شيء , كيف أتوقع نجاح ذلك الأمر ؟ أم أن بداخلي هدأ لأتطلع للتغيير ؟ إنها محض حماقة لا أكثر اتجهت لها طلبًا للراحة التي أقسمت على هجري .

.....

لا شيء يضاهي عناق قلبين متعاشقين كل منهما يستمد قوته من الآخر بشكل ما , متناسين نقاط الضعف التي خرجت من الماضي ليصفعاها فتعود أدراجها ...

طالت وقفتهما ولم يتذمر أو يبدي أي تعليق رغم أن قدميه تعبتا , أخرجت مابحوزتها من دموع ولازالت متوسدة صدره ؛ لكنها أخيرًا توقفت وهدأت لتستوعب مافعلته للتو فتشعر بالحرج ، وكم كانت سخيفة بفعلتها التي رأتها غبية , رفعت رأسها تنظر له بحرج وقد احمر جفنيها لتقول :
ـ اعتذر منك , لم يكن عليّ فعل ذلك .

ابتسم بحنو قائلًا :
ـ بل أنا من عليه الاعتذار لتركك تعانين وحدك كل هذه الأيام يا حياتي... اقترب من جبهتها طبع عليها قُبلة دافئة ليسألها : ماذا حدث معك في غيابي ياسحر ؟

ازدردت ريقها لترد :
ـ كل مافي الأمر أنني افتقدتك كثيرًا يا حسن .

ـ وأنا أيضًا حبيبتي .

تحركا معًا نحو غرفتها , التقطت منه حقيبة ملابسه ثم فتحتها , أخرجت منها منامة ثم وضعتها على السرير .

ـ لعلك متعب يا حبيبي، حمد الله على سلامتك .

ـ سلمكِ الله... قالها واتجه للسرير يجلس على طرفه , ثم طالعها بنظرات ودودة ليبصر جلبابها القصير الضيق الذي لا أكمام له وكأنه فستان مثير مبرزًا كل مفاتنها , راقت له كثيرًا هيئتها الأنثوية الفاتنة .

استدارت متجهة نحو الباب، ثم حادت برأسها ناحيته والبسمة على ثغرها المكتنز والمحمر من أثر البكاء , قالت :
ـ سأعد لك المائدة خلال تغيير ملابسك .

همّت بالمغادرة , لكنه قام مسرعًا ناحيتها جذبها من ذراعها قائلًا بمشاكسة :
ـ إلى أين ؟ ... قالها ثم أغلق الباب , فضحكت ملئ فيها على حركاته الصبيانية التي تعشقها .

ـ ألست جائع ؟

ـ بلى؛ ولكنّي أود التحدث معكِ قليلاً ... قالها و أوصد الباب بالمفتاح فتتابعت ضحكاتها على تلك النظرات الجريئة التي راقت لها .

.....

العشق كلمة لن يعرف معناها إلا من أضناه البعد مخلفًا حنين لا يمكن للسان البوح به ؛ لكن جوارحه سنتطق حالما يرى شطره الآخر .

مرور الأيام كفيل بتغيير الحال سواء كان للأفضل أو الأسوء ؛ إلا حالها الذي فضّل الركود لمدة شهرين لتبقى مكانها بلا جديد غير مهاتفته اليومية لوالدها و سماع صوت ريم وهي تنادي اسمه عبر الهاتف , وهي منغلقة على نفسها داخل الغرفة , كبرياءها تحكم فيها ليقيدها على درج العند فتغدو معلقة و بإرادتها ؛ لكن جمال كان له رأي آخر .

في صباح يومٍ لطيف رغم حرارته إلا أن به مسحة من أمل , كانت ترتب غرفتها بهدوء الترتيب اليومي المعهود , قاطعها صوت طرق رغدة على الباب ثم دخولها ، استدارت لها أمنية تسألها :
ـ هل هناك شيء أمي .

مدت رغدة يدها بقماشة هيئتها لمسح الأتربة , ثم قالت :
ـ اذهبي لغرفة الجلوس لتنظيفها .

ـ لكنني لازلت أرتب غرفتي أمي .

ـ أنا سأستكمل العمل فيها حبيبتي.. تابعت محفذة إياها : هيا يا أمنية ؛ قومي بما طلبته منك .

ـ حاضر ... قالتها والتقطت من أمها قماشة الأتربة ثم سارت نحو غرفة الجلوس , قامت بمسح الأتربة عن الأرائك بعناية لا سيما تلك الفجوات الموجودة داخل القطع الخشبية والتي افترشها الغبار؛ لأنها تتكاسل عن تنظيفها في كل مرة تنظف فيها الغرفة وتشعر بالملل من مجرد رؤية احتياجها للعناية ... تمتمت :
ـ لكِ حق أمي .

انتهت من الأرائك ثم نظرت للنافذة , أزاحت الستائر و صعدت على أحد الكراسي تمسحها , فسمعت صوت رنين الجرس الخارجي , عقدت جبينها سائلة : ـ من سيأتي في مثل هذا الوقت ؟ ... ضجيج بالخارج و ريم تنادي تهلل بصوتها الطفولي .

قبل لحظات ، فتحت رغدة الباب والحرج يعلو محياها ؛ لأن ابنتها لم تنتهي من تنظيف الغرفة، كما أنه جاء قبل موعده الذي اتفق بشأنه مع جمال , لم تكن تعلم أن الشوق أضناه للدرجة التي كادت تودي به وقد كان يود أن يبيت ليلة البارحة أمام بيتهم، رغم أنه اتفق مع

جمال على مفاجئتها وعدم إخبارها بالأمر حتى لا تعترض كما تفعل في المعتاد ويقينه أنها ستستكين له فمؤكد أنها اشتاقت خلال هذين الشهرين كما فعل هو .

كان مبتسم ومعه علبة حلوى , قدمها لها فالتقطتها شاكرة ثم أحنى جذعة ليحمل ريم , احتضنها وانهال عليها بالقبلات الأبوية الودودة ... أشارت له رغدة ليدخل ثم أخذت منه ريم وهمست له :
ـ ستجدها في غرفة الجلوس ... تهللت أساريره وعقله يخمن كيف ستكون ردة فعلها إن رأته , حفذته رغدة وهي تشير للغرفة ثم أخذت ريم وابتعدت .

كانت معلقة على الكرسي مادة جذعها ليصل ذراعها أعلى الحائط تمسح عنه الغبار , لم تلحظ من وقف بجوار الباب يطالعها متعطشًا لنظرة ارتواء منها , يتفحص جسدها الذي امتلىء خلال تلك الفترة التي ابتعدت فيها لتخرج منحنياته عن طوع منامتها القطنية الزرقاء وشعرها المموج منسدل على ظهرها وقد ضمّه مشبك أحمر ... طالعها بعذاب وقد أرخى جفنيه يذوب في كل تفاصيلها , يزفر أنفاسًا حارة مع كل نظرة مصوبة ناحيتها، وقد أضناه الاشتياق لكل شيء جمعه بها وكان هو غافلًا عن قدرها ... حدثه عقله وسط المعمعمة المشتعلة داخله : اغلق الباب يارجل ، حتى تلحظ وجودك ... ففعل .

عندما سمعت صوت غلق الباب , قالت وهي منشغلة بعملها :
ـ هل تريدين منّي شيئًا، أمي؟

لم يرد , ظل محدقًا فيها بنظراته الملتهبة وقد وضع كفيه في جيبيّ بنطاله ليسيطر على ارتباكه , أعادت أمنية السؤال ولا مجيب , فالتفتت برأسها وما إن رأته شهقت قائلة :
ـ آدم .

الخاتمة

(صف لي العشق!)

.....

مهما ادعينا نجاح الحواجز المنيعة للتفرقة بين قلبين جمعتهما في يوم ما ذكرى أثيرة , فلقاء واحد كفيل بتحطيم الحواجز لإعادة الوصل من جديد ...

في صباح يومٍ لطيف رغم حرارته؛ إلا أن به مسحة من أمل , كانت ترتب غرفتها بهدوء الترتيب اليومي المعهود , قاطعها صوت طرق رغدة على الباب ثم دخولها ، استدارت لها أمنية تسألها :

ـ هل هناك شيء , أمي.|

مدت رغدة يدها بقماشة هيئتها لمسح الأتربة , ثم قالت :

ـ اذهبي لغرفة الجلوس لتنظيفها .

ـ لكنني لازلت أرتب غرفتي , أمي .

ـ أنا سأستكمل العمل فيها , حبيبتي .. تابعت محفذة إياها : هيا يا أمنية ، قومي بما طلبته منك .

ـ حاضر... قالتها والتقطت من أمها قماشة الأتربة ثم سارت نحو غرفة الجلوس , قامت بمسح الأتربة عن الأرائك بعناية لا سيما تلك الفجوات الموجودة داخل القطع الخشبية والتي افترشها الغبار ؛لأنها تتكاسل عن تنظيفها في كل مرة تنظف فيها الغرفة وتشعر بالملل من مجرد رؤية احتياجها للعناية ... تمتمت :

ـ لكِ حق أمي .

انتهت من الأرائك ثم نظرت للنافذة , أزاحت الستائر و صعدت على أحد الكراسي تمسحها , فسمعت صوت رنين الجرس الخارجي , عقدت جبينها سائلة : ـ من سيأتي في مثل هذا الوقت ؟ ... ضجيج بالخارج و ريم تنادي تهلل بصوتها الطفولي .

قبل لحظات , فتحت رغدة الباب والحرج يعلو محياها لأن ابنتها لم تنتهي من تنظيف الغرفة ، كما أنه جاء قبل موعده الذي اتفق بشأنه مع جمال , لم تكن تعلم أن الشوق أضناه للدرجة التي كادت تودي به وقد كان يود أن يبيت ليلة البارحة أمام بيتهم رغم أنه اتفق مع جمال على مفاجئتها وعدم إخبارها بالأمر؛ حتى لا تعترض كما تفعل في المعتاد ويقينه أنها ستستكين له فمؤكد أنها اشتاقت خلال هذين الشهرين كما فعل هو .

كان مبتسم ومعه علبة حلوى , قدمها لها ؛ فالتقطتها شاكرة ثم أحنى جذعة ليحمل ريم , احتضنها وانهال عليها بالقبلات الأبوية الودودة ... أشارت له رغدة ليدخل ثم أخذت منه ريم وهمست له :
ـ ستجدها في غرفة الجلوس ... تهللت أساريره وعقله يخمن كيف ستكون ردة فعلها إن رأته , حفذته رغدة وهي تشير للغرفة ثم أخذت ريم وابتعدت .

كانت معلقة على الكرسي مادة جذعها ليصل ذراعها أعلى الحائط تمسح عنه الغبار , لم تلحظ من وقف بجوار الباب يطالعها متعطشًا لنظرة ارتواء منها , يتفحص جسدها الذي امتلىء خلال تلك الفترة التي ابتعدت فيها لتخرج منحنياته عن طوع منامتها القطنية الزرقاء ، وشعرها المموج منسدل على ظهرها وقد ضمّه مشبك أحمر ... طالعها بعذاب وقد أرخى جفنيه يذوب في كل تفاصيلها التي اشتاق لها حد الوله , يزفر أنفاسًا حارة مع كل نظرة مصوبة ناحيتها وقد أضناه الاشتياق لكل شيء جمعه بها وكان هو غافلًا عن قدرها جمعهما ... حدثه عقله وسط المعمعمة المشتعلة داخله : اغلق الباب يارجل ؛ حتى تلحظ وجودك ... ففعل .

عندما سمعت صوت غلق الباب , قالت وهي منشغلة بعملها :
ـ هل تريدين منّي شيئًا , أمي؟

لم يرد , ظل محدقاً فيها بنظراته الملتهبة ، وقد وضع كفيه في جيبيّ بنطاله ليسيطر على ارتباكه , أعادت أمنية السؤال ولا مجيب , فالتفتت برأسها وما إن رأته شهقت قائلة :
ـ آدم !

ارتعدت أوصالها لدى رؤيته واختل توازنها لكن قبل أن تسقط هرع آدم ناحيتها ممسكًا بخصرها ثم أنزلها من أعلى الكرسي , يطالعها باشتياق وهي تنظر له بوجوم غير مستوعبة تمامًا مايحدث و قبل أن تتفوه بكلمة ضمّها لقلبه بقوة وصدره يعلو ويهبط بأزيز يخبرها كل ماحدث خلال أصعب شهرين مرّا عليه في حياته , كانت ستتملص من حضنه لكنها تخدرت على إثر صوت أنفاسه التي تئن بقسوة كاشفةً أمره .

طال العناق ومع كل لحظة يطلق آدم سراح همّ كان يحتجزه داخله , أما هي فقد أطلقت العنان لدموعها ولا تعلم مادفعها لذلك ؛ لكن رؤيته هيّجت آخر ذكرى مؤلمة جمعتهما ... ابتعد قليلاً ثم أخذ يتحسس ملامحها بأصابعه وسط ذهولها ثم يطبع قبلاته الدافئة على تلك القسمات وهو يهمس :
ـ أنا فقط أتأكد أنني لا أحلم .

ـ تحلم ... قالتها بوجوم وآثار الدموع على عينيها , ثم أمسكت كفه الأيمن تتفحصه فوجدت ندبة كبيرة على ظهره , تألم قلبها لرؤيتها لكنها ادعت اللامبالاة .

مسح دموعها بأصابعه ليتابع :
ـ أنتِ حقًا رائعة أيتها الأميرة المتوجة .

ـ أميرة متوجة ؟

ـ لم تتركيني ولا يوم خلال الليالي السابقة , لقد عشت معك أجمل لحظات بعالم الأحلام ... تابع وهو يغمز لها بشقاوة : أنتِ أميرتي أنا المتوجة .

احمر وجهها فقد فهمت أنه عبث بدفترها وقرأ محتواه , انفعلت قائلة :
ـ من سمح لك بقراءة دفتري ؟

ـ أنا .

صكّت أسنانها بغيظ ودفعته بكفيها ؛ لكنه لم يتزحزح بل قرّبها إليه أكثر وسط امتعاضها لتهمس بغيظ :
ـ ابتعد , آدم .

ـ وإن لم أفعل ؟

ـ سأنادي .... قاطعها قائلًا والضحكة ملىء فيه :
ـ لن يسعفك أحد .

ـ كلكم تآمرتم ضدي ، حتى أهلي ... قالتها وعادت للبكاء ولكن هذه المرة كانت تضرب بقبضتيها على صدره لتهتف فيه بقهر وسط نهنهاتها : لقد استنزفتني أنت و عائلتك ، ألا يكفي ظلم ؟ ماذا تريد منّي الآن ؟ ماذا تريييييييد ؟ قالتها وعلا صوت نحيبها

ـ أنا آسف لكل ما سببته لكِ من ألم , آسف على كل شيء ... قالها وأمسك كفيها بحنو فتحهما ليقبل باطنهما وهو ينظر لعينيها وقد تمكن من التصويب ناحية الهدف فهدأت قليلًا مشيحة ببصرها بعيدًا , لمح اسمه يلمع على صدرها فأشرقت ابتسامته , ليتحسسه بأصابعه ثم أحنى رأسه يبعث قبلاته وقد أغمضت عينيها وذرات جسدها تتبعثر من تأثيره , تشعر بأنها تُسحق مع كل تصرف يبديه لتعود من حيث أتت بلا كرامة أو كبرياء ... همست بحشرجة :
ـ كفى أدم ، لاتفعل بي ذلك .

اقترب من أذنها متمتمًا :
ـ ما الذي أفعله بكِ بالضبط ؟

كانت ستقول : تذيبيني ... لكن الكبرياء طرق بسوطه على روحها ففتحت عينيها قائلة :
ـ تضغط عليّ لأجل العودة .

هزّ رأسه نافيًا ليقول :
ـ بل أتى بي الاشتياق الذي كاد يفتك بي ، ألم تشتاقي ؟

أغمضت عينيها مجددًا ولم ترد, فواصل وهو يمرر أصابعه على خصلات شعرها : ـ لن أطلب منك العودة الآن , جئت لأرتاح و تهدأ روحي قليلًا برؤيتك .

ارتعشت شفتيها لتقول بارتجاف :
ـ ولما تأتي وفي حياتك أخرى ؟

ـ لا أحد سواكِ في حياتي ... تابع مقربًا وجهه من وجهها يستنشق أنفاسها :
ـ لقد استقلت من الشركة ولن يعد لكِ حجة بتك الشكوك الهوجاء .

ـ حقاً ؟ ... تابعت وقد ترققت ملامحها قليلاً : لكنه عملك .

ـ لم يعد ؛ فقد بات لي آخر أفضل لكنه أقل راحة .

ـ أنا أريد المضي قدمًا في رسالة الماجستير .

قرص خديها بأصابعه بعبث رجولي ليمازحها بصوته الأجش :
ـ بعد اكتناز خديكِ هكذا لن أوافق .

ـ آدم ... زمجرت بعصبية وهي تبعد يديه عن وجنتيها : أنا لا أمزح .

نظر لعينيها يدثرهما بشغب :
ـ ولا أنا ... غمز متابعًا : هل هناك ملكة تعمل خارج مملكتها ؟

تأففت قائلة :
ـ ليتني لم أكتبها ... زمّت شفتيها بغضب لكنها فتنته... لثّم العشق لثامه حولهما وكان سلطانه الأقوى فلم تقوى على المقاومة , فأغمضت عينيها ترشف عشقه على مهل , متناسية تمامًا ذكريات آلمتها .

غادر قبل أن يتمادى متخذاً من الهواء حيزًا له , تاركًا إياها مشتتة , استفاقت على صوت الباب وهو يفتح ؛ لكنها لم تجده وكأنه تبخر مع حرارة الصيف , رمشت بعينيها تحاول استيعاب ماحدث وحرّكت عينيها في الأرجاء تتأكد من رحيله ثم جلست على أقرب كرسي فقد خارت قواها كثيرًا بعد ذلك اللقاء الحميمي المفاجئ , وضعت يدها على صدرها علّها تخفف ضجيجه , ذكرها عقلها بآخر جملة قالها ليعترض طريق العودة للجامعة , فمسحت فمها بظهر كفها تمسح قبلته الأخيرة وهي تصيح :
ـ أكرهك يا آدم ، أكررررررررهك ولن أعوووود.

لم تلحظ من وقفت على الباب تطالعها بغرابة بعدما تركت ريم تلعب على حصانها المتأرجح وهي تمسح فمها بعصبية وكأنها أكلت شيئًا للتو, قطبت حاجبيها سائلة :
ـ هل أنتِ بخير ؟

ـ لا ؛ لست بخير أبدًا ... قالتها أمنية وقامت من مكانها لتعود لما كانت تفعله لكنها خشيت السقوط لا سيما أنها مرتبكة كثيرًا , أمسكت القماشة تضغط عليها بقوة علّها تخفف توترها .

ـ أين آدم ؟ .. سألتها رغدة وهي تنظر لعينيها .

ـ غادر ... تابعت أمنية من بين فكيها المطبقين على غضبٍ جم : ولا أريد رؤيته مجددًا , لم يكن يجدر بأبي التآمر عليّ هكذا ، أم أنه نسي أنني ابنته ... أشارت بسبابتها على والدتها : حتى أنتِ يا أمي ، كان يفترض بكِ أن تكوني معنا بالغرفة .

ـ إنه زوجك يا حبيبتي ... استكملت رغدة لائمة : لقد تأخر لقاؤكما كثيرًا بسبب عندك، كفي عن ذلك وفكري بنفسك وابنتك .

ضربت أمنية الأرض بقدميها كما الأطفال مغتاظة من تعاطف الجميع معه , اتجهت لغرفتها وهي تقول :
ـ لن يفهمني في هذا البيت غير مازن .

ـ لأنه طائش مثلك يا فتاة .

أغلقت الباب على نفسها ثم رمت بنفسها على الفراش ودثرت نفسها من رأسها لأخمص قدميها بغطائها الخفيف , أغمضت عينيها تعود بعقلها لتلك المفاجأة التي بعثت التناقض داخل نفسها , لتفرح وتحزن , تحب وتكره ، داعبها الشوق على أوتار الحنين لتتذكر تلكما العينين لتعود لأسرهما مجددًا كما حدث أول مرة عندما أتى لخطبتها ... فينطق لسانها رغمًا عنها :
ـ أحب عينيك يا آدم ... تذكرت كفه وتلك الندبة الغريبة على ظهره فقالت :
ـ نسيت أن أسأله عنها ... أغمضت عينيها في جذل ثم تنهدت لدى تخيله لتحتضن وسادتها وهي تقول :
ـ أحبك ... لكنني لازلت أكرهك ... تتابعت ضحكاتها على تلك الكلمات الغريبة المتناقضة .. قاطعها صوت رنين الهاتف , لم ترد فقد كان عصي عليها ترك أسر مخيلتها لأجل رنين الهاتف , لكن المتصل كان عنيدًا كفاية لجعلها تتحرك .. وما إن أخذت الهاتف وجدته رقم غريب عليه لكنها تعرفه جيدًا ابتسمت ثم ردت .

ـ هل بإمكاني التحدث لأميرتي من فضلك ؟

ـ ألم تكن هنا منذ قليل ؟ ... تابعت ممتعضة : كف عن قول أميرتي .

ـ لكنك كذلك .

ـ ماذا تريد منيّ الآن ؟

زفر بضيق ثم رد :
ـ ما أريده عصي على الهاتف يا أمنيتي .

ابتسمت لكنها حاولت تغيير الموضوع قائلة :
ـ نسيت أن أسألك عن جرح يدك ؛ ما سببه ؟

ـ قطعة زجاج فتحته ... قالها فشهقت أمنية ... فناغشها :
ـ هل تخافين عليّ ؟.. لم ترد .

طالت ثرثتهما ماحية كل الجفاء بعدما ذاب الجليد الذي حاولت أمنية وضعه بينهما ، ومع ذلك كانت مقابلة واحدة ومهاتفة حميمية كافيتان لإعادة الوصل من جديد بعد توالي أيام صعبة خدشت بقسوتها القلوب غير عابئة بخضوعها للتقلب بين يدي الرحمن .

.....

تنشغل النفوس بكل ماتقدمه الحياة متناسين تمامًا وجود شخص مطلبه الوحيد هو أن يرسو على بر عوضًا على مكوثه معلق في بحر التيه .

تعلقت النجوم في أستار السماء؛ لتنادي القمر الذي لم يتوانى لتلبية النداء من أجل تزيين صفحة الكون في إبداع ربّاني ، لم يبق سوى عدة أيام على موعد زفاف رنا , رغم اقتراب ذلك الحدث؛ إلا أن أيمن تمكن من تهيئتها ليقلل توترها لذا تجاوزت الارتباك قليلاً ، ابتاعت كتب تفيدها بأمور الزفاف وماينبغي عليها الإحاطة به لتنمي وعيها ، كانت منشغلة بالقراءة على سريرها حتى تناهى لمسامعها صوت نهنهات آتية من الصالة ، أغلقت الكتاب ثم خرجت من غرفتها تبحث عن مصدر الصوت لتجد والدتها تبكي بحرقة على الأريكة في الصالة ، ركضت نحوها ثم سألتها بفزع: ـ ماذا حدث , أمي ؟

التفتت لها سعاد ثم عادت لنحيبها ... فربتت رنا على كتفها وقد غضنت جبينها متسائلة :
ـ أخبريني عما حدث .

ـ الكل يبحث عن أمره متناسيًا وجودي ... قالتها بنشيج .

ـ حاشا لله , أمي، ماهذا الكلام ؟

ـ ستتزوجين وتتركينني وكذلك شمس .

ـ لكننا لن نتركك .. لقد اتفقت مع أيمن على المجيء لكِ باستمرار وهو تفهم ذلك وشمس ستفعل ذلك أيضًا .

ـ لم أقصد ذلك ... تابعت وسط نحيبها : قصدت أمر طلاقي الذي يتحاشاه أبيكِ لأبقى كما أنا معلقة .

هزّت رنا رأسها متفهمة ثم قالت :
ـ سأتحدث مع أبي بالموضوع .

ـ هل سيجدي حديثك نفعًا أكثر من بوحي برغبتي في وجهه وإعراضي عنه ؟

خرجت شمس من غرفتها مرتدية بلوزة حمراء وبنطال جينز ضيق مع حجاب أحمر بالإضافة لمكياجها المتقن , كانت تتأكد من محتويات حقيبتها ثم أغلقتها و نظرت لهما قائلة :
ـ سأخرج مع رامي , هل .. نظرت لسعاد ثم للتلفاز المغلق لتقول : ظننتك تبكين مع أحد الأفلام القديمة .

لم يرد عليها أحد , فاقتربت منهما متابعة :
ـ ماذا يجري هنا ؟

نظرت رنا لعينيها قائلة :
ـ أمي تريد الطلاق وأبي رافض .

ـ لماذا ترفضين العودة يا أمي ؟ ... تابعت شمس بهدوء : سنتزوج أنا ورنا وستحتاجين من يكون معك بالبيت , كما أن أبي يريدك , حتى لو ظلمك بالماضي فقد استفاق أخيرًا .

ابتعلت سعاد غصتها ثم قالت وهي تطالعها بعينيها الحمراوين :
ـ ماذا لو جرعك رامي من نفس الكأس ؟

ازدردت شمس ريقها ثم مسدت جبهتها قائلة : يا ويله! ، سأحرقه حيًا ... تتابعت ضحكات رنا وكذا سعاد فقد أعجبتهما مزحة شمس كثيرًا ... جلست شمس على يد الأريكة ، ثم أحاطت أمها بذراعها متابعة :
ـ حسنًا .. أقنعتيني .

ـ وما الفائدة من إقناعك إذا كان صاحب الشأن رافض ؟ ... قالتها سعاد بقنوط .

رفعت شمس أحد حاجبيها بثقة و أشارت بيدها قائلة :
ـ سيتم طلاقك يا سوسو , من يعتمد عليّ لن يضيع أبدًا .

ـ حقاً ؟ ... قالتها سعاد وهي متعلقة بآخر أمل خرج من لسان ابنتها، أما رنا كانت رافعة حاجبيها بإعجاب من كلام شمس .

رفعت شمس إبهامها علامة الإعجاب لتضيف :
ـ تمني فقط يا سعاد و أنا أحقق ، سيطلقك الليلة وستسمعي كلمة الطلاق من فمه عبر الهاتف قبل أن تنامي ؛ لتنعمي بأحلام سعيدة .

ـ هل تمزحين يا بنت ؟

ـ أقسم لكِ سيحدث ، ولا تسأليني كيف ؟

تبادلا رنا وسعاد نظرات الريبة حول ماتخطط له شمس ثم عادا لها , قامت من مكانها ترتب هندامها ثم عادت غرفتها تجري اتصالا بسكرتيرة والدها لتأخذ منها رقم زوجة أبيها ومن ثم هاتفتها تخبرها بما حدث لتسهل المهمة أكثر , وها قد جنت ثمار ذلك فقد استشاطت المرأة غضبًا عندما علمت بمخطط رجب مقسمة بينها وبين نفسها على أن تريه النجوم في وضح النهار إن لم يرمِ على الأولى اليمين والليلة ، كانت تتحدث مع شمس بدبلوماسية لكن نبرتها وشت بغضبها الكامن .

أنهت المكالمة ثم نظرت لهيئتها بالمرآة , راضية تمامًا عن شكلها وهي تتمتم :
ـ دبلوماسية حقودة ؛ لكنها تعجبني كثيرًا فهي بالنهاية ذكية .

.....

وجود رجل عطوف في حياة المرأة يعلم جيدًا قدرها ليطوع قلبها باتجاهه , هو أثمن مايحدث في الحياة لتعلمنا أن الدنيا دائمًا و أبدًا ستكون بخير ....

داخل منزل كامل , انتهت جنى من اللعب ثم جلست على الأريكة حتى غلبها النعاس , فحملتها دينا لتسلمها لفراشها , سمعت صوت غلق الباب الخارجي .. خرجت لتجده عاد لتوه من المشفى , ابتسمت له ابتسامة دافئة لتردف :
ـ حمد لله على سلامتك , كامل .

ـ سلمكِ الله , حياتي .. قالها ثم اقترب منها وقبّل جبينها .

ران عليهما بعض الصمت قطعه كامل وهو ينظر لعينيها وقد فهم أن هناك ماتود قوله سألها :
ـ هاتِ لي ماعندك ، كلي آذان مصغية .

ابتسمت قائلة :
ـ لا أعلم إن كنت سأفاجئك أم لا ؟

ـ أثرتِ فضولي يا دينا ... تابع وهو يتفحص قسماتها متصنعاً الدهشة لأنه يعلم ماتمر به بخبرته الطبية :
ـ طالما أردتِ مفاجئتي فستكون ؛ لا تقلقي .

ردت بصوت خفيض وسط توترها :
ـ لقد ذهبت اليوم للطبيبة للتأكد من ...

ـ من ماذا ؟ ... قالها مبتسماً

انزوت ابتسامة خفيفة على طرف شفتيها لتقول :
ـ أنا حامل .

ـ مبارك حبيبتي... جذبها لحضنه بدفئ ثم تابع متصنعاً المفاجأة: إنها أجمل مفاجأة .

ـ ظننتك لن تتحمس لأنها المرة الثانية و..... وضع سبابته على فمها مقاطعًا إياها : ـ كل ما تعدينه مفاجأة؛ سيكون أجمل وأحب مفاجأة لقلبي يا حبيبتي ، ولو قررتي الإنجاب للمرة العاشرة ؛ يكفي أنهم بضعة منكِ .

ـ ومنك .. تابعت وقد ترقرقت الدموع في مقلتيها : أحبك كثيرًا يا كامل !

ـ وأنا أحبكِ أكثر يا قلب كامل وعمره وحياته ... لمعت في عقله فكرة ليقول : هيا بدلي ملابسك لتناول العشاء بالخارج .

ـ ماذا ؟! ... قالتها مندهشة

ـ أود الاحتفال بذلك الخبر السعيد ... قالها وهو يبتسم .

ـ وجنى ؟ ... تابعت وهي تشير على غرفتها : إنها نائمة بالداخل .

ـ لا تحملي همّها .. لوّح بهاتفه : سأتصل بسمر تأتي وتجلس هنا حتى نعود .

ـ ألن نضايقها هكذا ؟ .. قالتها والحرج يقطر من محياها .

ـ هل تمزحين معي ؟ .... تابع رافعًا أحد حاجبيه : ألا تعلمين قدرك عند عائلتي ؟

رفعت سبابتها قائلة بشقاوة :
ـ تقصد عائلتنا .

ـ طبعًا .. طبعًا .... قالها ثم مسح على هاتفه يطلب أخته بينما اتجهت دينا لغرفة النوم لتبديل ملابسها والنشوة تحيطها لتعلم أن الدنيا دائمًا وأبدًا ستكون بخير طالما فيها أمثال كامل .

.....

عندما تأتي اللحظة الحاسمة لتغيير الحياة للأفضل بعد معاناة قاسية مع الظروف العصيبة , فلا شيء يمكنه الرجوع بهمتنا للوراء.....

انتظر شروق الشمس بفارغ الصبر؛ ليقوم بما نوى فعله , هاتف العمال يخبرهم عن عنوانه بالضبط وخرج للشرفة يحتسي الشاي وهو يطالع الكون يرتدي ملابس صيفية بلون الشمس الذهبية , تنهد بحرارة عندما تذكرها وهي مرتدية منامتها لتبدو فاتنة .. تمتم بشغف :
ـ أيعقل أن البعد يضاعف حلاكِ هكذا ؟ هذا الأمر يسعدني ويزعجني في نفس الوقت .

دلف يتجول بأنحاء الشقة ينظر لكل شيء فقد قام بتفكيك كل القطع الخشبية الكبيرة مثل الخزانات والأسرّة ووضع الكتب والأشياء المهمة داخل علب كرتونية كبيرة , له يومان يقوم على هذا بمفرده دون إخبار أحد؛ لأنه يعلم رد فعل والدته ... قاطعه رنين الجوال يخبره بوصول العمال الموكلين بنقل الأثاث .

أخذت دواءها ثم جلست على الأريكة تتابع الحلقة المعادة لمسلسلها المدبلج حتى سمعت صوت الضجيج بالخارج على الدرج , كانت نور ترتب المنزل , اتجهت نحوها تسأل :
ـ أتسمعين ما أسمع ؟

هزّت زينب رأسها موافقة , فقالت نور :
ـ هناك أصوات رجال بالخارج غير آدم ...

أغلقت زينب التلفاز ثم قامت من مكانها وفتحت الباب لتقف متجهمة فاغرة فاها وهي ترى النازلين حاملين قطع أثاث آدم على مرأى ومسمع منه ؛ ليخرجوها عبر البوابة الكبيرة التي فُتحت على مصرعيها, عندما رآها آدم , أقبل نحوها مبتسمًا ثم قال :
ـ صباح الخير, أمي .

لم ترد وكأنها لا تسمع ... أشارت بسبابتها على العمال ثم نظرت لعينيه تسأله بدون كلام ، أشار لها آدم لتدخل ثم تبعها وأغلق الباب , ابتسم لها بحنو قائلاً :
ـ أنا أقوم على نقل الأثاث .

ـ ماذا ؟ ... قالتها وكادت تفقد وعيها فتسقط لولا أنه أسندها من ذراعيها ثم وجهها لأقرب كرسي وجلس على الآخر المجاور .

ـ هل أنتِ بخير ؟ ... تابع وهو يربت على ذراعها : هل أخذتِ دوائك ؟

انسال الدمع من عينيها رغمًا عنها لتقول :
ـ ستتركنا يا آدم ؟

ـ لا تقولي ذلك .... تابع وقد غضّن جبينه : سآتِ إليكم باستمرار , أمي .

قالت والصدمة بين قسماتها وكأنها لا تسمعه من الأساس :
ـ سأموت بدونك يا ولدي ...

ـ الشر بعيد عنكِ أمي ... عقد حاجبيه متأثرًا بكلامها :
ـ أرجوكِ .

ـ اهدأ! .. طالعته بنظراتها المكفهرة : ابني الوحيد سيغادر ويترك البيت وتطلب منّي الهدوء ؟

ـ لا حل غير ذلك يا أمي ... استكمل متوسلاً : ألا تودين رؤيتي سعيدًا ؟

أشارت بيديها على نفسها قائلة :
ـ وأنا ؟ ألم تفكر في قلبي الذي سينفطر بغيابك ؟

ـ حاشا لله,أمي ؛أنتِ نور عيني ... قام من مكانه ثم قبّل رأسها بحنو وهو يتوسلها : ـ بالله عليكِ , اهدأي ،أقسم لكِ أنني لن أتركك ؛ فروحي معلقة بكِ ودائمًا وأبدًا ، سأكون بجوارك بروحي قبل جسدي .

علا نحيب زينب وآدم يقبّل ويربت؛ لكن أنّى لها الهدوء وقد خسرت كل شيء فقد تم طلاق ابنتها، وهاهو ابنها الوحيد سيتركها ليعيش بعيدًا .. تذكرت أيامها الخالية وهي تتجرع ألوان العذاب من جابر وعندما تنفست الصعداء برحيله وزواج ابنها ؛ ليملأ البيت بعزوة من صلبه حتى حدثت تلك المصيبة ليخرج تاركًا البيت على عروشه مليء بالأحزان التي تأبى التقهقر أو الرحيل، أجفلت النظر لابنها مشوشة عقلها ينبض بآلام متفرقة والروح منهكة ؛ وكأنها تخرج من بين جنباتها على دفعات لتضاعف عذابها الذي بلغ أوجه مع ذلك الخبر المشؤوم، وكل ما آلمها أكثر هو تعلق آدم بأمنية على النحو الذي جعله يضحي بالبقاء معها بهذا الشكل الذي رأته مشين بخلاف طليق ابنتها الذي ترك نور ليعود بكنف والدته مع زوجته الجديدة ، وخزها الألم على ذكر تلك المفارقة المؤلمة وتقطعت أنفاسها ولا زالت الدموع تجري كالأنهار ، وآدم لا يعلم كيف يهدئ من روعها أو يخفف انهيارها الذي لم يراه من قبل ، هاله منظرها و شعر بالألم لأجلها لكنه لن يتزحزح قيد أنملة عما قرر المضي قدما بشأنه .

خرجت نور من مخدعها بعدما سمعت حوارهما ، اقتربت والحرج ينهشها وقد تجمعت عبرات معذبة في مقلتيها ، نظرت لزينب قائلة :
ـ آدم معه حق , أمي .. التفت لها آدم مشدوهًا، فقد كانت آخر من يتوقع وقوفها بجانبه ودعمه في هذا القرار , صدمته جعلته لم يتمكن من الرد فاقتربت منه ثم وقفت أمامه والتوتر قد تسلل عبر وجهها الذي نحف كثيرًا على إثر نحافة جسدها قالت :

ـ أتمنى لك السعادة ... قالتها لكن قلبها لايزال يضمر بعض الحقد لأمنية رغم أنها اتجهت لدروس الدين لضبط نفسها على معرفة الحلال والحرام فتتغير للأفضل مع ولديها ومن حولها ؛ لكن كره زوجة أخيها ظل الشيء الوحيد الذي لم تقوى على التخلص منه .

ـ أين ولديكِ ؟ .. سألها آدم .

ـ أخذهما أبوهما لقضاء يوم معه .

ـ ألا تودين الرجوع له يانور ؟ فقد شارفت فترة العدة على الانتهاء .

هزّت رأسها نافية , ثم قالت بثبات :
ـ لقد انتهى كل شيء , ولن أتحمل وجود ضرة لي .

هزّ آدم رأسه متفهمًا , ثم سألها :
ـ وماذا عن حاجتك للزوج ؟

رفعت ذقنها بشموخ قائلة :
ـ لا أحتاجه , معي ولداي سندي وعمري ؛ وتقول لي زوج !

ـ أسأل الله لي ولكِ صلاح الحال , أختي .. قالها آدم منهيًا الحوار ليجد والدته لاتزال مسترسلة في البكاء , فغضّن جبينه متوسلاً :
ـ كفى أمي , أرجوكِ .

.....

قد تقسو على المرأة ظنًا منك أن الأيام كفيلة بمحو الوجع من ذاكرتها , لكنك مخطىء ؛ لأن المرأة لا ولن تنسى مايضيرها .

كانت ترسم ملامحها بعناية فائقة أمام المرآة وهي تدندن بأغنيتها المفضلة بصوتٍ خفيض , لم تلحظ أنه استيقظ على إثر غنائها الهامس , طالعها وهي تضع أحمر الشفاة بطريقة مثيرة وتطبق شفتيها بهيام لتتأكد من تلونهما بإتقان , وبعد ذلك رفعت شعرها كذيل حصان وأخذت تنظر لنفسها نظرة جانبية لتعدل قميصها الحريري ثم أطلقت قبلة لنفسها عبر المرآة قائلة :
ـ ها أنا ذا .

ـ ومن يساميكِ يا سحر ؟ .... قالها وهو ينظر لها مرخيًا جفنيه وقد أسند رأسه على الوسادة .

استدارت موسعة عينيها رافعة حاجبيها لتقول :
ـ هل أيقظتك حبيبي ؟

ـ ومن ينام ومعه سحر ؟ ... قالها وغمز بعينه .

تتابعت ضحكاتها بتناغم , ثم اقتربت منه متخصرة , قالت :
ـ إذن لست نادم على أخذ إجازة ؟

ـ بالطبع لا .... تابع وهو يعتدل جالسًا : هل تمزحين معي ؟ إنه أفضل شيء قمت به يا حياتي .

وضعت يدها على صدرها قائلة :
ـ سأسقط مغشيًا عليّ من كلامك ، ولن تجد من يعد لك إفطار .

جذبها من ذراعها ثم احتضنها مناغشًا إياها وهو يدغدغها :
ـ لا أريد إفطار .

تتابعت ضحكاتها متوسلة إياه أن يكف عن دغدغتها هكذا ... فقال :
ـ لن أفعل قبل أن تعترفي لي عما أزعجك وقت غيابي .

ـ حسنًا، سأعترف بكل شيء ... ما إن قالتها حتى توقف لكنها صمتت لا تعلم من أين تبدأ , فحفذها قائلًا :
ـ أنا أسمعك .

ـ حدثت مشكلة لصديقتي طلبت على إثرها الطلاق ... تابعت وعلى قسماتها لمحة ارتباك : تأثرت بحكايتها كثيرًا وانتابني حزن لما أصابها .

ـ سحر ... هتف بها حسن وهو ينظر لعينيها متابعًا : ما قلته فقط جزء من الحقيقة.

صمتت مشيحة بوجهها الذي تعكر صفوة على أثر استعادة تلك الذكرى مجددًا , فأمسك ذقنها ليحرك وجهها فيكون في مواجهته ثم قال :
ـ هيا قولي .

زفرت بضيق وهي تتذكر حقيقة لها وقع مؤلم في نفسها , قالت :
ـ جال بخاطري ماحدثتني .... تنهدت متابعة : بشأنه بعد زواجنا عن علاقتك ب...و ...

ـ وماذا ؟

ابتلعت غصتها بصعوبة لتكمل :
ـ وأنت الآن وحدك بالغربة وقد طال غيابي وسيستمر حتى تتعافى أمي .

حرك رأسه في أسف مردفًا :
ـ يا إلهي! من قال أن النساء لا ينسين أبدًا لم يكذب .

نظرت لعينيه فلمحت نظرة حزن مخلوطة بعتاب لكنها لم ترد , فتابع :
ـ كيف أؤكد لكِ أنني لا أرى نساء غيرك في حياتي ، وخطيئتي حدثت لحظة ضعف لأنني بشر ولازال ذنبها يحرقني ، قلبك قاسي يا سحر .

هزّت رأسها نافية تنفي عن نفسها تلك التهمة لترد :
ـ قلبي ليس قاسي ؛ أنا فقط أغار عليك كثيرًا , وعلى قدر الحب تكون الغيرة .

ـ لكنك قلتِ أنك تجاوزتِ عن ذلك الأمر ؟

ـ وفعلت صدقني ؛ لكن مشكلة صديقتي هيجت كل شيء من جديد .

ـ لذلك انهرتِ عندما وصلت ؟

أومأت بنعم فضمّها لصدره وهو يربت على ظهرها قائلًا :
ـ لو تعلمي كم أحبك لن تظني بي سوء .

ـ أعلم ؛لكن غيابك يضعفني كثيرًا يا حسن .... أحكم أسره عليها قائلًا :
ـ لن أغيب عنك أبدًا .

ـ وعملك ؟ ومرض أمي ؟

ـ سآخذها تكمل علاجها هناك وستعيش معنا بالكويت .

تهللت أساريرها للحظة ثم كست الخيبة ملامحها من جديد لتقول :
ـ أظنها لن توافق .

ـ هذا إن أقنعها غيري .

هللت وهي تضحك :
ـ مرحى .

.....

السعادة دائمًا معطاءة , فحالما تأتي لأحد ما ستبحث عن غيره مما ينادي باسمها في لياليه المقفرة لتخبره أنها وُجدت لتربت على القلوب ...

داخل إحدى صالونات التجميل حيث كانت العروس تنظر لنفسها بالمرآة بعدما انتهت المزيّنة من وضع اللمسات الأخيرة لمكياجها الهادىء الذي تناسب تمامًا مع فستانها الرقيق وحجابها المحتشم , لمعت عيناها بالرضا وهي تطالع نفسها وتفكر فيه، هل سيعجبه شكلها هكذا ؟

كانت شمس تغني مع الأغاني بعدما انتهت هي الأخرى من زينتها , حالما نظرت لأختها أطلقت زغرودة اهتز المكان لصداها , نظرت المزيّنة صوبها وعلى محياها نظرات الإعجاب قائلة :

ـ اسم الله عليكِ , متمكنة من الزغرودة ؛ رغم أن هيئتك لا توحي أبدًا بذلك .

رقّصت شمس حاجبيها بفخر لترد :

ـ أنا متمكنة من كل شيء ...

ابتسمت لها رنا ثم بعثت لها قُبلة على الهواء , قالت :

ـ العقبى لكِ , أختي ؛ لكن حينها لن أزغرد لك ، تعلمين أنني فاشلة في ذلك .

غمزت شمس بمشاكسة :

ـ لا عليكِ يا صغيرة ؛ سأزغرد لنفسي.

كانت سعاد تتابع ذلك الحوار والدموع تنسال من عينيها , انتبهت لها رنا , فأقبلت نحوها وقد غضّنت جبينها راجية :

ـ لا تبكِ بالله عليكِ أمي ،سأبكي معك وسأبلل مساحيقي ولن أبدو جميلة في فرحي.

ـ أنتِ بدونها أجمل يارنا... قالتها سعاد .

ـ هكذا أنتِ دومًا يا سعاد تعشقين الدراما في كل الأوقات ... قالتها شمس ثم اتجهت لوالدتها تقبّل رأسها في حنو ثم همست في أذنها : لا تبكِ و إلا جعلت رجب يرجعك لعصمته فالعدة لم تنته بعد .

اتسعت عينا سعاد في هلع ثم رفعت كفيها قائلة :

ـ حسنًا .. حسنًا لن أبكِ ... قاالتها وكفكفت دموعها فضحكت شمس بصوتٍ عالٍ وقد شعرت ببعض الشفقة على أمها التي لازالت تصدق كل مايقال لها بكل سهولة .

ضيّقت رنا عينيها تسأل :
ـ ماذا قلت لها ياشمس ؟

ـ ألم أقل لكِ يا فتاة أنني متمكنة من كل شيء ؟ ... قالتها وهي ترقص أحد حاجبيها بشقاوة .

قاطعهما صوت سيادة التي دلفت الصالون بالزغاريد حتى وصلت للعروس فقالت : ـ الله أكبر.. ماشاء الله ولا قوة إلا بالله ، يحرسك ربي من العين يا أميرة البنات .

نظرت رنا للأرض وعلى ثغرها ابتسامة خجلى , اقتربت منها سيادة ثم احتضنتها والدموع انسالت رغمًا عنها .. كيف لا وهي تعانق عروس ابنها الكبير الذي لطالما حلمت باستقراره .

مطت شمس شفتيها وأشاحت بوجهها تتمتم :
ـ لقد انضمت للدراما المصرية فنانة أخرى ، يا له من ملل .

ـ هيا يا عروستنا ؛أيمن ينتظرك بالخارج ... قالتها سيادة ثم أمسكت بيد رنا للخروج وعلى إثرها خرجتا سعاد و شمس .. عندما رآها أيمن لمعت عيناه وكذا هي لكنها سرعان مانظرت للأرض والقلوب تتراقص على أوتار الشوق بلحن شجي يرنم الحب على دفعات تنطق بها العيون في جذل , اقترب ثم قبّل جبينها والبسمة على شفته ليهمس قرب أذنها :
ـ أحبك .

طالعتهما شمس بنظرات الإعجاب لتهمس :
ـ أووه يعجبني الحب في زمن الكلاسيكيات هذا ، يبدو أنك رومانسي ياشكري سرحان ... حاول رامي كتم ضحكاته فقد كان يقف بقربها وسمع ماقالته للتو , التفتت له مضيّقة عينيها , فقال :
ـ لم أسمع أي شيء صدقيني !

على الجانب الآخر حيث بيت جمال، انتهى الجميع من تجهيز أنفسهم للذهاب لقاعة زفاف أيمن والبهجة قد حاوطتهم باستثناء أمنية التي كانت روحها تتألم بشدة وقلبها يتمزق داخل غرفتها انتهت من ارتداء فستانها الواسع وحجابها الغامق ثم اتجهت للسرير تفترشه بجزع , فقد دارت السعادة بين الجميع باستثناءها لتظل مجروحة الفؤاد متروكة كالمعلقة , رضيت بشغف لحظي مع مقابلته له هنا لكنها بالنهاية ببيت أبيها , كانت تشعر وكأنها تختلس تلك اللحظات التي تبقى فيها بقربه ... ظلّت تتسائل :
ـ إلى متى ؟ هل سيطول وضعي هكذا ياربي ؟ لا أريد العودة لبيت حماتي ؟ ولا أريد ترك آدم

؛ لأنني أح.... تسللت العبرات عبر مقلتيها في حسرة ... لم تنتبه لمن كان واقفًا أمام الباب ينظر لها بحزن وشفقة ...

ـ أمنية... هتف بها جمال .

أشاحت بوجهها ريثما تمسح دمعاتها ثم ردت باقتضاب :
ـ لقد انتهيت وسأخرج معكم الآن .

ـ حسنًا ، نحن بانتظارك بالسيارة ... قالها وغادر رغم أنه يعلم جيدًا مابها ومدرك تمامًا لتلك الأفكار التي احتلت عقلها , قلبه أشار عليه ليقترب كي يربت ويعانق؛ لكن عقله أوصاه أن يتركها ليحاصرها الشوق فتنجح المهمة القادمة .

داخل السيارة كان الجميع يضحكون فقد استقلوا سيارة جمال ... رغم صراخ روحها والذي كان جليًا في عينيها الدامعة , حتى مازن نظر لعينيها وعلم مابها لكنه استكمل مزاحه ومرحه لريم , والدتها تجلس بجوارها في المقعد الخلفي للسيارة , كانت تضحك معهما وعندما تلتقي عيناها بعيني أمنية تربت على كتفها بحنو لتهمس:
ـ كل شيء سيكون على مايرام ، لا تقلقي حبيبتي .

نظرت للخارج من نافذة السيارة وعادت لنحيب روحها وهي تحدث نفسها :
ـ ألهذه الدرجة لا يشعر بي أحد ؟ ماذا حلّ بهم ؟ هل فرحتهم بابن عمتي أنستهم ابنتهم ؟ ... كانت دماءها تغلي بسبب تجاهلهم لما يحدث بداخلها .

وصلوا لقاعة الزفاف وترجلوا من السيارة , حمل مازن ريم التي ارتدت فستانًا ورديًا يشبه ذاك الذي تلبسه إحدى أميرات ديزني , سارت رغدة بجوار جمال والتفتت لأمنية تحثها على الإسراع لكنها أشارت بلا وظلّت تمشي الهوينا خلفهم حتى شعرت بخطوات تمضي خلفها , لم تعرها اهتمام حتى وصل إليها وأمسك كفها فانتفضت حواسها وسرى الفزع في جوارحها وشهقت لكنها لم يتركها بل شبّك أصابعه بأصابعها .

التفتت له ثم وضعت كفها الآخر على فمها تحاول استيعاب أنه هو , انسال الدمع من عينيها رغمًا عنها و ارتجفت شفتيها , طالعها بشغف محاولا امتصاص توترها ليحتضنها داخل عينيه الكحيلة .

توقف الجميع عندما لاحظوا ما يحدث بالخلف , فلوّح لهم آدم فتراجعوا ليسلموا عليه ، وما إن حدث حتى استأذنهم آدم :
ـ سننطلق إلى وجهتنا .

ـ في رعاية الله و أمنه ... قالها ثلاثتهم و أمنية تنظر للجميع بعدم استيعاب , تشعر أنها بإحدى المسرحيات الصامتة ولا أحد يوضح لها الحكاية .

ما إن اتجه الجميع للقاعة حتى عاد آدم لتشبيك أصابعه بأصابعها متجهين نحو السيارة ,وهي تسير معه كالمغيبة , عندما ركبت بجواره , التفتت له تطالعه بوجوم: ـ إلى أين ستأخذني ؟

ـ ستعلمين بعد قليل ... قالها وهو يدير المفتاح لينطلق .

تقافزت الأفكار لعقلها , أنه سيعيدها لوكر عائلته , سرى الرعب في قلبها على إثر ذلك رغم أن ما لاحظته مؤخرًا من تغييرات جذرية كفيل بإقناعها بالعودة لديارهم لكنها لن تنسى مالاقته بينهم ... كيف تتعايش مع جروح ستنفتق من جديد بمجرد مرآهم لتعيدها لذكريات تكرهها ؟

ظلّت صامتة طوال الطريق وكذا هو وقد طالت المسافة عن الوقت المعتاد كما أن الطريق مختلف , نظرت من خلف النافذة عاقدة مابين حاجبيها لتسأله :
ـ أين نحن ؟ وماهذه المنطقة ؟

ـ أليست جميلة ؟ ... قالها وهو يبتسم وبصره معلق بالطريق .

ـ بلى ؛ ولكنها ليست منطقتكم .

ـ أجل , إنها المنطقة الجديدة التي أعمل بالقرب منها حاليًا .

ـ حقًا ؟

أومأ بنعم .... فسألته :
ـ ولماذا جئت بي إلى هنا ؟

ـ الآن ستعرفين .. قالها وصف سيارته أمام إحدى البنايات التي تبدو أنها تم الانتهاء منها منذ فترة وجيزة .

ترجلت وأخذت تنظر حولها باستغراب , فابتسم لها ثم أمسك بيدها يحثها على السير معه , استقلا المصعد حتى الدور الرابع ثم ترجلا في الرواق بين الأبواب حتى وصلا لباب بعينه ...

فتحه آدم ثم قال :
ـ تفضلي .

نظرت له مستفهمة فقد نهشتها الحيرة لكنها أشار لها بيده لتدخل وما إن فعلت حتى اتسعت عيناها وهي تطالع قطع الأثاث التي لا تخطئها عيناها أبدًا , فشهقت
وهي تشير على الأرائك قائلة :
ـ إنها ...

هزّ رأسه موافقًا ثم أخذها في جولة بين الغرف وكلما انتقل لمكان أضاء مصباحه , شعرت بدوار خفيف فقد صدمها ما فعل لكنها صدمة جميلة ، ظل يتنقل بين الأرجاء ممسكًا بيدها يسألها :
ـ ما رأيك في هذا اللون ؟ وهذه التحف؟ هل أعجبتكِ المصابيح ؟ ... لم تكن مستوعبة مايحدث اتجهت للنافذة الكبيرة الموجودة بالصالة نظرت منها والعبرات تتساقط من عينيها من تلك المفاجأة التي لم تخطر على بالها , حدثها عقلها في تلك اللحظة : لذلك كان منهكًا عندما جائني .

اقترب منها حثيثًا وهي واقفة ، ثم حاوط خصرها بذراعيه وهو يتنهد بشوق , فمسدت كفيه بامتنان ولم تنطق فقد كانت الدموع لازالت تجري , همس قرب أذنها بصوته الأجش :
ـ اشتقت لكِ كثيرًا .

ـ وأنا ... قالتها بحشرجة فانتبه لبكائها فرفع كفيه لكتفيها يسألها بعتاب :
ـ لماذا البكاء الآن؟

ـ لأنني ... أحبك ... قالتها بشفتيها المرتجفتين , فمرر أصابعه على عينيها بدفء يمسح دمعاتها ثم ضمّها لصدره بقوة وهو يقول :
ـ أنا أحبك أكثر , أمنية .

تزايد بكائها داخل أسره الدافىء , فظنّها تذكرت ما مضى , فقال :
ـ آسف على كل ماحدث .

ظلّ يربت على ظهرها بحنو حتى هدأت , أبعدها قليلًا ثم حاوط رأسها بكفيه وظلّ ينظر لعينيها بشوق جعلها تبتسم ثم ترمش بعينيها في حياء لتسأل:
ـ هل كانت عائلتي على علم بكل مايحدث ؟

هزّ رأسه موافقًا , فتابعت :
ـ ليتنا أحضرنا ريم ... أشار بسبابته نافيًا :
ـ ليس وقتها أبدًا , كما أنها ستمرح بحفلهم كثيرًا ... سألت بخبث :
ـ ألن نذهب للحفل ؟ ... غمز لها قائلاً :
ـ كيف نذهب ولدينا حفل ؟ هل يعقل أن نترك حفلنا ؟

نظرت حولها مدّعية الغباء و قالت :
ـ أي حفل ؟

اتجه للمطبخ ثم أتى منه حاملاً كعكة , وضعها على المائدة ثم أشعل الشموع المجاورة لها بعدما أغلق المصابيح ؛ فتلون المكان بلون الرومانسية الهادئة , تلاقت أعينهما تحكي الكثير والكثير من الشوق الذي أضناهما خلال الفترة الماضية .

اتجه لدرج المكتبة , أخرج منه مفكرتها ثم قدمها لها مبتسمًا ليقول بصوتٍ أجش لكنه أقرب للهمس :
ـ هاهو جسرنا ؛ لكن مكانك أنتِ في القلب, أمنيتي .

رمشت بعينيها ثم التقطتها منه وقد انسالت بعض القطرات المتلألأة في ذاك الظلام الرومانسي تحتفي بكل شيء , فقد بدت الليلة مثالية لأبعد ما يمكن تخيله .

نظرت لعينيه بامتنان لكن دموعها انهمرت بغزارة رغمًا عنها , فاقترب منها ثم عانقها مجددًا يطلب منها أن ألا تبكِ ، ثم أشار عليها نحو المفكرة لتقول قصيدتها بصوتها الشجي فتكون أجمل أغنية لتلك الليلة العاطفية المثيرة .

فتحت المذكرة بأصابعها المرتعشة وقد تشوش فكرها قليلًا، لاسيما أنها تعلم جيدًا ما كتبته في نهايتها , فنظرت له تسأله إن كان جادًا فيما طلب ... فرمش بعينيه محفذًا إياها ثم قلّب بأصابعه عند الصفحة التي أعاد فيها كتابة القصيدة بخطّه .

استأنفت القراءة بصوتها الأنثوي العذب وقد انفصلت عن هذا العالم بين سطورها في عالم وردي ليس فيه سواهما , كان محتضنًا كتفيها بذراعه يستمع للكلمات التي تلحنها بصوتها الرقيق المميز .

بنيتُ على قلبى جسرًا يمر بين حناياك

لعل روحى تتسلل لتبحث عنّى هناك

أنا تلك الأمنية التى دومًا تهواك

أنا الكون برمته حين تزدان دنياك

فيهديك قلبًا بكرًا سكناه يداك

على أمل أن تأويه تحت سماك

ليسمع لحن أشواقٍ تغنت به شفتاك

لم أعهد الحب قبلك , فهلا جدت بهواك ؟

ألا ياسيدى تشعر بقلبٍ يهفو لرؤياك ؟

أما آن أن تلحظ حبًا يسرى بدماك ؟

قلبًا ينبض اسمك به الرب حباك

.....

صمتت لبرهة تحاول استيعاب أنه تمكن من كتابة الأبيات القادمة ليكمل القصيدة ، حثها على متابعة القراءة فواصلت لكن هذه المرة كانت أنفاسها تهدر مع كل حرف وقلبها يتراقص مع كل لحن تتفوه به مع الكلمات .

آن لي ياعمري أن أرتقِ على قلبك

والهوى طوع أمري ...

وفي القلب أمنية

آن لي بالعشق أرشف نبضه على مهلٍ

أحبك لكني لا أقوى على الكلمِ

فهل سترأفين بحالي ؟

وتعلميني كيف أنسج من الحب كلمات الغزل ؟

أما آن لنا بالوصل بين دفات الهنا ؟

وكيف سيكون الهوى بلا قصة حبنا ؟

وكيف أكون آدم بلا أمنيتي أنا ؟

.....

كانت تشهق وتنهنه مع كلماته التي لم تكن تتصور في عالم الأحلام أن يقدر على كتابتها ؛ لكنه فعلها لا تعلم إن كان تمكن من كتابتها وحده أو استعان بصديق لكن مجرد المحاولة جعلتها تعود للبكاء ثم ترتمي بحضنه وهي تقول :

ـ أحبك كثيراً يا آدم .. فأخذ يربت عليها وقد علم مفتاحها الذي كان غافلاً عنه وكذا هي علمت مفتاح شخصيته بعدما نحّت البرود جانبًا لتكون أمنيته المميزة .

تمت بحمد الله

.....

انتهت حكايتي لكن ربما كنت أيها القارئ بشكل أو بآخر جزءًا منها, أو حتى وجدت كينونة شخص تعرفه بداخلها ... أرجو أن تكون كلماتي أرشدتك لحل ما لمشكلتك أو مشكلة من تعرفه بعد تلقي كم كبير من متعة قراءة القصة مع قصائدي التي استقبلتك على أعتاب كل فصل...

إلى اللقاء بكم في الجسر الثاني (من عذب غديرك)

مع خالص تحياتي..

أمل بركات

علمية تعشق الأدب

.....